بسم الله الرحمن الرحيم

المـقـدمــة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾(٣).

أما بعد:

فإنَّ من القواعد المقرّرة، عند أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد وأصول الدين، تركَ المراء في الدين، والجدالَ المذمومَ في الشريعة، والوقوفَ مع النصوص حيث وقفت، وعدم تشقيق الكلام، فيما لم يرد فيه أَثَرَةٌ من كتاب أو سنّة، ونبذ الأقوال المحدثة التي

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٢).

(٢) سورة النساء آية (١).

(٣) سورة الأحزاب آية (٧٠).

أنتجتها المناهج الكلامية، والفلسفات المنطقية، والعقليات اليونانية، وإنما الاعتماد في مسائل الاعتقاد، على نصوص الوحيين لا غير.

ولذا فقد اعتنى السلف -رحمهم الله تعالى- بهذه المسألة العظيمة -ترك المراء في الدين- اعتناءً بالغاً، يتناسب مع خطورة المراء في الدين على عقائد المسلمين، وحذّروا منه، وبيّنوا ضرره وعواقبه، طفحت بذلك أقوالهم، وانتشرت في الكتب مقالاتهم، وأُثر ذلك من مواقفهم وأفعالهم، سواء أهل العلم والفقه في الدين، أو الولاة والسلاطين، حتى شُهِرَ ذلك عنهم واستفاض، على النقيض مما عليه أهل الأهواء والبدع، من كثرة الخصومات، واللَّدد في الجدال، والخوض والمراء في الدين، حتى تفرقوا عن سواء السبيل، وكان أمرهم فرطاً.

وهذا كلُّه إيماناً منهم -السلف الصالح- بخطورة المراء في الدين، حيث اتخذته الأمم المكذّبة لرسلهم عليهم السلام، ذريعةً توصّلوا بها إلى تكذيب أنبيائهم ورسلهم، والشغب عليهم، وجحد الحقِّ الذي لا سبيل إلى الشكِّ فيه، الأمر الذي تواطأت عليه الأمم، من لدن قوم نوح عليه السلام إلى أن دخل في هذه الأمة، أمة النبي محمد ﷺ، وكأنما تواصوا به، على امتداد القرون، واختلاف الأمم والشعوب، كما قال الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1]، وكلُّ أمّة تحذو حذو من تقدّمها في هذا المضمار، حتى كانت عاقبة أمرهم خسراً.

ولأجل ذلك، جاء التحذير من المراء في الدين، والخصومة فيه، والجدال المفضي إلى

---

(١) سورة غافر آية (٥).

التفرّق والضلال، فقد جاء عن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه، إلا أُوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[١]»[٢]، ومن هذا الحديث الشريف وغيره من النصوص من القرآن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، حمل السلف الصالح مسؤولية التحذير من المراء في الدين، وبيان أثره في الأمة، حتى تكون العصمة -بإذن الله تعالى- من الضلال المنوّه به في الحديث.

قال الإمام الشافعي: «المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغائن»[٣].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاهتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل»[٤].

---

(١) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الزخرف، (٣٢٥٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، وابن ماجه، كتاب السنة، باب اجتناب البدع والجدل، (٤٨)، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، والإمام أحمد، في مسند أبي أمامة الباهلي، (٢٢١٦٤)، ٣٦/ ٤٩٣، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ، وصححه الحاكم في مستدركه ووافقه الذهبي. ينظر: المستدرك على الصحيحين، (٣٦٧٤)، ٢/ ٤٨٦، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

(٣) نقله البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٣٥٤، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٤) ينظر: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي ١/ ١٧٦، تحقيق الدكتور أحمد بن سعد الغامدي، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية=

وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد(١)، يكره المراء في الدين والجدال، ويقول: «إنه لخليق ألا ينتج خيراً»(٢).

والمراء في الدين، كان سبباً رئيساً في خروج أهل البدع عن زمرة أهل السنة والجماعة، والشذوذ عما كان عليه السلف الصالح، حتى وقعوا في الضلال، من جراء المراء والجدال، وقد سبقهم في ذلك الأمم الغابرة، ومن تقدّم من أصحاب الديانات والملل السابقة، حيث اتخذوا من جدالهم ومرائهم لأنبيائهم، وسيلةً قريبةً لردِّ الحقِّ البيّن، وترك ما لا يستطيعون دفعه بحجّة ولا برهان.

ولذا اشتدَّ نكير السلف الصالح، على من سلك تلك السبيل، وحذروا أشدَّ التحذير، وبيّنوا أوضح البيان، من سوء مغبّة المراء في الدين.

وكلام أهل السنة والجماعة في تقرير هذه القاعدة -ترك المراء في الدين- وبيانها، كثير جداً، غير أنه مبثوثٌ في تفاريق الكتب، وبطون المؤلفات، ولم يفرد هذا الموضوع -على أهميته- بمؤلف مختصٍّ، جامع لشتات مسائله، وبيان دلائله.

ولذا وجدت الفرصة سانحةً؛ للتحليق في سماء هذا البحث، واقتناص ما سنح وما برح من فوائده ومسائله، ووضعها في شِبَاك هذه الرسالة، ليُقدّمَ صيداً ثميناً، سائغاً

=الطبعة الثامنة ١٤٢٤هـ.

(١) الخليفة العباسي هارون بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد السفاح العباسي المطلبي _ ولد عام ١٤٨هـ، وتوفي عام ١٩٣هـ _ . ينظر: (البداية والنهاية، لابن كثير ١٤/٢٦، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ).

(٢) ينظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ١٦/١١، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

للقارئين، والقصد منه: جمع أصول مسائل هذا الباب، والاكتفاء منها بالجوهر واللّباب، حاشا الفروع والمسائل العقدية، التي وقع فيها المراء، ولذا أحببت أن يكون موضوع رسالة درجة الماجستير:

المـــــراء فـي الـــــــديـــن

دراسـة عقـدية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

لهذا الموضوع أهميته التي دعتني إلى البحث فيه، وأسباب شجعتني على اختياره، ومنها ما يلي:

١. التحذير الوارد في القرآن الكريم، والسنة النبوية، من المراء في الدين، وما تواتر عن السلف في ذلك.
٢. أنَّ المراء في الدين، له جذوره في الأمم والأديان السابقة، ثم انتقل إلى بعض المسلمين، وكان له الآثار المعلومة، على كثير من مسائل الاعتقاد، وهذا يستدعي القيام بدراسة تبين جذوره وامتداده، حتى يتسنّى الحذر منه.
٣. أنَّ إفراد هذا الموضوع بدراسة مستقلة، فيه تقرير لقاعدة من قواعد أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد، وبيان وشرح لها -ترك الخصومات والمراء في الدين- الأمر الذي يسهم في تعزيز وترسيخ منهج السلف الصالح في مسائل الاعتقاد.
٤. أنَّ مسائل هذا الموضوع ما زالت متفرقة في مختلف المصنفات، ومتشعبة

بأنواع المؤلفات، فجمعها في مؤلّفٍ مستقلٍّ، يسهم في إضافة جديد للمكتبة الإسلامية -هي في نظري- بحاجة إليها.

٥. خطورة المراء في الدين، على عقائد المسلمين، الأمر الذي يحتّم دراسة هذا الموضوع، دراسةً يتبين من خلالها طرق الوقاية منه.

أهداف البحث، وصعوباته.

١. تحديد مفهوم المراء في الدين، والمصطلحات ذات الصلة به.

٢. بيان كيفية اتخاذ الأمم وأصحاب الديانات السابقة، المراءَ في الدين، وسيلةً لتكذيب الرسل، وردِّ الحقِّ الذي ظهر لهم بأدّلته وبراهينه.

٣. بيان كيفية انتقال المراء في الدين إلى المسلمين، وكيف نشأ بينهم؟.

٤. جمع ما ورد في الكتاب والسنة، من التحذير من المراء في الدين

٥. إبراز جهود أهل السنة والجماعة في تقرير تلك القاعدة العظيمة -ترك المراء في الدين-.

٦. معرفة أبرز أنواع المراء في الدين، وأسبابه.

٧. بيان آثار المرء في الدين، وسبل الوقاية منه.

أما من حيث صعوبات البحث، فذلك يتلخّص في كونه بحثاً لم يطرق من قبل على هذا النحو، ولم يفرد بالتأليف والجمع والدراسة، وفي ذلك من الصعوبة ما هو معلوم، وتكمن صعوبة البحث، من حيث جمع مسائله واستقرائها، وترتيبها، وإلحاق النظير بنظيره، وذلك مع قلّة البضاعة، وكلال القوى، وتفرق الهمِّ، وأحسب أنَّ هذا البحث لا يعدو أن يكون بوابةً لمزيدٍ من الدراسات والبحوث، وفتح المجال على موضوعاتٍ هي بحاجة ماسّة إلى تثوير مسائلها، واستقصاء حقائقها.

الدراسات السابقة.

من خلال البحث عبر قاعدة المعلومات للرسائل الجامعية، بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وسؤال الأساتذة والمختصين، تبين أنَّ الموضوع لم يبحث على الوجه الذي أريد العمل فيه، وما زالت مسائله وأبحاثه، بحاجة إلى جمع وتأليف، ولمِّ شمل، وإلحاق النظير بشبيه، بحسن عرض وترتيب.

وهناك رسائل تناولت شيئاً من بعض أبحاث الموضوع، من طرف خفيٍّ، وهي على النحو التالي:

١. رسالة ماجستير، بعنوان: أسباب الوقوع في البدع، دراسة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، للباحث الدكتور سعود بن سعد العتيبي، ذكر الباحث في الرسالة مبحثاً واحداً، من أسباب الوقوع في البدع، وهو المراء في الدين، وهو بحث مجمل.

٢. رسالة دكتوراه، بعنوان: مناهج الجدل في القرآن الكريم، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، وهو بحث متخصص في الجدل في القرآن الكريم، وبيانه أنواعه ومسائله وميزاته.

٣. رسالة دكتوراه، بعنوان: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، للدكتور عثمان بن علي حسن، والرسالة تتعلق ببيان مشروعية الجدل والمناظرة، لإقامة الحق والذود عنه، وكيفية استخدام الجدل والمناظرة لتقرير مسائل الاعتقاد، وبيان قواعد

الجدل والمناظرة وآدابها، وذكر نماذج من المناظرات، وعناية أهل السنة والجماعة بهذا المنهج؛ لتقرير مسائل الاعتقاد، وهذا البحث مختص بتقرير مسائل العقيدة من حيث استعمال أسلوب الجدل والمناظرة.

٤. وهناك بحث بعنوان: المراء في الدين، للدكتور محمد بن عبد العزيز العلي، في نحو اثنين وثمانين صفحة، وهو بحث مجمل.

٥. ونحو ذلك كتاب بعنوان الجدل والمناظرة، لمحمد عثمان.

وعمل الباحث يتناول موضوع المراء في الدين، الذي وقع قديماً عند أصحاب الملل والديانات السابقة، حتى انتقل إلى طوائف أهل القبلة، على وجه أدَّى إلى البعد عن الحق، والخروج عن الأهداف المشروعة من الجدل.

منهج البحث.

سأسلك -بمشيئة الله تعالى- في جمع مسائل البحث وفصوله، المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي، وذلك وفق ما يلي:

١. جمع المسائل المتعلقة بالموضوع، وفق نصوص الكتب والسنة وأقوال أهل العلم، مع إيراد شبه المخالفين -إن وجدت- ومناقشتها، وفق منهج أهل السنة والجماعة.

٢. عزو الآيات بذكر السورة، ورقم الآية، على الرسم العثماني.

٣. تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، فإني أخرّج الحديث بالعزو إليهما، بدأً بذكر الكتاب ثم الباب، ثم رقم الحديث بين قوسين، وإن كان الحديث في غيرهما، فإني أخرّج الحديث بذكر مصادره من كتب السنة المعتمدة، وأنقل قولاً من أقوال

أهل العلم في بيان درجته، والأحاديث الموضوعة، والضعيفة ضعفاً لا ينجبر، فقد ضربت عنها صفحاً، ولم أذكر منها شيئاً.

٤. ترجمة الأعلام غير المشهورين.

٥. التعريف بالبلدان، والفرق، وشرح الغريب من الألفاظ.

٦. عزو الأشعار إلى قائليها.

٧. توثيق المادة العلمية، من مصادرها الأصلية، حسب طرائق البحث، بذكر المصدر ورقم الجزء والصفحة، وأذكر بيانات المصدر كاملةً عند أول العزو إليه، فإذا نقلت النصَّ بحروفه، جعلته بين قوسين، وإذا كان النقل بتصرف، أشرت إلى ذلك في الحاشية، وإذا كان النقل بالمعنى، أشرت إلى ذلك في الحاشية بعبارة: ينظر.

٨. في تخريج الأحاديث وترجمة الأعلام والتعريف بالفرق والبلدان وشرح الغريب من الكلمات، فإن منهجي ذكر ذلك في أول ورودٍ له فقط، تجنباً للتكرار.

٩. ربط مباحث الرسالة بالواقع المعاصر.

١٠. عمل فهارس للبحث، وذلك وفق ما يلي:

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس الأشعار.

- فهرس الأماكن.
- فهرس الفرق.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس موضوعات البحث.

هذا وقد اشتمل البحث على مقدمة وستة فصول وخاتمة، وقد اتبعت الخطة التالية:

خطة البحث.

المقدمة: وتشتمل على ما يلي: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه: التسليم للنصوص الشرعية.

الفصل الأول:

مفهوم المراء في الدين والألفاظ ذات الصلة به.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم المراء في الدين باعتباره مفرداً ومركباً.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم المراء ومفهوم الدين باعتبار الإفراد.

المطلب الثاني: مفهوم المراء في الدين باعتبار التركيب.

المبحث الثاني: الألفاظ المشابهة للمراء، والفروق بينها.

الفصل الثاني:

المـراء في الدين عند أصحاب الديانات والملل والفلاسفة والمناطـقة

وانتقال ذلك إلى المسلمين.

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: المراء في الدين عند أصحاب الديانات والملل قبل أهل الكتاب.

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول: قوم نوح مع نوح عليه السلام.

المطلب الثاني: قوم عاد مع هود عليه السلام.

المطلب الثالث: قوم ثمود مع صالح عليه السلام.

المطلب الرابع: قوم شعيب مع شعيب عليه السلام.

المطلب الخامس: قوم إبراهيم مع إبراهيم عليه السلام.

المطلب السادس: قوم لوط مع لوط عليه السلام.

المطلب السابع: الأمم الغابرة مع أنبيائهم ممن لم تذكر قصصهم في القرآن.

المبحث الثاني: المراء في الدين عند اليهود.

و فيه مطلبان:

المطلب الأول: مراؤهم مع موسى عليه السلام.

المطلب الثاني: مراؤهم مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الثالث: المراء في الدين عند النصارى.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مراؤهم في عيسى وأمّه عليهما السلام.

المطلب الثاني: مراؤهم مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الرابع: مراء المشركين مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الخامس: المراء عند الفلاسفة والمناطقة.

المبحث السادس: انتقال المراء في الدين إلى المسلمين.

الفصل الثالث:

المراء في الدين في ضوء القرآن الكريم و السنة النبوية و جهود السلف في التحذير منه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ما جاء في القرآن من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

المبحث الثاني: ما جاء في السنّة النبويّة من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

المبحث الثالث: جهود السلف في التحذير من المراء في الدين.

الفصل الرابع:

أنواع المراء في الدين.

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: المراء في الله عزَّوجلَّ وتوحيده.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المراء في ذات الله تعالى.

المطلب الثاني: المراء في أفعال الله تعالى وأسمائه وصفاته.

المطلب الثالث: المراء في توحيد الله تعالى.

المبحث الثاني: المراء في القرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المراء في القرآن الكريم، والخوض في متشابهه.

المطلب الثاني: التنازع في أحكام القرآن الكريم ومعانيه.

المبحث الثالث: المراء في السنّة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ردّ السنّة اكتفاءً بالقران.

المطلب الثاني: المراء في حجيّة أحاديث الآحاد.

المبحث الرابع: المراء في الحقّ بعد ما تبيّن.

المبحث الخامس: المراء فيما لا سبيل إلى العلم به.

المبحث السادس: المراء بالسؤال عمّا نُهي عنه شرعا.

الفصل الخامس:

أسباب المراء في الدين و آثاره.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أسباب المراء في الدين.

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الخلل في منهج التلقي.

المطلب الثاني: التأثّر بالمذاهب والأفكار المنحرفة.

المطلب الثالث: ظهور البدع والافتراق.

المطلب الرابع: اتباع الهوى وحب الشهرة.

المطلب الخامس: الحميّة الجاهلية، والتعصب المقيت.

المطلب السادس: محاولة دحض الحق وإبطاله.

المطلب السابع: إدخال المنطق والفلسفة في علم العقيدة.

المطلب الثامن: الجهل بالدين ولغة العرب.

المبحث الثاني: آثار المراء في الدين.

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الوقوع في الوعيد الشديد، والتعرّض لمقت الله تعالى.

المطلب الثاني: ردّ الحق وإنكاره.

المطلب الثالث: الوقوع في ذريعة الكفر، والتشبه بالكفار.

المطلب الرابع: التقليل من مكانة القران والسنة، وتحكيم العقل على نصوصهما.

المطلب الخامس: مخالفة منهج أهل السنة والجماعة.

المطلب السادس: فساد القلوب وقسوتها، وإضاعة الوقت فيما لافائدة منه.

المطلب السابع: التكذيب ببعض النصوص وإثارة الشبه والاضطراب في الدين.

المطلب الثامن: إذكاء العداوة والبغضاء بين المسلمين، والوقوع في التكفير والاقتتال.

الفصل السادس:

سبل الوقاية من المراء في الدين.

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى، والاجتهاد في العبادة.

المبحث الثاني: اتباع منهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال.

المبحث الثالث: تعظيم نصوص الكتاب والسنة.

المبحث الرابع: اجتناب كتب أهل البدع والأهواء ومخالطتهم.

المبحث الخامس: التفقه في الدين ومعرفة السنن والتحلّي بالأخلاق الكريمة،

والصفات القويمة.

المبحث السادس: عدم الخوض في مسائل الاعتقاد، والوقوف على ما ورد في الشرع.

المبحث السابع: مراعاة مقاصد الشريعة، في اجتماع الأمة.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج.

الفهارس.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الله تعالى بالشكر العظيم على ما يسّر وهيأ، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، كما أتوجه بالشكر والدعاء لوالديَّ الكريمين، ثم أتوجه بالشكر الجزيل لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ممثلةً في كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، على منحي هذه الفرصة الكريمة لإعداد رسالتي هذه.

وأتوجه بالشكر الجزيل للمشرف على هذا البحث، فضيلة الدكتور/ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد المحسن التركي، الذي لم يبخل عليَّ بنصحه، وتوجيهاته المنهجية، وملحوظاته الموضوعية، والشكر موصولٌ لفضيلة الأساتذة المناقشين.

ولا يفوتني أن أشكر كلَّ من أعانني في بحثي من مشايخي وأساتذتي الأجلاء، وأخصُّ بالشكر الجزيل فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد العزيز العلي، على جهوده الكريمة، وتوجيهاته السديدة.

وأسأل الله العليَّ القدير، أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يبارك في الجهود ويسدد الخطا، إنه على كل شيء قدير.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

تـــمهيـــد

التســـليم للنصـــوص الشـــرعية.

إن الركيزة الأساسية في الدين، التي تقوم عليه دعائمه، وتستقيم عليه أصوله، وتنضبط معه فروعه، هي الإسلام، الذي يحمل في مبانيه معاني الاستسلام التّام، والتسليم المطلق، لما جاء في نصوص الكتاب والسنّة، وكفِّ العقل أن يلج فيما ليس له إليه سبيل، أو يخوض في عُباب بحرٍ لجيٍّ، لتلقي به أمواج الحيرة والاضطراب، إلى أعماق الشكِّ والارتياب، ثمَّ يريد أن يخرج منها، وما هو بخارج.

وإذا بحث عن مرفأ الأمان، فلن يجده إلا في شواطئ التسليم والإذعان، وهذا المعنى العظيم -التسليم للنصوص الشرع- إذا غُرس في النفوس، وأُشرِب في القلوب، وتمرّنت عليه العقول، فإنه ينعكس على حياة البشر، بالإذعان والقبول لما يأتي من قِبل الشرع، والتسليم لما تحار فيه العقول، ولا تدركه كنهه وحقيقته، إذ هي لا تحتمل قواها ثقل حقيقة معاني الوحيِّ الإلهيِّ، والغيبيات التي استأثر الله تعالى بعلمها؛ لحكمة الابتلاء بالإيمان بالغيب.

فليس للمراء في الدين حينئذٍ، أن يعبث أو يتطاول بالتمحّل والجدال بـ -لِمَ وكيف- وأضرابها من الألفاظ والأسئلة التي نُهي عنها في الشرع، ولا سيّما ما يتصل بالإيمان بالغيب والعقائد، حيث لا يستقيم معها إلا الإيمان والتسليم.

وإذا تُنكّبتْ هذه الطريق، وقع الخوض والمراء والجدال فيما لا يجوز فيه ذلك، لينتهي واقع الحال إلى حمئة الفراق، فيما يجب فيه الوفاق.

وإذا سلك الإنسان تلك السبيل، فإنَّ أمامه سدّاً منيعاً بقول النبيّ محمد ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١)، وهذا المعنى الكريم، لمّا فهمه الصحابة حقَّ فهمه، لم تكن عندهم هذه الاختلافات في الدين، التي نشأت في الخُلُوف والقرون المتأخّرة، وخاصّةً ما كان من قـبيل أصول الإيمان والاعتقاد، وإذا تأملنا في دواعـيها، وجدنا أنَّ من أسبابها: ضـعف أو انعدام التسليم للنصوص الكتاب والسنة، ليحلَّ مكان ذلك الخوض والمراء والجدال المذموم، في قضايا الاعتقاد وأصول الدين، التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تستقّل العقول بمعرفتها وإدراكها؛ ولأجل ذلك حذّرنا النبيُّ محمد ﷺ من سوء مغبّة ذلك بقوله: «ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه، إلا أُوتـوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآيـة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٢)»، «والمعنى: ما كان وقوعهم في الضلالة إلا بسبب الجدال، وهو الخصام بالباطل، وضرب الحق به، وضرب الحق بعضه ببعض، بإبداء التعارض والتدافع والتنافي بينهما»(٣)، ومن هنا تدخل البلايا على الإنسان في عقيدته حتى يصبح مضطرباً لا تكاد عقيدته تستوي على صراط التسليم والقبول.

وأما إذا كانت نصوص الشرع غرضاً لمرمى الشبهات والسؤآلات المنهيّ عنها، أو

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه مسلم، وهذا لفظه، في كتاب الحجِّ، باب فرض الحج مرّة في العمر، (١٣٣٧)، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، والبخاري بلفظ: ((دعوني ما تركتكم)) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، (٧٢٨٨)، دار السلام، الرياض الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

(٢) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للعلامة أبي الحسن المباركفوري ١/ ٢٨٤، الناشر إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند، الطبعة،الثالثة ١٤٠٤هـ.

كان العقل حاكماً على النقل، فمتى تستقيم العقيدة إذاً؟ وما أحسن ما قال ابن أبي العزِّ الحنفي(١) شارحاً كلام الطحاوي(٢) في عقيدته: «وقوله: "فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ وردَّ عِلم ما اشتبه إلى عالمه" أي: سلَّم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشكوك والشّبه والتأويلات الفاسدة، أو يقول: العقل يشهد بضدِّ ما دلَّ عليه النقل! والعقل أصل النقل، فإذا عارضه، قدمّنا العقل!»(٣).

وعلى ما تقدّم، فالتسليم للكتاب والسنّة هو أصل الإيمان، ومرفأ الأمان، من الحيرة ووساوس الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(٤)، وبالتأمّل في هذه الآية الكريمة، والنظر في مدلولها، نعلم من خلالها عِظمَ شأن التسليم للنصوص في الشرع، حيث أقسم الله ﷻ بعدم إيمان من لم يردَّ المُتنازَعَ فيه إلى الرسول ﷺ، وممّا يؤكد ذلك، أنَّ الأمر بالتسليم جاء على وجه الخبر، عدولاً به عن طريق الإنشاء، وهذا عند

---

(١) هو عليُّ بن عليٍّ بن محمد بن أبي العزّ الحنفي الدمشقي _ ولد عام ٧٣١هـ، وتوفي عام ٧٩٢هـ _ فقيه، من تصانيفه شرح العقيدة الطحاوية. ينظر: (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر ٣/ ٨٧، دار الجيل، بيروت، سنة الطبع ١٤١٤هـ، وشذرات الذهب، لابن العماد الدمشقي ٩/ ٥٥٧، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ).

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي _ ولد عام ٢٣٩هـ، وتوفي عام ٣٢١هـ _ فقيهٌ حنفي انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، وله من المصنفات: شرح معاني الآثار، ومشكل الآثار. ينظر: (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان ١/ ٧١، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، وطبقات الحفاظ، للسيوطي، ص ٣٣٧، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٢٧، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة ١٤١٧هـ.

(٤) سورة النساء آية (٦٥).

علماء البلاغة أقوى في الأمر من الإنشاء الطلبي، ثم جاء ذلك أيضاً بتأكيده، بعدم وجود الحرج في النفس مما قضى الله ورسوله ﷺ، ثم جاء أيضاً على وجه المصدر المؤكد لعامله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[١].

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢]، قال ابن القيم: «فقطع التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم»[٣].

ومما وصف الله ﷻ به عباد الرحمن، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[٤]، والمعنى: أنهم «لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها، وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥]، يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية،

(١) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحيي الدين الدرويش ٢/ ٥٢، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة التاسعة ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة الأحزاب آية (٣٦).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم ١/ ٣٨، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ

(٤) سورة الفرقان آية: (٧٣).

(٥) سورة السجدة آية :(١٥).

فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً»[١].

وهذه النصوص وغيرها، أصلٌ في ترك الاعتراض على ما جاء عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، إذ الواجب هو القبول والإذعان، لا المماحلة بالجدال والمراء، والتماس المخارج تمرّداً على أحكام الشرع، كما هو صنيع أهل البدع والأهواء، وقبلهم المكذّبون للرسل حيث عارضوهم وجادلوهم بالباطل، يصدّون عن سبيل الله ﷻ ويبغونها عوجاً، حتى ظهر أمر الله ﷻ وهم كارهون، فمثلُ أولئك المُمارين بجدالهم في الدين، كمثلِ من يزاحم الجبال الرواسي، بكثيب مهيل، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعدي ٣/ ١٢٠٩، تحقيق سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة الإسراء آية (٨١).

الفصل الأول

مفهوم المراء في الدين والألفاظ ذات الصلة به.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم المراء في الدين باعتباره مفرداً ومركباً.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم المراء ومفهوم الدين باعتبار الإفراد.

المطلب الثاني: مفهوم المراء في الدين باعتبار التركيب.

المبحث الثاني:الألفاظ المشابهة للمراء في الدين، والفروق بينها.

المبحث الأول: مفهوم المراء في الدين باعتباره مفرداً ومركباً.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم المراء، ومفهوم الدين باعتبار الإفراد.

- مفهوم المراء.

للمراء من حيث اللغة مفاهيم متعددة، وذلك على ضوء ما جاء في المعاجم وكتب اللغة، وعندما نستعرض ما دوّنه علماء اللغة في المراء، نجد أنَّ له دلالاتٍ ومعاني متعددة.

ومن الجدير في الأمر، معرفةُ أصلِ اشتقاقِ هذه الكلمة حتى تتجلّى معانيها، وتتضح اشتقاقاتها.

فأصل مادّة المراء، مشتقة من الفعل" مرا "الذي يدلُّ على استدرار الضرع بالحَلْب، مأخوذٌ من مري ضرع الناقة إذا حُلبت، كما قال ابن منظور(١): «المري: مسح ضرع الناقة لتدرَّ، مرى الناقة مرياً، مسح ضرعها للدّرّة، والاسم المرية، وأمرّت هي درَّ لبنها وهي المرية»(٢).

---

(١) هو محمد بن مكرم بن عليّ، أبو الفضل الأنصاري _ ولد عام ٦٣٠، وتوفي عام ٧١١هـ _ لغويٌّ حجّةٌ، من تصانيفه لسان العرب، ومختار الأغاني، ومختصر تاريخ ابن عساكر. ينظر: (فوات الوفيات٤/ ٣٩، لمحمد بن شاكر الكتبي، إشراف د. إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، والدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢، والأعلام، لخير الدين الزركلي ٧/ ١٠٨، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م).

(٢) لسان العرب ١٥/ ٢٧٦، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

ومن هذا قولهم: الريح تمري السحاب، وتمتريه: تستخرجه وتستدّره، ومَرَت الريح السحابَ: إذا أنزلت منه المطر، ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري، بسوط أو غيره، ويقال أيضاً: مَرَى الفرس مَرْياً، إذا جعل يمسح الأرض بيده أو رجله، ويَجرّها من كسرٍ أو ظلعٍ[1].

وقال ابن فارس[2]-محققاً هذا الأصل-: «الميم والراء والحرف المعتل، أصلان صحيحان، يدّل أحدهما على مسح شيء واستدرار، والآخر على صلابة في شيء.

فالأول: المري، مري الناقة، وذلك إذا مسحت للحلب، يقال: مريتها أمريها مرياً، ومما يشبه بهذا: مري الفرس بيده إذا حركها على الأرض كالعابث، وكأنه يشبه بمن يمري الضرع بيده.

والمرايا: العروق التي تمتلىء وتدرُّ باللبن، قال ابن دريد[3]: مرية الناقة أن تستدرَّ بالمري، بضم الميم هي الفصيحة، وقد يقال بالكسر.

والأصل الآخر: المرو جمع مروة، وهي حجارة تبرق، قال:

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي ٣٩/ ٥٢٢، طبعة التراث العربي، الكويت، تحقيق عبد المجيد قطامش، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، وتهذيب اللغة، للأزهري ١٥/ ٢٠٣، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني أبو الحسين _ ولد عام ٣٢٩هـ، وتوفي عام ٣٩٥هـ _ من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: معجم مقاييس اللغة، واللامات. ينظر: (وفيات الأعيان١/ ١١٨، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٠٣، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ).

(٣) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي _ ولد عام ٢٢٣هـ، وتوفي عام ٣٢١هـ _ إمام في اللغة والأدب والشعر، من تصانيفه: كتاب الاشتقاق، والجمهرة، والمقصورة الدريدية. ينظر: (وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٦).

حتى كأني للحوادث مروة

بصفا المشرق كل حين تقرع[١]»[٢].

ومن هنا نعلم أنَّ للمراء من حيث اللغة أصلين:

- أحدهما: استدرار الشيء واستحلابه.
- والآخر: الصلابة والشدّة ، ومنه قيل للحجارة البيضاء الصلبة: المروة، و«المرو: حجارة بيض برَّاقة تقدح منها النار، الواحدة مروة، وبها سميت المروة بمكة، ومراه حقّه جحـــده، وقرئ قوله تعالى ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾، وماراه مراءً: جادله، والمِريةُ: الشكُّ، وقد يضُّم، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾[٣]، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، وكذا التماري»[٤].

كما أن المراء أيضاً مأخوذٌ من مرار الفتل، ومِرار السلسلة: تلوِّي حَلَقِها، إذا جُرّت على الصفا[٥]، وهذا يبيّن أنَّ المراء يخالطه تلوٍّ في الكلام واعتسافٌ فيه.

ومما سبق نلاحظ أن لفظة"المراء"يتنازعها معنيان، هما: استدرار الشيء، والصلابة فيه، وكذلك الأمر، نجده فيما غلب على هذه اللفظة من معنىً، وهو الجدل والخصام

---

(١) القائل: هو أبو ذؤيب الهذلي، ينظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، ص ٣١٤، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ص ٩٤٥، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) سورة هود آية (١٧).

(٤) مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، ص ٥٣٦، تحقيق حمزة فتح الله، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشر ١٤٢٦هـ.

(٥) ينظر: لسان العرب ١٥/ ٢٧٦.

اللذان فيهما تلك الصفة، ولأجل هذا، قيل في تعريف المراء ما قال ابن سيده[(١)]: «والمراء من المُماراة والجدل قال الشاعر:

إيَّاك إيَّاك المـــــراء فإنَّه

إلى الشَّرِّ دعَّاءٌ وللشَّر جالبُ[(٢)].

همزته منقـلةٌ عن ياء؛ لأنَّ كـلَّ واحدٍ منهـما يَمْرِي ما عِنْد صاحِبه -أي: يستَخْرِجه- والمِرَاء أيضاً من الامْتِراء والشَّكِّ، قـال تعـالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾[(٣)]، همزته كذلك أيضاً لقولهم فيه مِرْية»[(٤)].

وعلاوةً على ما سبق من معاني للمراء، فإنه يأتي أيضاً بمعنى الشـكّ، كما جاء في الآيـة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[(٥)]، أي: تشكون في قيامة الساعة[(٦)].

ويأتي بمعنى التردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشـكّ، ويقال: ماريت الرجلَ

---

(١) هو عليُّ بن إسماعيل المشهور بابن سيده، أبو الحسن _ ولد عام ٣٩٨هـ، وتوفي عام ٤٥٨هـ _ إمام في اللغة وآدابها، وله من الكتب المخصص، والمحكم والمحيط الأعظم. ينظر: (وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٠، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ١٤٤).

(٢) القائل: هو الفضل بن عبد الرحمن القرشي، ينظر: معجم الشعراء، ص ١٧٩، تحقيق عبد الستار فراج، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٩هـ.

(٣) سورة الكهف آية (٢).

(٤) المخصص، لابن سيده ٥/ ٢٦، تحقيق خليل ابراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ.

(٥) سورة الأنعام آية (٢).

(٦) ينظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/ ٩، تحقيق مصطفى السيد، ومحمد السيد رشاد، ومحمد العجماوي، العجماوي، وعلي أحمد عبد الباقي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

ومارَرْتُه، إذا خالَفته وتَلَوَّيت عليه[١].

ويأتي المراء أيضاً بمعنى الجحد للحق، وبمعنى المخاصمة بالمجادلة، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[٢]، قال البغوي[٣]: «قرأ حمزة[٤] والكسائي[٥] ويعقوب[٦]: ﴿ أَفَتَمْرُونَهُۥ ﴾، بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف، أي: أفتجحدونه، تقول العرب: مريتَ الرجلَ حقَّه إذا جحدته، وقرأ الآخرون: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ ، بالألف وضمِّ التاء، على معنى: أفتجادلونه على ما يرى»[٧].

ويأتي بمعنى: الافتراء والاعتراض، طعناً في القول وتصغيراً للقائل، ويكتنف ذلك

---

(١) ينظر تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي ١٤/ ١٠٩.

(٢) سورة النجم آية (١٢).

(٣) هو أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي _ ولد عام ٤٣٣هـ، وتوفي عام ٥١٦هـ _ إمام في التفسير والحديث، فقيه شافعي، له من التصانيف: معالم التنزيل، وشرح السنة. ينظر: (وفيات الأعيان٢/ ١٣٦، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩).

(٤) هو حمزة بن حبيب بن عمارة التيمي الزيات _ ولد عام٨٠هـ، وتوفي عام ١٥٦هـ _ أحد القراء السبعة، وصاحب القراءة المشهورة. ينظر: (وفيات الأعيان ٢/ ٢١٦، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٩٠) .

(٥) هو عليُّ بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي أبو الحسن _ توفي عام ١٨٩هـ _ إمام في اللغة والنحو والقراءة، كان مؤدب الخليفة العباسي الرشيد، وأصله من أبناء الفرس، له من الكتب: ما يلحن فيه العوام. ينظر: (وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٥، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٢).

(٦) هو يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي البصري، أبو محمد _ ولد عام ١١٧هـ وتوفي عام ٢٠٥هـ _ أحد القراء العشرة. ينظر: (معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي ٣٢٨/١ دار عالم الكتب، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦٩).

(٧) معالم التنزيل ٤/ ٢٥٣، دار طيبة، تحقيق محمد النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان الحرش، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

كلَّه الشدّة والصلابة في الكلام[١].

ومن هذا الباب، قيل في معنى المراء: «المراء: المماراة والجدل، والمراء أيضاً من الامتراء والشكِّ، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٢]...وأصله في اللغة: الجدال، وأنْ يستخرج الرجل من مناظره، كلاماً، ومعاني الخصومة وغيرها، من مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها»[٣].

وعلى ما تقدّم من بيان المعنى اللغوي وأصل الاشتقاق للفظة "المراء" يحسن الانتقال إلى بيان المعنى الاصطلاحي.

قال ابن الأثير[٤]: «المراء: الجدال والتماري، والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة.

ويقال للمناظرة: مماراة لأن كلَّ واحدٍ منهما، يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمتري الحالب اللبن من الضرع»[٥].

---

(١) ينظر: مختار الصحاح، ص ٥٣٦، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٠٤ ، وتاج العروس ٣٦/ ٥٢٤، والمصباح المنير للفيومي، ٢٩٣، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ، وتفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للإمام محمد بن فتوح الحميدي، ص٣٨١، تحقيق د زبيدة محمد سعيد، مكتبة السنة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٢) سورة الكهف آية (٢٢).

(٣) لسان العرب ١٥/ ٢٧٨.

(٤) هو المبارك بن محمد بن محمد الشيباني، أبو السعادات _ ولد عام ٥٤٤هـ وتوفي عام ٦٠٦ هـ _ محدّث لغويٌّ أصولي، من كتبه: النهاية في غريب الحديث والأثر، جامع الأصول في أحاديث الرسول . ينظر:(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٢٧٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، ووفيات الأعيان ٤/ ١٤١).

(٥) النهاية في غريب الحديث، ص ٨٦٧، تحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، الرياض=

وقال ابن جزي الكلبي[١] -مبيناً حقيقة المراء- : «المراء: وهو الجدال والمخالفة والاحتجاج»[٢].

وقال الزمخشري[٣]: «ويقال للمناظرة: مماراة لأنَّ المتناظرين كلُّ واحدٍ منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه»[٤].

وقــال -أيضاً- : «وقيل المــراء: مخاصمةٌ في الحق بعد ظهوره، كمري الضرع بعد دروره»[٥].

ومن خصائص المراء: أنّه لا يأتي إلا اعتراضاً على قولٍ قد قيل، تصغيراً لقائله وتزييفاً لقوله، ولا يكون في الابتداء، بمعنى: أنه يأتي مستتبعاً قولاً متقدماً، بخلاف الجدال فقد يكون ابتداءً واعتراضاً[٦].

=الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(١) هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، أبو القاسم فقيه أصولي مالكي، له من التصانيف، التسهيل في علوم التنزيل، والقوانين الفقهية. ينظر: (الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب ٣/ ٢٠، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ، والأعلام ٦/ ٢٢١).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٥٠٦، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ.

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله أبو القاسم _ ولد عام ٤٦٧هـ، وتوفي عام ٥٣٨هـ _ مفسّرٌ لغوي معتزلي، من أشهر كتبه الكشاف، وأساس البلاغة، والمفصّل في النحو. ينظر: (وفيات الأعيان ٥/ ١٦٨، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥٣).

(٤) الفائق في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٤٦، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٣٢.

(٦) ينظر: المصباح المنير، ص ٢٩٤.

ومن هنا نعرف الفرق الدقيق بين المراء والجدال.

وظهر مما تقدّم، أنه يدخل تحت عباءة معنى" المراء "من الدِّلالات والمعاني ما يلي:

١. الجدال والمخاصمة.
٢. الشكُّ والتردّد في الأمر.
٣. الجحدُ للحقِّ.
٤. الاعتراض على الكلام طعناً فيه وازدراءً لقائله.
٥. المناظرة.

- مفهوم الدين.

هذه اللفظة " الدين" لها معاني متعددة، ودلالات متباينة، إلا أنّها تشترك في أصل واحد، ترجع إليه كلُّها، كما قال ابن فارس: «الدال والياء والنون، أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل»[(١)].

وإذا كان أصل هذه الكلمة بمعنى الانقياد والذُّل، فقد تفرّعت عن هذه الكلمة فروع كثيرة، لها وجه ارتباط بالمعنى الأصلي، فجاء من معاني" الدين"كما قال ابن فارس: «فالدين: الطاعة، يقال: دان له يدين ديناً، إذا أصحب وانقاد وطاع، وقوم دين أي: مطيعون منقادون، قال الشاعر:

وكان الناس إلا نحن دينا[(٢)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ص ٣٥٣.

(٢) القائل هو المفضل، ينظر: مشكل إعراب القرآن ومعانيه للفراء، ص ٦٨٧، تحقيق محمد بن عيد الشعباني،=

والمدينة كأنها مفعلة، سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر، والمدينة: الأمة، والعبد: مدين، كأنهما أذلهما العمل، وقال:

ربت وربا في حجرها ابن مدينة

يظـــل على مســـحاته يتركّل(١).

فأما قول القائل:

يا دين قلبك من سلمى وقد دينا(٢).

فمعناه: يا هذا دين قلبك، أيْ: أذل، فأما قولهم: إن العادة يقال لها: دين، فإن كان صحيحاً، فلأنَّ النفس إذا اعتادت شيئا مرّت معه وانقادت له، وينشدون في هذا:

كدينك من أم الحويرث قبلها

وجارتها أم الرباب بمأسل(٣).

والرواية كدأبك، والمعنى قريب، فأما قوله جل ثناؤه ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾(٤)، فيقال: في طاعته، ويقال: في حكمه، ومنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾(٥)،

=دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

(١) القائل هو غياث بن غوث الأخطل التغلبي النصراني، ينظر: شرح ديوان الأخطل، لإليا الحاوي، ص ٢٦٣، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

(٢) أنشده علي بن حازم اللحياني. ينظر: تفسير القرطبي ١/ ٢٢٣، تحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة،الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

(٣) القائل هو امرئ القيس بن حجر الكندي، والبيت في معلقته، ينظر: جمهرة أشعار العرب، ص ١٢٤.

(٤) سورة يوسف آية (٧٦).

(٥) سورة الفاتحة آية (٤).

أي: يوم الحكم، وقال قوم: الحساب والجزاء، وأيُّ ذلك كان فهو أمر ينقاد له، وقال أبو زيد[١]: دِين الرجل يدان، إذا حمل عليه ما يكره.

ومن هذا الباب: الدين، يقال: داينت فلاناً، إذا عاملته ديناً، إما أخذاً أو إعطاءً، قال:

داينت أروى والديون تقضى

فمطلت بعضاً وأدت بعضاً[٢].

ويقال: دنت وأدنت، إذا أخذت بدين، وأدنت: أقرضت وأعطيت ديناً»[٣].

وقد جاءت لفظة "الدين" تحمل معاني كثيرة، ومن معانيها:

١. الإسلام.
٢. التوحيد.
٣. اسم لجميع ما يتعبد الله ﷻ به.
٤. الملّة.
٥. الورع.
٦. العادة.
٧. العبادة.

---

(١) هو سعيد بن أوس بن ثابت الخزرجي، أبو زيد الأنصاري _ ولد عام ١١٩هـ وتوفي عام ٢١٥هـ _ من أئمة اللغة والشعر والأدب، له من الصنفات: النوادر، والهمز، وغريب الأسماء. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٧٨).

(٢) القائل رؤبة بن العجاج. ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري ٧/ ١٤٠، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ص ٣٥٣.

٨. الطاعة.

٩. الذّل.

١٠. الحساب.

١١. القهر.

١٢. الملك.

١٣. الجزاء.

١٤. السيرة.

١٥. التدبير.

١٦. الحكم.

١٧. الإكراه[(١)].

والمقصود هنا، أن الدين يأتي بمعنى الطاعة والملّة، وجميع ما يتعبد به الله ﷻ، وهذا هو المراد.

وبعد اتضاح المعنى اللغوي، لمصطلح "الدين" فالغالب عليه عند الإطلاق: ما يدان به الله ﷻ من الشريعة[(٢)].

قال أبو البقاء الكفوي[(٣)]: «الدين وضع إلهيٌّ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما

(١) ينظر: لسان العرب ١٣/١٦٦_ ١٦٩، ومختار الصحاح، ص ٢٠١، والقاموس المحيط، ص ١٥٤٦، وتاج العروس ٣٥/ ٥٠ _ ٦٠، وتهذيب اللغة ١٤/١٢٨- ١٣١، والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ١٨١، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ.

(٢) اتفاق المباني وافتراق المعاني، لسليمان النحوي، ص ١٩٢، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

(٣) هو أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، أبو البقاء _ توفي عام ١٠٩٤هـ _ من قضاة الأحناف. ينظر:=

هو عن الرسول... وقيل: وضع إلهيٌّ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات»[١].

ولعل من أوضح ما عُرِّف به الدين أنه «هو التسليم والاستسلام لله وحده، وعبادته بما شرعه على لسان أنبيائه من العقائد والأحكام والآداب، وكل شؤون المعاش»[٢].

=(الأعلام٢/ ٣٨، ومعجم المؤلفين ١/ ٤١٨، مؤسسة الرسالة، سنة الطبع ١٣٧٦هـ).

(١) الكليات، ص ٤٤٣، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، دار الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٢/ ١٠٦٧.

المطلب الثاني: مفهوم المراء في الدين باعتبار التركيب.

علمنا فيما تقدّم أن للمراء من حيث الدلالة اللغوية أصلين، هما:

١. استدرار الشيء.

٢. الصلابة والشدّة.

وبناءً على هذا المعنى اللغوي، فإن المراء لا يكون إلا مذموماً، لما فيه من استدرار غضب المُمارى، وإثارة حفيظته بالاعتراض عليه، مع الصلابة والشدّة في ذلك، الأمر الذي ينشأ منه المجادلة والمخاصمة، التي نُهي عنها في الشرع، وما من شكّ أن المراء إذا كان يحمل هذه المعاني، واتفق أن يكون في الدين ومسائله، فذلك أيضاً ممّا يبيّن معناه، ويوضّح مغزاه.

قال الجرجاني[1] -في تعريف المراء اصطلاحاً- : «المراء: طعن في كلام الغير؛ لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير»[2].

ومن خلال تعريف الجرجاني، يظهر أن المراء لا يُراد منه معرفة الحقِّ، بقدر ما يراد منه التنّقص والازدراء للمُمارى، إبطالاً لقوله وردّاً عليه، وهذا من معاني المراء، لأن من معانيه جحدَ القول، كما مرَّ معنا قريباً، ويشبه هذا التعريف من وجه ما، تعريف أبي حامد

---

(١) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أبو بكر _ توفي عام ٤٧١هـ _ واضع علم البلاغة، ومن أئمة اللغة، من كتبه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، وإعجاز القرآن. ينظر: (فوات الوفيات ٢/ ٣٦٩، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٣٤).

(٢) التعريفات، ص ١٤٥، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

الغزالي[١] حيث قال في المراء: «وحدُّ المراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم»[٢].

ثمّ بيّن أن القصد من المراء هو: «إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه، بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه»[٣].

ثم يذكر الباعث عليه، وهو «الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه»[٤].

ولا ريب أن المراء بهذه الكيفية يستَحْلِب به المماري حفيظةَ المُمارى، ويستجلبها ويثير غضبه[٥]، كما أنه أيضا يستدرُّ منه الحجج والبراهين، والتماس الأدلة، حتى يؤول الحال إلى اصطناعها والاعتساف بالتحكّم بدلالاتها، وتزويق الحجج، إرادةً للإفحام والانتصار، وربما وقع من جراء ذلك، الخصام والنزاع فيما يجب فيه الوفاق وعدم الاختلاف - خاصّةً في مسائل الاعتقاد وأصول الدين-.

فظهر لنا من خلال ما تقدّم وشيجة القربى بين الدلالة اللغوية، والمعنى الاصطلاحي للفظة"المراء".

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد _ ولد عام ٤٥٠هـ وتوفي عام ٥٠٥هـ _ أشعري متصوف، له من الكتب: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة. ينظر: (وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٠، دار الخير، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٦٠.

(٤) المصدر السابق ٣/ ٢٦٠.

(٥) ينظر: الآداب الشرعية، لمحمد بن مفلح المقدسي ١/ ٤٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ.

وإذا كان المراء على هذا الوجه، من المغالطة والتشغيب على القائل، وإثارة كوامن النفس بالغضب من جراء المخاصمة، ولا سيما -والحالة هذه- إذا كان المراء يتعلّق بشيء من أصول الدين، كان الخطب أعظم، والعاقبة أوخم.

ونجد أنَّ ابن أبي العز الحنفي، بيّن حقيقة المراء في الدين، وأنَّ معناه: «مخاصمة أهل الحقِّ، بإلقاء الشبهات، التماساً لامترائهم وميلهم»[1].

ومن خلال كلام ابن أبي العزّ يتضح أنّ المراء في الدين: هو الخصومة في الدين، والجدال المذموم لأهل الحقّ، بالاعتراض عليهم بإلقاء الشبه، طلباً لمجاراتهم للخوض فيما أُمرنا بالوقوف عنده، وعدم تشقيق الكلام فيه، والطغيان به عن الحدِّ الشرعيّ.

ومن أهل العلم، من قال في بيان المراء في الدين: «المراء في الدين...عرفاً: منازعة الغير ممن يدّعي صوابه ولو ظنّاً»[2].

وهذا التعريف للمراء في الدين لايخلو من نظر، إذ المراء قد يتعلّق بالقطعيات من الدين، التي لا يسع أمامها إلا الكفّ عن الخوض فيها بالتسليم، وأما دعوى الصواب فيها ولو كان مظنوناً، فالحكم على الشيء بالصواب إنما يُعلم من جهة الشرع، وإذا عُلم من جهة الشرع، لم يسغ أن يقال في مثل هذا: دعوى الصواب.

وجاء في بعض الآثار أن المراء في الدين، تحريشٌ بين المسلمين بالجدل، فيما لا يسوغ فيه ذلك[3]، وهذا الأثر معناه صحيح، لأن من آثار المراء، تهييج العدواة بين

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٥١.

(٢) ينظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ١/ ١٢٧، أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٤هـ.

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع، ص ٦٠،=

المسلمين، كما سيأتي فيما بعد -إن شاء الله تعالى- ولا ريب أنّ ذلك من لازم المراء، إذ ينتج عن المراء العداوة والبغضاء، كما جاء في الحديث عن أبي أمامة ﷺ قال: قال ﷺ: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾))، ومن لازم الضلال: التفرّق والعداوة والبغضاء، كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب لّما تركوا حظاً مما أنزل عليهم من ربّهم، كان عاقبتهم العداوة والبغضاء: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾(١)، وهذا يلحق كلَّ من نسي حظاً مما ذُكّر به من الوحيِّ.

وذكر بعض أهل العلم أن المراء: هو الجدال فيما لا يعني(٢)، ولا ريب أنّ ذلك ظاهر، إذ المماراة في الدين، ليست مما تتعلّق به عناية المسلم؛ لأنها ضربٌ من الجدل المنهيَّ عنه.

ونستطيع أن نستخلص مما سبق: أنَّ المراء في الدين، هو الخصومة والجدال في قضايا

=تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٣٠، تحقيق حمدي السلفي، دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، وفي سنده كثير بن مروان الفلسطيني، قال عنه ابن حبان: ((منكر الحديث جدا، لا يجوز الاحتجاج به ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب)) .

(١) سورة المائدة آية (١٤).

(٢) ينظر: الإنصاف مع الشرح الكبير ٨/ ٣٧١، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، سنة الطبع ١٤١٩هـ.

الدين ومسائله، على وجه التشكيك والريبة والعبث، مما يبعث على النزاع والتفرّق، وضرب النصوص بعضها ببعض.

وعلى هذا لا يكون المراء في الدين إلا مذموماً، وليس منه شيء محمود؛ لما يفضي إليه من المفاسد والمحاذير، مع ما جاء في نصوص الكتاب والسنّة من ذمّهُ والتحذير منه، حاشا الآية من سورة الكهف، التي قال الله ﷻ فيها للنبي ﷺ حيث خاصمه أهل الكتاب في عِدّة أهل الكهف: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾(١)، وهذه الآية يظهر منها، إباحة المراء الظاهر، وهو في الواقع من قبيل الجدال المحمود، والمجادلة بالتي هي أحسن، مع عدم الاسترسال معهم في الكلام وإطالته، ولكن أُطلق عليه المراء من باب المشاكلة اللفظية، وسيأتي الكلام على هذه الآية مستوفى -بإذن الله ﷻ- في الفصل الثالث، من المبحث الأول(٢).

والمراء من حيث العموم في المعنى، فيه وجه اشتراك مع الجدال المذموم، حيث يطلق أحدهما على الآخر، فجاء في بعض عبارات السلف التحذير من الجدل في الدين، وهو ينصرف إلى المراء فيه، باعتباره تفسيراً له، كما نُقل عن الإمام مالك بن أنس أنه يعيب الجدال في الدين، ويقول: «كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، أرادنا أن نردَّ ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ»(٣).

---

(١) سورة الكهف آية (٢٢).

(٢) ينظر: صفحة ٢٤٣.

(٣) ينظر: شرف أصحاب الحديث، لأحمد بن علي البغدادي، ص ٢٢، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

المبحث الثاني: الألفاظ المشابهة للمراء، والفروق بينها.

هناك ألفاظ مشابهة لمفهوم المراء من حيث بعض الدلالات اللغوية، وبينها نوع من الامتزاج والاشتراك في بعض المعاني، وافتراق من وجه آخر.

وقد تشتبه بعض الألفاظ المشابهة للمراء بمفهوم المراء، وهي ليست منه ولا تتفق معه من حيث المعنى، كما أنَّ هناك ألفاظٌ تجتمع مع المراء في نقطة التقاء، إذ بينها نوع وفاق من بعض الوجوه.

وعلى ضوء هذا لابدّ من التمييز بين تلك المدلولات والألفاظ؛ حتى لا يقع الاشتباه والتداخل في شيء منها، وحتى يتجلّى لنا مفهوم المراء ظاهراً غير مشتبهٍ بغيره، وتتبيّن أيضاً بعض المفاهيم التي لها شائبة تعلقّ بمفهوم المراء، وهذا من العلم بالفروق اللغوية، وإليك هذه الألفاظ:

١. الجدال.
٢. المحاجة.
٣. الخوض.
٤. الخصام.
٥. المناظرة.
٦. الحوار.

• **الجدل.**

للجدل معاني يجمعها أصل واحد، وهو استحكام الشيء في استرسال يكون فيه[١].

قال في لسان العرب: «وجدلت الحبل أجدله جدلاً، إذا شدّدتَ فتلَه، وفتلته فتلاً محكماً، ومنه قيل لزمام الناقة: الجديل»[٢].

ويطلق على شدّة الفتل، وعلى زمام الناقة، والجدل هو العضو، وكل عضو جدل، والجمع أجدال و جدول، ويطلق على الجسم الحسن البنية، يقال: مجدول الخلق، كما جاء الشعر:

وكشحٍ لطيف كالجديل مخصَّر

وساق كأنُبوب السقيّ المذلل[٣].

كما يُسمّى الصقر أجدلاً إذا كان قوياً، ويطلق أيضاً على الصرع، ويقال للصريع: مجدّل، لأنه يصرع على الجدالة وهي الأرض، وقِيل أَصْلُ الجِدالِ: الصِّراعُ وإسقاط الإنسان صاحبَه على الجَدالَة، ويقال للرجل الشديد الخصومة: جدِل ومِجدل ومجدال.

وأيضاً من معاني الجدل: اللّدد في الخصومة والقدرة عليها، وجدل جدلاً: أحكم الخصومة، ورجل جدل مجدال، أي: خصم مخصام، والفعل جادل يجادل مجادلة[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ١٨٩.

(٢) لسان العرب ١١/ ١٠٣.

(٣) من معلقة امرئ القيس بن حجر الكندي، ينظر: جمهرة أشعار العرب، ص ١٢٩.

(٤) ينظر: القاموس المحيط، ص ١٢٦١، وتاج العروس ٢٨/ ١٩٢_١٩٧، والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده ٧/ ٣٢٢ _ ٣٢٥، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ولسان العرب ١١/ ١٠٣ _ ١٠٥، وتهذيب اللغة ١/ ٣٤٢ _ ٣٤٤، وكتاب العين ٦/ ٧٩، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د مهدي المخزومي ود إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، وينظر:=

فمادّة الجدل لها أربع معان تدور حولها، على النحو التالي:

١. الإحكام، من فتل الحبل إذا أتقن فتله.
٢. الشدّة، كما يسمى الصقر الأجدل؛ لقوته.
٣. الصّراع، يقال للمطروح أرضا: مجندلاً ومجدّلاً.
٤. اللّدد في الخصومة، والقدرة عليها(١).

وإليك عبارات العلماء في بيان التعريف للجدال، بعد أن اتضح أصل اشتقاقه من حيث اللغة.

قال ابن عطية(٢) -في بيان معنى الجدل الاصطلاحي- : «هو المراجعة في الحجة، والمخاصمة والمقابلة بالأقوال، حتى تقع الغلبة»(٣).

قال ابن منظور: الجدل: «مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة

=كتاب الأفعال لأبي القاسم علي بن جعفر السعدي، ١/ ١٧١، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

(١) ينظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد ١/ ٢٦، للدكتور عثمان حسن، دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الأندلسي _ ولد عام ٤٨١هـ، وتوفي عام ٥٤٢هـ _ فقيه مفسر، له من الكتب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ينظر: (تاريخ قضاة الأندلس، للنباهي المالقي، ص ١٢٢، تحقيق د صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، والأعلام ٣/ ٢٨٢) .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ١٦٦، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

والمخاصمة»[١].

وقال الجرجاني: «الجدال: عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[٢]، وقال -أيضاً مبيناً معناه- : «دفع المرء خصمه، عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[٣].

وقال -في بيان الغرض منه- : «والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان»[٤].

وتعريف الجرجاني هنا ينصرف إلى الجدل المذموم؛ لأنه قال في التعريف الأول: «المراء»، والمراء لا يكون إلا مذموماً، وقال في التعريف الثاني: «وهو الخصومة في الحقيقة»، والجدال المحمود لا خصومة فيه.

وقال الراغب الأصفهاني[٥]: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرع مجدولة...والمجدل القصر المحكم البناء، ومنه الجدال فكأن المتجادلين يفتل

---

(١) لسان العرب ١١/ ١٠٥.

(٢) التعريفات، ص ٥٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٥) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم _ توفي عام ٥٠٢هـ _ المعروف بالراغب الاصفهاني، أديب، له من الكتب: المفردات في غريب القرآن. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٢، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، لمحمد بن يعقوب الفيروزابادي، ص ١٢٢، تحقيق محمد المصري، دار سعد الدين للنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.)

كل واحد الآخر عن رأيه»[١].

وكلام الراغب هنا أظهر من غيره بتعريف الجدال، انطلاقاً من دلالته اللغوية، كما أنّ تعريف الجرجاني أيضا أظهر من حيث بيان الجدال من خلال المعنى الاصطلاحيِّ له.

وقال ابن جزي الكلبي: «الجدال: هو المخاصمة والمراجعة في الحجة»[٢].

وقد فُسّر الجدال بالمراء، كما قال ابن الأثير: «المراء: الجدال والتماري والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة»[٣]، كما مرَّ معنا في تعريف المراء، وهذا فيما إذا كان الجدال مذموماً، وأما المحمود، فلا يدخل في هذا المعنى.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٤] في تعريف المجادلة: «وهي المنازعة...لا لإظهار الحق، بل لإلزام الخصم»[٥]، ومن خلال هذا التعريف، ندرك أن الجدال يشترك مع المراء، من حيث إرادة غلبة الخصم وإفحامه.

وقد ورد الجدال في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعاً، منها ما هو في سياق الذمّ، ومنها ما هو سياق النهيِّ عنه، ومنها ما هو في حكاية الحال، كما في قوله

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص ٨٩.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٣٩٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٨٦٧.

(٤) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي _ ولد عام ١٣٢٥هـ، وتوفي عام ١٣٩٣هـ _ فقيه مفسر أصولي لغوي، له من المصنفات: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ودفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب، ينظر: (مقدمة كتاب أضواء البيان، للدكتور خالد السبت، ص ١٩، إشراف الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ).

(٥) آداب البحث والمناظرة، ص ٢٧٢، إشراف الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ. ١٤٢٦هـ.

تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[١]، إلا في ثلاثة مواضع، فموضعان جاء السياق فيهما في معرض الأمر به، والثالث جاء في بيان المجادلة بالحقّ، وهذه الثلاثة المواضع هي كالتالي:

قول الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

والثاني: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٣].

والثالث: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾[٤].

والجدل في القرآن الكريم جاء على ثلاثة أوجه، وهي كالتالي:

١. ما ردَّ الله ﷻ به على الخصوم، من الحجج والبراهين، وما بيّنه من الأدلة لتثبيت العقائد وتقريرها.

٢. ما ورد في القرآن الكريم بطريق الحوار، والقصد منه الاسترشاد والنظر والعظة والاعتبار، كجدال الملائكة لله تعالى في خلق آدم، وجدال خولة رضي الله عنها في زوجها.

٣. ما يأتي على ألسنة الكفار والمشركين من الاعتراضات وإلقاء

---

(١) سورة النحل آية (١١١).

(٢) سورة النحل آية (١٢٥).

(٣) سورة العنكبوت آية (٤٦).

(٤) سورة المجادلة آية (١).

الشبه والدعاوى الباطلة، وهذا من قبيل الجدال بالباطل، وهو المذموم شرعاً[١].

ومما تقدم، ندرك أن الجدال، له نوعان، كما يأتي:

أنواع الجدال.

الجدل له نوعان: نــوع محمود، ونــوع مذموم.

قال النووي[٢]: «واعلم أن الجدال قد يكون بحقّ، وقد يكون بباطل...فإن كان الجدال الوقوف على الحقّ وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحقّ، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً، وعلى هذا التفصيل تُنَزّل النصوص الواردة في إباحته وذمّه»[٣].

وقد جاء في القرآن الكريم بيان النوعين من الجدال، وإليك بيانهما:

الجدل المحمود قال الله ﷻ في شأنه ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ

(١) ينظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٢١، للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحوراني النووي _ ولد عام ٦٣١هـ، وتوفي عام ٦٧٦هـ، وقيل: ٦٧٧هـ _ محدث فقيه شافعي، له من المصنفات: المجموع شرح المهذب، ورياض الصالحين. ينظر: (طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ٢/ ١٩٤، تحقيق عبد الحافظ عبد العليم خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، وطبقات الشافعة الكبرى، لتاج الدين السبكي ٨/ ٣٩٥، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، دون ذكر سنة الطبع).

(٣) الأذكار، ص ٣٤٥، تحقيق عبد السلام علوش، دار الأخيار، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

(٤) سورة النحل آية (١٢٥).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[(١)].

قال الشوكاني[(٢)] -مجلّياً معنى الجدل المحمود- : «الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد، إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾أيْ: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة، لكون الداعي محقّاً، وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً، وغرضه فاسداً»[(٣)].

وهذا النوع من الجدل هو الذي سلكه الرسل والأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم؛ لما فيه من إيضاح الحقّ وتقريره وبيانه، والردّ على المعارضين، والإلزام والإفحام بالحجّج الشرعية والعقلية، قال الله عز وجل -عن قوم نوح لما اعترضوا على نبيّهم-: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٤)]، كما جادل نوح عليه السلام قومه؛ حتى قالوا له -فيما حكاه الله عز وجل عنهم-: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ

(١) سورة العنكبوت آية (٤٦).

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ولد عام ١١٧٣هـ، وتوفي عام ١٢٥٠هـ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، له مصنفات كثيرة، منها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، وفتح القدير في التفسير، وإرشاد الفحول، في أصول الفقه. ينظر: (الأعلام ٦/ ٢٩٨، ومعجم المؤلفين ٣/ ٥٤١).

(٣) فتح القدير الجامع بين فني علم الرواية والدراية من علم التفسير ٣/ ٢٠٣، دار عالم الكتب، الرياض، سنة الطبع ١٤٢٤هـ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٤) سورة هود آية (٣٢).

جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

وكذلك إبراهيم عليه السلام لماّ جادل قومه، في عبادتهم للكواكب، وأبطل ما اعتقدوه فيها من الإلهية، وذلك على طريقة المجادلة، قال الله عز وجل في ذلك: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٢).

وكذلك الحال مع خليل الله عز وجل إبراهيم عليه السلام جادل قومه داعياً لهم إلى الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

وكذلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال لمشركي قريش، فيما أمره الله عز وجل به: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٤)، فهذا النوع من الجدال، مأمورٌ به مندوبٌ إليه، وهو على النقيض من الجدال المذموم قسيم المراء، وهو ما يأتي الكلام عليه فيما يلي.

(١) سورة هود آية (٣٢).

(٢) سورة الأنعام آية (٧٨).

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٨).

(٤) سورة سبأ آية (٤٧).

النوع الثاني: وهو الجدل المذموم، الذي نهى الله ﷻ عنه وعاب على من اتصف به، واتخذه سبيلاً لردّ ما جاء من الحقّ، على وجه الريبة والشكّ والإنكار، وإبطال ما تقتضيه نصوص الشرع، من التسليم المطلق الذي هو واجب الإيمان، ومقتضى الإسلام، قال الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾(٢)، وقال الله ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾(٣)، وهذه الآية جاءت في معرض الإنكار على من جادل في الله تعالى وآياته مكذباً بها، أو مبطلاً شيئاً مما يقتضيه مدلولها، وهذا هو الجدل المذموم، وهذا يشبه ما قاله الله تعالى -واصفاً حال مشركي العرب-: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾(٤)، أيْ: «ماضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك»(٥)، وذلك لمّا جادل الكفار النبيّ ﷺ في شأن عيسى عليه السلام في كونه معبوداً تعبده النصارى من دون الله تعالى، هل يدخل النار؟ حيث أخبر سبحانه في سورة الأنبياء أنَّ من عبد مع الله تعالى إلهاً، فإنه وما يعبد في النار، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا

---

(١) سورة الحج آية (٣).

(٢) سورة غافر آية (٤).

(٣) سورة غافر آية (٦٩).

(٤) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود الحنفي ٥/ ٩١، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة الحديثة.

﴿تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[(١)]، وفعل المشركين هذا مراءٌ، يعلمون أنه ليس بوارد على هذا الآية الكريمة [(٢)]، وسيأتي لهذه الآية الكريمة مزيد بسط -إن شاء الله ﷻ- في موضعها.

وهذا النوع من الجدال جاء التحذير منه في القرآن الكريم، وورد كذلك في السنة بيان عواقبه، كما جاء في الحديث عن أبي أمامة ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾».

وهذا الجدال هو الذي يشترك مع المراء من حيث المفهوم، فكلاهما مخاصمة وملاحاة ومنازعة فيما لا يجوز فيه ذلك، والعاقبة من وراء ذلك كلِّه، ردُّ الحق والتكذيب به، أو التشكيك في شيء منه، والتشغيب على قائله.

فبين الجدال المذموم والمراء، قاسم مشترك يجتمعان فيه، وهو ما علمناه فيما سبق من تعريف المراء: أنه الجدال والمخالفة والمخاصمة، وأصل المراء في اللغة هو: الجدال، وهذا الكلام من حيث اتفاق المراء والجدال في المعنى.

أما الكلام فيهما من حيث الافتراق، فإن المراء لا يكون إلا في ابتداء الكلام، بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداءً واعتراضاً، ومن هذا الوجه خالفَ المراءُ الجدالَ.

كما أنَّ المراء أيضا يختلف عن الجدال المحمود، بل ليس هو منه، إذ بينهما فرق كبير، وبون شاسع، لأن المراء من شأنه ردُّ الحقّ، والمخاصمة بالباطل، والخوض فيما يضرُّ،

---

(١) سورة الأنبياء آية (٩٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١٣/ ٣٢١.

بخلاف الجدال المحمود فإنه مجادلةٌ بالتي هي أحسن، مع توخّي الأخلاق الكريمة، والحرص على نفع المُجَادَل، وملاينته بالكلام والمحادثة؛ لدلالته على الخير، كما أنَّ هذا النوع من الجدال، هو للبيان الحقّ وتقريره وشرحه والدفاع عنه.

- **المحاجّة.**

المحاجّة على وزن المفاعلة من حجّه يحجّه، وأصل اشتقاقها من مادّة -حَجَجَ- ولها في اللغة أربعة أصول، وإليك بيانها:

الأول: القصد، وكلُّ قصدٍ: حجٌّ، ثم اختص بهذا الاسم، القصدُ إلى البيت الحرام للنسك، والحِج بالكسر الاسم، والحِجة بالكسر أيضا المرّة الواحدة، ويقال: حججت فلاناً واعتمدته، أي: قصدته، ورجل محجوج، أي: مقصود.

ومن هذا الأصل أيضا: المَحَجَّة بفتحتين، وهي جادّة الطريق، وقد تكون لفظة "الحجّة" مشتقّة من هذا، لأنها تقصد، أو بها يقصد الحق المطلوب، يقال: حاججت فلاناً فحججته، أي: غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حجج والمصدر الحجاج، بكسر الحاء.

ومن ذلك الأصل، قولهم: حججت الشجّةَ، وذلك إذا سبرتها بالميل لأنك قصدت معرفة قدرها.

الأصل الثاني: الحَجَّة، بفتح الحاء، وهي السَنة والعام، ويمكن أن يجمع هذا إلى الأصل الأول، لأن الحج في السنة لا يكون إلا مرة واحدة، فكأن العام سمّي بذلك، لما فيه من الحج، من باب المجاز المرسل، الذي علاقته الزمانية.

الأصل الثالث: الحِجَاجُ وهو العظم المستدير حول العين، يقال للعظيم الحجاج:

أَحَجُّ، وجمع الحجاج أَحِجّةٌ، وحجاج الشمس حاجبها وهو قرنها.

الأصل الرابع: الحجحجة، ومعناه: النكوص، يقال: حملوا علينا ثم حجحجوا والمحجحج العاجز[١].

«والحجّةُ بالضَمّ: الدليلُ والبرهَان، وقيل: ما دُفِعَ به الخصمُ...والحجةُ: الوجهُ الذي يكون به الظَّفر عند الخصومة، وإنما سمّيت حُجَّةً، لأَنّها تُحَجُّ، أَي: تقصدُ لأنَّ القصد لها وإليها»[٢]، وهذا مؤكّد لمعنى الأصل الأوّل من أصول هذه الكلمة.

وتطلق على الغلبة بالحجة، وكثرة الاختلاف والتردَّد.

والمحجاج هو الجِدل الذي يدلي بحجته، والتحاجّ: التخاصم، وجمع الحجة: حجج وحجاج، وحجّه يحجّهُ حجّاً، غلبه على حجته، وفي الحديث«فحجَّ آدم موسى»[٣]، أي: غلبه بالحجة، واحتجَّ بالشيء اتخذه حجة[٤].

وأما المعنى الاصطلاحي للمحاجّة: فقال أبو حيان[٥]: «المحاجة: مفاعلة من اثنين مختلفين في حكمين، يدلي كل منهما بحجته على صحة دعواه»[٦].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٢٣٢، ولسان العرب ٢/ ٢٢٦.

(٢) تاج العروس ٥/ ٤٦٤.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البخاري كتاب أحديث الأنبياء، باب وفاة موسى، (٣٤٠٩)، وأخرجه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى، (٢٦٥٢).

(٤) ينظر: لسان العرب ٢/ ٢٢٨، ومختار الصحاح، ص ١٢٠، والقاموس، ص ٢٣٤، وتاج العروس ٥/ ٤٥٩، والمحكم والمحيط الأعظم ٢/ ٤٨٢ _ ٤٨٣.

(٥) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان _ ولد عام ٦٥٤هـ، وتوفي عام ٧٤٥هـ _ مفسر نحوي، له من التصانيف، البحر المحيط، وشرح التسهيل. ينظر: (طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٨، وفوات الوفيات ٤/ ٧١).

(٦) البحر المحيط، ٤/ ١٧٤، تحقيق عادل بن عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت،=

وقال الخازن[١]: «المحاجّة المجادلة والمخاصمة وإظهار الحجة»[٢].

وقال المناوي[٣]: «المحاجّة تثبيت القصد والرأي لما يصححه»[٤].

وأما الراغب الأصفهاني ففسّر المحاجّة بالمراء، فقال: «والامتراء والمماراة: المحاجَّة فيما فيه مرية»[٥].

وهنا نجد أنّ المحاجّة ضربٌ من المراء الذي سبق الكلام عليه؛ لأن المحاجّة من هذا الباب، وهي إيراد الحجج للخصم على وجه المماراة، وعلى هذا يكون المراء والمحاجّة من باب واحد من بعض الوجوه، ولا سيما أن المحاجّة يكون الباعث عليها قصد الغلبة والظهور على الخصم، كما قال أبو حيان: «المحاجّة: من الاحتجاج، وهو القصد للغلبة،

=الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(١) هو علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ولد عام ٦٧٨هـ، وتوفي عام ٧٤١هـ _ محدث مفسر فقيهٌ شافعي، له من المصنفات: لباب التأويل في معاني التنزيل. ينظر: (طبقات المفسرين، للأدنروي ١/ ٢٦٧، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة دار العلوم والحكم، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، والأعلام ٥/ ٥).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ١/ ٢٥، دار الفكر، سنة الطبع: ١٣٩٩هـ.

(٣) هو محمد عبد الرؤوف المناوي _ ولد عام ٩٥٢هـ وتوفي عام ١٠٣١هـ _ من كبار العلماء، على مذهب الإمام الشافعي، متصوف أشعري، له مؤلفات كثيرة، منها: فيض القدير شرح الجامع الصغير. ينظر: (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي ٢/ ٤١٢، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني ١/ ٣٩٦، تحقيق محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٦٤٠، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٥) المفردات في غريب القرآن، ص٤٦٧.

حاجّه: قصد أن يغلِب»[١]، ومن هنا نعلم أنّ المحاجّة، يكتنفها الخصام لما يقتضيه قصد الظهور والغلبة، ومن هذا الأساس قال القرطبي[٢]: «المحاجة...هي المخاصمة والمجادلة»[٣].

ولقد استقرأ هذا المعنى الطاهر ابن عاشور[٤]، وذكر أنَّ المحاجّة في غالب استعمالها، تكون في الجدال والمجادلة والمخاصمة، وأنَّ إطلاقها ينصرف غالباً إلى المخاصمة على نحو ما يكون في المـراء، فقال: «وأكـثر استعمال فعل "حاجّ" في معنى المخاصمة بالباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ ...فالمعنى: فإن خاصموك خصام مكابرة فقل أسلمت وجهي لله»[٥].

وهذا ظاهرٌ في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وإليك الآيات التي ذُكرت فيها المحاجّة، الأمر الذي يبيّن المعنى الذي ذكره ابن عاشور في استعمال هذه اللفظة:

---

(١) البحر المحيط، ١/ ٤٣٦.

(٢) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فر ح الأنصاري القرطبي _ توفي عام ٦٧١هـ _ من كبار المفسرين، له من الكتب: الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة. ينظر: (طبقات المفسرين ١/ ٢٤٦، وشذرات الذهب، لابن العماد ٥/ ٥٨٤، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٤٥٧، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور _ ولد عام ١٢٩٦هـ، وتوفي عام ١٣٩٤هـ، وقيل: ١٣٩٣هـ _ أديب مفسر لغوي فقيه مالكي، له مؤلفات كثيرة منها: التحرير والتنوير في التفسير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ. ينظر: (مقدمة كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ١٣، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس،الطبعة الثانية١٤٢١هـ، والتقريب لتفسير التحرير والتنوير، ص ١٥، للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ).

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٣/ ٢٠٠، دار سحنون، تونس، دون ذكر سنة الطبع.

قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة آية (١٣٩).

(٢) سورة الأنعام آية (٨٠).

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٨).

(٤) سورة آل عمران آية (٢٠).

(٥) سورة آل عمران آية (٦١).

(٦) سورة آل عمران آية (٦٥).

(٧) سورة الشورى آية (١٦).

ثم يبيّن ابن عاشور معنى المحاجّة، وشيئاً من استعمالات هذه اللفظة، فيقول: «ومعنى حاجّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لحاجّ في الاستعمال فعل مجرد دالّ على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها، ومن العجيب أنّ الحجة في كلام العرب البرهان المصدّق للدعوى، مع أنّ حاجّ لا يستعمل غالباً إلّا في معنى المخاصمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾، مع قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾، وأنّ الأغلب أنّه يفيد الخصام بباطل، قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾، والآيات في ذلك كثيرة، فمعنى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾، أنّه خاصمه خصاماً باطلاً في شأن صفات الله ربّ إبراهيم»[1].

ونجد فيما تقدّم من أقوال العلماء أنَّ المحاجّة تكون على وجه المراء والجدال المذموم، لما فيها من المخاصمة وقصد الغلبة، وعلى ضوء ذلك تكون المحاجّة على المعنى السابق مذمومةً، لأنها قبيل من المراء.

ولكن من المحاجّة ما هو محمود من قبيل الجدال المحمود، الذي يُراد منه إحقاقُ الحقّ وبيانه، والردُّ على شبه المبطلين، وتلبيسات المُحرّفين، كما أنّ من المحاجّة ما هو مذموم، كما قيل في الجدال، وأنّه ينقسم إلى نوعين، وكذلك الحال في المحاجّة، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي[2] مقرراً هذا المعنى: «المحاجّة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٣١.

(٢) هو الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، من علماء القصيم _ ولد عام ١٣٠٧هـ، وتوفي عام ١٣٧٦هـ _ فقيه مفسر محقق، له كتب كثيرة، منها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، في التفسير، ومنهاج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، في الفقه. ينظر: (علماء نجد خلال ثمانية قرون ٣/ ٢١٨، للشيخ=

بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضَّال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور كانت مماراة ومخاصمة، لا خير فيها»(١).

ومن خلال هذا العرض يتبيّن الفرق بين المحاجة والمراء، أن المحاجة إن كانت على وجه الخصومة بالباطل، فهي مرادفة لمصطلح المراء، وإن كانت على وجه المجادلة بالتي هي أحسن، فهي من قبيل الجدال المحمود.

- **الخوض.**

ورد في كلام السلف التحذير من الخوض فيما يتعلّق بمسائل العقيدة(٢)، وجاء في قول الله ﷻ في شأن المنافقين وما كانوا يتعاطونه من الخوض في الدين: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ

=عبدالله البسام، دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ).

(١) تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٩٩.

(٢) ينظر على سبيل المثال: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة ١/ ٣٣٨، تحقيق الحسن بن عباس بن قطب، الناشر دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، وينظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، ص ٦٢٠، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة.

حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[١].

والخوض في اللغة، له أصل واحد يرجع إليه، وهو التوسّط في الشيء، والدخول فيه، يقال: خضت الماء، أي دخلت فيه، ويقال: تخاوضوا في الحديث، أي تفاوضوا وتداخل كلامهم[٢].

وقال ابن منظور: «أصل الخوض: المشي في الماء وتحريكه، ثم استعمل في التلّبس بالأمر والتصرف فيه»[٣].

ويطلق الخوض ويراد به: اللَّبس في الأمر، والخوض من الكلام: ما فيه الكذب والباطل[٤]، «والخوض حقيقته: الدخول في الماء مشياً بالرّجْلين دون سباحة ثم استعير للتصرّف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسّف وهو المشي في الرمل لذلك، واستعير الخوض أيضاً للكلام الذي فيه تكلَّف الكذب والباطل، لأنَّه يتكلَّف لـــه قائله»[٥]، «ويستعار كثيراً للمحادثة المتكررة»[٦]، وقد ورد في القرآن آيات تبيّن معنى الخوض في الحقيقة الشرعية.

وإليك ذكر تلك الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة:

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ

(١) سورة التوبة آية (٦٩).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٣١٧.

(٣) لسان العرب ٧/ ١٤٧.

(٤) ينظر: لسان العرب ٧/ ١٤٧، وتاج العروس ١٨/ ٣٢٣، وتهذيب اللغة ٧/ ١٩٦، والمخصص، لابن سيده ١/ ٢٩٥، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ١/ ٣٦٣.

(٥) التحرير والتنوير٧/ ٢٨٩.

(٦) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٢٧.

بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾(١).

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٢).

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٣).

قال الله ﷻ: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾(٤).

قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾(٥).

قال الله ﷻ: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾(٦).

قال الله ﷻ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾(٧).

وهذه الآيات كما ترى، جاءت في بيان ذمّ الخوض فيما يجب فيه التسليم والإيمان، مما أُنزل على النبي محمد ﷺ، وأن الخوض في ذلك لا يكون إلا في الباطل.

---

(١) سورة النساء آية (١٤٠).

(٢) سورة الأنعام آية (٩١).

(٣) سورة التوبة آية (٦٥).

(٤) سورة الزُّخرُف آية (٨٣).

(٥) سورة الطور آية (١٢).

(٦) سورة المعارج آية (٤٢).

(٧) سورة المدَّثر آية (٤٥).

ومسائل الدين وأصول الإيمان لا يسع فيها إلا التسليم والإيمان، دون تشقيق القول بالهذيان، ودفع المحكمات من الآيات بسائر الظنون والتخرصات، «فإن من الكلام المنهيِّ عنه الخوضَ في الدين بالبدع والضلالات»(١)، قال الراغب الأصفهاني مقرراً هذا المعنى: «وأكثر ما ورد في القرآن، ورد فيما يذَّمُ الشروع فيه»(٢)، وقد أكدّ ذلك أيضاً الزمخشري بقوله: «غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب»(٣)، وقد اشتهر الخوض في القرآن الكريم إطلاقه على الجدال المذموم، والخصام في الحقّ، والشروع في الباطل، وما لا ينبغي فيه ذلك(٤).

ومن هنا نعلم أنّ الخوض في الدين، مشابه للمراء في الدين، من حيث الكلام في المسائل المتعلقّة بما يجب الإيمان به، والوقوف عنده، من غير تمحّل ولا مجادلة، كما أنه يفترق عنه في كونه لا يراد منه المماراة التي من معناها: إحفاظ المُمارى، وإثارة غضبه واستحلاب ما عنده، فالخوض مجرد اندفاع في غير الحقّ، وشروع في لجّة الباطل، وقد يصاحبه كلامٌ بلا علم، ومخاصمة في الحقّ بعدما تبيّن، وسلوك لطريق من ضلَّ عن سواء السبيل، وهذا المعنى انطلاقاً من الأصلي اللغوي، وما شاع من استعمال هذه اللفظة "الخوض" فكأنَّ الخوض من هذا الوجه، فقد بعض أوصاف المراء.

---

(١) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٤٥٤، تحقيق د محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ١٦٦.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٥/ ٦٢٤، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٢٧، و ٤/ ٦٥٦، وينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٣٢٨.

• **الخصام.**

هذه المادّة ترجع إلى أصلين، هما:

الأوّل: المنازعة، والاسم منه الخصومة، والخصم الذي يخاصم وهو المنازع، والذكر والأنثى وكذا الجمع والمثنّى فيه سواء، يقال: خاصمه خصاماً ومخاصمة، فخصمه يخصمه خصماً، أي غلبه بالحجة، والمصدر منه الخصام، وخصمك الذي يخاصمك، والجمع منه الخصوم، والخَصِيم كالخصم، والجمع خُصَماء وخُصمان، يقال: رجل خصِم أي جدِل، والخصِم بكسر الصاد، هو الرجل الشديد الخصومة العالمُ بها.

وقيل بالفرق بين الخصِم والخصيم، فالخصِم: العالم بالخصومة، وإن لم يخاصم، والخصيم: الذي يخاصم غيره، وقيل للخصمين: خصمان، لأخذ كل واحد منهما في شق من الحجاج والدعوى، يقال: هؤلاء خصمي وهو خصمي، ويقال أيضاً: أخصمت فلاناً، أي لقّنته حجته على خصمه.

والثاني: الخُصْم، بضمِّ الخاء وإسكان الصاد، وهو الجانب، وجانب كل شيء: خُصم، وكذا يطلق على الزاوية، ويقال: أخصام الوعاء وخصومه، أي: جوانبه، وخصوم السحابة جوانبها، ويقال: أخصام العين، وهو ما ضُمَّتْ عليه الأشفار، والأُخْصُومُ بالضّم: عروة العِدل، ويطلق على أصول الأودية وأفواهها: الخصوم(١).

وبالنظر إلى هذين الأصلين لمعنى هذه الكلمة، نجدها ترجع إلى أصل واحد،

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٣٠٠، المحكم والمحيط الأعظم ٥/ ٦٦، ولسان العرب ١٢/ ١٨٠، وتاج العروس ٣٢/ ١٠٠، وتهذيب اللغة ٧/ ٧٢، ومختار الصحاح، ص ١٦٧، وأساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ١/ ٢٥١، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

وذلك أن الخصم يطلق على جانب العِدْل، وهو مائل إلى أحد الناحيتين، وكذلك الحال بالنسبة للمخاصم المنازع، فكأنَّه بخصومته مائلٌ إلى شقٍّ وجانبٍ مغايرٍ لما عليه خصمه، فعلى هذا، رجع أصل الكلمة إلى أصل واحد، وهو جانب الشيء[١]، وهذا ما قرره الراغب الأصفهاني حيث قال: «وأصل المخاصمة: أن يتعلق كلُّ واحدٍ بخصم الآخر، أي: جانبه»[٢].

هذا ما يُذكر في معنى الخصام من حيث الدلالة اللغوية، وأما ما يقال في المعنى الاصطلاحي للخصام: «هو القول الذي يُسمع المصيخ، ويولج في صماخه ما يكفه عن زعمه ودعواه»[٣].

وقال الطاهر ابن عاشور: «الاختصام: افتعال من الخصومة، وهي الجدل والاختلاف بالقول»[٤].

وذكر النووي: أنَّ الخصومة لجاجٌ في الكلام ليستوفيَ المخاصم بها مقصودَه[٥].

وعندما ننظر في بعض الآيات من القرآن الكريم، نجد أن الخصام يأتي فيما يذمُّ غالباً، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[٦]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٧]، ويقول

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٣٠٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ١٥٥ .

(٣) التعاريف، ص ٣١٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٧/ ١٩٢.

(٥) ينظر: الأذكار، ص ٣٤٦.

(٦) سورة النحل آية (٤).

(٧) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾(١)، ويقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾(٢).

والخصام قد يأتي فيما ليس مذموماً، ولكنه قليل بالنسبة لما سبق، قال الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٣)، قال ابن كثير(٤): «أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه»(٥).

ولا ريب أنّ مخاصمة أهل الباطل في الحقّ كيما يستقيموا عليه، أمرٌ مندوبٌ إليه في الشرع، وقد جاء في الكتاب العزيز قول الله ﷻ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾(٦)، ففريق من المؤمنين اختصموا مع فريق من المشركين في دين الله ﷻ وأمره، فالمؤمنون مُحِقّون، والكفار

---

(١) سورة البقرة آية (٢٠٤).

(٢) سورة النساء آية (١٠٥).

(٣) سورة ص آية (٦٩).

(٤) هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء _ ولد عام ٧٠٠هـ، وتوفي عام ٧٧٤هـ _ فقيه مؤرخ مفسر، له من الكتب: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، والفصول في سيرة الرسول. ينظر: (طبقات المفسرين، للأدنروي ١/ ٢٦٠، وذيل تذكرة الحفاظ، لمحمد بن علي الحسيني ص ٧٥، دار إحياء التراث العربي).

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٢/ ١٠٧.

(٦) سورة الحج آية (١٩).

مبطلون[١].

والشاهد أنّ المؤمنين خاصموا الكافرين لكي يؤمنوا بالله ﷻ، وهذا فيه الخصام بالحقّ.

ومن هنا نتبيّن أن الخصام أكثره يكون في غير الحق، ومنه ما يأتي في سبيل تقرير الحقّ.

وإذا أردنا الفرق بين الخصام والمراء، وجدنا أنّ المراء سبق تعريفه: بأنه المخاصمة[٢]، وكذلك تعريف الجدال بأنه اللّدد في الخصومة، والقدرة عليها، ويقال رجل جِدل، أي: خصم[٣].

ومن هنا نعرف وشيجة القربى بين المراء والخصام، وأنه يطلق أحدهما على الآخر، فالخصام يأتي بمعنى المراء، والخصام لا يأتي إلا فيما يذمُّ غالباً[٤]، بخلاف المراء فإنه مذموم مطلقاً.

- **المناظرة.**

المناظرة مشتقة من النظر، وهذه الكلمة لها أصل واحد ترجع إليه، وهو التأمل في الشيء ومعاينته، ويقال على سبيل المجاز: نظرت إلى الشيء، وأنظر إليه، إذا عاينته بالعين

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري ١٢٣/٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

(٢) ينظر: صفحة ٢٧.

(٣) ينظر: صفحة ٤١.

(٤) ينظر: أصول الإيمان، ص ٢١٤، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق د فيصل الجوابرة، دار الرسالة.

الباصرة، ومن هذا الأصل تفرَّعت مفردات معاني هذه اللفظة، وهي ثلاثة معاني على هذا النحو:

الأول: النظر الذي هو الحاسّة المعروفة بالإبصار، ومنه قول الله ﷻ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١]، قال ابن كثير: «تراه عياناً»[٢].

والنظر بهذا المعنى إذا عُدّي بحرف الجرّ "إلى" لم يحتمل إلا نظر العين.

الثاني: النظر بمعنى الانتظار، قال ابن منظور: «النظـــر الانتظار يقال نظرت فلانـــاً وانتظرته بمعنى واحد»[٣]، ومنه قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾[٤]، قال البغوي: «تقول العرب: انْظُـرْني وأَنْظِرْني، يعني انتظرني»[٥]، ومنه قول الشاعر:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا[٦].

الثالث: النظر بمعنى التفكر في الشيء، وتقليب الفكر فيه، وهو فكر القلب ونظره، كما ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى في قول الله ﷻ: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ

---

(١) سورة القيامة آية (٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير ١٤/ ١٩٨.

(٣) لسان العرب ٥/ ٢١٦.

(٤) سورة الحديد آية (١٣).

(٥) معالم التنزيل ٤/ ٣٢٥.

(٦) القائل عمرو بن كلثوم في معلقته. ينظر: جمهرة أشعار العرب، ص ١٨٣.

(٧) سورة النمل آية (٣٣).

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١]، وهذا النوع إذا عُدّي بحرف الجرّ "في" فالمعنى فيه ما تقدّم.

والتناظر هو التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره، والنظير هو المثيل، وناظره من المناظرة، كأنّهما تماثلا في إيراد الحجة[٢].

فالمعنى اللغوي للمناظرة: المقابلة بين اثنين كلٍّ منهما ينظر إلى الآخر، أو كلٌّ منهما ينظر بمعنى يفكر، والمعنى الاصطلاحي للمناظرة: المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كلٌّ منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر، مع رغبة كلٍّ منهما في ظهور الحق.

وأيضاً تأتي المناظرة بمعنى: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين شيئين إظهاراً للصواب[٣]، وتكون المناظرة على وجه المباحثة والمباراة في النظر، واستحضارِ كلِّ ما يراه يراه ببصيرته[٤].

وقد يكون القصد من المناظرة ظهور الحقّ، والوصول إلى الصواب فيما جَرَتْ فيه المناظرة، وهي على هذا المعنى لا خوفَ منها، ولا يخشى من عواقبها، وهذا هو الأصل فيها، وقد اسُتعمل أسلوب المناظرة في تقرير العقيدة الصحيحة وإبطال ما يضادّها،

---

(١) سورة النمل آية (٦٩).

(٢) ينظر: لسان العرب ٥/ ٢١٥، وتاج العروس ١٤/ ٢٤٤، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٤، ومختار الصحاح، ص ٥٣٧، ومعجم مقاييس اللغة، ص ٩٩٧.

(٣) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٦٧٨، وآداب البحث والمناظرة، ص١٣٩، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص٤٩٩، والحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٧، للباحث يحيى بن محمد زمزمي، دار المعالي، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

وأهل السنة والجماعة لهم إسهامات كبيرة في المناظرات في تقرير الحق والردّ على أهل البدع[(١)].

والمناظرة بهذا المعنى مغايرة لمفهوم المراء الذي ينشأ منه الخصام والجدال المفضي إلى ما نُهي عنه في الشرع.

وأما الحكم التكليفي للمناظرة، والأصل في مشروعيتها، فقد قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «والأصل في مشروعية المناظرة قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[(٣)]، قوله: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾[(٤)]، فأقلُّ مراتب حكمها: الجواز، إن كانت على الوجه المطلوب، وقال بعضهم: باستحبابها، وقيل: إن القدر الذي يلزم لإبطال شبه خصوم الحقّ فرض كفاية، وليس ببعيد، والله أعلم»[(٥)].

إلا أن إمام الحرمين أبا المعالي الجويني[(٦)]، له رأيٌ مخالف لما تقدّم، حيث يرى أنه لا

---

(١) ينظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، للدكتور عثمان علي حسن ٢/ ٧٧١.

(٢) سورة النحل آية (١٢٥).

(٣) سورة العنكبوت (٤٦).

(٤) سورة الفرقان آية (٣٣).

(٥) آداب البحث والمناظرة، ص ١٤٠.

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي إمام الحرمين _ ولد عام ٤١٩هـ ، وتوفي عام ٤٧٨هـ _ فقيه شافعي أصولي متكلم، له من التصانيف: الورقات في أصول الفقه، ونهاية المطلب في المذهب، والشامل في أصول الدين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، وطبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ١/ ٢٧٥).

فرق بين الجدال والمناظرة، من حيث المعنى الاصطلاحي، وإن كانا مفترقين من حيث اللغة، ثم يقرر أبو المعالي بعد ذكر المعنى اللغوي للجدل، وأن مرجعه إلى الإحكام، أنَّ المناظرة أيضاً كذلك، فيقول: «المناظرة: منزّلةٌ على معنى الإحكام في تبيين ما يصير إليه كلُّ واحد من الخصمين، ثم يكون النزاع بين الخصمين مرة في الحكم، وأخرى في علة الحكم، والمناظرة بينهما في الأمرين صحيحة»(١).

وقد جاء عن بعض العلماء: أنَّه جعل المناظرة، من قبيل المراء والجدال والخصومة، وهذا يبيّن أن من المناظرة ما تكون من الجدال والمراء، إذا خرجت عن مقصودها، ومن هنا نعلم أنّ من المناظرات، مناظراتٍ أُلبست لباس الخصومة والمراء، وهي على هذا الوجه، منهيٌّ عنها، قال الإمام أبو محمد البربهاري(٢): «وإذا أردت الاستقامة على الحق وطريق أهل السنة قبلك فاحذر الكلام، وأصحاب الكلام والجدال والمراء والمناظرة في الدين»(٣)، والإمام البربهاري جعل المناظرة في الدين، على نحو ما يكون في المراء والجدال في الدين، الذي نشأ منه الاختلاف فيما لا يسع فيه إلا الوفاق، والتسليم لمقتضيات نصوص الوحيين.

---

(١) الكافية في الجدل، ص٢٢، تحقيق د فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، سنة الطبع ١٣٩٩هـ.

(٢) هو الإمام الحسن بن علي بن خلف البربهاري، أبو محمد _ ولد عام ٢٣٣هـ، وتوفي عام ٣٢٩هـ _ شيخ الحنابلة في وقته، كان شديد الإنكار على أهل البدع بيده ولسانه، له من المؤلفات: شرح السنة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠، وطبقات الحنابلة، لأبي يعلى ٣/ ٣٦، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دارة الملك عبد العزيز، سنة الطبع ١٤١٩هـ).

(٣) شرح السنة، ص ١١٨، تحقيق خالد بن قاسم الردادي، دار الصميعي، الرياض، الطبعة السادسة ١٤٢٦هـ.

وعلى هذا يقال: إنّ الأصل في المناظرة في الدين، أن تكون فيما هو محمود، ولكنها قد تخرج عن هذا المسار الصحيح، إلى بنيّات الطريق والمسالك المعوجّة، ولهذا حذّر بعض أئمة العلماء منها، دفعاً لشرّها، ودرءً لعواقبها الوخيمة.

قال أبو حامد الغزالي –في بيان آفات المناظرة وما يتوّلد منها من النتاج الوبيل، التي هي من قبيل المراء والجدال– : «اعلم وتحقّق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة، واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة، من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها، كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة، من الزنا والقذف والقتل والسرقة»[1]، ثم ذكر ما يكون من آفاتها، من الحسد والتكبرّ والحقد والغيبة وردّ الحق ونحو ذلك مما هو معلوم تحريمه في الشريعة[2]، وهذا كما سبق فيما إذا كانت المناظرة في معناها، كالمراء والجدال.

• **الحوار.**

الحوار لون من ألوان الكلام الهادئ، الذي ليس فيه خصومة، وهذه اللفظة "الحوار" أصل اشتقاقها من مادّة "حَوَرَ" بثلاث فتحات، وهذه المادّة لها أصول ثلاثة من حيث المعنى هي:

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٦١.

(٢) ينظر: المصدر السابق ١/ ٦١ _ ٦٦.

الأول: مـــا يدلّ على لون، وهو شدّة بياض العين في شدّة سوادها، ويقال لنساء الجنة: الحور العين؛ لاتصافهنَّ بذلك، ومن ذلك قيل للصاحب المصافي والناصر الموالي: حواريّ، وجاء في الحديث قال النبيُّ محـــمد ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً وإن حواري الزبير بن العوام»[١]، والحـــواريُّ: هو من خاصّة الأنبياء، الذي أخلصوا الحبَّ لهم، وخَلَصوا من كلِّ عيب، ومن ذلك أيضاً: الدقيق الحـــواري، الذي نُخِل وصُفّي من القشور[٢].

ومن هذا المعنى سمّي أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين، قال الله عز وجل -حكاية عن قول عيسى عليه السلام- : ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٣]، فأطلق على كل ناصر: حواريّ من هذا الباب، وأصله من الشيء الخالص، وكلُ شيءٍ خَلَصَ لونه، فهو حواري، وقيل: الحواريون هم خلاصة صفوة الأنبياء من أصحابهم، والحوريات من النساء البيض، وكذلك الحواري من الطعام الأبيض منه.

الثاني: الرجوع، ويشمل الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: حار إذا رجع، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[٤]، أي يرجع، وكل شيء تغير من حال إلى حال،

---

(١) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله، أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه، (٣٧١٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير، (٢٤١٥).

(٢) ينظر: كتاب: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي ١/ ٢٣٥، تحقيق د محيي الدين مستو، ويوسف علي بديوي، وأحمد محمد السيد، ومحمود إبراهيم بزّال، دار الفكر بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٩هـ.

(٣) سورة آل عمران آية (٥٢).

(٤) سورة الانشقاق آية (١٤).

فقد حار يحور حوراً، ومن ذلك قول الصحابي الجليل لبيد بن ربيعة العامري ﷺ:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

يحور رماداً بعد إذ هو ساطع[١].

والحور: النقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال، ومنه ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ إذا سافر استعاذ بالله ﷻ من الحور بعد الكور[٢]، أي من النقصان بعد الزيادة[٣].

وأَصْل التَّحْوير في اللّغة، من حار يَحُورُ، وهو: الرجوع.

الثالث: هو دوران الشيء، ومن ذلك يقال: المحور الذي تدور فيه المحّالة وهي خشبة مستديرة توضع على قرني البئر لاستخراج الماء[٤].

والحوار في الاصطلاح هو «نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الأخر، ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والتعصب»[٥].

---

(١) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري ٣/ ٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج مسافراً، (٣٤٣٩)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الحور بعد الكور، (٥٥٠٠)، والإمام أحمد في مسند عبد الله بن سرجس، (٢٠٧٨١)، ٣٤/ ٣٧٦، وصححه الألباني ينظر: صحيح وضعيف الترمذي، (٣٤٣٩) مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٢٤٠.

(٤) ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ١/ ٤٦٣، للسمين الحلبي، تحقيق محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، وتفسير الطبري ٣/ ٢٨٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ص٢٤٠، والقاموس المحيط، ص ٣٨٠، ولسان العرب ٤/ ٢١٧.

(٥) أصول الحوار، ص ٦، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

والمحاورة تتضمن مراجعة الكلام وتقليبه واستظهار أوجه الصواب فيه، ولهذا قيل في الحوار أنه: «التراجع في الكلام، والتجاوب فيه بالمخاطبة والردّ»(١).

والحوار بهذا المفهوم يرجع إلى أصل من أصول مادّة"حَوَرَ"وهو الرجوع، والحوار في حقيقته: هو مراجعة الكلام والمجاوبة فيه(٢).

وقد ورد الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي:

قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾(٣).

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾(٤).

قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾(٥).

والحوار على هذا، ليس فيه ما يذمّ، لأنّه يكون في سياق مراجعة الكلام؛ لإظهار مواطن الصواب، ويغلب عليه الهدوء، وليس فيه خصومة ولا لدد، وهو في الواقع «ضرب من الأدب الرفيع، وأسلوب من أساليبه»(٦).

وعلى ضوء ما تقدم، يتبين أنَّ الحوار يختلف عن المراء بأمور:

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، ص ٢٠، ليحيى زمزمي.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة ٥/ ١٤٦، وتاج العروس ١١/ ١٠٨، والعين ٣/ ٢٨٧.

(٣) سورة الكهف آية (٣٤).

(٤) سورة الكهف آية (٣٧).

(٥) سورة المجادلة آية (١).

(٦) مناهج الجدل في القرآن، ص٢٥.

أولاً: أنّ المراء فيه خصومةٌ واقتداحٌ لزند الغضب والملاحاة، والحوار ليس كذلك.

ثانياً: أنّ المراء لا يُراد منه التوصّل إلى الحقِّ، بقدر ما يُراد منه التشكيك والطعن في كلام الغير؛ لإظهار النقص فيه، وهذا لا يكون في الحوار.

ثالثاً: أن في المراء تكذيباً لقول القائل وردٌّ له، والحوار فيه استطعامٌ للكلام واستظهارٌ لأوجه الصّحة فيه.

خلاصة المبحث:

مفهوم المراء في الدين، له مرادفات ومفاهيم تشترك معه من بعض الوجوه، وتلتقي معه في سبيلٍ غايتُها واحدة، وبين تلك المفاهيم رحم ماسّة، ونتعرّف أيضاً على أن مفهوم الحوار ليس من هذا الباب، وأن ما عداه من تلك المفاهيم فيها نوعٌ وضربٌ من المراء، وبيان ذلك على هذا النحو:

١. الجدال، الذي هو بمعنى الجدال المذموم وهو القسم الثاني من أنواعه، وهو بمعنى المراء.

٢. المحاجة، واستعمالها في الغالب، فيما هو من معنى المخاصمة بالباطل، على نحو ما يكون في المراء والجدال المذموم.

٣. الخوض، أكثر ما ورد في القرآن الكريم منه، ذمُّ الشروع فيه، واشتهر إطلاقه على الجدل المذموم، لما فيه من الاندفاع في الباطل والكذب، فهو من هذا الوجه لون من ألوان المراء.

٤. الخصام، والغالب على إطلاقه فيما هو من معنى المراء، فهو من ذوي رحمه وقرابته.

٥. المناظرة، منها ما يكون من قبيل المراء، وقد فُسّر المراء بها، ولكن إطلاق المناظرة على المراء قليل، حيث إن الأصل فيها، خلاف ما يكون في المراء من اللّدد والخصومة.

وهذه المفاهيم كلها مع مفهوم المراء في الدين، تجتمع في رحم واحدة، وتسقى من ماء آسن، ووشيجة القربى بينها، الجَرْأَةُ على مسلمات الشريعة، بتلك التمحلات البغيضة، والتقعّر المقيت بالسؤآلات التي من شأنها أن تزعزع الإيمان وتُضعِف التسليم، حيث وقع ذلك لمن بسط لسانه بالخوض والمراء في الدين، وتكلّف ما ليس في وسعه، وتعدّى حدود الشرع، وخاض في أمور هي أبعده منه من مناط العيّوق، وارتقى من ذلك مرتقىً لا تبلغه قواه، ولا يمكن أن يُدرِكَ منتهاه، أو يصل إلى شيءٍ من مرماه، حتى شُهِرَ عن بعضهم مقالاتٍ لا يُتصوّر أنْ يتفوّه بها مسلم!.

ومن تعاطى في دين الإسلام هذا البلاء، فقد ضرب بحظٍّ خاسر، وأخذ بقسط من الضلال وافر، حيث نبذ ما أُمر به وراءه ظهريّاً، وسلك في سُبُل العماية التي غايتها الغواية، يطلب الهدى من حيث يأتيه الضلال، ويلتمس الرشد من حيث موارد الوبال، وبذلك كلِّه، أنتجت ممارسةُ تلك المفاهيم الجدلية على نصوص الشريعة، ولائدَ مشؤمة على الأمة، ما زلنا نستحصد من بذورها الخلاف والفرقة تارةً، وتارةً أخرى يُتجَرَّعُ من كأسها حُمّيّا الزندقة، والتمرّدَ على الشِرْعَةِ الربانية، والمروق عن الدين، بالتحريف والتبديل، سواءً بسواء، كما فعل أهل التوراة والإنجيل.

وما أحسن وصف الإمام ابن بطة العكبري[١]، للمراء والجدال في الدين، حيث

---

(١) هو عبيدالله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله العكبري، المعروف بابن بطة _ ولد عام ٣٠٤هـ=

قال: «إنما هو لهو يتعلّم، ودراية يُتفكّه بها، ولذّة يستراح إليها، ومهارشة العقول، وتذريب اللسان بمحق الأديان، وضراوة على التغلب، واستمتاع بظهور حجة المخاصم، وقصد إلى قهر المناظر، والمغالطة في القياس، وبهت في المقاولة، وتكذيب الآثار، وتسفيه الأحلام الأبرار، ومكابرة لنص التنزيل، وتهاون بما قاله الرسول، ونقض لعقدة الإجماع، وتشتيت الألفة، وتفريق لأهل الملة، وشكوك تدخل على الأمة، وضراوة السلاطة، وتوغير القلب، وتوليد الشحناء في النفوس، عصمنا الله وإياكم من ذلك، وأعاذنا من مجالسة أهله»(١).

فمنذ قديم الزمن وحديثه من تاريخ البشرية، تخرج نابتة ممن لا خلاق لهم من علم، ولا نصيب لهم من هُدى، فيمدّون رُواق الكلام، بالجدل والخصام، فيما لا يجب فيه إلا التسليم والإذعان والوئام، حتى كُذّبت الرسل عليهم السلام، بل وقُتل بعضهم، وبعضاً أُوذي، ورُدّت الشرائع الربانيّة، كلُّ هذا من أسبابه: الجدل في الدين، والمراء في الشريعة، والخصام في الحقِّ بعد تبيانه، والخوض بتشقيق الكلام في ما يجب الوقوف عنده.

وهذا لا يختصّ بأمة دون أخرى، بل كان هذا البلاء واقعاً في الأمم التي بُعثت إليها الرسل، حيث تمردوا عليهم بأساليب شتى، وطرق مختلفة، ومن أبرز ذلك: المراء والجدل في الدين.

فقد استُخدم المراء أداةً لردِّ الحقِّ والمغالطةِ على الأنبياء والرسل، وإقعاداً من أولئك

=وتوفي عام ٣٨٧هـ _ عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة، له من المؤلفات: الشرح والابانة على أصول السنة والديانة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦، والأنساب، للسمعاني ١/ ٣٦٨، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ).

(١) الإبانة الكبرى ١/ ٣٧٦.

الممارين بكلِّ صراط يُوعِدون، ويصدّون عن سبيل الله ﷻ من آمن يبغونها عوجاً، حتى ضلَّ بذلك أكثر الخلق، وهذا كان في الأمم الغابرة التي قصّ الله ﷻ علينا في كتابه العزيز نبأها وخبرها، قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، قال ابن كثير: «وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات؟ وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين؟»(٢).

وهذه الأمة -أمة النبي محمد ﷺ- قد سلك بعض من ينتسب إليها مسلك الأمم السابقة في ذلك، فخاضوا وجادلوا وتماروا في دينهم، حتى ضلت فئام، وزلت بسببه أقدام، وانقسمت هذه الأمة إلى شيَعٍ وفرق، يضلّل بعضها بعضاً، وصدق عليها قول النبي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»(٣).

ونخرج من هذا الحديث مع حديث أبي أمامة ﷺ الآنف «ما ضلَّ قوم...»، أنَّ من أعظم أسباب تفرّق الأمة، واختلافها في عقيدتها، المراء والجدال، والخوض والخصام،

---

(١) سورة هود آية (١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٩١.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة، (٤٥٩٦)، وأخرجه الترمذي، في أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، (٢٦٤٠)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في أبواب= =الفتن، باب افتراق الأمم، (٣٩٩٢)، وابن حبان في صحيحه، باب بدء الخلق، (٦٢٧٤)، ١٤/ ١٤٠، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

بل إن من أعظم الوسائل التي استخدمها المكذبون للرسل، من الأمم المتقدمة، لإنكار الحق، هي المراء والجدال.

وهذا ما سيتضح -إن شاء الله تعالى- في الفصل الثاني.

الفصل الثاني

المراء في الدين عند أصحاب الديانات والملل والفلاسفة والمناطقة وانتقال ذلك إلى المسلمين.

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: المراء في الدين عند أصحاب الديانات والملل قبل أهل الكتاب.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: قوم نوح مع نوح عليه السلام.

المطلب الثاني: قوم عاد مع هود عليه السلام.

المطلب الثالث: قوم ثمود مع صالح عليه السلام.

المطلب الرابع: قوم شعيب مع شعيب عليه السلام.

المطلب الخامس: قوم إبراهيم مع إبراهيم عليه السلام.

المطلب السادس: قوم لوط مع لوط عليه السلام.

المطلب السابع: الأمم الغابرة مع أنبيائهم ممن لم تذكر قصصهم في القرآن.

المبحث الثاني: المراء في الدين عند اليهود.

و فيه مطلبان:

المطلب الأول: مراؤهم مع موسى عليه السلام.

المطلب الثاني: مراؤهم مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الثالث: المراء في الدين عند النصارى.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مراؤهم في عيسى وأمّه عليهما السلام.

المطلب الثاني: مراؤهم مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الرابع: مراء المشركين مع النبيِّ محمد ﷺ.

المبحث الخامس: المراء عند الفلاسفة والمناطقة.

المبحث السادس: انتقال المراء في الدين إلى المسلمين.

المبحث الأول: المراء في الدين عند أصحاب الديانات والملل قبل أهل الكتاب.

تمهيـــد

المراء في الدين، له جذوره وامتداده في الأمم السابقة، وقد قصّ الله ﷻ علينا من نبأهم وأخبارهم وحوادثهم وما جرى لأنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم معهم، وليس هناك خبر صادق ونقل موثوق لا يتطرّق إليه الشك في نقل أخبار من سبقنا من الأمم، مثل القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وتفصيل ما كان من شأن الأمم السالفة، وما اعتمدوه مع الرسل والأنبياء من الجدال والمراء، قد جاء في القرآن الكريم في غاية ما يكون من دقّة تصوير الحال وحكايتها، حتى كأنَّ القارئ يشاهد بعينيه ويسمع بأذنيه، ما كان من أمر القوم، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾(١).

وكذلك أيضاً ما صحَّ من سنّة رسول الله ﷺ، وعلى هذا فإن العمدة في تلك الأخبار، هو القرآن الكريم والسنّة الصحيحة.

وقد قصّ الله ﷻ من أخبارهم ما هو موطن العبرة والفائدة، ومن ذلك ما اعتمدوه مع أنبيائهم عليهم السلام لما جاءوهم بالبيّنات من ربهم، حيث جادلوهم بالباطل، وامتروا في الحق المؤيد بالمعجزات، الذي لا يكون معه إلا التسليم المطلق، والعجب أن كلَّ أمة

---

(١) سورة هود آية (٤٩).

تسلك في ذلك مسلك من سبقها، وتحذو حذوَ من تقدمها، كما قال الله ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[(١)]، ومن ذلك أنهم لما أنعم الله ﷻ عليهم بأعظم منّة، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، ودلالتهم عليه، أخذوا في المراء والجدال والخصام مع أنبيائهم ورسلهم، كفراً لما جاءوا به من عند الله ﷻ من الحقّ، وتعنّتاً في الدين بعدما تبيّن لهم، والله ﷻ لم يرسل الرسل، إلا مبشرين ومنذرين، قال الله ﷻ:﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[(٢)]، والمعنى: «ولم نرسلهم ليقترح عليهم الآيات، بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة»[(٣)]، وكان الواجب عليهم وعلى أمثالهم، أن يقابلوا هذا الفضل العظيم، بما يجب من الشكر، لا بالتكذيب والجدال والمراء، والتعنّت بسؤال الآيات فيما ظهر صدقه، وبان علمه، قال الله ﷻ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[(٤)]، والمراد أن أولئك الجهلة جعلوا شكرهم على رزقهم، وهو ما جاءت به الرسل من عند الله ﷻ أنهم كذبوا به وأنكروه، ظلماً وعلوّاً[(٥)].

فالأمم السابقة لها قصب السبق في هذا المضمار البغيض، إلى أنْ ورثه منهم من أتى بعدَهم، ممن هو على شاكلتهم، حتى انتقل هذا الداء إلى هذه الأمة -أمة محمد ﷺ- قال الله ﷻ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ

(١) سورة الذاريات آية (٥٣).

(٢) سورة الأنعام آية (٤٨).

(٣) مدارك التنزيل، وحقائق التأويل، لأبي البركات النسفي ١/ ٥٠٥، تحقيق يوسف علي بديوي، د محيي الدين مستو، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٩هـ.

(٤) سورة الواقعة آية (٨٢).

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير ١٣/ ٣٩٢.

بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[1].

ومن خلال مباحث هذا الفصل يتجلّى لنا -بإذن الله ﷻ- ما كان يعتمده المكذبون للرسل من الأمم الماضية، من المراء في الدين، والجدال بالباطل، ليدحضوا به الحق، وحتى مع خاتم الأنبياء محمد ﷺ، حيث تعنّت عليه المبطلون، وتماروا فيما جاء به من الحقّ، وخاضوا وجادلوا فيما لا يسعهم إلا أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[2].

ثم إذا نظرنا في هذه الأمة المحمدية، بعد استقرار الشريعة، وانتشار الإسلام في الأرض، حتى دخل كلَّ بيت من حجر ومدر، ودخلت فيه الأمم المختلفة، وجدنا أن المراء في الدين، قد أخذ مكانه بينهم، وحلَّ منهم بموضعٍ ساءت عواقبه، وهذا موروثٌ من الأمم السابقة غير مفروح به، دخل على المسلمين بسببه من البلاء ما الله ﷻ به عليم، وكان انتقاله إلى المسلمين له كيفيّته التي سيأتي بيانها -بحول الله ﷻ- في المبحث السادس من هذا الفصل.

---

(١) سورة التوبة آية (٦٩).

(٢) سورة آل عمران آية (٧).

المطلب الأول: قوم نوح مع نوح عليه السلام.

نوح عليه السلام، هو أول الرسل أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض كما جاء في حديث الشفاعة الطويل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض»[١]، ونسب نبي الله نوح عليه السلام، هو: نوح بن لامك بن متوشلخ ابن خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام، فبينه وبين آدم عليه السلام سبعة أجداد[٢]، وجاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبيٌّ كان آدم؟ قال: «نعم مكلّم» قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»[٣]، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق»[٤].

ولقد كان الناس بعد آدم عليه السلام على التوحيد والدين الحقِّ عشرة قرون، حتى وقع

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ (٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١٩٤).

(٢) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير ١/ ٢٣٧.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب بدأ الخلق، ذكر الإخبار عما كان بين آدم ونوح صلوات الله عليهما من القرون، (٦١٩٠)، ١٤/ ٦٩، وقال شعيب الارناؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في مستدركه، (٣٠٣٩) ٢/ ٢٨٨، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، (٤٠٣) ١/ ١٢٨، تحقيق طارق بن عوض الله، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٦٥٤)، ٢/ ٤٨٠، وقال الذهبي: على شرط البخاري، والبزار في البحر الزخار، ١١/ ٩٩، (٤٨١٥)، تحقيق د محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

فيهم الشرك، فبعث الله ﷻ النبيين لهداية الخلق، كما قال الله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١)، قال البغوي: «كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح، وكان بينهما عشرة قرون، كلُّهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح، فبعث الله إليهم نوحاً»(٢)، فكان ﷺ أولَ نبيٍّ بُعث، ثم بعث الله ﷻ من بعده المرسلين والنبيين.

ولبث نوح ﷺ في قومه يدعوهم إلى الله ﷻ كما قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾(٣)، وهذا العمر المديد الذي مكثه نبي الله نوح ﷺ بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ﷻ ليلاً ونهاراً، سّراً وجهاراً، لم يؤثر فيهم، إلا العناد والشقاق، والكفر بالله ﷻ، بل ولم يلدوا إلا مثلهم في الكفر، والتعنّت على أمر الله ﷻ، حتى حقّت عليهم من الله ﷻ كلمةُ العذاب، وأعذر الله تعالى إليهم بالحجة، فحينئذٍ دعا نبي الله نوح ﷺ بهذه الدعوة العظيمة على قومه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(٤)، وذلكم حين ما كان من أمرهم ما وصفه الله ﷻ أنهم: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

(١) سورة البقرة آية (٢١٣).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٠٠.

(٣) سورة العنكبوت آية (١٤).

(٤) سورة نوح آية (٢٦).

﴿وَنَسۡرٗا﴾ (١).

ولما سبقت عليهم من الله ﷻ الشقاوة، أنزل بهم بأسه، الذي لا يردُّ عن القوم الظالمين، فأمر السماء أن تُنزل الماء، والأرضَ أن تفور به، حتى التقى الماء على أمرٍ قدّره القوي العزيز، فأهلكهم الله تعالى بالغرق، ونجّا الله تعالى نوحاً ومن معه من المؤمنين على الفلك، وقال الله ﷻ لنوح عليه السلام لما أهلك الله تعالى القوم الكافرين: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(٢).

هذا مجمل تلك القصة التي جاءت مبسوطةً في القرآن الكريم (٣).

وأما ما يتعلّق بمرائهم ومجادلتهم ومخاصمتهم لنوح عليه السلام فهذا أوان الشروع فيه، وبالله تعالى التوفيق.

سبق معنا أن المراء يأتي على معانٍ وهي: الجدال والمخاصمة والشك والتردّد في الأمر والجحدُ للحق والاعتراض على الكلام طعناً فيه وازدراءً لقائله، وبالنظر إلى ما كان يتعاطاه قوم نوح مع نوح عليه السلام، حين بلّغهم دعوة الله ﷻ، نجد أنّهم قد استوعبوا تلك

(١) سورة نوح آية (٢٢).

(٢) سورة هود آية (٤٨).

(٣) ينظر: تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري ١/ ١١٢، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، والبداية والنهاية، ١/ ٢٨٢، والكامل في التاريخ، لابن الأثير ١/ ٦٢، تحقيق د عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ، وتاريخ ابن الوردي ١/ ١١، لعمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١/ ٢٣٩، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

المدلولات والمعاني التي تحويها كلمة"المراء"وعند التأمل والنظر في قصة نوح ﷺ في القرآن الكريم، نرى تلك الآيات وهي تصّور لنا، تمحُّلَ قوم نوح ومجادلتهم له، ومعاناة نوح ﷺ من مرائهم وشدَّة خصامهم -مع أنهم أوّل أمة بُعث فيهم رسول إلى أهل الأرض- الأمر الذي كانت نهايته أن دعا عليهم نوح ﷺ بدعوةٍ أهلكت منهم الأخضر واليابس، وتركتْ ديارَهم منهم بلاقع، لا تسمع فيها حسيساً، ولا ترى منهم أنيساً.

مراء قوم نوح ﷺ لنوح.

لمّا واجه نوح ﷺ قـومَه بالدعـوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال لهـم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1]، وقال لهم أيضا: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]، وكان من سوء صنيعهم أنْ اعترضوا على نوح ﷺ، بمعارضات باردة، ومجادلات عقيمة، ومراء في الدين، كانت عواقبه وخيمة، وخاصموه أشدَّ المخاصمة، وردّوا عليه بما يعلمون بطلانه من أنفسهم، وكان مراؤهم وجدالهم وخصومتهم مع نوح ﷺ، وخوضهم في الدين، على هذا النـحو التالي:

١. ادَّعوا أنَّ نوحاً ﷺ في ضلال مبين، وقالوا له -فيما حكاه الله ﷻ عنهم-:

---

(١) سورة الأعراف آية (٥٩).

(٢) سورة الشعراء الآيتان (١٠٦_ ١١٠).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[(١)]، «والضلال هو العدول عن طريق الحق والذهاب عنه، أيْ: إنا لنراك في دعائنا إلى إله واحد، في ضلال عن الحقّ»[(٢)]، وهذا الادّعاء ضرب من التمحّل بالمراء والجدال والمخاصمة والتشغيب على نبي الله نوح ، ردّاً لقوله، إذ لا يَتصّور أحدٌ أن من دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أن يكون على ضلال! والعجب أيضاً، أن يوصف الضلال أنه مبين في غاية الوضوح، وهذه المجادلة والمماراة على هذا النحو، هي حال الفجار وسائر الكفار، يرون المؤمنين في ضلالــة، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[(٣)(٤)]، ومن نافلة القول، أنه لا أحدَ يظنُّ أن أكمل البشر وهم الرسل ، في ضلال مبين، اللهم إلا أن يكون ذلك على وجه مدافعة الحق، والاعتراض عليه بما هو غايةٌ في البطلان، ومن هنا نجد أن المُماري لا يبالي أن يسلك في ذلك ما هو من قبيل الهذيان، والإمعان في الخذلان.

٢. ومن مماراتهم أنَّهم جادلوه في كونه من جملة البشر، فكيف -والحالة هذه- يكون نبيّاً مرسلاً؟ قــال الله ﷻ -حكــايةً عن أسيادهم وأشــرافهم- : ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[(٥)]، والملأ هم السادة

(١) سورة الأعراف آية (٦٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٦١.
(٣) سورة المطفِّفين آية (٣٢).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٧.
(٥) سورة هود آية (٢٧).

والأشراف، ومعنى ما قالوه: أنَّ نوحاً ﷺ «آدميٌّ مثلهم، في الخلق والصورة والجنس، كأنّهم منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولاً إلى خلقه»(١)، وهذا هو المناسب أن يرسل الله تعالى إلى البشر رسولا منهم ومن جنسهم، ولو كان من غيرهم فلربّما أدّى اختلاف الجنس إلى تنافر الطبع، وعدم موائمة الحال، ولهذا أنكر الله ﷻ عليهم تلك المجادلة، وصرف أنظارهم عن هاتيك المخاصمة، وقال لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢)، «والهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنّه قيل: أكذبتم وعجبتم!»(٣)، والحامل لهم على هذا، أنّهم استبعدوا أن يُختصَّ نوحُ ﷺ عنهم بفضيلة، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: كامل الرجولة بحيث لا يتهمونه، ولا يمترون فيه، لوصفه بالرجولة التي تقتضي كمال الأوصاف والمناقب، وقال أيضا: ﴿مِّنكُمْ﴾ لتوكيد ذلك المعنى و"من" هنا بيانية، ولكنّه المراء الذي أعمى قلوبهم(٤)، حيث

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٢٨.

(٢) سورة الأعراف آية (٦٣).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري ٢/ ٤٥٦.

(٤) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ٣/ ٤٩، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ، وفتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق حسن خان ٢/ ٥٣٢، تحقيق إبراهيم شمس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، وفتح القدير، للشوكاني ٢/ ٢١٦، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي ٨/ ٥٤٥، تحقيق محمد الأمد، وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، والعذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٥٦، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق خالد السبت، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.

تفــوّهوا بمقــالتهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(١)، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبــوّة أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضــله عليكم، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضــة لا زالت موجودة في مكذبي الرســل»(٢).

ولا ريب أن هذه المجادلة والمراء في كونه بشراً، والبشر لا يكون رسولا، مراءٌ في الحقّ بعدما تبيّن، وهو نوع من أنواع المراء -كما سيأتي إن شاء الله تعالى- فظهور المعجزات على يدي الرسول، دامغٌ لحجّة كل من أنكر الرسالة، وليس ثَمَّ خيارٌ إلا الإيمان، وهم لم يعترضوا على عدم وضوح الرسالة بأدلَّتها، بل اعترضوا على أمر خارج عنها، وهو كون الرسول بشراً، فهم مقرّون ضمناً أنه رسول، ولكن جادلوه في كونه بشراً، ومن ثَمَّ فاعتراض المكذبين على بشريّة الرسول، مراءٌ ومخاصمة، حملهم على ذلك الحسد والكبر.

٣. ومن جدالهم: أنهم اقترحوا إنزال الملائكة بعد مجيء الآيات وظهور المعجزات، حيث اعترضوا على نبيّ الله نوح عليه السلام، أن الله عز وجل لو شاء لأنزل ملائكة من السماء يدعونهم إلى عبادة الله تعالى، حيث لا يليق -في زعمهم- أن يكون الرسول بشراً كما سبق، وهنا اعترضوا بالمشيئة لله عز وجل، أنه لو شاء لأنزل ملائكة، بدلاً من البشر، قال الله عز وجل حكاية عنهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾(٣)، «وهذه

(١) سورة المؤمنون آية (٢٤).

(٢) تفسير ابن سعدي ٣/ ١١٢٦.

(٣) سورة المؤمنون آية (٢٤).

معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان»[(١)]، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[(٢)]، ولا ريب أن طلبهم إنزال الملائكة، نوع من المراء بالجدال والخصومة، والتعنّت على الحقِّ بعد ظهوره، وهم بعد أن مهّدوا لنوح ﵇، بأن البشرية مانعةٌ من أن يكون صاحبها رسولاً لله تعالى، ذكروا أن هذا المنصب لا يصلـــح له أحدٌ إلا أن يكون مَلَكاً، وهذا ليس إليهم، ولا إلى أحد من الخلق، فإذا تقررت الرسالة، وجب اتباع الرسول[(٣)].

٤. ومن مماراتهم له ﵇ دعواهم أنّه ما اتّبعوه من قومهم إلا الأراذل ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾[(٤)]، «ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الملأ من قوم نوح قالوا له: ما نراك اتّبعك منّا إلا الأسافل والأراذل، وذكر في سورة الشعراء أن اتباع الأراذل له -في زعمهم- مانعٌ لهم من اتباعه بقوله:

---

(١) تفسير السعدي، ٣/ ١١٢٦.

(٢) سورة الأنعام آية (٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٢٠٩، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٤، وتفسير ابن كثير١٠/ ١٢٠، والتحرير والتنوير ٨/ ٤٢، ونظم الدرر ٥/ ١٩٥، وفتح البيان ٤/ ٥١٤.

(٤) سورة هود آية (٢٧).

﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾[١]»[٢]، وهنا لمز المُمارون المجادلون نوحاً عليه السلام أنه لم يستجب له إلا سفَلة الناس الذين اتبعوه من غير فكرٍ ولا رويّة، ولا تقليبٍ للأمر، إنما اتبعوه من أوَّل وهلة، وتلك شَكَاةٌ ظاهر عنهم عارها، إذ عادة الله عز وجل في الرسل والأنبياء، ألا يتّبعهم في أول الأمر إلا الضعفاء، وأما الكبراء والأشراف، غالباً ما يحملهم على الاستنكاف عن الحقّ البيّن، استيلاءُ حبِّ الرياسة، وصعوبةُ الانفكاك عنها، والأنفةُ من الانقياد للغير، بعد أنْ كانوا متبوعين، والفقير المسكين، بعيد من هذه الأمور، سريع إلى الإجابة، ويذكر البقاعي[٣] هذا المعنى ويقول: «﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قومه، منكرين لأتباعه، استناداً إلى داء الكبر، الذي ينشأُ منه بطر الحق وغمط الناس، أيْ: احتقارهم: ﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ ﴾، أي لأجل قولك هذا، وما أثبته أوصافك، والحال أنه قد ﴿ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾، أي: المؤخرون في الحال والمآل، والأحوال والأفعال، فيكون إيماننا بك، سبباً لاستوائنا معهم، فلو طردتهم لم يكن لنا عذر في التخلف عنك، ولا مانع من اتباعك، فكان ما مُتِّعوا به من العرض الفاني، مانعاً لهم عن السعادة الباقية»[٤].

---

(١) سورة الشعراء آية (١١١).

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٣.

(٣) هو إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي _ ولد عام ٨٠٩هـ، وتوفي عام ٨٨٩هـ، مؤرخ أديب مفسر، له من المصنفات: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. ينظر: (نظم العقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي، ص ٢٤، تحقيق فيليب حتيّ، المكتبة العلمية ١٩٢٧م، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني ١/ ٥٠).

(٤) نظم الدرر ٥/ ٣٧٥.

وحاصل كلامهم: أنه لم يتبع نوحاً عليه السلام أحدٌ له قدرٌ ومنزلةٌ، وهؤلاء الذين اتبعوه، اتّباعهم لنوح عليه السلام لا يدّل على سداد فعلهم، لكونهم أرذال في أنفسهم، ولكونهم اتّبعوه، ومن غير رويّة(١).

وأنت ترى أن ذلك المراء، الذي يحكي تعنّت قوم نوح له عليه السلام، مراءٌ بمعنى الجحد للحقّ، لأن اتباع المساكين والضعفاء للرُّسل في أوّل من يتّبعهم، لا يضير من اتّبع الحقَّ شيئاً، بل هو منقبة وفضيلة، وليس هناك قدحٌ فيما اتّبعوه، وهبْ أنّه لم يتبع الرسل إلا الأرذال -على زعمهم- هل يشكّك ذلك في مصداقية الحق الظاهر البيّن الذي ثبت بالدلائل والمعجزات؟ وما علاقة هذا بذلك؟ ومن هنا نعلم أنّ هذا ضَربٌ من المراء والملاحاة، تزييفاً للحقّ، وتبريراً لهم في عدم قبول ما ظهر لهم صِدْقُه، فيما يزعمون أنه عذرٌ لهم.

٥. ثم احتجّوا على نوح عليه السلام وخاصموه، أنّه ليس فيه مزيدُ فضل عليهم، فأنّى له هذا التشريف بالنبوة والرسالة؟ وكيف يُخصُّ من بينهم بذلك التكليف؟ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾(٢)، وقالوا على وجه التّهمة له، لّما تبيّن لهم صدق ما دعاهم إليه، وغاظهم أن خصَّ الله عز وجل نوحاً عليه السلام بالتشريف بتلك الرسالة، قالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾(٣)، ومعنى ما قالوه لمن استخفّوهم من قومهم: أن نوحاً عليه السلام يريد أن يستأثر بالسيادة دونكم، والشرف

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤٣٠، وتفسير القرطبي ١١/ ٩٩، وفتح البيان ٣/ ٣٠٦، ونظم الدرر ٣/ ٥٢٢.

(٢) سورة هود آية (٢٧).

(٣) سورة المؤمنون آية (٢٤).

عليكم، بأن يكون متبوعاً، وما سواه تبعٌ له، فأنّى لنوح أن يترفّع عليكم ويتعاظَمَ بدعوى النبوة، وهو بشرٌ مثلكم؟ وكيف يأتيه الوحي دونكم؟ فما حمله على ما دعا إليه إلا حبُّ الشرف فيكم[(١)].

ونوح عليه السلام لم يدعهم إلى أن يعظّموه ويسوّدوه عليهم، بل دعاهم إلى أن يعبدوا الله عز وجل ويوحّدوه، فهذه المغالطة بالقول، بأن نوحاً عليه السلام يريد أن يتفّضل عليهم، ويريد الشرف فيهم، وأنه ليس له من الفضل ما يؤهّله لئن يكون رسولاً لربِّ العالمين، ليس هذا منهم إلا اعتراضٌ على نوح عليه السلام ، هضماً لحقه وطعناً عليه، وقد علمنا فيما تقدم أن من معاني المراء، الاعتراضَ على الكلام، طعناً فيه وازدراءً لقائله.

٦. ولمّا جادل قوم نوح في كون نوحٍ عليه السلام ليس له فضلٌ عليهم، انتقلوا إلى لون آخرَ من المراء، وهو من أبشع ما يكون من معانيه، حيث واجهوه بأنّه كاذبٌ فيما جاء به من عند الله عز وجل، وهذا التكذيب ليس لهم فيه أدنى من مثقال ذرّةٍ مما يزعمون أنه شبهة، وحكا الله عز وجل تكذيبهم لنوح عليه السلام في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾[(٢)]، وأيضا قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[(٣)]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤، وتفسير الطبري ٩/ ٢٠٩، وتفسير ابن كثير١٠/ ١٢٠، والتحرير والتنوير ٨/ ٤٢.

(٢) سورة الأعراف آية (٦٤).

(٣) سورة الشعراء آية (١٠٥).

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾(١)، فالشكُّ والتكذيبُ والريبةُ والتّهمةُ، لنوحٍ عليه السلام، مراءٌ ظاهر، وجدالٌ من مكابر، قد انقطع من كلِّ دليل، ولم يهتدي إلى أيِّ سبيل، وكذّبوا بألسنتهم ما نطقت بصدقه قلوبهم، وجحدوا بتلك الرسالة السماوية ظلماً وعلّواً في الأرض، فيا لله العجب! ماذا يصنع المراء بأهله؟

٧. ادعّى قوم نوح أن ما جاء به نوح عليه السلام أمرٌ مُحْدَثٌ، لم يسبقه إليه أحد قبله، ولم يسمعوا بمثله في آبائهم الأقدمين، وقالوا -فيما حكاه الله عز وجل عنهم-: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٢)، وهم يعنون بذلك أن ما بلغهم من وجوب عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، لم يسمعوا بمثله فيمن تقّدمهم من أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية، قال القرطبي: «وقيل: ما سمعنا بمثله بشراً أتى برسالة ربّه ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾»(٣)، وهنا نرى: أن قوم نوح اعترضوا عليه، بأنّهم لم يسمعوا بمثله فيمن تقدّمهم، وهذا يستدعي سؤالاً يبدو ملحّاً، وهو من باب التنزّل معهم في الخطاب: هل عدم سماعهم -على زعمهم- يشكّك فيما كان ظاهراً جليّاً مؤيداً بالمعجزات، تشهد له الفِطَر، وتسلّم له العقول بالصحّة؟ ومن خلال ذلك ندرك أن مرائهم في ذلك، إنما «قصدوا به تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي، وجعلوا انتفاء علمهم بالشيء، حجةً على بطلان ذلك الشيء، وهي مجادلة سفسطائيَّة، إذ قد يكون انتفاءُ العلم عن تقصير في اكتساب المعلومات، وقد يكون لعدم وجود سبب يقتضي

(١) سورة الفرقان آية (٣٧).

(٢) سورة المؤمنون آية (٢٤).

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤.

حدوث مثله، بأن كان الناس على حقٍّ، فلم يكن داعٍ إلى مخاطبتهم بمثل ذلك، وقد كان الناس من زمن آدم على الفطرة، حتى حدث الشرك في الناس فأرسل الله نوحاً، فهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، كما ورد في حديث الشفاعة»[(١)].

ولكن عمدوا إلى طريق معوجٍّ لجحد للحقّ والتكذيب به، وقد مرَّ معنا أن هذا مما يدخل في مفهوم المراء.

٨. من مرائهم الفاحش، أنهم ادّعوا الجنون في نوح عليه السلام، عناداً للحقّ واستكباراً عن قبوله، ولكي يبرّروا لأنفسهم التكذيب لنوح عليه السلام، قالوا -فيما حكاه الله عز وجل عنهم-: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[(٢)]، ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[(٣)]، وهذه الدعوى، التي هي غايةٌ في القحة والجرأة، ولو تساءلنا ما حملهم على دعواهم بنسبة الجنون لنوح عليه السلام؟ نجد أنَّ الإجابة -على ما زعموا- «أنه أصابه خلل في عقله، فطلب ما لم يكن ليناله مثلُه، من التفضل على الناس كلهم، بنِسْبتهم إلى الضلال، فقد طمع فيما لا يطمع عاقل في مثله، فدلَّ طمعه في ذلك على أنه مجنون»[(٤)]، وهذا الافتراء منهم، دليل على عدم استطاعتهم القدح في صحّة ما جاء به نوح عليه السلام من الحقِّ الجلي، ولكنهم عمدوا إلى اتهامه بالجنون، تشغيباً منهم ومخاصمة، وإغراءً لدهماء الناس عليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٤٣.

(٢) سورة المؤمنون آية (٢٥).

(٣) سورة القمر آية (٩).

(٤) التحرير والتنوير ١٨/ ٤٤.

٩. ومن مرائهم الذي قصّه الله ﷻ في القرآن الكريم، أنهم كانوا يسخرون بنوح ، لمّا أمره الله تعالى ببناء السفينة حيث كانوا يمرّون عليه، ويقولون له: أتحولّت نجاراً بعد النبوة؟ وتعمل سفينةً في البرّ؟[1]، ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[2]، وهنا سخرية نوح منهم التي أوعدهم بها، إما أن تكون سخريةً حقيقية، للمشاكلة من باب الردِّ على الظالم بمثل ما اعتدى به، فهم كما سخروا من نوح في الدنيا، فإنه يسخر منهم في الآخرة، إذا عاينوا العذاب، ولات ساعةَ مهرب، وإما أن تكون السخرية بمعنى الاستجهال، فإطلاق السخرية هنا من باب المجاز، لأن الاستجهال سببٌ للسخرية، فأطلقت السخرية، وأريد سببها، من باب إطلاق المسَبَّب على السبب، وهو ضرب من المجاز المرسل، ومعنى السخرية: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار واستحماق[3]، وقيل السخرية: إظهار ما يخالف الإبطان، على جهةٍ تُفهم استضعاف العقل[4]، وهذا السخرية بنوح قريبة من إطلاق وصف الجنون عليه، إذ يجمعهما الاستجهال والاحتقار، الذي يؤول إلى تكذيب ما جاء به نوح .

وهم لم يكتفوا بذلك، بل ازدروا وسخروا من قوم نوح، وأمروا نوحاً أن

(١) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٣٥.

(٢) سورة هود آية (٣٨).

(٣) ينظر: روح المعاني ١٢/٣٤٨، والتحرير والتنوير ٥/٦٨، وفتح البيان ٣/ ٣٠٩ _ ٣١٢، والكشاف ٣/ ١٩٤.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٥٣٠.

يطرد من حوله من المؤمنين، الذين يأنف أولئك الكبراء من مجالستهم، حتى قال لهم نوح عليه السلام فيما حكاه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

١٠. ومن توغلّهم في المراء والجدال، وبلوغهم النهاية فيه، أن قالوا -فيما حكاه الله عز وجل عنهم-: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3]، فاتهموا نوحاً عليه السلام بما هم أولى به وأحقُّ، فزعموا أن نوحاً عليه السلام خاصمهم فأكثر مخاصمتهم وبالغ فيها، وقالوا تلك المقالة لمّا أفحمهم نبيُّ الله نوح عليه السلام بالحجّة، وظهر لهم أنه لا مدفع لما جاء به، ولم تعد خصومتهم معه تنفعهم، ولا تغني عنهم شيئاً، ورأوا من قوارع جدله بالحق، ما سئموا معه من تزييف معارضاتهم وآرائهم وجدالهم، فقالوا قولَ من ضاقت به الحيَل، وعيّت به العلل، شأن المبطل إذا دمغته الحجّة، فلذلك أرادوا طيَّ بساط الجدال معه وإفحامه، بأن طلبوا تعجيل ما توعّدهم به من العذاب: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، وهنا جلّا البقاعي هذا المعنى، وبيّنه بياناً شائقاً، يطلعك على حقيقة

---

(١) سورة هود آية (٢٩).

(٢) سورة هود آية (٣١).

(٣) سورة هود (٣٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٣٢، وتفسير القرطبي ١١/ ١٠٥، وتفسير ابن كثير ٧/ ٤٣٣، والكشاف ٣/ ١٩٥، وروح المعاني ١٢/ ٣٤٠، والتحرير والتنوير ٥/ ٦٠.

ما اعتمده قوم نوح من المراء في نهايات المطاف، بعد أن ضربوا فيه بحظٍّ وافر، وخبطوا فيه خبطَ عشواء، وارتكبوا في سبيله كلَّ عوجاء، حيث أفصحت أنفسهم عن المراء إفصاحاً، أبعدوا فيه النجعة، وأغرقوا في النزع، وبلغ السيل الزُبى، و«﴿ قَالُواْ ﴾ أي: قول من لم يجد في رده شبهة يبديها ولا مدفعاً يغير به: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا ﴾ أي: أردت فتلنا وصرفنا عن آرائنا بالحجاج، وأردنا صرفك عن رأيك بمثل ذلك ﴿فَأَكْثَرْتَ ﴾ أي: فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أنك ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾، أي: كلامنا على صورة الجدال، ﴿ فَأْتِنَا ﴾، أي: فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أن نقول لك: لم يصح عندنا دعواك، ائتنا ﴿بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ ﴾، أي: ككوناً، هو جبلة لك ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، أي: العريقين في الصدق في أنه يأتينا، فصرحوا بالعناد المبعد من الإنصاف، والاتصاف بالسداد، وسموه باسمه، ولم يسمحوا بأن يقولوا له: يا ابن عمنا مرة واحدة، كما كرر لهم: يا قوم، فكان المعنى: أنَّا غيرُ قابلين لشيء مما تقول، وإن أكثرت وأطلت...فلا تتعب، بل قصر الأمر، مما تتوعدنا به، وسموه وعداً سخرية به، أي أن هذا الذي جعلته وعيداً، هو عندنا وعد حسن سارٌّ، باعتبار أنا نحب حلوله، المعنى: أنك لست قادراً على ذلك، ولا أنت صادق فيه، فإن كان حقاً فائتنا به»[(١)]، وهم بذلك قد استنفدوا ما عندهم من المراء والجدال، ولم يبقى لهم ما يماحلون به نبيّهم، حتى حقّت عليهم من الله ﷻ اللعنة، وكلمة العذاب، فأصبحوا أثراً بعد عين.

---

(١) نظم الدرر ٣/ ٥٢٦.

المطلب الثاني: قوم عاد مع هود عليه السلام.

قوم عاد من القبائل العربية التي كانت مساكنهم ما بين الشِّحر[١]، وعُمان[٢] وحضرموت بالأحقاف[٣]، وهي باليمن بأرض مطلّة على البحر، واسم واديهم مغيث، وكانوا جبَّارين طوال القامة، لم يكن مثلهم أحد، وكان غالب مساكنهم، الخيام ذوات الأعمدة العظام، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[٤]، ونبيّهم الذي أرسله الله عز وجل إليهم هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، ويقال: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبد الله بن رباح ابن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام[٥]، وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص -بالصاد المهملة، وقيل: بالضاد- ابن سام بن نوح عليه السلام، وأيّاً ما كان الأمر، فهو عليه السلام وسطٌ فيهم، شريفٌ من أرومتهم، يعرفون مكانه فيهم.

وقبيلة عاد هي عادٌ الأولى، التي قال الله عز وجل فيهم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[٦]، وأما عاد الأخرى فقال الطبري مبيناً أمرهم: «وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى، لأن

---

(١) الشحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. ينظر: (معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ١٢٨، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) عمان بالتخفيف: بلدة عربية على ساحل بحر اليمن والهند. ينظر: (معجم البلدان ٦/ ٣٤٨).

(٣) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن، بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. ينظر: (معجم البلدان ٣/ ١٥٧).

(٤) سورة الفجر آية (٧).

(٥) ينظر: تاريخ الطبري ١/ ١٣٣، والبداية والنهاية ١/ ٢٨٢.

(٦) سورة النجم آية (٥٠).

بني لُقَيم بن هزَّال بن هزل بن عَبِيل بن ضِدّ بن عاد الأكبر، كانوا أيامَ أرسل الله على عاد الأكبر عذابه، سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة، ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة، ثم هلكوا بعد، وكان هلاك عاد الآخرة ببغي بعضهم على بعض، فتفانوا بالقتل»(١).

وعاد الأولى هم أوَّلُ من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانوا عُـتاةً متمرّدين في عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، ودعاهم إلى عبـادة الله عز وجل وحده لا شريك له، فكـذّبوه وعصوا أمر الله عز وجل، وكان من أمرهم ما حكاه الله عز وجل عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٢).

ولمّا كذّبوا رسول الله عز وجل إليهم، أهلكهم الله تعالى بريحٍ عاتـيةٍ، جعلتهم كأعـجاز نخل خاوية، لم تبق منهم ولم تـذر، في سبع ليالٍ وثمانية أيـام متتابعة، كما قـال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٣).

وقـال الله تعالى أيضاً: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾(٤)(١).

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٣٧.

(٢) سورة فُصِّلَت آية (١٥).

(٣) سورة الحاقة آية (٧).

(٤) سورة الذاريات آية (٤٢).

ولقوم عاد مع نبيّهم هود عليه السلام صولات وجولات من المراء واللجاجة في الخصومة، وهذا مجموعٌ في تسع عناصر، على ما يلي:

مراء قوم عاد لهود عليه السلام:

١. من مرائهم لهود عليه السلام أنهم زعموا إفكاً وبهتاناً أن هوداً عليه السلام في سفاهةٍ من العقل، وخطلٍ في الرأي، فقالوا -فيما حكاه الله عنهم-: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[٢]، والسفاهة كما قال ابن فارس: «السين والفاء والهاء أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على خفّة وسخافة، وهو قياس مطَّرد، فالسَّفَه: ضدّ الحِلْم»[٣]، فزعموا أنَّ نبي الله هوداً عليه السلام في حمق وجهالة، وذلك لمّا بيّن أعظم حقوق الله تعالى عليهم، وجاءهم بما لا قِبل لهم بتكذيبه من الحقِّ الظاهر المؤّيد بالمعجزات، والدلائل البينات، فتوغّلوا في المراء والجدال في الحقِّ بعدما تبيّن، بمعارضتهم هوداً عليه السلام بأنه في سفاهة، والعجيب أنهم عبّروا بذلك على سبيل الظرفية مجازاً، أي: جعلوا هوداً عليه السلام متمكناً من السفاهة، وقد أحاطت به من كلِّ جانب، بحيث لا ينفكّ عنها ولا مناص منها، والسؤال الذي يفرض نفسه، لماذا اتهموا هوداً عليه السلام بتلك الفرية؟ وهو منهم بمنزلةٍ يعلمون نسبه وشرفه فيهم وسطته بينهم، ولعلّ الجواب على ذلك، أن هوداً عليه السلام لمّا أتاهم

---

(١) ينظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/ ١٣٣، والبداية والنهاية ١/ ٢٨٢، والكامل في التاريخ ١/ ٧٩، وتاريخ ابن الوردي ١/ ١٤، والمنتظم ١/ ٢٥٢.

(٢) سورة الأعراف آية (٦٦).

(٣) معجم مقاييس اللغة، ص (٤٦١).

بالحقِّ الظاهر، الذي لا يستطيع أحدٌ معه أن يقيم أدنى شبهةٍ على تكذيبه، أو الطعن في أدلّته وبراهينه، لجئوا عناداً وشقاقاً إلى ازدراء هودٍ ﷺ والنيل منه، بوصفه بالسفه، بغيةَ أن يقدحوا في شيء مما جاء به، أو يلبّسوا على طغام الناس وجهلتهم، كي لا يقبلوا منه شيئاً، ولو كان في غاية الظهور والوضوح(١).

٢. من مرائهم الذي شابهوا فيه قوم نوح، أنهم زعموا أن هوداً ﷺ كاذب في ما جاء به من الآيات البينات، والحجج الواضحات، فقالوا -على وجه التعبير بالظن المفيد لليقين-: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾(٢)، فلمّا نسبوه فيما تقدّم إلى السفه وخفّة العقل، كان من نتيجة ذلك أن يكذبوه فيما قاله(٣)، فتلك مقدمة -أعني: وصفهم له بالسفاهة- وهذه نتيجتها -وصفهم له بالكذب- ومع هذا كلِّه، أين البرهان والدليل على ما رموا به نبيَّ الله هوداً ﷺ من الكذب؟ ومن هنا نعلم أنَّ من انقطعت به الحجّة، وأعوزه الدليل، وضاقت عليه سبل الاستدلال، فرَّ إلى مهيع الجدال والمراء؛ ليجد فيه بغيته، وعلى هذا فالتكذيب السافر من غير ما دليل ظاهر، ضرب من ضروب المراء، وأسلوب من أساليب المعاندة والالتواء.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٥٢٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٣، وتفسير البغوي ٢/ ١١٥، ونظم الدرر ٣/ ٥١ _ ٥٢، وفتح البيان ٢/ ٥٣٤، والتحرير والتنوير ٤/ ٢٠٢، وتفسير السعدي ٢/ ٥٥٦.

(٢) سورة الأعراف آية (٦٦).

(٣) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٥٢، وتفسير الطبري ٥/ ٥٢٢، وتفسير الفتح البيان ٢/ ٥٣٤، والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفيّة ٢/ ١٥٦، لسليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٣. لمّا واجه هودٌ عليه السلام قومه بالحقيقة التي لا مناص من قبولها، وليس للجدال قيد أُنملة بالمماراة فيها، لجئـوا إلى لون آخر من ألــوان المراء، وهو استبعادهم أن يكون الرسول رجلاً من جملة البشر، ولما جاءهم رسولهم بالبيّنات أعرضوا، وكـان من قولهم ما حكـاه الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾[1]، وردَّ هودٌ عليه السلام ذلك بقـوله -فيما حكاه الله عز وجل عنه-: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[2]، قال ابن جزي الكلبي: «الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قال: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، أي: على لسان رجل منكم»[3]، فكون الرسول بشراً، ليس محلًّا للعجب، بل هو عين الحكمة، و مقتضى المصلحة، واعتراضهم على كون الرسول بشراً، ليس إلا ضرب من المراء والخصام لمن أعيته الحيل في التشغيب، وقد سبق إلى ذلك قوم نوح.

٤. ومن جدالهم لهود عليه السلام أنّ ما هم عليه من عبادة الأوثان قد مضى عليه السابقون من آبائهم الأولين، فقالوا مستنكرين على نبيِّهم إذ دعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له، قالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ

(١) سورة فُصِّلَت آية (١٤).

(٢) سورة الأعراف آية (٦٩).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٣٠٥.

وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾(١)، وهنا ندع الكلام للطاهر ابن عاشور فقد أوضحــه وبيّنه بعبارة رشيقــة، حيث قــال: «جاوبوا هوداً بما أنبأ عن ضياع حجّته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتّوحيد، وهذا الجواب أقلُّ جفوة وغلِظة من جوابهم الأوّل، إذ قالوا: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾(٢)، كأنّهم راموا استنزال نفس هودٍ ، ومحاولة إرجاعه عمّا دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار، وذكروه بأنَّ الأمر الذي أنكرهُ هوَ دينُ آباء الجميع تعريضاً بأنّه سفّه آباءه، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التّعبير عن دينهم، بطــريق الموصولية في قــولهم: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾(٣)، إيـماءً إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما قال الملأُ من قريش لأبي طالب حين دعاه النبيُّ ﷺ أنْ يقول: «لا إله إلا الله» عند احتضاره، فقالوا لأبي طالب: «أترغَبُ عن ملّة عبد المطّلب»(٤)، واجتــلاب (كانَ) لتدلّ على أن عبادتهم أمرٌ قديمٌ مَضت عليه العصور، والتّــعبير بالفعل

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٠).

(٢) سورة الأعراف آية (٦٦).

(٣) سورة الأعراف آية (٧٠).

(٤) متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه، أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، (١٣٦٠)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك فهو من أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، (٢٤).

وكونه مضارعاً في قوله: ﴿ يَعۡبُدُ﴾ ليدلّ على أنّ ذلك متكرّر من آبائهم ومتجدّد وأنّهم لا يَفتُرون عنه»(١)، وهذا الإيضاح الشافي من ابن عاشور، يطلعك على ما يعتمده قوم هود عليه السلام معه من المراء والمحاجّة بالباطل، والتعنّت في معارضته، كما قال الله عز وجل -حكايةً عن قولهم-: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٢)، على قراءةٍ (٣) -بضم الخاء واللام- «يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٤)...»(٥)، وعلى القراءة الأخرى -بفتح الخاء وسكون اللام- ويكون المعنى على هذا: ما هذا إلا كذب الأوّلين وأساطيرهم(٦)، وهذا يدعونا إلى الانتقال إلى لون آخر من مرائهم في الفقرة التالية.

٥. وذلك أن قوم عادٍ، سافروا نبيَّهم وواجهوه بجحود ما جاء به من عند الله عز وجل، كما جاء في القرآن الكريم بيانه، قال الله عز وجل: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢٠٧ _ ٢٠٨.

(٢) سورة الشعراء آية (١٣٧).

(٣) ينظر: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص ٣٣٢، لعبد الفتاح عبد الغني القاضي، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ.

(٤) سورة الشعراء آية (١٣٨).

(٥) تفسير ابن كثير ١٠/ ٣٦٠.

(٦) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٦٣، والوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص ٣٣٢.

رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1]، والجحد هنا مضمّنٌ معنى الكفر لأنه عُدي بحرف الجرّ "الباء" وجاء أيضاً مصرحاً به في الآية التالية: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾[2]، وهذا الجحود منهم باللسان، مراءٌ ومكابرةٌ ومعاندةٌ، وإلا هم في الواقع متيقنون صدق ما جاء به هودٌ عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وهذا منهم بهتانٌ حيث نفوا أن يكون هودٌ عليه السلام جاءهم ببيّنة تدلُّ على صدق ما جاء به، لأنهم في الأصل جحدوا تلك الآيات البيّنات، حيث لم تأت طِبقاً لما اقترحوه على نبيهم عليه السلام، وجعلوا ذلك سبباً لتصميمهم على عبادة الأصنام[4]، وهذا كما ترى نزوعٌ إلى المراء في أجلى صوره، وضربٌ من المغالطة والمماحلة، تبكيتاً للقائل وازدراءً لما جاء به، حال من قعدت به سُبُل الاستدلال والحجة.

٦. ومما تفرّع عمّا سبق من المراء، أنّهم لمّا زعموا أنّ هوداً عليه السلام لم يأتهم ببيّنة تدّل على صدقه، من شأن ذلك أن يثير سؤالاً مفاده «إن لم تؤمنوا بما جاء به

---

(١) سورة هود آية (٥٩).

(٢) سورة هود آية (٦٠).

(٣) سورة هود آية (٥٣).

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٥٨، والدر المصون في علم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٦/ ٣٤٢، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ، والتحرير والتنوير٥/ ٩٧ _ ٩٨، وتفسير السعدي ٢/ ٧٥٢.

أنّه من عند الله، فماذا تعدُّون دعوته فيكم؟»[(١)]، والجواب المحتمل لسؤالهم كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾[(٢)]، «أي نقول: إنك ممسوسٌ من بعض آلهتنا، وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديداً للنّاس بأنه لو تصدّى له جميعُ الآلهة لدكّوه دكّاً»[(٣)]، وهذا منهم جدل سفسطائي، وكلامٌ ملفّق لا ينتظم على حجة، ولا يستقيم على دليل، حيث زعموا أنه مجنون وسبب جنونه مسٌّ من آلهتهم أصابه، فكان ما يقول ضرباً من الهذيان، وقولهم هذا فيه تسفيهٌ لهود عليه السلام تحقيراً له، وتقليلاً من شأنه، مماراةً ومجادلةً[(٤)].

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٩٨.

(٢) سورة هود آية (٥٤).

(٣) التحرير والنوير ١٢/ ٩٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٥/٩٨، والفتوحات الإلهية ٢/٤٠٥، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/١٣٨، للبيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

المطلب الثالث: قوم ثمود مع صالح عليه السلام.

قوم ثمود قبيلة من العرب، لُقّبوا باسم جّدهم ثمود، وهو أخو جديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت مساكنهم بالحجر، ما بين الحجاز وتبوك، وكانوا بعد قوم عاد، وأباح الله لهم الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون من الجبال بيوتاً، في نعمة فارهين، ومن شأنهم أنهم عبدوا الأصنام والأوثان من دون الله عز وجل، فبعث الله عز وجل إليهم صالحاً عليه السلام، وهو نبيُّ الله صالح بن عبيد بن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينبذوا الأوثان والأصنام، ولا يدعوا مع الله عز وجل أحداً، فآمنت طائفة، وكفر أكثرهم، وكان من شأنهم أنّهم سألوا نبيَّهم آيةً على صدق ما جاء به، فبعث الله عز وجل لهم الناقةَ من صخرة صماء، حيث اقترحوا ذلك على نبيِّهم، لها شِرْبٌ من بئرهم، ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم، ونهاهم نبيُّهم صالح عليه السلام أن يمسّوها بسوء، ولمّا طال عليهم الحال، أبت قلوبهم التي أُشربت الكفر، إلا أن يكفروا بالحق المؤّيد بالمعجزات، فانبعث أشقى القوم ليقتل الناقة، وقد وافقه على ذلك ملئوهم وأشرافهم، فعقروها وباءوا بإثمها، واستعجلوا العذاب: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1]، فدمدم الله تعالى عليهم بذنبهم، وأهلكهم بالصيحة من السماء، وبالرجفة من أسفل منهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[2] ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٧).

(٢) سورة الأعراف آية (٧٨).

رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[(١)]، وقد أقام صالح عليه السلام فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله عز وجل، وهم في دعوة صالح عليه السلام لهم، في عناد ومراء وخصام، وتعنّت على قبول الحقِّ[(٢)]، على ما سيأتي -إن شاء الله عز وجل-.

مراء قوم ثمود مع صالح عليه السلام :

١. من مرائهم لصالح عليه السلام أنهم واجهوه بالكفر والجحد والتكذيب تارةً، والشكّ تارةً أخرى، فقالوا لصالح عليه السلام -فيما حكاه الله عنهم-: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[(٣)]، وقالوا أيضاً: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[(٤)]، وفي سياق آخر قال -من أغراه الكبر منهم لمن آمن منهم فيما حكاه الله عز وجل عنهم-: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[(٥)]، وعند التأمل في قولهم ﴿ءَامَنتُم ﴾ يظهر مدى بُعد إمعانهم في التكذيب والجحد، حيث لم يقولوا: إنّا بما أرسل به، لئلا يكون أدنى اعتراف برسالته، وهذا منهم احتياطٌ في الكفر وغلوٌّ في الإصرار على الإنكار،

---

(١) سورة هود آية (٦٨).

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١/ ٣٠٤، وتاريخ الطبري ١/ ١٣٨، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٣، تحقيق تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي، لبنان، دون ذكر سنة الطبع، والكامل ١/ ٨٢، والمنتظم ١/ ٢٥٥.

(٣) سورة القمر آية (٢٥).

(٤) سورة هود آية (٦٢).

(٥) سورة الأعراف آية (٧٦).

وانصراف كلامهم في مجادلتهم إلى من آمن من قوم صالح عليه السلام من المستضعفين، وقد عدلوا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى مجادلة من اتّبعه، تفنناً في الجدال والمراء، وسلوكاً لسبيلٍ أخرى منه، وقد سَلَفَ أن من معاني المراء: الجحد والتكذيب والشكّ[(١)].

٢. ومن الجدال المذموم، والمراء الذي صاحبه مخصوم، أن قوم صالح عليه السلام اعتلّوا بعدم صدق نبيّهم، أنه جاءهم بما ليس عليه آبائهم الأقدمون، وليس من دينهم فيما يزعمون، فقالوا مقالة المنكر على وجه الاستغراب: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾[(٢)]، وتعبيرهم بقولهم ﴿يَعْبُدُ﴾ لدلالة أنهم استقرّوا على ذلك في الماضي، وهذا الاعتراض منهم على صالح عليه السلام، من قبيل الاعتراض على الكلام، طعناً فيه وازدراءً لقائله، وهذا لون من ألوان المراء القائمة[(٣)]، ولهذا لم نجدهم طعنوا فيه بعلّة قادحة، إلا بمجرد النهي عما يعبد الآباء، فكأنَّ صحّة ما دعاهم إليه، قد أقرّوا به ضمناً، ولكنّه خالف آبائهم.

٣. ومن التعمّق في الخصام، أنهم انتقلوا إلى لون آخر من المراء، وذلك أنَّهم استبعدوا كون الرسول من جنس البشر، وهم مع ذلك لم يبرهنوا على مقالتهم دليلاً،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٥٣٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٣٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ١٢٠، وروح المعاني ٨/ ٥٥٩، ونظم الدرر ٣/ ٥٨، والتحرير والتنوير ٤/ ٢٢٢.

(٢) سورة هود آية (٦٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٦٢، وروح المعاني ١٢/ ٣٩٧.

بل ألقوها تخرّصاً ومجازفةً، وهم بذلك يتفننون في أساليب المراء، فقالوا -فيما حكاه الله ﷻ عنهم-: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[1]، وقالوا -متعجبين مستكبرين-: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[2]، والأعجب من ذلك أنهم «أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور»[3]، وقد ضارعوا بذلك قوم نوح عليه السلام وقوم هود عليه السلام كما تقدم[4].

٤. ولما أعيتهم سبل الحيل في معارضة نبيهم، لجئوا إلى الطعن فيمن جاء بالحق، وظهرت المعجزات على يديه، ليتوصّلوا بذلك إلى القدح في ذاته، تمهيداً للقدح فيما جاء به، من ذلك أنَّهم اتهموا نبيَّهم عليه السلام الذي يعرفونه حق المعرفة، بوافر العقل والصدق، اتهموه بإصابته بالسحر وبخبل في العقل، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾[5]، وهذا على القول بأن معنى المُسحَّر في هذه الآية، هو الذي أصابه السحِّر، «فهو اسم مفعول سحره، إذا سحره سحراً متمكناً منه»[6]، وهذا الذي استظهره ابن كثير في تفسيره، وعلى القول الآخر المُسحَّر هو المخلوق الذي له

(١) سورة الشعراء آية (١٥٤).
(٢) سورة القمر آية (٢٤).
(٣) تفسير ابن سعدي ٤/ ١٧٤٧.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٦٨.
(٥) سورة الشعراء آية (١٥٣).
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٧.

سَحَرٌ، وهي الرئة، وبهذا المعنى يلتحق بما سبق، من أنهم اعترضوا عليه أنه من جملة البشر[١].

٥. ثم استعملوا طريقا آخر إلى اللّجاجة والخصام، لمّا تبيّن لهم حقُّ رسالةِ نبيِّهم، والشرفُ الذي ناله بسببها، فاستنكروا أن يكون صالح عليه السلام قد اخُتصَّ بهذا الفضل من بينهم فقالوا: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[٢]، «أنكروا أن يخصه الله بالنبوة دونهم، وذلك جهل منهم، فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»[٣]، وعند النظر فيما حملهم على ذلك، نجد أن الحميّة الجاهلية والتعصب المقيت، وهذا أحد أسباب المراء في الدين -كما سيأتي إن شاء الله تعالى- نجد أنَّ هذا السببَ، هو الذي حملهم على أن يستنكفوا عن الإيمان به، لمّا ظهرت لهم الدلائلُ المعجزة، فأخذت الحميّةُ من نفوسهم مكانها، وأخذهم التعصبُ من كلِّ جانب، حتى أنكروا أن يخصَّ الله عز وجل صالحا عليه السلام بالرسالة من بينهم، وهذه كما ترى مغالطةٌ سافرة، وجدالٌ عقيم، ومراءٌ قد ظهر لكلِّ ذي عقل سليم.

٦. ومن مرائهم، وشدّة خصامهم، أنهم سألوا الآيات على صدق ما جاء به صالح عليه السلام، قالوا: ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٤]، فبعث الله تعالى لهم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١٠/ ٣٦٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ٦٦.

(٢) سورة القمر آية (٢٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٣٩٠.

(٤) سورة الشعراء آية (١٥٤).

الناقة التي خرجت من صخرة صماء، آيةً عظيمة حين سألوها ابتداءً على وجه التعيين، وقال لهم صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[١]، ولما أُعطوا من الآيات ما فيه مَقْنعُ، ومن المعجزات ما فيه كفاية، عمدوا إلى المراء في أبشع صوره، وكذّبوا بتلك الآية، وعقروا الناقة، إمعاناً في الخصومة والجدال، وعضّاً بالنواجذ على المراء، وهذا التمحلُّ منهم، يهديك إلى تأصل المماراة والمخاصمة في نفوسهم، إذ أُغلقت عليهم مذاهب وسبُل التشكيك والتكذيب[٢].

٧. ومن غريب ما تقحّموه من المراء والجدال، أنهم تطيّروا وتشاءموا بنبيِّهم ومن آمن معه: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[٣]، زعموا أنهم لم يروا خيراً من صالح عليه السلام ومن آمن معه، وتشاءموا منهم، وزعموا أنَّ ما جاء به صالحُ عليه السلام سببٌ لحصول ما يكرهون، فرسالة الرسول إليهم من الله عز وجل، التي هي سببٌ لكل خير عاجل وآجل، جعلوها سبباً للشرّ، ولك أن تتأمل هذه المغالطة الظاهرة، وذلك التشغيب العجيب من قلب الموازين، واللعب بالحقائق، بجدل سفسطائي، ولهذا ردَّ عليه صالح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة هود آية (٦٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١٠/ ٣٦٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٦٦، والتحرير والتنوير ٨/ ١٧٧.

(٣) سورة النمل آية (٤٧).

(٤) ينظر: روح المعاني ١٩/ ٢٧٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٨١، والتحرير والتنوير ٨/ ٢٨٠.

٨. ولما طال عليهم الأمر، وضاقوا به ذرعاً، ولم تنفعهم مجادلاتهم الباردة، ولا مراؤهم الذي لم يشف ما في نفوسهم من العناد، استعجلوا العذاب في غاية ما يقدرون عليهم من الخصام والمحاجّة والجدال، بعد أن عقروا الناقة، ولم يجدوا مساغاً لهم مع نبيّهم من المراء أكثر مما تعاطوه معه، ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [١]، فلمّا عقروها قالوا له مخاطبين على وجه التعجيز والإفحام: ﴿وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [٢]، ولا يخفى ما في قولهم هذا من المحاجَّة والخصام بالباطل، حيث استعجلوا حلولَ العذاب، وسبب هذا الاستعجال أنهم «فرضوا كونه من المرسلين بحرف "إنْ" الدّال على الشكِّ في حصول الشرط» [٣]، والأغرب في ذلك أنهم نزّلوا الوعيدَ بالعذاب من نبيِّهم «منزلةَ الوعد والبشارة حيث قالوا: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استخفافاً منهم، ومبالغةً في التكذيب، كأنهم يقولون: نحن على القطع بأنّك لا تقدر على أن تأتينا بشيء من ذلك، وإن كنت صادقاً فافعل، ولا تؤخره رفقاً بنا وشفقة علينا، فإنا لا نتأذى بذلك... وحاصله التهكم منهم به والإشارة إلى عدم قدرته، وأكّدوا ذلك بقولهم بأداة الشكّ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾» [٤]، وهذا فيه من المراء -كما هو ظاهر- ما فيه.

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٧).

(٢) سورة الأعراف آية (٧٧).

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢٢٦.

(٤) نظم الدرر ٣/ ٥٩.

المطلب الرابع: قوم شعيب مع شعيب عليه السلام.

قوم شعيب قومٌ من العرب يسكنون مدينةً تسمّى مدين[١]، نسبةً إلى مدين بن مديان ابن إبراهيم عليه السلام، وهم من ذريّته، ونبيُّهم هو شعيب عليه السلام، وفي نسبه خلافٌ شديد، فقيل: هو شعيب بن ميكيل بن يشجن، وقيل: شعيب بن يشجن بن لاوي بن يعقوب، وكان أهل مدين قوماً كفاراً، يقطعون السبيل، ويبخسون الناس المكيال، ويطففون، ويعبدون شجرة وهي الأيكة، ويصدّون الناس عن سبيل الله عز وجل، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله عز وجل، وترك ما هم عليه من الموبقات، ولكنَّهم كغيرهم ممن سلف قبلهم، كذّبوه وجادلوه وكفروا بما جاء به[٢].

وقصّة عذابهم قصةٌ عظيمة، اجتمع عليهم من العذاب والنكال، ما لم يجتمع لغيرهم، وذلك أنّهم عُذّبوا بأنواع من العذاب، وقد ذكر الله عز وجل كيفيّة ما حلَّ بهم من الهلاك في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، ذكرها ابن كثير، مبيّناً العذاب وسببه، قال: «وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[٣]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال:

---

(١) مدينة على البحر الأحمر محاذية لتبوك،ينظر: (معجم البلدان ٥/ ٧٧).

(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٤، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٥، وتاريخ الطبري ١/ ١٩٧، والكامل ١/ ١٣٨، والمنتظم ١/ ٣٢٤.

(٣) سورة الأعراف آية (٨٨).

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾[١]، وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله تعالى في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[٢]، قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾[٣]، وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٤]، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥]»[٦].

مراء قوم شعيب مع شعيب عليه السلام:

١. من مرائهم وجدالهم، أنَّهم قالوا لشعيب عليه السلام بعد دعوته لهم، ولمن آمن معه فيما حكاه الله عز وجل عنهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾[٧]، وهذا الاعتراض منهم، مراءٌ وجدالٌ، حيث لم يسعهم إلا أن يهدّدوا شعيباً ومن آمن معه، بالإخراج من القرية، أو يعتنقوا ما هم عليه من الشرك بالله عز وجل، ولا ريب أن هذا

---

(١) سورة هود آية (٩٤).

(٢) سورة هود آية (٨٧).

(٣) سورة هود آية (٩٤).

(٤) سورة الشعراء آية (١٨٧).

(٥) سورة الشعراء آية (١٨٩).

(٦) تفسير ابن كثير١٠/ ٣٦٨.

(٧) سورة الأعراف آية (٨٨).

الجواب منهم لشعيب عليه السلام يتضمّن أموراً:

أوَّلاً: التكذيب بما جاء به.

ثانياً: دعوتهم لشعيب عليه السلام إلى ما هم عليه من الشرك والكفر.

وأنت ترى كيف وصل بهم المراء والجدال إلى هذا الحدِّ من التعنّت والمخاصمة، حيث يدعونه إلى ما ينهاهم عنه.

٢. ومن جدالهم لشعيب عليه السلام بالباطل، أنَّ الدعوة لمّا فشت فيهم، قال المخذولون منهم لدهماء الناس وعامّتهم، على وجه الاعتراض على الحقِّ طعناً فيه، وازدراءً لقائله، قالوا ما حكاه الله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾[1]، ويقول ابن كثير -مبيّناً ما هم عليه من اللّجاجة والمخاصمة- : «يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا، وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾»[2].

٣. وفي موضع مغاير لما تقدّم، يأخذ المراء منهم منحنىً آخر، ويسلكون منه طريقاً بغيضة، حيث قالوا لشعيبٍ عليه السلام مستهزئين متنقّصين، شأن أهل الباطل فيمن جاء بالحق، أنْ يسخروا به ويزدروه، ويجعلوه عُرضة للنقيصة، تنفيراً منه، وصدّاً عن

(١) سورة الأعراف آية (٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٥٠.

سبيل الله ﷻ يبغونها عوجاً، قال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾(١)، «وتخصيصهم إسناد الأمر إلى الصلاة، من بين سائر أحكام النبوة؛ لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك»(٢)، وأما وصفهم إياه بالحلم والرشد فهو «على طريقة الاستعارة التهكمية، فالمراد بهما ضد معناهما»(٣)، وهذا التهكم منهم لا يعدو أن يكون تشغيباً منهم، حيث لم يستطيعوا أن يدلوا بأيّة حجة، يناهضون بها أمر شعيب عليه السلام.

٤. ويبلغ عندهم المراء ذروته، لمّا انقطعوا وأُفحموا، ولم يجدوا سبيلاً إلى معارضة نبيّهم شعيب عليه السلام، فقالوا مقالة المتمرّس في الجدال والمراء: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾(٤)، فنسبوا إلى أنفسهم على سبيل المغالطة والتشغيب والمراء، عدمَ الفهم لما يقوله شعيب عليه السلام، كما يقول المجادل لمن يجادله: لا أدري ما تقول، «وهذا من كفرهم البليغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهمه ولا نتعقّله؛ لأنَّا لا نحبّه ولا نريده، وليس لنا همّةٌ إليه، ولا إقبالٌ

(١) سورة هود آية (٨٧).

(٢) روح المعاني ١٢/ ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق ١٢/ ٤٣٣.

(٤) سورة هود آية (٩١).

عليه»[(١)]، ولما كان في قولهم هذا إشارة إلى أنه ضعيف العقل -فيما يزعمون- لأن كلام يشبه كلام المجانين الذين لا يُفهم قولهم، أتبعوا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ في البدن وغيره، فكفَّ عما أنت بصدده، فإنك لا تقدر على الامتناع منَّا بقوة عقل ولا بدن ولا عشيرة، وأشاروا إلى ضعف العشيرة بتعبيرهم بالرهط، حيث قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[(٢)].

٥. ومما ماروا به نبيّهم، أنهم قالوا له مثل ما قال قوم ثمود لنبيّهم حيث قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾[(٣)]، أي: من المسحورين، فتشابهت قلوبهم في الضلال، وقد تقدم نظير هذه الآية في قوم ثمود[(٤)].

٦. ويبلغ منهم المراء والجدال مبلغاً كبيراً، حينما يكذّبونه من غير ما دليل، إلا مجرد الهوى والعناد، المغلّف بالمراء والخصام، حيث جعلوا كونه بشراً مثلهم، مثار الشقاق والخلاف، شأن أسلافهم من الأمم الهالكة قبلهم، قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٥)]، ومن مظاهر هذا التكذيب أنهم استعجلوا العذاب ليكون دليلاً على صدقه، ولكن إذا حلَّ بساحتهم فساء صباح المنذرين،

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٤٣٥، وينظر: روح المعاني١٢/ ٤٤١.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٥٦٩، بتصرف.

(٣) سورة الشعراء آية (١٨٥).

(٤) ينظر: صفحة: ١١٠.

(٥) سورة الشعراء آية (١٨٦).

وهيهات التدارك، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، فقالوا مقالتهم، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[1] ، فحلَّ بهم أمر الله الذي لا يردُّ عن القوم الظالمين.

(١) سورة الشعراء آية (١٨٧).

المطلب الخامس: قوم إبراهيم مع إبراهيم عليه السلام.

هو إبراهيم بن تارح -وهو آزر- بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام يكنى: أبا الضيفان، ولم يكن بين فيما بين إبراهيم عليه السلام وبين نوح عليه السلام نبيّ إلا هود وصالح عليهما السلام، وقد أُختلف في مكان مولده عليه السلام على أقوال، وصحّح ابن عساكر(١) أنه وُلد بكوثي من إقليم بابل أرض العراق، وكان مولده في عهد نمرود بن كوش، وهاجر إلى بلاد بيت المقدس، فأقام بحرّان، وكان أهل تلك البلاد يعبدون الكواكب من دون الله عز وجل، ولم يكن أحدٌ يعبد الله عز وجل في الأرض يومئذٍ إلا إبراهيم عليه السلام وامرأته وابن أخيه لوط عليه السلام، وقد اجتهد عليه السلام في دعوتهم إلى الله وإخلاص الدين له، حتى أُبتلي في الله عز وجل بلاءً عظيماً، بأنْ أضرموا ناراً عظيمة وقذفوه فيها، فجعلها الله عز وجل عليه برداً وسلاماً، وجعل له فرجاً ومخرجاً، واصطفاه الله عز وجل خليلاً، ولقد أحسن الله عليه الثناء في القرآن الكريم(٢).

وكان بينه وبين أبيه مجــادلات، وبينه وبين قومه مخاصمات، نطّلع عليها -إن شاء الله تعالى- فيما يلي.

---

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي _ ولد عام٤٩٩هـ، وتوفي عام٥٧١هـ _ مؤرخ حافظ محدث رحالة، من مصنفاته: تاريخ مدينة دمشق، وتبيين كذب المفتري في ما نسب إلى أبي الحسن الأشعري. ينظر: (البداية والنهاية ١٦/ ٥١٤، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١/ ٣٢٤، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣/١، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر ١٩٩٥م، وتاريخ الطبري ١/ ١٤٢، والمنتظم ١/ ٢٥٨.

مراء قوم إبراهيم لإبراهيم ﷺ:

١. من المراء الذي عاناه إبراهيم ﷺ من قومه، ما كان من أمر الملك الجبّار يومئذٍ هو النمرود بن كنعان ملك بابل، وقد حاجَّ إبراهيم ﷺ في الله ﷻ، لمّا دعاه إبراهيم إلى الله ﷻ، فأنكر أن يكون الله تعالى هو الإله المعبود، وادّعى لنفسه الربوبية، واستدلَّ -مراءً ومجادلةً- بحجج كبيت العنكبوت، قال الله ﷻ بهذا الشأن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وهذا الملك الجبار بهذه الدعوى العريضة، يحتمل أنه أراد أحد معنيين، الأوّل: أنّه يأتي بالرجلين قد استحقّا القتل، فيقتل أحدهما ويستبقي الآخر، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والمعنى الآخر ما ذكره ابن كثير مرجّحاً إياه، ومضعّفاً الأول، قال: «والظاهر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه، لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت»[2]، وقال أيضاً في موضع آخر موضحاً وشارحاً وعاضداً ما رجّحه: «وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجيٌّ عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدلَّ على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات -من إحياء الحيوانات وموتها- على وجود فاعل ذلك الذي لا بدَّ من استنادها إلى وجوده ضرورةً، وعدم

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥١.

قيامها بنفسها، ولا بدَّ من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة، من خَلْقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهَدَةً، ثم إماتتها، ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقول هذا الملك الجاهل:﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى -أي: القول الأول-...فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل»[١].

٢. ومن مجادلة قومه له ما ذكره الله ﷻ: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢]، وهذه الآية جاءت بعد سياق الدلائل على بطلان عبادة غير الله ﷻ، من الكواكب والشمس والقمر، وبيان أنّها لا تنفع ولا تضرُّ، ولمّا كانت تلك الأدلة في غاية الوضوح والبيان، لم يكن موقف أولئك المشركين من إبراهيم ؈، إلا الجدال والمحاجّة، والاستمرار على المخاصمة والمراء، بأنّهم لا يتركون عبادة تلك الأصنام، وأنّ آلهتهم خيرٌ مما دعاهم إليه إبراهيم ؈ من عبادة الله ﷻ، «ولما كان من المعلوم أن محاجتهم -بعد هذه الأدلة الواضحة في غاية من السقوط- سفلت عن الحضيض، نزه المقام عن ذكرها، إشارة إلى أنها بحيث لا يستحق الذكر، وبين جوابه لما فيه من الفوائد الجمة بقوله: ﴿قَالَ﴾، أي: بقول منكراً عليهم موبخاً لهم:

(١) البداية والنهاية ١/ ٣٤٣.

(٢) سورة الأنعام آية (٨٠).

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾، وصرح باسم الرب العلم الأعظم في قوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾، أي: شيء مما يختص به المستجمع لصفات الكمال لا سيما التوحيد»[١].

٣. ومن مرائهم الذي شابهوا فيه من قبلهم، أنَّ إبراهيم عليه السلام لمّا بيّن لهم بطلان ما يعتمدونه من عبادة غير الله عز وجل، لم يكن لهم حجّةٌ، إلا أن قالوا فيما حكاه الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[٢]، ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٣]، وهذه شبهة من لا حجّةَ له، فلمّا «لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلّال، ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٤]، أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال، على غير الطريق المستقيم»[٥].

٤. ومما تفرّع عمّا سبق، أنهم قالوا لإبراهيم عليه السلام حين بيّنَ لهم الحقَّ الذي لا مرية فيه، قالوا له فيما ذكره الله عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾[٦]، وقال الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي مجلّياً معنى ما قالوا: «أي: هذا القول الذي قلته،

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٦٦١، وينظر: تفسير الطبري ٥/ ٢٤٨، والتحرير والتنوير ٣/ ٣٢٥.

(٢) سورة الأنبياء آية (٥٣).

(٣) سورة الشعراء آية (٧٤).

(٤) سورة الأنبياء آية (٥٤).

(٥) تفسير ابن كثير ٩/ ٤١٢.

(٦) سورة الأنبياء آية (٥٥).

والذي جئتنا به، هل هو حقٌّ وجدٌّ؟ أم كلامك لنا كلامُ لاعبٍ مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردّدوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المتقرّر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم، كلام سفيه لا يعقل ما يقول»[(١)]، وزاد هذا المعنى إيضاحاً مبيّناً دِقّة التعبير بما وصفوا به إبراهيم عليه السلام، من أنه من جملة اللاعبين، ما ذكره ابن عاشور بقوله: «والمراد باللعب هنا: لعب القول، وهو المسمّى: مزحاً، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطّفَ معه، وتجنبَ نسبته إلى الباطل، استجلاباً لخاطره، لما رأوا من قوة حجته، وعُدل عن الإخبار عنه بوصف لاعب إلى الإخبار بأنه من زمرة اللاعبين، مبالغة في توغّل كلامه ذلك في باب المزح، بحيث يكون قائله متمكناً في اللعب، ومعدوداً من الفريق الموصوف باللعب»[(٢)]، ولا يخفى من خلال ما سبق، ما ألبسوا به مرائهم من لبوسٍ خادع.

٥. وفي نهاية الأمر حيث سقطت كلُّ حجّةٍ لأولئك المُمارين المجادلين، ولم يبق لهم ما يتعلّقون به من الجدال والمخاصمة القولية، وانقطعت بهم سُبُل المراء، ورأوا أن الحقَّ علاهم علّواً منكراً لا يستطيعون دفعه، وغلبتهم الحجّة «لما دَحَضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم»[(٣)]، وأجمعوا أمرهم بتحريق إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن

(١) تفسير ابن سعدي ٣/ ١٠٧٢.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٩٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٩/ ٤١٥.

﴿كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[1]، «لمّا انقطعوا بالحجة، أخذتهم عزّة بإثم، وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة»[2]، وهذا شأن المبطل إذا انقطعت شبهته بالحجة الدامغة لم يكن أحد أبغض إليه من المحِقّ، ولهذا أمر قوم إبراهيم بتحريقه، في آخر ما يقدرون عليه من معاداته.

(١) سورة الأنبياء آية (٦٨).

(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٢٦.

المطلب السادس: قوم لوط مع لوط عليه السلام.

هو لوط بن هاران بن تارح، وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، آمن له من قومه، وخرج معه مهاجراً من أرض بابل إلى أرض مصر، ثم عادوا جميعاً إلى أرض الشام، وبعثه الله عز وجل نبيّاً إلى قُرى سدوم، وكانوا قوماً من أخبث الناس عملاً وأفجرهم، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، وابتدعوا فاحشةً لم يكن عليها أحدٌ من البشر، وهي إتيانهم الذكران من العالمين، مع ما هم عليه من الكفر بالله عز وجل وعبادة غيره، فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، «ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يردُّ»[(١)].

ولوط عليه السلام مع دعوته لقومه، لم يؤمن منهم أحد، وأرادوا إخراج نبيّهم من أرضهم، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[(٢)]، ولمّا طال عليهم الأمد مع نبيّهم، استعجلوا العذاب، فدعا عليهم لوط عليه السلام بالعذاب فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٣)]، فأجابه الله عز وجل، وكان من قدر الله عز وجل أن بعث ملائكةً كراماً في صورة رجالٍ حسان الوجوه، إلى لوط عليه السلام؛ ليخرج هو وأهله بقطع من الليل من القرية الظالمي أهلها، التي حقّت عليها كلمة العذاب، وحين استضافوا لوطاً عليه السلام خاف عليهم قومَه الفجرة، وكان من أمره ما أخبر الله عز وجل به:

(١) البداية والنهاية ١/٤٠٨.

(٢) سورة النمل آية (٥٦).

(٣) سورة العنكبوت آية (٣٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(١)، أما امرأة لوط عليه السلام فكانت على دين قومها، ولما جاء أضيافه من الملائكة أخبرت قومَها بمجيئهم، فجاءوا مسرعين، طمعاً بالأضياف، ولم يشعروا أنَّ هؤلاء الملائكة جاءوا بعذابهم واستأصالهم، وكان من أمر الله عز وجل، أن أمرت الملائكة لوطاً عليه السلام أن يخرج هو وأهل بيته في ظلمة الليل، ويتّبع أدبارهم ويسير في أثرهم، ولا يلتفت منهم أحدٌ، إلا امرأته سيصيبها ما يحلُّ بقومها، ولما جاء الصبح جاءهم من أمر الله عز وجل ما لا مردَّ له، وقُلبت عليهم أرضهم، وأُمطروا بحجارة من سجيل، أتت على آخرهم، ولحق لوط عليه السلام بأرض فلسطين حتى توفاه الله تعالى(٢).

مراء قوم لوط مع لوط عليه السلام:

الذي يظهر أنه لم تكن هناك كبير مجادلات ومخاصمات بين قوم لوط، ولوط عليه السلام، كما كانت في الأمم الماضية، كقوم نوح عليه السلام ومن بعدهم، وهذا -والله أعلم- أنَّ لوطاً عليه السلام لمّا رأى من خبث فعالهم، وعِظم تمرّدهم وكفرهم واستعجالهم العذاب، لم يُمهلوا كثيراً حتّى أصابهم من أمر الله تعالى ما أفناهم واستأصلهم، وإجمال مرائهم لنبيّهم عليه السلام، ما يلي:

١. من مرائهم للوط عليه السلام أنه لمّا دعاهم إلى الله عز وجل، وترك ما يتعاطونه في ناديهم من المنكر، وقطعهم السبيل، وكفرهم بالله عز وجل، اعترضوا عليه استهزاءً

---

(١) سورة هود آية (٧٧).

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١/ ٤٠٨، وتاريخ الطبري ١/ ١٧٥، والكامل ١/ ١٠٦، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٤ _ ٤٤، والمنتظم ١/ ٢٨٢.

وسخريةً، حيث جعلوا ما يكون من الخصال التي يمدح من اتصف بها، في غاية ما يكون من الذمِّ، الموجب لإخراج لوط عليه السلام من قريتهم، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(١)، وقولهم هذا ليس إلا تشغيبٌ منهم ومجادلة سفسطائية، حيث لم تتسع أهوائهم لما جاء به لوط عليه السلام من الطهارة الحسّية والمعنوية، حتى ردّوا عليه بهذه المقالة؛ وذلك أنهم أُفحِموا فلم يجدوا جواباً، غير ما أُشربته نفوسهم من حبِّ المنكر، فاتخذوا هذه المماحلة تمادياً منهم في باطلهم، وازدراءً لمن اتصف بالطاهرة، وتشغيباً عليه فيما يقول، واستمالةً لقلوب الغوغاء، كما يحصل من بعض الفسقة والفجور، وأصحاب الأهواء، من اتهامهم أهل الصلاح بالصلاح! وتلك شَكاة ظاهرٌ عنهم عارها، وردُّ قوم لوط لنبيهم بما تقدم، من أعجب الردود وأغربها!.

٢. ومن مرائهم للوطٍ عليه السلام، أنهم لما أنذرهم عقاب الله عز وجل وبطشه، تماروا وشكّكوا في وقوع ما أوعدهم به، وذلك الذي زادهم طغياناً إلى ما هم عليه من المنكر، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾(٢)، وهذا التماري منهم بالنذر، مُشربٌ معنى التكذيب منهم لرسول الله لوطٍ عليه السلام، ولأن الفعل"تماروا" عُدّي بحرف الجرِّ "الباء"، الذي أفاد معنى التكذيب، وذلك أحد معاني المراء(٣).

---

(١) سورة الأعراف آية (٨٢).

(٢) سورة القمر آية (٣٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٥٦٣ ، وروح المعاني ٢٧/ ١٢٨.

٣. ومن مجادلتهم ومرائهم أنهم استعجلوا هلاكهم واستئصالهم، لما طال عليهم الأمد في نفوسهم وقست قلوبهم، حيث دعاهم لوطٌ عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك الفواحش، فقالوا مقالةً الجاحد المكذب في نفسه، المشكّك لغيره: ﴿ قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1]، وهم لم يستعجلوا العذاب إلا لأنهم مكذبون، وللحقِّ جاحدون، لقولهم على سبيل الشرط: ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) سورة العنكبوت آية (٢٩).

المطلب السابع: الأمم الغابرة مع أنبيائهم ممن لم تُذكر قصصهم في القرآن الكريم.

ما سبق ذكره من أحوال أولئك الأقوام والأمم مع الرسل والأنبياء، من الجدال والمراء، فيما بلغّوه عن الله ﷻ، قد قصَّ الله ﷻ علينا نبأهم في كتابه العزيز، على وجه التفصيل لما كان من مواقفهم وجدالهم ومرائهم، وذكر الله ﷻ أمماً على سبيل الإجمال، لا يعلمهم إلا الله ﷻ، لم يكن في القرآن الكريم ذكرٌ لهم على وجه التفصيل والبيان، كما قال الله ﷻ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1].

وقد ذكر الله ﷻ أن كلَّ أمةٍ ممّن قصَّ خبرهم علينا، وممّن لم يقصصهم علينا، أن كلَّ أمة جادلت نبيّها وخاصمته، وتمارت في آيات الله ﷻ، وجادلت بالباطل؛ لتردَّ بذلك الحقَّ الذي لا مناص من قبوله، حتى أصبح هذا ديدنهم وعادتهم في كلِّ حقٍّ يبلغهم، وذلك بدءً من أوَّل الأمم، وهم قوم نوح ﵇، ومن بعدهم من الأمم، إلى ما شاء الله تعالى من القرون، التي لا يعلمها إلا هو تعالى.

قال الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2].

وتأمل أيضاً هذا البيان القرآني، كيف جادلت الأمم المتقدمة رسلهم وأنبيائهم، ممن قصّ الله تعالى علينا نبأهم، وممن لم يقصص علينا خبرهم، وإنما ذكرهم بطريقة الإجمال.

---

(١) سورة النساء آية (١٦٤).

(٢) سورة غافر الآيتان (٤ _ ٥).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

وهذه الآيات تفيد أنَّ كلَّ أمة من بعد قوم نوح وعاد وثمود، والأمم من بعدهم التي لا يعلمها إلا الله تعالى، لها نصيب من المجادلة والمراء، وهذا المعنى يتجلّى في أوضح صوره، إذ جعلوا أيديهم في أفواههم لما بلغهم الحق، والمعنى: «أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم فعضُّوا عليها، غيظاً على الرسل»[2]، وكذبوهم، وتذرّعوا بتكذيبهم؛ لكون الرسل بشراً مثلهم، وفي الوقت نفسه يأمرونهم بخلاف ما كان عليه آباءهم.

ومع ظهور الآيات لهم والحجج القاطعة لكل خصومة وجدال، طالبوهم بسلطان مبين! «ومرادهم بيّنة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات»[3]، وندرك من خلال مجادلة أولئك الأقوام لرسلهم، أنَّ طريقتهم في ذلك متفقة في الجملة،

---

(١) سورة إبراهيم الآيات (٩ _ ١١).

(٢) تفسير الطبري ٧/ ٤٢٤.

(٣) تفسير السعدي ٢/ ٨٤٢.

الأمر الذي يفسّر طبيعة الإنسان الجدلية.

ومن خلال ما تقدّم يظهر سؤالٌ مفاده، ما فائدةُ وسرُّ هذا الإجمال لذكر تلك الأمم التي لم يُفصَّلْ في ذكر حالها، بينما ذُكر غيرُها مفصّلاً؟

وهذا -والله أعلم- من باب أسلوب القرآن الكريم في الإيجاز، حيث قصَّ الله ﷻ من نبأ الأمم وخبرهم، وفصّل فيما يحتاج الناس إليه من أخذ العِبَر والعظات، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويدخل في ذلك غيرُهم من الأمم التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، إذ قصَصهم مماثلةٌ، لأن الله ﷻ ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل.

وهناك فائدةٌ أخرى ذكرها البقاعي، قال: «ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا، وفرَّقهم اختلافُ الألسنة والأديان، وكان للإجمال من الروع في بعض المواطن ما ليس للتفصيل قال: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾، أي الأمم المتفرقة الذين لا يحصون عدداً»[1].

وأمّا من حيث عدد الأمم، فقد ورد أن الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى النبي محمد ﷺ سبعون أمة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، يقول في قوله الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾[2]، قال: «إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[3].

---

(١) نظم الدرر ٦/ ٤٨٦.

(٢) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، بابٌ ومن سورة آل عمران، (٣٠٠١)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في أبواب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، (٤٢٨٨)، والإمام أحمد في مسند معاوية بن حيدة البهزي، (٢٠٠١٥)، ٣٣/ ٢١٩، كلهم من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. ينظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠/ ٧٣٣، تحقيق عبد الله بن محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، سنة الطبع ١٤١٤هـ، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

فكلُّ أمةٍ لها حظٌّ وافر من المجادلة والمراء في دين الله ﷻ، لكون ذلك موصلاً لهم إلى تكذيب الحقِّ، وصدِّ الناس عن سبيل الله ﷻ، حيث أُشربته نفوسهم، وكما قال الله ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[1].

(١) سورة الذاريات آية (٥٣).

المبحث الثاني: المراء في الدين عند اليهود.

اليهود في الأصل، هم من ذرية نبيِّ الله تعالى إسرائيل ﷺ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، وسُمّوا يهوداً، قيل: نسبةً على يهوذا، وهو الأكبر من أولاد يعقوب ﷺ، وقيل: من الهوادة، وهي المودّة، أو التهوّد وهو التوبة.

انتقلوا إلى بلاد مصر يوم أن كان يوسف ﷺ على خزائنها، فقدمها يعقوب ﷺ وبنوه على يوسف ﷺ، وتوطّنوا مصر، واستمرَّ وجودهم إلى زمان موسى ﷺ، وقد سامهم فرعون سوء العذاب، يقتّل أبنائهم ويستحيي نسائهم، ويمتهنهم في الأعمال الشاقّة، وهم مع ذلك قد انتشر نسلهم بمصر، وبعث الله ﷻ نبيه الكليم موسى ﷺ، وهو نبيُّ الله موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وأنزل الله ﷻ عليه التوراة، مكتوبةً في الألواح، فيها حكم الله ﷻ، حتى خرج موسى ﷺ بقومه فراراً من فرعون وجنوده، عابرين البحر بقدرة الله ﷻ وأمره.

ولقد فضلهم الله ﷻ على عالمي زمانهم، واصطفاهم على من سواهم، ورأوا من الآيات العظيمة الباهرة مع موسى ﷺ، ما هو موطن التسليم والإذعان والإيمان والعمل، ولكنهم جادلوا نبيَّهم وخاصموه وآذوه، وخاضوا فيما يجب فيه عدم الخوض، وتعنّتوا على أمر الله ﷻ، حتى قاد بعضهم إلى الكفر الصريح، وذلك سواءً أكان مع نبيِّهم موسى ﷺ أو مع النبيِّ محمد ﷺ كما سيأتي -إن شاء الله ﷻ- [(١)].

(١) ينظر: التوارة، سفر الخروج الإصحاح الثاني عشر بكامله، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٥.

وقد أخبر الله ﷻ أنَّهم تفرقوا واختلفوا، مع إيتائهم الكتاب الذي هو سبب الوفاق لا التفرّق، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[١]، وهذا -والله أعلم- من أسبابه: الجدال والمراء، والخوض بالباطل، فيما جاء وحياً من عند الله ﷻ، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم جدالهم ومرائهم مع نبيّهم، وقد أخذوا من المراء والجدال بحظٍّ وافر، وولجوا فيه من أوسع أبوابه، وكانوا أسوةً فيه لمن بعدهم[٢].

(١) سورة البيِّنة آية (٤).

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ ١/ ١٦٣، البداية والنهاية ٢/ ١١٧، وتاريخ الطبري ١/ ٢٣١.

المطلب الأول: مراؤهم مع موسى عليه السلام:

نجد في التوراة عبارة تردّد كثيراً، وهي الشغب على موسى عليه السلام، وذلك عند خروجهم من مصر، وما كان من أمرهم في سيناء، وغير ذلك من المواقف، حيث يكثرون الشغب والاعتراض على موسى عليه السلام، وقد رأوا من الآيات ما رأوا.

وجاء في التوراة هذه العبارات التي تدّل على مرائهم وجدالهم لموسى عليه السلام:

«خاطب الله موسى قولاً: سمعت أشاغيب بني إسرائيل»[(١)].

وأيضاً من نصوص التوراة: «فشغب القوم على موسى»[(٢)].

وكذلك من نصوصها: «فشاجر القوم موسى، وقالوا: أعطنا ماءً لنشرب، فقال لهم موسى: لمَ تخاصموني؟ ولمَ تمتحنون الله؟»[(٣)].

فمُماراة بني إسرائيل لموسى عليه السلام، قد أفصح عنها كتابهم، بل كان المراء سمةً لهم يُوصفون بها، ونصوص التوراة في ذلك كثيرة، والمقصود هو بيان ما اعتمده اليهود من المراء والجدل لموسى عليه السلام.

ونجد في حديث الإسراء الطويل ما يشهد لهذا المعنى، وهو من قول موسى عليه السلام لمّا لقيَ النبي محمد ﷺ، حيث قال له: «وإني -والله- قد جربت الناس قبلك، وعالجت

---

(١) التوراة، سفر الخروج الإصحاح السادس عشر، فقرة (١٢)، وينظر: البداية والنهاية ١/ ٤٢٥، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٣٢، والكامل ١/ ١٥٠، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١/ ٣٣١ .

(٢) التوراة، سفر الخروج، الإصحاح السابع عشر، فقرة (٤).

(٣) التوراة، سفر الخروج، الإصحاح السابع عشر، فقرة (٣).

بني إسرائيل أشدَّ المعالجة»[١]، وهذا الحديث يبّين ما لقيه موسى عليه السلام من بني إسرائيل.

وحتى المنصفون منهم الذين تبيّنت لهم الحقيقة، يذكرون من شّدة مراء اليهود وجدالهم وتعنّتهم على قبول الحقِّ الذي ظهر لهم، واصطناع الأساليب والحيل، لتعمية الحقيقة عن الناس، وهذا الموضوع -مراء اليهود- يستحقُّ دراسةً مفردةً تكشف ما هم مشتملون عليه من شدة اللَّدد في الخصومة، وعظيم الجدل والمماحلة، منذ قديم الدهر وحديثه، وعلى مختلف عصورهم إلى عصرنا الحاضر[٢].

ولقد جاء القرآن الكريم حافلاً بذكر ما كان من تعنّتهم ومخاصمتهم وجدالهم، على وجهٍ لا يخفى منه شيءٌ، فمما ورد في القرآن الكريم من ذلك، على هذا النحو:

١. تعنّتهم وجدالهم لموسى عليه السلام حيث أمرهم بدخول الأرض المقدسة، لَّما خرجوا من بلاد مصر، قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾[٣]، وقد وعدهم الله عز وجل النصر على أعدائهم، ولكنهم جبنوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه البخاري، واللفظ له، في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، (٣٨٨٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات، وفرض الصلوات، (١٦٢).

(٢) ينظر على سبيل المثال: كتاب إفحام اليهود، ص ٧٣، للسموأل بن يحيى المغربي (الحبر شموئيل بن يهوذا)، تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء، القاهرة، ودار الجيل بيروت، دون ذكر سنة الطبع، وكتاب الحسام الممدود في الرد على اليهود، ص ٥٦، لعبد الحق الإسلامي المغربي (كان من أحبار اليهود بسبتة)، تحقيق عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) سورة المائدة آية (٢١).

مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[١]، وهذا القول منهم على سبيل الاستبعاد، وليس على ما يظهر منه أنه للشرط، وقال لهم رجـــلان من صالحيهم: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢]، وتصل بهم المجادلة والمراء إلى أن قالوا لنبيّهم، الذي نجّاهم الله ﷻ بسببه من فرعون وجنوده: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[٣]، وهنا تظهر شدة منازعتهم ومجادلتهم لنبيّهم، أن تفوّهوا بتلك المقالة[٤].

٢. ومن مرائهم لموسى عليه السلام أنهم يتعاطون تحريف كلام الله ﷻ من بعد ما عقلوه وفهموه، وبدّلوا ما أُمروا به، حين أمرهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة ويقولوا: حطة، فجعلوا يقولون خلاف ذلك، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ﴾ فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم، وقالوا: حبة في شعرة»[٥]، وقـــال الله

---

(١) سورة المائدة آية (٢٢).

(٢) سورة المائدة آية (٢٣).

(٣) سورة المائدة آية (٢٤).

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي ٧/ ٢٧٥، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ حِطَّةٌ ﴾، (٤٦٤١)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة، (٣٠١٥).

ﷻ في بيان تلك الحال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

٣. ومن شدّة جريهم خلف الجدال والمراء، عبادتهم للعجل حين ذهب موسى ﷺ لميقات ربه ﷻ، وفي هذا يقصّ الله ﷻ ما كان منهم بقوله: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[2]، وفي موضع آخر يبيّن الله ﷻ شدّة مرائهم حيث قالوا: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[3]، قال ابن كثير: «أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلّبه!»[4]، فوا عجباً، أن يكون حالهم وما وصلوا إليه من مرائهم، إلى هذا الحدِّ! «فلم تكد نعالهم تجفُّ من الطين، وهم يقطعون البحر، ويرون هلاك فرعون الطاغية، وقد تمّت نجاتهم بقدر الله الخالق، الذي يملك وحده الضرُّ والنفع، ويستحقُّ وحده العبادة»[5]، ومع ذلك راج

(١) سورة البقرة آية (٥٩).

(٢) سورة الأعراف آية (١٤٨).

(٣) سورة طه آية (٨٨).

(٤) تفسير ابن كثير ٩/ ٣٦٠، وينظر: تفسير البيضاوي ٤/ ٣٦، ونظم الدرر ٥/ ٣٩، واللباب في علوم الكتاب ١٣/ ٣٥٨.

(٥) كتاب شغب اليهود على الأنبياء، ص ١٩ـ٢٤، للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، وينظر: القصة أيضاً في التوراة سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثون بكامله.

راج عليهم أن يعبدوا العجل، بعد ما رأوا من آيات الله ﷻ ما فيه العبرة والعظة.

٤. ومن ذلك أيضاً أنّهم سألوا نبيهم موسى ﷺ، رؤية الله ﷻ، وذلك على وجه التعنّت والمخاصمة، حيث شرطوا إيمانهم بذلك، كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[1]، وإذا علموا صدق موسى ﷺ، فعلام هذا الشرط؟ إنها المخاصمة والمراء بعد وضوح الحقِّ، والتعنت في قبوله.

٥. ومن عجيب خصامهم ومرائهم، أنّهم تعنّتوا في قبول التوراة، وجادلوا نبيَّهم فيها، حتى رفع الله عليهم جبل الطور على وجه التهديد والإلزام بقبولها، ليأخذوا أمر الله ﷻ وميثاقه مأخذ الجدِّ، وحسماً لمادّة المراء والجدال، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، قال ابن جزي الكلبي: «لما جاء موسى بالتوراة أبوا أن يقبلوها، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم: إن لم تأخذوها وقع عليكم»[3]، ثمَّ بعد ذلك كان من أمرهم ما قصّه الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ

(١) سورة البقرة آية (٥٥).

(٢) سورة البقرة آية (٦٣).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٦٩.

بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

٦. وكذلك جادلوا موسى عليه السلام وماروه، وما كادوا يفعلون ما أمرهم الله عز وجل به في قصة القتيل منهم، وأمرهم الله عز وجل بذبح بقرة ليعرفوا القاتل، وأوردوا من الأسئلة ما هو من قبيل اللجاجة والخصومة، بعد وضوح الأمر، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٢]، ومن خلال هذه القصّة يتضح سوء أدب اليهود مع الله عز وجل ورسوله موسى عليه السلام، حيث وصف أمر الله عز وجل بأنه سخرية واستهزاء بهم، وهل هذا إلا خصام بارد، ومدافعة بغيضة؟ وما كان أيضاً في ضمن قولهم، من التشكيك فيما ينسبه موسى عليه السلام إلى الله عز وجل من الأمر، ثم المراوغة في التسليم، والتعنت في تلّقي الأمر، وتلاوة الأسئلة بعد الأسئلة، التي تتضمّن المماطلة في التنفيذ والعمل، حتى لم يكادوا يفعلوا ما أمرهم الله عز وجل[٣].

---

(١) سورة البقرة آية (٩٣).

(٢) سورة البقرة آية (٧١).

(٣) ينظر: كتاب شغب اليهود على الأنبياء، ص ٧٤.

٧. وكذلك مما ماروا به موسى عليه السلام ما تعاطوه من الأذية له، حيث آذوه بالقول، كما آذوه بالفعال، على ما تقدّم، فمن قولهم لموسى عليه السلام ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: -والله- ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر...»[(١)]، وهذا الحديث «يدلُّ أنهم كانوا عصاة له في ذلك، غير مقتدين بسنته، إذ كان هو يغتسل حيث لا يراه أحد، ويطلب الخلوة، فكان الواجب عليهم الاقتداء به في ذلك»[(٢)]، وعلاوة على ذلك هذا الإيذاء القولي أنه آدر، أيْ: أنه منتفخ الخصية[(٣)]، والعجب كلُّ العجب، أن يقول هذا قومٌ لنبيهم! وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٤)]، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾[(٥)]، وفي الحديث: «رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٦)].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانا وحده في خلوة، (٢٧٨)، ومسلم كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، (٣٣٩).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ١/ ٣٩٤، تحقيق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب ١/ ٣٣٢، تحقيق طارق بن عوض الله محمد، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٢هـ.

(٤) سورة الأحزاب آية (٦٩).

(٥) سورة الصف آية (٥).

(٦) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ (٣٤٠٥)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبير من قوي إيمانه (١٠٦٢).

المطلب الثاني مراؤهم مع النبّي محمد ﷺ:

لم يكن يشكُّ اليهود الذين بُعث فيهم النبي محمد ﷺ بالحجاز، لم يكن عندهم أدنى ريب في شأنه، بل يعرفونه كما يعرفون أبنائهم، ويعلمون صفته المكتوبة عندهم في التوراة، وقد استثبتوا صفته وعلموها، ولا يخفى عليهم من أمره شيء، ولكن حملهم الحسدُ وحبُّ الدنيا على عدم الإيمان به عليه الصلاة والسلام، فجادلوه وخاصموه، وطغى المراء عليهم حتى كفروا بما يعلمون صدقه، ولقد لقي منهم النبيّ محمد ﷺ البلاءَ والعنت، من مرائهم وجدالهم، وخوضهم بالباطل، وشدّة مُماكرتهم وكفرهم وتكذيبهم وعنادهم.

واستخلصت من كتب التفاسير والسير وغيرها، أبرز ما عارضوه به وجادلوه، وخاضوا معه مراءً في الدين، وكفراً بربِّ العالمين، وقد انتخبت من ذلك، ما يدخل فيه غيرُه، على هذا النحو:

١. من مرائهم للنبيّ محمد ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان به، قالوا -فيما ذَكروه عن أنفسهم-: أن قلوبهم في أغطيةٍ وأكنّة، فلا يفقهون ما يقول، ولا يعون ما يدعوهم إليه، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ ﴾[(١)]، والمعنى: أنَّ القلوب مطبوعٌ عليها، فلا تعي ولا تفقه[(٢)]، والغلف هو: بضمٍّ فسكون، هو الوعاء الحافظ للشيء[(٣)]، وهذا الكلام منهم للنبي محمد ﷺ، «قصدوا به التهكُّم، وقطع طمعه في

(١) سورة البقرة: آية (٨٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٣، وتفسير الطبري ١/ ٤٥٠.

(٣) ينظر: القاموس المحيط، ص ٨٤٢، ومختار الصحاح، ص ٤١٨.

إسلامهم»[١]، وهذا على التأويل الأول لمعنى"غُلْف" وأما التأويل الثاني على القراءة الأخرى، بضمِّ اللام جمع غلاف[٢]، «والمعنى على هذه القراءة: أن قلوبنا أوعية، فهي غير محتاجة إلى علم آخر»[٣]، وعلى هذا المعنى يريدون أنهم مستغنون بما عندهم من العلم بالتوراة عن أيِّ علمٍ عند غيرهم، وكلا المعنيين قد ادّعاه يهود، مُماراةً ومجادلةً لإسكات النبيِّ محمد ﷺ وقطع مادّة الكلام معه[٤].

٢. ومما جادلوا به النبيَّ ﷺ أنه إذا دعاهم إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بالقرآن الكريم، كان ردُّهم كما أخبر الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[٥]، والمعنى: -أنهم بزعمهم- لا يؤمنون إلا بالتوراة، ولقد علموا تصديق القرآن الكريم للتوراة، «فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادَّعى دعوى بحجّة وبيّنة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيّنته، ثم يأتي هو لبيّنته وحجّته، فيقدح فيها ويكذّب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن، كفراً بما في

(١) التحرير والتنوير ١/ ٥٩٩.

(٢) ينظر: المبهج في القراءات الثمان، وقراءة الأعمش وابن محيصن، واختيار خلف واليزيدي، للإمام عبد الله بن علي بن أحمد المعروف بسبط الخياط ٢/ ٣٤٧، تحقيق وفاء عبد الله قزمار، نشر جامعة أم القرى، ١٤٠٤.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٢٦٩.

(٤) ينظر: تفسير السعدي ١/ ٧٦، والبحر المحيط ٣/ ٤٠٣، وتفسير البيضاوي ١/ ٩٣.

(٥) سورة البقرة آية (٩١).

أيــديهم، ونقــضاً له»(١).

٣. وكذلك من مرائهم وجدالهم، أنهم لمّا سألوا النبيَّ محمد ﷺ عن أمورٍ أربعة يستظهرون بها نبوته، عن شبه الولد، وعن نومه عليه الصلاة والسلام، وعما حرّم إسرائيل على نفسه، وعن الروح، فأجابهم عن ذلك كلِّه، ثم جحدوا وكفروا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب عليه السلام، على بنيه: لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه، لتتابعني على الإسلام، قالوا: فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا، أيَّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة، وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبيُّ الأميُّ في النوم؟ ومن وليّه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه، لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام، مرض مرضا شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً، لئن شفاه الله تعالى من سقمه، ليحرمنَّ أحبَّ الشراب إليه، وأحبَّ الطعام إليه، وكان أحبُّ الطعام إليه لحمان الإبل، وأحبُّ الشراب إليه ألبانها؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما عــلا كان له الـولد والشبه

(١) تفسير ابن سعدي ١/ ٧٧.

-بإذن الله-؟ إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً -بإذن الله- وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى -بإذن الله-؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبيَّ الأميَّ، تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، قالوا: وأنت الآن، فحدثنا: من وليّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك؟ قال: فإن وليّي جبريل ﷺ، ولم يبعث الله نبياً قطُّ، إلا وهو وليّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم من أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا»[1]، فلما أقرّوا بذلك، ولم يجدوا له مدفعاً، قالوا: يا محمد ولكنه لنا عدوٌّ، فزعموا أن الحائل بينهم وبين عدم الإيمان به، كون جبريل ﷺ هو الذي نزل بالوحيّ، وأنه عدو لهم، وأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، فاليهود أقرّوا بصحة الرسالة وصدق المرسَل، ومع ذلك دفعوا الحق وردّوه بهذا الصنيع.

٤. ومن جدالهم خصومتهم أنهم كانوا يكتمون الحقَّ، ويجحدونه، ويخفونه عن الناس، ومن ذلك أنهم كتموا صفة النبيِّ محمد ﷺ في التوراة وجحدوها، وهم

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد، في مسند ابن عباس، (٢٥١٤)، ٤/ ٣١٠، وقال شعيب الأرناؤوط في درجة الحديث: حسن بطرقه، وأخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧٦، ينظر: الروض الأنف في تفسير سيرة النبوية للسهيلي، ٢/ ٤٠١، تحقيق مجدي بن منصور الشوري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) سورة البقرة آية (٩٧).

يعلمون من أنفسهم كذبهم في ذلك، ولكن حملهم الحسد أن كان النبيّ محمد ﷺ من العرب، وخرجت النبوة من بني إسرائيل، وهنا ذكر ابن عاشور نكتةً لطيفةً عند قول الله ﷻ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾[١]، قال: «واللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لتضمين ﴿ يُؤْمِنُواْ ﴾ معنى يُقرّوا، وكأنَّ فيه تلميحاً إلى أن إيمانهم بصدق الرسول حاصلٌ، ولكنهم يكابرون ويجحدون، على نحو قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[٢]...فما أبدع نسج القرآن؟»[٣]، وممّا يشهد لذلك أيضاً، أنَّ النبيَّ محمد ﷺ اجتمع ببعض علماء اليهود، في قصّة رجم اليهوديين اللذين زنيا، حيث كتموا آية الرجم من التوراة وجحدوها، وكان من الأمر أنْ انتهى النبي ﷺ بأعلمهم بالتوراة، وهو عبد الله بن صوريا الأعور، فألحَّ به النبيُّ ﷺ السؤال، وقال: «أَنْشدك الله، وأذكّرك بِأَيّامه عند بني إسرَائيلَ، هلْ تعْلم أنّ الله حَكَمَ فيمن زنى بعد إحصَانه بالرّجم في التّوراة؟ قَالَ: اللّهم نعم أما -والله- يا أبا القاسم إنّهم ليعرفون أنّك لنبيّ مرسَلٌ ولكنّهم يحسدونك»[٤]، ثمَّ آل أمر ابن صوريا إلى أن جحد وكفر، وكذلك جحدوا أحكاماً في التوراة، مجادلةً للنبيِّ ﷺ ومراءً، فكان من مواقفهم بهذا الصدد، أن عبد الله بن صوريا لمّا سأله النبيُّ ﷺ عن حكم من زنى محصناً، وأتى بالتوراة وقرأ حكم من زنى بعد إحصان، فلما أتى إلى آية الرجم، وضع

---

(١) سورة البقرة آية (٧٥).

(٢) سورة البقرة آية (١٤٦)

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٥٦٧.

(٤) الروض الأنف ٢/ ٤٢٣.

إصبعه عليها ليخفيها(١).

ومن ذلك أيضاً، أنَّ يهود الحجاز كانوا في الجاهلية يستفتحون على العرب ببعثه النبيِّ الخاتم في آخر الزمان فيتّبعونه، ويقتلون به أولئك العرب قتلَ عاد، فلمّا بُعث النبيُّ محمد ﷺ وهاجر إلى المدينة وعلموه بصفته، كانوا أكفر الناس به، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢)، وهذه الأمثلة، تنبيهٌ على ما كانوا يكتمونه ويجحدونه من الحقِّ الذي تقرر عندهم.

٥. ومن خصامهم وجدالهم الذي ورثوه عن أسلافهم، ما حكاه الله ﷻ عنهم من تحريفهم لكلام الله ﷻ من بعد ما فهموه وعلموا معناه، حيث قال الله ﷻ للنبيِّ محمد ﷺ قاطعاً طمعه في إسلامهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣)، ومن أحسن ما فُسّرت به هذه الآية الكريمة، ما ذكره ابن جرير(٤)، مرجّحاً أحد

(١) ينظر: القصّة في صحيح البخاري كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، (٣٦٣٥)، وصحيح مسلم كتاب الحدود، باب رجم اليهود، وأهل الذمّة في الزنى، (١٦٩٩).

(٢) سورة البقرة آية (٨٩).

(٣) سورة البقرة آية (٧٥).

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري _ ولد عام٢٢٤هـ، وتوفي عام٣١٠هـ _ المؤرخ المفسر الإمام، كان من أفراد الدهر علما وذكاءً، من تصانيفه: جامع البيان في تأويل القرآن، وتاريخ الأمم والملوك. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧، وتذكرة الحفاظ ٢/٧١، دار الكتب العلمية، تصحيح الشيخ عبد الرحمن المعلمي، ١٣٧٤هـ).

القولين بعد إيرادهما، في من كان يمارس التحريف من بني إسرائيل، فقيل: إنَّ الذين يحرفون التوراة هم علمائهم، والقول الثاني: أنهم يسمعون من كلام الله تعالى، كما يسمع أهل النبوة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

قال ابن جرير -مرجحاً القول الثاني-: «وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية، وأشبههما بما دلَّ عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس[1]، والذي حكاه ابن إسحاق[2] عن بعض أهل العلم: من أن الله تعالى ذكره، إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بني إسرائيل، سماع موسى إياه منه، ثم حرّف ذلك وبدّل من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه، وذلك أن الله جل ثناؤه، إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عز وجل، استعظاماً من الله لما كانوا يأتون من البهتان، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذكره، عبادَه المؤمنين، قطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد ﷺ من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم -بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله ﷻ- عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه، ثم يبدله ويحرفه ويجحده، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعونه من الله،

---

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني _ توفي عام ١٣٩هـ _ سمع من أنس بن مالك ﷺ، وحديثه في السنن الأربعة. ينظر: (الثقات لابن حبان٤/ ٢٢٨، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٦٩).

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء _ توفي عام ١٥١هـ _ حافظ من أقدم مؤرخي العرب، له من المصنفات: السيرة النبوية. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦) .

وإنما يسمعونه منكم، وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد ﷺ ونعته ويبدلوه، وهم به عالمون، فيجحدوه ويكذبوا من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جل ثناؤه، ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وعلموه، متعمدين التحريف»(١).

٦. ومن مرائهم للنبيِّ محمد ﷺ أن رهطاً من اليهود قالــوا للنبيّ محمد ﷺ: «يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه»(٢)، وهذا كلُّه من تفننهم في التعنت بإيراد الأسئلة، التي يُراد منها المخاصمة والمماراة، ومن ذلك أيضاً أن بعضهم قال للنبيِّ ﷺ: «يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة، إن كنت نبيّاً كما تقول؟»(٣)، وهناك نماذج كثيرة على تعنّتهم وخصامهم بإيراد السؤال مجادلةً وملاحاةً، وليس هذا مقام حصرها، ولكن المقصود هو ذكر ما اعتمدوه من المجادلة والمراء، لا لقصد طلب الحقِّ، ولكن للمعاندة والشقاق.

٧. ومن عِظم ما ماروا به النبيَّ ﷺ وخاصموه، أن سيّد النضير، وهو حييّ ابن أخطب اليهودي لّما علم بمقدم النبيّ ﷺ المدينة ونزوله بقباء في بني عمرو بن عوف، ذهب إليه هو وأخوه أبو ياسر، في غلس الصبح لينظر إلى صفته ومدى مطابقتها لما عندهم من التوراة، فلمّا تبيّنا ذلك ورجعا آخر النهار، مهتمّين مغتمّين، قال أبو ياسر لأخيه حييِّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم -والله- قال: أتعرفه؟

(١) تفسير الطبري ١/ ٤١١.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق ١٢/ ٧٤٠.

(٣) الروض الأنف ٢/ ٢٢٨.

وتثبته؟ قال: نعم، قال فما في نفسك منه؟ قال: عداوته ما بقيت[١]، وما من شكٍّ أن من يقول تلك المقالة فلن يتوانى عن سلوك كلِّ سبيل، ولن يدع كلَّ حيلةٍ، توصله إلى مُعادة النبيِّ ﷺ، ومن ذلك الجدال العقيم والمراء، لصدِّ الناس عن الصراط المستقيم، فأولئك اليهود لا يخفى عليهم أمر النّبوة، ولكنّه الجدال والمراء، الذي تعلّق بنياط قلوبهم.

٨. وكذلك جدالهم ومرائهم في قضية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، وما خاضوا فيه، لإلقاء الشكوك والاضطراب عند الناس، وقد اعترضوا على حكم الله تعالى، وقالوا -فيما حكاه الله ﷻ عنهم-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[٢]، والمعنى: أنهم قالوا: أيُّ شيءٍ صرفهم عن استقبال بيت المقدس، وما لهم يستقبلون البيت المقدس، ثم يرجعون إلى استقبال البيت الحرام؟ وهذا في حقيقة الحال؛ لإحداث الاضطراب في قلوب ضعاف الإيمان؛ ولأجل هذا كان الردُّ عليهم بقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾[٣]، فالحكم والتصرّف لله تعالى، وليس للبشر إلا التسليم والإذعان، لا المعارضة

(١) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢/٥٣٣، تحقيق د عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى= =١٤٠٥هـ، والمغازي، لموسى بن عقبة، ص ١١٣، تحقيق محمد باقشيش أبو مالك، جامعة ابن زهر، المملكة المغربية، ١٩٩٤م.

(٢) سورة البقرة آية (١٤٢).

(٣) سورة البقرة آية (١٤٢).

والجدال[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[٢].

٩. وممّا كانوا يتعاطونه مراءً وجدلاً؛ لإلقاء الشبهات والشكوك في قلوب المؤمنين، والإرجاف بهم، ما ذكره الله ﷻ عنهم من قولهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣]، قال ابن كثير: «هذه مكيدة أرادوها؛ ليلْبسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين»[٤]، وهذه الفعلة منهم تطلعك على مماكرتهم ومباهتتهم للحقِّ، والخروج من المراء القولي إلى الفعلي، تفنناً منهم في المماحلة والتشغيب، مع كونهم قد علموا أنَّ ما هم عليه باطل، فقد أُشربت قلوبهم المراء والجدل، كما أُشرب أسلافهم عبادة العجل.

١٠. ومن ذلك أيضاً أنهم قصدوا الفتنةَ برسول الله ﷺ، لكي يصرفوه عن بعض ما أنزل الله ﷻ إليه، وذلك أنَّ بعض أحبار اليهود قال بعضهم لبعض: اذهبوا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٣، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٠٧.

(٢) سورة البقرة آية (١٧٧).

(٣) سورة آل عمران آية (٧٢).

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧ ، وينظر: التسهيل لابن جزي الغرناطي ١/ ١٤٩، وتفسير الطبري ٣/ ٣٠٩.

بنا إلى محمد، لعلّنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا له: يا محمد إنك عرفت أنَّا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك لتقضي لنا عليهم؟ ونؤمن بك ونصدقك، فأبى النبيُّ ﷺ فأنزل الله ﷻ:﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾(١)، لك أن تتأمل ما في هذا الصنيع من التلّون في أساليب المراء والجدال، واستمالة النبي محمد ﷺ إليهم قصداً للفتنة.

١١. وتبلغ منهم المخاصمة والمجادلة، بليِّ ألسنتهم ومخاطبة النبي ﷺ بما يريدون به السوء وشتمهم إياه، وهم في ظاهر قولهم مسالمون، ومن ذلك قولهم له: راعنا، من الرعونة، وقولهم كما أخبر الله عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾(٢)، قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حوالَيْ مهاجر رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبّون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يَسُبُّه:"اسمع، لا أسمعَك الله"»(٣)، وأخرج أيضاً بسنده، قال: «كان رجل من اليهود -من قبيلة من

---

(١) سورة المائدة آية (٤٩)، وينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٢٥١، وتفسير الطبري ٤/ ٦١٤، والروض الأنف ٢/ ٤٢٦.

(٢) سورة النساء آية (٤٦).

(٣) تفسير الطبري ٤/ ١٢١.

اليهود يقال لهم بنو قينقاع- كان يدعى رفاعة بن زيد بن التابوت، كان يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أَرْعِني سمعك، واسمع غير مسمع، فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون:"اسمع غـــير مسمع"، كقولك اسمع غير صاغر»[١]، وقال ابن كثير: «وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه...وهذا استهزاءٌ منهم واستهتار»[٢].

ومن ذلك أيضاً أنهم يحيونه بما يسبّونه به من قولهم: السّام عليك، كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها «أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فلعنتهم، فقال: ما لك؟ قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: فلم تسمعي ما قلت: وعليكم»[٣].

والذي حملهم على ذلك هو الحسد للعرب أنْ كانت فيهم النبوة، فمن باب المغالطة والتشغيب منهم على النبيِّ محمد ﷺ وإثارته غضباً، قالوا ما حكاه الله عنهم، من قبيح القول، حيث لم يجدوا حيلةً تشفي نفوسهم المريضة، سوى ذلك.

١٢. وممّا شابهوا به أسلافهم في التعنّت والمراء والجدال، أنهم سألوا النبيَّ ﷺ

(١) المصدر السابق ١/٥١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٩٦.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخاري، في كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، (٢٩٣٥)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، (٢١٦٥).

كتاباً من السماء، حيث قال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)]، و«هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل»[(٢)]، والسبب الحامل لهم على ذلك كما قال ابن كثير: «وهذا إنما قالوه، على سبيل التعنت والعناد، والكفر والإلحاد»[(٣)].

١٣. ومن خصومتهم وخوضهم بالباطل، أن النبي ﷺ لما اجتمع ببعض يهود، ودعاهم إلى الإسلام كان ردهم عليه أنهم قالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كما قالت النصارى، فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[(٤)]...الآية[(٥)]، وكذلك من اغترارهم الذي حملهم على الخصومة بالباطل، زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ديانتهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾[(٦)]، وهذا من اغترارهم، وكذلك قالوا:

---

(١) سورة النساء آية (١٥٣).

(٢) تفسير ابن سعدي ١/ ٣٧٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٢.

(٤) سورة المائدة آية (١٨).

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٤/ ٥٠٥، والروض الأنف ٢/ ٤٢٩.

(٦) سورة البقرة آية (١١١).

من كان يهودياً فإنه مهتدٍ، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾[١]، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور –وهو أحد أحبار اليهود– لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وكذلك زعمهم أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يهودياً، فأنزل الله ﷻ ما قرّعهم ووبخهم، في خصومتهم في إبراهيم عليه السلام، حيث إنَّ اليهود ادّعوا أنه كان يهودياً، والنصارى ادّعوا أنه كان نصرانياً: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢]، قال ابن كثير: «هذا إنكار على من يحاجّ فيما لا علم له به، فإنَّ اليهود والنصارى تحَاجوا في إبراهيم بلا علم»[٣]، ولقد علموا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً، ولم تنزل التوراة إلا من بعده، وهذه منهم مجادلة باردة، ومراء مفضوح.

١٤. ومن أقبح ما تعاطوه من الجدال والمراء في دين الله ﷻ، هو تهجمهم على الذات الإلهية، وتكلّموا في ذلك بأفحش القول، حيث قالوا فيما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[٤]، وكذلك قول الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[٥]، ولقد كان هذا المسلك في غاية ما يكون من القحة والاجتراء على مقام الربوبية، ومن هنا نعلم أن المُماري لا يرى إلا ما يَهدف إليه، بأيِّ

---

(١) سورة البقرة آية (١٣٥).

(٢) سورة آل عمران (٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٥، وينظر: تفسير الطبري ٣/ ٣٠٢.

(٤) سورة المائدة آية (٦٤).

(٥) سورة آل عمران آية (١٨١).

وسيلة توصله إلى مقصوده البغيض، كصنع هؤلاء اليهود.

١٥. حينما ضاقت الحيل باليهود، أخذوا يمارسون ما يمارسه أسلافهم، من قتل الأنبياء والفتك بهم -حيلة العاجز عن الحجة والبرهان- وكذلك صنع اليهود مع خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في عدّة وقائع، بُغيةَ قتله والتخلّص منه، حين جاءهم بما عرفوا، من ذلك ما تمالأ عليه نفرٌ من بني النضير لما أتاهم النبي محمد ﷺ يستعين بهم في دية العامريين، فكادوا أن يلقوا عليه صخرة رحىً ليقتلوه، حتى أتاه الخبر من السماء بكيدهم، فخرج النبي محمد ﷺ من عندهم.

وكذلك ما صنعوه من تحريض قبائل العرب، سواء بالأشعار أو بغيرها على حرب النبي محمد ﷺ.

وأيضاً ما صنعته المرأة اليهودية يوم خيبر، حيث سمَّت شاةً مصليةً، وقدّمتها للنبي محمد ﷺ، وأكثرت من سمِّ الذراع لأنه يعجبه عليه السلام، فأكل منها مضغة ثم لفظها، وأُخبر بما فيها، وما زال أثر الأكلة يجدها النبي محمد ﷺ في لهواته، حتى توفي منها وبسببها، وقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ يقول «في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوانَ وجدْتُ انقطاعَ أبهري[1] من ذلك السم»[2]، والمعنى: أنَّ ألم ذلك

(١) الأبهر: عرق يخرج من القلب مستبطن للظهر، ثم يتشعّب منه سائر الشرايين، فإذا انقطع مات صاحبه، ينظر: تاج العروس ١٠/ ٢٦٣.

(٢) أخرجه البخاري، في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤٤٣٠).

السم في جوفه ﷺ، ما زال يعاوده حتى كان في ذلك وفاته[١]، وهذا يقضي بأنَّ النبي محمد ﷺ توفي شهيداً، من جراء مكر اليهود بسمِّ الشاة، وجاء في الحديث عن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة، فأهدت له امرأة من يهود خيبر شاة مصلية فتناول منها، وتناول منها بشر بن البراء، ثم رفع النبي ﷺ يده، ثم قال: إن هذه تخبرني أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، فأرسل إليها النبي ﷺ ما حملك على ما صنعت، فقالت: إن كنت نبياً لم يضرك شيء، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك، فقال في مرضه: ما زلت من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري»[٢].

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر ٨/ ١٦٤، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(٢) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه، (٤٥١٠)، وأخرجه الدارمي، باب ما أكرم النبي ﷺ من كلام الموتى، (٦٨)، ١/ ٢٠٨، تحقيق حسين سليم أسد، دار المغني للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٢٣٦، دار صادر، ١٤٠٥هـ، وقال الألباني: حسن صحيح. ينظر: (صحيح وضعيف سنن أبي داوود، (٤٥١٢)، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى).

المبحث الثالث: المراء في الدين عند النّصارى.

لّما كثرت الأحداث في بني إسرائيل، بعث الله ﷻ إليهم، عيسى عليه السلام مكملاً لشريعة موسى عليه السلام، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، ويحلُّ لهم بعض الذي حرم عليهم، وأيده الله ﷻ بالمعجزات العظيمة، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فكفروا به إلا قليلاً منهم، وأيد الله ﷻ عيسى عليه السلام منهم بطائفة صالحة، فكانوا له أنصاراً وأتباعاً وهم الحواريون، وأتباع عيسى عليه السلام يُسمّون بالنصارى، سُمّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، حيث قال عيسى عليه السلام -لما رأى من بني إسرائيل الكفر والعناد والمكر-: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾(١)، وأيضاً يقال لهم: أنصار، ثُمَّ همَّ كفرة بني إسرائيل بقتله، فرفعه الله ﷻ إليه، وألقى شبهه على أحد أصحابه، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، وهم يظنّونه عيسى عليه السلام، وسلّم لهم كثير من النصارى بذلك، أنهم قتلوا عيسى وصلبوه، وتفرّقوا من بعده فرقاً كثيرة، وشاع بينهم المراء والجدال والخوض في دينهم بالباطل، وكفروا بالله تعالى، وزعموا له الولد -تعالى الله عن ذلك علّواً كبيرا- وعظَّموا الخشبة التي صلب عليها فيما يزعمون، وجعلوها وثناً يعبد من دون الله تعالى، وألقى الله ﷻ بينهم العداوة والبغضاء حيث نسوا حظاً مما ذكروا به، وحرفوا الإنجيل(٢).

---

(١) سورة آل عمران آية (٥٢).

(٢) ينظر: البداية والنهاية ٢/ ٤٨٧، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٣٢، والكامل ١/ ٢٧٤، وتاريخ الطبري ١/ ٣٤٩، والمسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، ص ٦٣، للمؤلف إ.س. سيفنسيسكايا، ترجمة د حسام

المطلب الأول: مرائهم في عيسى وأمه عليهما السلام.

لقد كان المسيح عيسى ﷺ رسولاً نبيّاً، أرسله الله ﷻ إلى بني إسرائيل، ومكث فيهم ما شاء الله ﷻ حتى همّت اليهود بقتله وصلبه، فرفعه الله ﷻ إليه، ومن ذلك الحين اختلفت فيه النصارى اختلافاً عظيماً، وضلّوا من بعده ضلالاً بعيداً، وتفرّقوا أحزاباً وشيعاً، يعادي بعضهم بعضاً، وسبب اختلافهم راجع إلى أمرين:

الأول: في كيفيّة نزوله واتصاله بأمّه مريم، وتجسَّدت الكلمة، وهم أيضاً في اتحاد الكلمة بالجسد، مختلفون اختلافاً لا ينضبط ولا يتفقون معه على شيء، وتعدّدت فيه مقالاتهم، فمنهم من قال: مازجت الكلمة الجسد ممازجة اللبن للماء، والماء للبن، وجعلوا لله ﷻ أقانيم ثلاثة، قالوا: «الباري تعالى جوهر واحد، يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والحجمية، فهو واحد بالجوهرية، ثلاثة بالأقنومية، ويعنون بالأقانيم: الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها الأب والابن وروح القدس، وإنما العلم تدرَّع وتجسَّد دون سائر الأقانيم»[(١)].

الثاني: في كيفية صعوده واتصاله بالملائكة، وتوحّد الكلمة، «وقالوا في الصعود: إنه قتل وصلب، قتله اليهود حسداً وبغياً وإنكاراً لنبوته ودرجته، ولكن القتل ما ورد على الجزء اللاهوتي، وإنما ورد على الجزء الناسوتي»[(٢)].

ميخائيل إسحاق،دار علاء الدين للنشر، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م.

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٤٤، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٤، وينظر: تاريخ الكنيسة تأليف يوسابيوس القيصري، ص ١٠، ترجمة القمص:=

وكلامهم هذا وغيره، مراءٌ وجدالٌ لا يسنده ولا يعضده إلا ما توّهموه من محض عقولهم الكاسدة، وما من شكٍّ أن العقول ببداهتها، لا ترى لما قالوه محلاًّ من القبول أو ما يدخل تحت نطاق المعقول، وقولهم ذلك تحكّم ظاهر، وكلام من غير ما دليل، إذ لا يوجد في كتبهم المقدسة بعهديها القديم والجديد، ما يدّل على ما ذهبوا إليه وتهوّكوا فيه، فلا يوجد فيها لفظة "أقنوم" أو "التثليث" أو ما يدّل على هذه العقيدة صراحةً، مع أنّها عقيدةٌ يراها النصارى ركناً ركيناً، وأصلاً أصيلاً لا يتمُّ دين النصرانيِّ إلا به(١).

ومثل هذا لا يمكن أن يكون من صُلب العقيدة النصرانية وجوهرها، ثم لا يوجد في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، ولا الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام دليلٌ عليها! فهل هذا إلا مراءٌ ومخاصمةٌ بعقولهم، فيما لا يستطاع سبيله إلا من طريق الوحيّ، بل وجاء في أناجيلهم ما يردُّ ما ذهبوا إليه، ففي إنجيل لوقا: «لا تَخَـافي يا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ، وَهَا أَنْتِ سَتَحْـبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ »(٢).

ولا ريب أن الابن هنا، هو ابن مريم، فكيف حينئذٍ يجعلونه ابناً لله عز وجل؟ وأين ما يدُّل على ما ذهبوا إليه؟ وقد جاء في الإنجيل أن مريم تحمل وتلد وتسمّيه.

وقد أعربوا عما لا يمكن إخفاؤه من عقيدتهم، التي يعلمون أن العقل لا يطيق

=مرقس داوود، مكتبة المحبة، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، والأصول الوثنية للمسيحية ص ٢٤، تأليف أندريه نايتون، وإدغار ويند، وكارل غوستاف يونغ، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، دون ذكر سنة الطبع، والهرطقة في المسيحية، ص ٤٥، للمؤلف: ج. ويلتر، ترجمة: جمال سالم، مؤسسة مصطفى قانصو، للطباعة والتجارة، دار التنوير، بيروت، سنة الطبع ٢٠٠٧م.

(١) ينظر: النصرانية من التوحيد إلى التثليث، للدكتور محمد أحمد الحاج، ص ٢١٩، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح الأول، فقرة (٣١-٣٢).

حملها، ولا يمكن أن تستقرَّ في الأذهان، لكونها قائمة على الجدل والمراء والخوض المجرد، يقول أحد كبار القساوسة: «لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن، بل آمن لكي تفهم»(١)، وهذه المقولة وأشباهها ممّا يبرر لهم قبول ما تحكّموا فيه بمرائهم، وخاضوا فيه بجدالهم، وهم لا يجدون ما يبررن به تناقضهم أكثر من أن يعلنوا: أن عقــيدة التثليث «سرٌّ مقــدس، يجب على كل فرد أن يسلّم به إيماناً وتسليماً»(٢)، وغير ذلك من عقائدهم وطقوسهم التي يعلمون من أنفسهم مناقضتها للعقل، ولقد أفصح بعض مفكريهم عن ما جرى للنصرانية من تغيير وتبديل(٣).

وهذه العقيدة لم تستقــرّ لها قدمٌ عند النصارى إلا بعد ثلاثـة قرون من رفع المسيح عليه السلام، «ومن الغريب أنَّ الأناجيل لا تذكرها بوضوح»(٤)، كما أنها أيضا «لا تتضمن قولاً صريحاً عن الثالوث الإلهي»(٥).

وهم بذلك جمعوا لعيسى عليه السلام صفتي الألوهية والبنوّة لله عز وجل -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وزعموا أنَّ عيسى عليه السلام هو الإله.

---

(١) ينظر: العقائد النصرانية في ضوء الوحي الإلهي والتأثيرات الوثنية، للدكتور عبد العزيز سيف النصر، ص ٣٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

(٢) العقائد النصرانية في ضوء الوحي الإلهي والتأثيرات الوثنية، ص ٣٦.

(٣) ينظر:كتاب الهرطقة في المسيحية، ص ٤٥_ ١٠٧_ ١٦٣، وكتاب المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس؟ للمؤلف نبيل نيقولا جورج بوخاروف، الطبعة الثانية المعدلة، سنة الطبع ٢٠٠٧م، دون ذكر الناشر، وكتاب بولس وتحريف المسيحية، ص ٨، إلى آخر الكتاب، للمؤلف هيم ماكبي، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، دون ذكر سنة الطبع.

(٤) الأصول الوثنية للمسيحية، ص ٧.

(٥) العقائد النصرانية في ضوء الوحي الإلهي والتأثيرات الوثنية، ص ٣٨.

ولهم في ذلك فرق كثيرة، كما قال الله ﷻ وصفاً حالهم: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾(١)، فمنهم من يعتقد أن عيسى هو الخالق الباري، ومنهم من يعتقد أنه ابن الله، وأنه إله وإنسان، فهو إله من جهة الأب، وإنسان من جهة أمه.

وأعظم فرقهم وأشهرها ثلاث فرق، وهي كالتالي:

الأولى: الفرقة الملكانية، وهو أصحاب ملك يدعى: ملكا، ظهر بأرض الروم، ويعتقدون أن «عيسى عليه السلام إله تام كلّه، وإنسان تام كلّه، ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأنَّ مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما معا شيء واحد ابن الله»(٢).

الثانية: وهي النسطورية، وهم أصحاب نسطور الحكيم، وعقيدتهم في المسيح عليه السلام مثل الملكانية «إلا أنهم قالوا: إن مريم لم تلد الإله، وإنما ولدت الإنسان، وأن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله»(٣)، فعقيدتهم في مفرداتها أقرب إلى المذاهب الفلسفية، والآراء المنطقية.

الثالثة: اليعقوبية، وهم أصحاب يعقوب، وهؤلاء قالوا: إن الله ﷻ هو المسيح انقلب لحماً ودماً، قُتل وصُلب، وبقي العالم ثلاثة أيام بلا مدبّر -تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً- وعلى قولهم هذا يكون الله ﷻ هو الذي يأكل ويشرب ويتغوَّط ويبول،

---

(١) سورة النساء آية (١٥٧).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ١/ ٦٥، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، وينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٤٥.

(٣) الفصل في الملل والنحل ١/ ٦٥، وينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٤٧.

وضُرب وأُهين، وجُعل على رأسه الشوك ثم قتل، وهو الذي خرج من مخرج الحيض، وحملته مريم هـ في أحشائها![(١)]، قال الله ﷻ حاكياً ما آل إليه أمرهم: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)].

ومنهم فرقة يدعى أصحابها "المريميون" وهؤلاء يقولون بتأليه مريم، كما قالوا: أن عيسى إلهٌ[(٣)].

وليس المقصود هنا تحرير عقائدهم وذكرها، بقدر ما هو بيان ما وقعوا فيه من الامتراء والجدال في عيسى وأمّه عليهما السلام، حيث ادّعوا فيهما الألوهية، وهذا كلُّه من الجدال بالباطل، والخــوض بغير علم، والمراء بعقولهم فيما لا يدرك إلا من قِبل الوحيّ.

وما سبق ذكره، لا ينفي أن يكون منهم فرقة ظلت على التوحيد، وعقيدتهم في عيسى عليه السلام أنه عبدٌ مخلوق مرسلٌ، وأنه كلمة الله ﷻ وروح منه، قال له: كن فكان، قــال الله ﷻ -بعد أنَّ ذكر الأمة الفاسقة منهم، ثم ذكر الأمة المطيعــة، وأنهم ليسوا في الــشرِّ سواء-: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ

(١) ينظر: الفصل في الملل والنحل ١/ ٦٦، والملل والنحل ١/ ٢٤٣، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٨٧، تحقيق د علي حسن ناصر، د عبد العزيز العسكر، ود حمدان الحمدان، دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم، ص ٢٠٩، تحقيق علي محمد دندل، دار الكتاب العربي، ١٤٢٦هـ، والملل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٥٧، لسعد بن منصور بن كمونة اليهودي، توزيع دار الأنصار، الطبعة الثانية، دون ذكر سنة الطبع.

(٢) سورة مريم آية (٣٧).

(٣) ينظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ١٣.

﴿ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١)، وهم وإن كان منهم أمة صالحة، إلا إنهم قليل بالنسبة لغيرهم ممن تمرّد على شرع الله ﷻ، كما قال الله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٢)، قال الطبري: «مقتصدة في القول في عيسى ابن مريم، قائلةٌ فيه الحقَّ أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، لا غاليةٌ قائلةٌ: إنه ابن الله -تعالى الله عما قالوا من ذلك- ولا مقصرة قائلةٌ: هو لغير رَشْدَة(٣)»(٤).

(١) سورة آل عمران (١١٤).

(٢) سورة المائدة (٦٦).

(٣) أي: لغير نكاح صحيح. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٣٥٩.

(٤) تفسير الطبري ٤/ ٦٤٥.

المطلب الثاني: مراؤهم مع النبيِّ محمد ﷺ.

مــراء النصارى مع النبيِّ محمد ﷺ، ليس مثلَ غيرهم من اليهود ونحوهم، وذلك -والله أعلم- أن النصارى أصحابُ دينٍ، الغالب عليهم الجهل، ولذلك وصفهم الله ﷻ بالضلال، في قوله ﷻ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1]، والضالون هم النصارى، فهم ضالون تائهون عن الحقِّ، كما جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه[2]، ولأجل هذا لم يكن مراءُ النصارى مع النبي محمد ﷺ كمراء اليهود وتمحّلهم وشدّة جدالهم وعظيم خصامهم وعنادهم وتفنّنهم في سؤآلاتهم، كما يلي في هذه الفقرات:

١. مراءُ نصارى نجران لما سمعوا بالنبيِّ محمد ﷺ، قدم عليه المدينة وفدٌ منهم في ستين راكباً، ويرجع أمرهم إلى أربعة عشر رجلاً، وهؤلاء يؤول أمرهم إلى ثلاثة منهم، هم السيد وهو صاحب رحلهم، والعاقب وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم، وأبو حارثة بن علقمة، وهو حبرهم وعالمهم وصاحب دينهم، وهم على اختلاف في شيءٍ من دينهم، فلمّا دخلوا مسجد النبيِّ ﷺ حضرت صلاة العصر، فاستقبلوا المشرق وصلّوا صلاتهم، وكان لهم مقاولةٌ ومجادلةٌ مع النبي محمد ﷺ، وذلك أنّهم جادلوا النبيَّ محمداً ﷺ في عيسى وأمّه عليهما السلام، وزعــموا أن عيسى عليه السلام

---

(١) سورة الفاتحة آية (٧).

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الفاتحة، (٢٩٥٤)، والطبراني في المعجم الكبير، (٢٣٦)، ١٧/ ٩٨، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، والحديث صححه الألباني. ينظر: (صحيح وضعيف سنن الترمذي، (٢٩٥٤).).

ابن الله ﷻ، وأنَّ الله -تعالى عما يقولون علّواً كبيراً- ثالث ثلاثة كما يعتقد أسلافهم، وشبهتهم في ذلك أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ويبرئ الأبرص والأعمى، ويخبرهم بما في بيوتهم، ويصنع من الطين على هيئة الطير فيكون طيراً، ونحو ذلك من المعجزات التي أيّده الله ﷻ بها.

وشبهتهم في قولهم: إنه ولد الله تعالى، أنَّ الله ﷻ خلقه من غير أبٍّ، كسائر البشر، وأنَّه تكلّم في المهد، وهذا لم يتهيأ لمخلوق، وشبهتهم في زعمهم أنَّ عيسى عليه السلام ثالث ثلاثة بقول الله ﷻ: فعلنا وقضينا وأمرنا، ونحو ذلك، وقالوا: لو كان واحداً، لقال: فعلت وقضيت وأمرت.

هذا هو منشأُ ضلالهم، ثمَّ بيّن لهم النبيُّ ﷺ حقيقةَ الحال، ونزل صدر سورة آل عمران إلى نيّف وثمانين آيةً، فيها الردُّ الشافي والبيان الوافي، لِما وقعوا فيه من اللَّبس والاختلاف والجدال والمراء، في عيسى وأمّه عليهما الصلاة والسلام، وهذا كلُّه مع أنِّ عقيدتهم ينكرها ويمقتها كلُّ ذي عقل سليم، ولا يخفى بطلانهم على ذي فطرة سويّةٍ.

والله ﷻ قد بيّن رسالة عيسى وعبوديّته لله ﷻ، وأنه متممٌّ لشريعة موسى عليه السلام، وأنه ﷻ رفعه إليه، أن مَثَلَ عيسى عليه السلام عند الله ﷻ كمثل آدم عليه السلام خلقه من غير أمٍّ وأبٍّ، ومع ذلك تمادى أولئك النصارى في الحجاج والمجادلة في شأن عيسى عليه السلام، ولما تعنتوا في مرائهم، عرض عليهم النبيُّ محمد ﷺ المباهلة، و«قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتك غدا، فخلا بعضهم ببعض، فقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبيٌّ مرسلٌ، والله ما لاعن قوم نبيًا قطُّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك

لنهلكن فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم»[١].

ومن خلال ما سبق، يتبيّن أنهم بعد معرفتهم صدق رسالة النبي محمد ﷺ لم يزالوا فيما هم عليه من اللجاجة والاستنكاف عن اتباع الحقِّ، وقد «قال أبو رافع القُرَظِي، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدكَ كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: مَعَاذَ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أَمَرَني»[٢].

ولك بعد هذا أن تتأمل هذا الاعتراض منهم على النبي محمد ﷺ، تشغيباً ومراءً ومجادلةً بالباطل، ولهذا قال الله ﷻ ردّاً عليهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ

---

(١) الروض الأنف ٣/ ١٧، وينظر: كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان الكلاعي١/ ٣٦٩، تحقيق د محمد كمال الدين علي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ٦/ ٤١٥، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، والمغازي، لابن أبي شيبة، ص ٤٠٦، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

(٢) الروض الأنف ٢/ ٤١٣، وينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٦/ ٤٢١، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٨٤، من طريق محمد بن إسحاق عن محمد ابن أبي محمد الأنصاري مولى زيد بن ثابت، قال ابن حجر: مجهول، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. ينظر: تقريب التهذيب، ص ٢١٤ تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ.

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ﴾[١].

٢. وأيضاً من مرائهم كما صنعت اليهود، حيث قالوا:إنَّ من كان نصرانياً فإنه مهتدٍ، وزعموا أن إبراهيم عليه السلام كان نصرانياً، وهذا كلُّه قد سبق الكلام عليه، كما مرَّ مع اليهود في مرائهم مع النبي محمد ﷺ[٢].

(١) سورة آل عمران آية (٧٩).

(٢) ينظر: صفحة: ١٥٥.

المبحث الرابع: مراء المشركين مع النبي محمد ﷺ.

لقد بُعث النبي محمد ﷺ إلى قوم وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(١)، والخطاب هنا للنبي محمد ﷺ، يسرّ الله ﷻ له القرآن لينذر قومه وهم قريش، وصفهم الله تعالى باللّدد، وهو جمع ألدّ، وهو الشديد الخصومة والمجادلة(٢)، وقريشٌ الذين بُعث فيهم النبي محمد ﷺ كانوا أهلَ لددٍ وجدالٍ، وقد ماروا النبيَّ ﷺ مراءً، وجادلوه جدالاً، كما قال الله ﷻ واصفاً إياهم في بعض ما جادلوه به النبيَّ محمد ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٣)، وفي العهد المكي قبل الهجرة النبوية، لقيَ النبيُّ محمد ﷺ من قومه شدّة الخصومة والجدال والمراء واللَّجاجة والمحاجّة والتعنّت في سؤال الآيات والمماحلة بالقول، وهو ﷺ أحرصُ ما يكون على هدايتهم، وهم في غاية المجادلة والمراء، حتى عاتبه الله ﷻ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٤).

ومشركو قريش لا يشكّون في صدق النبي محمد ﷺ وحقِّ ما جاء، ولكنّه الحسد والنفاسة والكبر، والجحود للحقِّ بعد ما تبيّن، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى

---

(١) سورة مريم آية (٩٧).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٩٠١.

(٣) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٤) سورة الكهف آية (٦).

يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[١]، ولقد حفلت كتب التفاسير والسير والتواريخ وغيرها من حكاية مراء مشركي العرب للنبي ﷺ وجدالهم إياه، الأمر الذي تجدر العناية بدراسته واستجلائه، إذ هو جزءٌ من دراسة حياة النبي محمد ﷺ، ليعلم الدارس أنَّ من طرق المبطلين لردِّ الحقِّ، هو الجدال والمراء والخوض بالباطل، وهذا ما سلكه المكذبون والجاحدون للحق مع كلِّ نبيٍّ، من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم رسول الله محمد ﷺ.

مراء المشركين مع النبي محمد ﷺ:

يمكن تقسيم مراء المشركين للنبي محمد ﷺ إلى أربعة أقسام، وذلك حسب الاستقراء والتتبع، مع جمع النظير إلى نظيره، وهي على النحو التالي:

الأول، ما يتعلق بذات الله عز وجل وما دعاهم إليه من عبادته، و ذلك على ما يلي:

١. أنّ نفراً من المشركين جادلوا النبي محمداً ﷺ وخاصموه في ذات الله عز وجل، وذلك أنّهم سألوه ﷺ بقولهم:«انسب لنا ربك فأنزل الله عز وجل مطلع سورة الإخلاص»[٢]، وهذا السؤال في ظاهره، خرج مخرج المجادلة والمخاصمة، من حيث

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص: (٣٣٦٤)، والإمام أحمد في مسند أبي بن كعب: (٢١٢١٩)، ٣٥/ ١٤٤، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (٠٢٥٥٢)، ٢/ ٥٠٨، والحاكم في المستدرك، في تفسير سورة الإخلاص، (٣٩٨٧)، ٢/ ٥٨٩، وقال الذهبي: صحيح.

طلب النسب في مقام الربوبية، ولا يخفى ما وراء هذا السؤال من التعجرف وسوء الملكة ممن تفوّه به، حتّى يُحفِظَ النبيَّ ﷺ ويغضبه، اجتراءً على ذلك التمحّل، حيث رمى بنفسه في وادٍ سحيقٍ من المراء، تتخطّفه الشياطين من كل جانب.

٢. وأيضاً من ذلك: أن النبيَّ ﷺ لمّا أمرهم بكلمةٍ يقولونها، تدين لهم بها العرب وتدفع لهم العجم الجزية، فقال أبو جهل: «نعم -وأبيك- عشراً، فقال: قولوا: لا إله إلا الله، فقاموا ينفضون أيديهم»[١]، وقالوا ما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[٢]، وهنا تعجّبوا تعجّبَ إنكارٍ، أن كان المعبود واحداً! فهم من مرائهم لم ينكروه إنكاراً مجرداً، بل أضافوا إلى ذلك أن كان على وجه الاستفهام المفيد للاستبعاد، والذي -على زعمهم- لا يكون محلَّ نقاشٍ أو حجاج، فهم خيّلوه بمقالتهم كالشيء المسلَّم البَدَهي! الذي ينبغي ألا يُنازَع فيه.

٣. ومن مساومتهم للنبيِّ ﷺ، ومحاولة استمالته إلى ما هم عليه من الشرك، وتلّونهم في البقاء على شركهم، أن نفراً من قريش من ذوي الأسنان فيهم والشرف، اعترضوا للنبيِّ ﷺ وهو يطوف بالكعبة، وقالوا له: «يا محمد هلمَّ فلنعبد ما تعبد،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند ابن عباس، (٣٤١٩)، ٥/ ٣٩٣، قال شعيب الأرناؤوط: فيه عباد بن جعفر، لم يوثقه إلا ابن حبان، وباقي رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه، (٣٧٥٦١) ١٣/ ٢١١، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

(٢) سورة ص آية (٥).

وتعبدُ ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنّا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظّك منه، فأنزل الله ﷺ سورة الكافرون»(١)، وهذا منهم يحتمل أن يكون اعتراضاً مغلّفاً بالمكر، ليتوصّلوا إلى كفّ النبي محمد ﷺ عن دعوتهم.

٤. ومن شنيع وقبيح ما جادلوا به النبيَّ ﷺ، أنهم زعموا أنّ الملائكة الذين هم عباد الرحمن، بنات الله ﷻ، وأنَّ الله -تعالى عما يقولون علواً كبيراً- صاهر سروات الجنِّ؛ فتولّد منهما الملائكة، قال الله ﷻ في بيان فريتهم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾(٣)، وترتّب على مقالتهم تلك ثلاثةُ أمورٍ كلُّها في غاية الكفر والشرك، وهي: أنهم جعلوا الملائكةَ إناثاً، ثم زعموا أنها بنات الله ﷻ ، ثم عبدوها من دون الله ﷻ(٤)، وأنّى لهم الحجة والدليل، فيما تحكّموا فيه بعقولهم؟ أشهدوا خلق الملائكة حين وصفهم بالإناث؟ أم كيف جعلوا الملائكة بنات الله تعالى؟ ثم عبدوهم من دون الله تعالى، ثم أخذوا يجادلون

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢/ ٧٢٧، من طريق محمد بن إسحاق، عن سعيد بن مينا وينظر: أنساب الأشراف للبلاذري ١/ ١٥١، تحقيق الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، والاكتفاء ١/ ٢٦٢.

(٢) سورة الزُّخرُف آية (١٩).

(٣) سورة الصافات آية (١٥٨).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١٢/ ٦٢ _ ٣٠٦، والبداية والنهاية ٢/ ٤٥٧.

عن كفرهم وشركهم.

الثاني: مراؤهم وجدالهم للنبيِّ محمد ﷺ في القرآن الكريم، وذلك على ما يلي:

١. لما صدع النبيُّ ﷺ بالدعوة إلى الله ﷻ وجاهر بها قومه، استطارت شرارة عداوتهم، وحقبت حربهم عليه، ولمّا كان القرآن الكريم هو أساسُ الدعوة، حرص المشركون على التشكيك فيه، ومغالطة أنفسهم فيما يعلمون منه الحقَّ، فكذّبت ألسنتهم ما أيقنت به قلوبهم، ظلماً وعلّواً.

وتأمل هذه المحاورة التي جرت بين المشركين أنفسهم، وفهمُها يكفي في تصوّر ما تعاطوه من الولوغ في المراء إلى حدِّ النَّشوة، من ذلك أن الوليد بن المغيرة لما قدم موسم الحج اجتمع إليه نفرٌ من قريش، «فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا؛ فيكذب بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم، فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا -والله- ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، فقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السّحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم، ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: -والله- إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين في من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر ، جاء بقول هو سحرٌ، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك»(١).

ومن خلال هذه المحاورة بينهم، يظهر أنَّهم يعلمون أنَّ القرآن الكريم حقٌّ، لا يمكن أن يكون من كلام البشر بأيِّ حال، فلمّا لم يجدوا باباً يدخلون منه إلى الطعن في القرآن الكريم، قالوا ما يعلمون بطلانه من أنفسهم، أنَّه سحر، في آخر حلٍّ توصّلوا إليه، إذ أعجزتهم الحجج والبراهين، ولا يخفى ما في ذلك من الاعتراض على النبي محمد ﷺ، وما دعاهم إليه من الإيمان بالقرآن الكريم، والمجادلة لردِّ الحق.

٢. ومن جدالهم ومرائهم في القرآن الكريم، ما بيّنه الله ﷻ في كتابه العزيز، من تواصي أولئك المشركين بالإعراض عن القرآن الكريم باللغط والضوضاء حال سماعه؛ حتى تتمَّ الحيلولة دون إصاخة السمع نحوه، ودخوله في أعماق النفس، إذ قد علموا مدى تأثيره في النفوس والعقول، كما مرَّ معنا قريباً من قول الوليد بن المغيرة: -والله- إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين في من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، فهم عالمون شأن هذا الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والعقلاء منهم يعلمون أنّه ليس من كلام البشر، وليس ذلك

(١) الاكتفاء ٢١٨/١، وينظر: الروض الأنف ١٢/٢، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ١١٩/١، لمحمد بن سيد الناس، تحقيق إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

في مقدورهم؛ لكونه تنزيل من عزيز حميد، ولكنَّ المراء والجدل، حمل أولئك المشركين أنْ تواصوا فيما بينهم بعد أن يئسوا من إلحاق النقيصة به، أو التقليل من شأنه، ما حكاه الله ﷻ بقوله عـنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[١]، «وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته»[٢]، فلمّا علموا تفوّقه عن مقدور البشر، الأمر الذي يحتّم كونه من عند الله تعالى، قالوا مقالتهم وتواصوا بينهم، بالضجيج والصخب عند سماع القرآن صدّاً عن سبيل الله ﷻ، وعن سماع القرآن الكريم؛ لكيلا ينفذ إلى أسماعهم، حتى لا يعمل عمله في النفوس والقلوب، ولكون جدالهم فيه ظاهر، لا يستطيعون أن يقابلوا حججه ودلائله بأوهامهم ومرائهم، فوجدوا أن الإعراض عنه، بإحداث اللغط والضجيج بالأصوات، هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون من خلالها الصدَّ عن القرآن الكريم؛ ولهذا عدلوا إلى اللغو فيه والإعراض عنه، والتزهيد فيه، والاستهزاء به، لما يدّل عليه قولهم فيما حكاه الله عنهم: ﴿ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، واسم الإشارة هنا يفيد معنى تنقّصهم للقرآن الكريم واحتقاره[٣]، وبعد هذا تدرك ما جبلت عليه نفوس هؤلاء من الخصومة والجدال بالباطل.

٣. ومن ذلك أيضاً، أنَّ أبا جهلٍ لمّا سمع ما أنزل الله ﷻ في القرآن الكريم من

---

(١) سورة فُصِّلَت آية (٢٦)، وينظر: تفسير ابن كثير ١٢/ ٢٣٣، وتفسير الطبري ١١/ ١٠٤، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤١٣.

(٢) نظم الدرر ٦/ ٥٥٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٦.

شجرة الزقوم، أخذ في الجدال والمراء والمخاصمة، وقال: «يا معشر قريشٍ، هَلْ تدرون مَا شجرة الزّقّوم التي يخوّفكم بِها محمّد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزّبد -والله- لئن استمكنّا منها لنتزقّمنّها تزقّمًا»(١)، فانظر إلى هذا الاعتراض على ما هو من قبيل الغيب، كيف فسّره بما هو في دخيلة نفسه، من شدة الخصومة، وهذه الأمثلة وغيرها مما هو في معناها، تهديك إلى ما كانوا يتعاطونه في القرآن الكريم، من المراء والجدال، وتحريف معانيه.

الثالث: مراؤهم في النبيِّ ﷺ حيث كان رسولاً من بينهم، وخُصَّ بالنبوَّة دونهم، وهو بشرٌ يأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، فأغراهم ذلك بالعداوة والشنآن، وابتدعوا من الأساليب الشيطانية، والمساومات الباردة، ما عساهم أن يظفروا بشيء من التشغيب على النبيّ ﷺ ومغالطته والاعتراض عليه، وذلك على النحو التالي:

١. لقد امتلأت قلوب المشركين كبراً وحسداً، أن كان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي ﷺ رسولاً لربِّ العالمين، وخاتماً للنبييّن والمرسلين، يأتيه الوحيُ من السماء، حتىّ قال الوليد بن المغيرة: «أينزّل على محمد، وأترك وأنا كبير قريشٍ وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفيّ سيد ثقيف، ونحن عظيما

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٩/٣٩٣، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، وينظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/٢٣٣٦، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

القريتين؟»[١]، فكان مما أنزل الله ﷻ بشأنهم، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢]، ولا يخفى ما في خبايا هذا الكلام من الإقرار بالرسالة، ومعرفة صدق ما نزل من القرآن الكريم، ولكنهم عارضوا كون النبي محمد ﷺ هو الذي أوحي إليه من بينهم، الأمر الذي أغرهم بمجادلته ومخاصمته، فهم مقرّون بصحة الرسالة وصدقها.

٢. ومن نزوعهم إلى المراء والجدال والخصام، أن النبي محمد ﷺ لما خصمهم وقطع حجتهم، وأبان الحقيقة التي لا يسع أحداً إلا التسليم لها، قال أولئك المُمارون المجادلون-فيما بيّنه الله ﷻ عنهم-: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[٣]، فهم قالوا جدالاً: أنَّ في قلوبهم أغشيةً محيطةً بها، وفي آذانهم صممٌ عن سماع ما يدعوهم إليه، وبينهم وبين النبيِّ ﷺ حجاب ساتر لا يرى بعضهم بعضاً.

وهذا منهم يحتمل أن يكون مباهتةً منهم للنبي ﷺ، وقطعاً لطمعه فيهم بالإسلام، وحسماً لمادّة التفاوض معهم، وهم بهذا الصنيع، جمعوا ثلاثة أمور:

الأول: مثّلوا نبوَّ قلوبهم عن تقبُّل الإسلام واعتقاده بحال من قلبه في غطاء.

والثاني: شبّهوا عدمَ تأثر أسماعهم بدعوته بصَمِّ الآذان.

---

(١) الاكتفاء ١/ ٢٦١.

(٢) سورة الزُّخرُف آية (٣١).

(٣) سورة فُصِّلَت آية (٥).

والثالث: شبّهوا عدمَ التقارب فيما بينهم، بالحجاب الممدود، فجمع القرآن بإيجازه وبلاغته، ما أطالوا به الجدال، وأطنبوا فيه من اللجاجة، وقصدوا بقولهم ذلك أن حجة القرآن غير مقنعة لهم، مجادلةً للنبيِّ ﷺ، ومراءً ليس بعده غاية.

و«القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه»[1]، وقد شابهوا اليهود في قولهم: قلوبنا غلف.

٣. ثم سلكوا طريقاً أخرى في المراء والخصام، يتمثّل في إلحاق الأذى الاستهزاء والهمز واللمز، والسباب والشتام، وهذا له صورٌ عدّة وأمثلةٌ متفاوتة، من ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَتْ جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان؛ فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم، فأخذه فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم...»[2].

(١) تفسير السعدي ٤/ ١٥٧١، وينظر: التحرير والتنوير٩/ ٢٣٢، واللباب ١٧/ ١٠٠، نظم الدرر ٦/ ٥٥١، وتفسير الطبري ١١/ ٨٥، وتفسير ابن كثير ١٢/ ٢١٥.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلّي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته، (٢٤٠)، ومسلم كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (١٧٩٤).

وما زال أولئك المستهزئين يمارسون أذيتهم للنبيِّ محـــمد ﷺ حتى أنزل الله ﷻ عليه: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[١]، «فإنه ما تظاهر أحدٌ بالاستهزاء برسول الله ﷺ، وبما جاء به، إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة»[٢].

٤. ومن ذلك ما قاله زعماء ثقيف لما عرض عليهم النبي محمد ﷺ أن يؤوه وينصروه، ويقوموا معه بواجب الدعوة إلى الله ﷻ، فما كان منهم إلا أنْ ردّوا عليه بأقبح ردٍّ، «فقال له أحدهم: هو يمرط[٣] ثياب الكعبة، إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال الثالث: -والله- لا أكلمك أبداً؛ لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك»[٤].

٥. ومن مباهتتهم ومجادلتهم أيضاً، زعمهم أن النبيَّ محمداً ﷺ يعلمه بشرٌ، وهو غلام بمكة، كان النبي ﷺ يجلس إليه ويكلمه، فزعموا أنَّ النبي ﷺ يتعلّم منه، ولقد علموا أنَّه لا يقرأ ولا يكتب، ولسان القرآن عربيٌ في غاية ونهاية الفصاحة، «وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما

---

(١) سورة الحِجر آية (٩٥).

(٢) تفسير السعدي ٢/ ٨٧٠.

(٣) المَرْط: نتف الشعر والريش والصوف. ينظر: لسان العرب ٧/ ٣٩٩.

(٤) البداية والنهاية ٣٣٨/٤ ، وينظر: تاريخ الطبري ١/ ٥٥٤، والروض الأنف ٢/ ٢٢٩، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي، ص ٢١٥، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، من طريق محمد ابن إسحاق.

يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى رادّاً عليهم في افترائهم ذلك»(١): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(٢).

٦. ومن ذلك أيضاً التعنّت في سؤال الآيات واقتراح والمعجزات وتعليق الإيمان بحصولها، وأنها دليلٌ على صدق الرسول، وهم في ذلك لم يخف عليهم الحقُّ، حتى يريدوا أن يدلّلوا عليه ويبحثوا عمّا يؤيده، ولكنّه الجدل والمراء، ردّاً للحق، وتفتيقاً للكلام حتى يخرج عن مساره، وهذا له نماذج عدّة، منها ما يلي:

من ذلك أن صناديد وكبراء قريش ساوموا النبي محمداً ﷺ، أن يتخلّى عن دعوتهم، وترفّقوا له في القول، وعرضوا عليه المال والجاه وما استطاعوا، حتى يصرفوا النبي ﷺ عما هو بصدده، فلما لم يحصلوا على شيء مما أرادوا، كشّروا عن أنياب المخاصمة والمحاجّة، وظاهروا بمرائهم السافر، وقالوا: «يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً وأقل ماءً ولا أشدَّ عيشاً منَّا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيّر عنا هذه الجبال، التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا فيهم قصيَّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخاً صدوقاً، نسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت لنا ما سألناك وصدقوك،

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٥٥.
(٢) سورة النحل آية (١٠٣).

صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم: رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسلْ ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضَّة، يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، وحتى تعرف العرب فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، ولا بعثت إليكم بهذا، لكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إليه، إن شاء فعل ذلك ربكم.

قالوا: يا محمد فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلّمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا الرجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا -والله- لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا -والله- لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهنَّ بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا له ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه

عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته: ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب -فوالله- لا أومن بك أبداً، حتى تتخذ إلى السماء سلّماً، ثم ترقى فيه -وأنا أنظر- حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصكٍّ منشور، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول -وأيم الله- إن لو فعلت ذلك، ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ»[1].

ومن ذلك أيضاً أنّهم سألوا النبيَّ محمداً ﷺ أن يأتيهم بآية من جنس آيات الرسل والأنبياء السابقين، ولم يلتفتوا إلى معجزة القرآن الكريم، حيث قالوا -فيما حكاه الله ﷻ عنهم-: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، ومعنى ما قالوا: «إن مثل هذا المهمّ العظيم لا يثبت إلا بآيات متعددة، وأوهموا مكابرة وعناداً، أن ذلك لم يقع»[3]، وإذا أردنا أن نعلم السبب الحامل لهم على ذلك، فقد أجاب ابن عاشور عن هذا التساؤل، حيث قال: «وهذا من جلافتهم أن لا يتأثروا إلا للأمور المشاهدة، وهم يحسبون أن الرسول عليه الصلاة والسلام، ينتصب للمعاندة معهم، فهم يقترحون عليه ما يرغبونه؛

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ص ١٧٨، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المغرب، والروض الأنف ٢/ ٤٧.

(٢) سورة العنكبوت آية (٥١).

(٣) نظم الدرر ٥/ ٥٦٥.

ليجعلوا ما يسألونه من الخوارق حديث النوادي، حتى يكون محضر الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم، كمحضر المشعوذين»[١].

ومن ذلك أيضاً أنّهم سألوا النبيَّ ﷺ آيةً، فأراهم انشقاق القمر فلقتين، فلقةٌ دون الجبل، وفلقةٌ وراءه، ومع ذلك لم يؤمنوا، فعلم من سؤالهم أنه على وجه المجادلة والمماراة والمكابرة، ولهذا قالوا لّما تبيّن لهم صدق الآية، ولا سبيل إلى إنكارها: «سحْرٌ سحركم بِه ابن أبي كبشة»[٢]، ومع تلك الآيات العظيمة، قالوا فيما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

الرابع: مراؤهم وجدالهم في مسائل متفرقة من أحكامٍ جاء بها النبيُّ ﷺ، سوى ما تقدم، وذلك على هذا النحو:

١. من مرائهم أنهم لما سمعوا ما أنزل الله ﷻ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[٤]، قال عبد الله بن

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٣.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٦، والحديث أصله متفق عليه، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، أخرجه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، (٤٨٦٤)، ومسلم، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، (٢٨٠٢).

(٣) سورة الأنعام آية (٣٧).

(٤) سورة الأنبياء آية (١٠٠).

الزبعرى: «أما -والله- لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكلّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى عليه السلام»[١]، فرأى أنه حجَّ النبيَّ ﷺ وخصمه، فأنزل الله ﷻ ردّاً على شبهتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[٢] ، وأيضاً مما أنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[٣]، قال ابن كثير: «أي: مراءٌ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل[٤]، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[٥]، ثمَّ هي خطابٌ لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعيّن أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحّتها»[٦].

٢. وكذلك من مرائهم ما كان للأمم السابقة من الجحد لآيات الله ﷻ، وهم في الحقيقة يعلمون صدق المُرسَل، وهذا الأمر كما وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿قَدۡ

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٦٥.

(٢) سورة الأنبياء آية (١٠١)، وينظر تفسير ابن كثير ١٢/ ٣١٩.

(٣) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٤) أي: أن الحرف الموصولي المشترك "ما" الوارد في الآية لما لا يعقل، ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ١٣٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع.

(٥) سورة الأنبياء آية (٩٨).

(٦) تفسير ابن كثير ١٢/ ٣٢١.

نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[١]، وهذا كان عند بعضهم، كما قال ابن جرير: «وكان بعضهم قد تبين أمره، وعلم صحة نبوته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوته حسداً له وبغياً»[٢]، ومن هذا ما قاله أبو جهلٍ: «-والله- إن محمداً لصادق، وما كذب محمدٌ قطُّ، ولكن ذهب بنو قصيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[٣]، ولا ريب أن هذه المقالة تؤكّد ما ذكره ابن جرير، أن السبب لتكذيبهم إياه هو الحسد والبغي، وكذلك يذكر البقاعي ما يوافق ذلك المعنى، حيث قال: «ولكنهم لشدة عنادهم ووقوفهم مع الحظوظ وعجزهم عن جواب يبرد غللهم، ويشفي عللهم، ينكرون آيات الله مع علمهم بحقّيّتها»[٤].

فتقرَّر مما تقدَّم أنهم لم يكونوا يطلبون الدلائل والحجج، على صدق الرسالة، بقدر ما يريدون من الخصومة والمراء والجدل؛ ليردّوا على النبي ﷺ أمره.

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٣).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٣، وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٩.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ١٨١.

(٤) نظم الدرر ٢/ ٦٢٧.

المبحث الخامس: المراء عند المناطقة والفلاسفة.

قبل الكلام على المراء عند المناطقة والفلاسفة، لابدَّ من التعريف بالمصطلحين التاليين: المنطق، والفلسفة، وما المقصود بهما؟

ثم بعد ذلك يتسق الكلام في علاقة المنطق بالفلسفة، لتظهر كيفيّة المراء عند المناطقة والفلاسفة.

تعريف ومفهوم المنطق:

تعريف المنطق: «هو آلة قانونية، تعصم مراعاتها الذهن، عن الخطأ في الفكر»[(١)]، ومن خلال هذا التعريف، تكون الغاية من المنطق: الإصابة في التفكير والبحث عن الأشياء.

وهو كما يراه واضعوه، أنه: آلة العلم[(٢)]، كما عرّفه أرسطو[(٣)].

وأوّل من قعّد قواعده ومهّد مبانيه، هو أرسطو؛ ولهذا نُسب إليه.

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٦٧٩، وينظر: نقض المنطق ص ١٥٧، تحقيق الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، والشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ.

(٢) ينظر: المنطق الصوري منذ أرسطو وتطوره المعاصر، للدكتور علي سامي النشار، ص٤، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ.

(٣) هو أرسطوطاليس بن ينغو ماخوش، الفيثاغوري – ولد عام ٣٨٤ ق.م، وتوفي عام ٣٢٢ ق.م – وهو تلميذ أفلاطون الحكيم، انتهت إليه فلسفة اليونانيين، وهو خاتمة حكمائهم، وسيد علمائهم، حتى لقب بصاحب المنطق،ينظر: (بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ٣/ ١٣٤١، تحقيق د سهيل زكار، دار الفكر).

والمنطق علمٌ قائمٌ على الكلام على الحدِّ وبيانه، وعلى القياس ومقدماته، إذ موضوعه: التصورات والتصديقات، وذلك أن المناطقة قالوا: إن العلم إما تصوّرٌ أو تصديق.

والمنطق على هذا، يبحث في صحّة التصورات، التي هي عبارة عن الحدِّ والتعريف، ويبحث أيضاً في صحّة التصديقات، ثم يأتي القياس بدوره؛ ليبحث في مدى مطابقتها للواقع(١).

ولهذا قال عنه ابن سينا(٢): «هو الصناعة النظرية، التي تعرف أنه من أي الصور والمواد يكون الحدُّ الصحيح، الذي يسمى بالحقيقة حدّاً، والقياس الصحيح الذي يسمى بالحقيقة برهاناً»(٣)، وهذا التعريف يبيّن لنا «أنَّنا إذا وصلنا إلى التعريف التام بواسطة الحدِّ، ووصلنا إلى أول مراتب العلم، وإذا وصلنا إلى القياس البرهاني، وصلنا إلى غاية العلم نفسه»(٤).

وممّا عُرّف به المنطق أيضاً، أنَّه: «قانون صناعي، عاصم للذهن عن الزلل، مميِّز

---

(١) ينظر: كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ص ٤، المطبعة القيمة بمباي الهند، ١٣٦٨هـ، والمنطق المجرد ص ١٧٨، للدكتور علي بن الدخيل الله، مجلة جامعة الإمام العدد ١٧ رجب ١٤١٧هـ.

(٢) هو الحسين بن محمد الرئيس ابن سينا _ ولد عام٣٧٠هـ، وتوفي عام ٤٢٧هـ _ الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، وهو وأبوه، من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين، له نحو من مائة كتاب منها: القانون في الطب، والنجاة، والإشارات، ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣٢، ووفيات الأعيان ٢/ ١٥٧).

(٣) النجاة، ص ٤، الطبعة الثانية ١٣٥٧هـ.

(٤) المنطق الصوري منذ أرسطو وتطوره المعاصر، للدكتور علي سامي النشار، ص٤.

لصواب الرأي عن الخطأ في العقـائد، بحيث تتوافق العقول السليمة على صحته»[١].

وهذا التعريف أخصُّ مما تقدم من التعاريف، فإن كان المقصود به، القواعد العقلية والمنطق المجرد، عن التعقيدات اليونانية، والفلسفات الوثنية، فهذا صحيح مسلَّم، غير أنَّ العقائد غنيّةٌ عن اصطلاحات البشر، وليس بمقدور عقولهم الاستقلال بمعرفة ما يجب لله تعالى، وهذه المسائل العظيمة تُتلقّى من الوحي فحسب.

والمنـطق وإن كانت بعض قضاياه منها ما هو صحيح عقلي، إلا أنه من جهة وسيلته يتصف بالتطويل والتعقيد والتشعّب، وأما من جهة غايته فإنَّه قليل الفائدة؛ لأنّ قواعده وأقيسته في النهاية، تكون نتيجتها توضيح الواضح وبيان البيّن، ولا سيما إذا استخدم في العقائد، فإنَّ الخطر منه عظيم، «وهو مع غثاثته وركاكة ألفاظه، كثير التطويل لا فائدة فيه»[٢].

ولهذا لماّ سبر شيخ الإسلام ابن تيمية غورَ المنطق، وخرج إلى مغزاه، قال مقالته الشهيرة: «فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني، لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة؛ لما رأيت من صدق كثير منها، ثم تبيّن لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه»[٣].

وقد وصف المنطق اليوناني بوصف مشاكل لمبادئه ومقدماته، حيث قال عنه أنه:

---

(١) البصائر النصرية في علم المنطق، تصنيف عمر بن سهلان الساوي، ص٥، تحقيق الاستاذ محمد عبده، مطبعة محمد علي صبيح.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ص ٧٦٦، تحقيق سيد بن عباس الجليمي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

(٣) الرد على المنطقيين، ص ٣، وينظر: المنطق المجرد، ص ١٧٨.

«لحم جمل غثٍّ، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى»[١]، وقد صدق فيه هذا الوصف؛ وذلك لما يمتاز به المنطق من الطول والإغراب، وقلّة الفائدة أو انعدامها، وحتى مهرة المناطقة وحذاقهم «لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم، بل يعرضون عنها، إما لطولها، وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميزّها، وما فيها من الإجمال والاشتباه»[٢].

والحدُّ الذي يقيم صحّة التصورات عند المناطقة لا ينضبط عندهم، ولا يأتون منه بشيء يسلم من المعارضة، وهذا أحد أسباب الاستطالة في الجدال والمراء، كما قال شيخ الإسلام: «وعامة الحدود المنطقية، هي من هذا الباب: حشو لكلام كثير يبينون به الأشياء، وهي قبل بيانهم أبين منها بعد بيانهم، فهي مع كثرة ما فيها من تضييع الزمان وإتعاب الفكر واللسان، لا توجب إلا العمى والضلال، وتفتح باب المراء والجدال، إذ كل منهم يورد على حدِّ الآخر من الأسئلة ما يفسد به ويزعم سلامة حدِّه منه، وعند التحقيق: تجدهم متكافئين أو متقاربين، ليس لأحدهم على الآخر رجحان مبين، فإما أن يقبل الجميع أو يرد الجميع، أو يقبل من وجه، ويرد من وجه»[٣].

والذين نقدوا المنطق اليوناني تصدّوا له، من كون المنطق قد ارتبط بثقافة اليونان من حيث اللغة والتفكير والعقيدة اليونانية الوثنية القائمة على تعدد الآلهة، والخرص والظنون والتخمين؛ ولهذا «كان هذا المنطق اليوناني لا يتفق إلا مع فلسفة اليونان وحكمة اليونان الوثنية الجاهلية؛ لأنه وضع ليخدم تلك الفلسفة، ومعنى هذا: «أنه

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٣، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٢) مجموع الفتاوى ٩/ ٦.

(٣) المصدر السابق ٩/ ٦٥.

وضع ليخدم عقائد اليونان، وديانتهم القديمة؛ لأن تلك العقائد والديانة بنيت على القول بالأجناس والأنواع والفصول، وبنيت على الكليات والجزئيات، كما يلمس ذلك من طالع فلسفة اليونان، وديانتهم الأولى، وكذلك المنطق اليوناني بني على هذا سواء بسواء»[(١)].

هذا هو المنطق اليوناني من حيث الإجمال، ولست بصدد الكلام على عرض مسائله ونقدها، بقدر ما هو إظهارٌ لفحواه، وبيان مغزاه، ومدى ارتباطه بثقافة اليونان، لنرى كيف كانت الفلسفة مترتبةً عليه من حيث التقعيد والتأصيل، ومن ثَمَّ نتبيّن كيف نتج من ذلك المراء والجدال.

ولنأتي الآن إلى بيان مصطلح الفلسفة، ليظهر الترابط بينها وبين المنطق.

تعريف ومفهوم الفلسفة:

الفلسفة، وهي مركبةٌ من كلمتين: فيلا، و سوفا، فيكون معنى هذه الكلمة: «محب الحكمة، أصله فيلا: وهو المحب، وسوفا: وهو الحكمة، والاسم: الفلسفة، مركبة كالحوقلة»[(٢)]، وقد ذكر ابن منظور عن معنى الفلسفة: أنها الحكمة[(٣)]، والفلاسفة هم المتعاطون لها.

وهي كلمة في أصلها الاشتقاقي، كلمة يونانية، عُرفت منذ الحضارية اليونانية، وقد نقلها العرب إلى لغتهم لمّا بدأ عصر الترجمة للكتب اليونانية، وهذا المصطلح دخيل

---

(١) المنطق العربي، محمد وهبة الشربيني، ص٤، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ.

(٢) القاموس المحيط، ص ٨٢٢.

(٣) لسان العرب ٩/ ٢٧٣.

على الإسلام، لم يكن معروفاً في صدره، إلا بعد نقل التراث اليوناني إلى العرب[١].

والفلسفة من النظرية الأرسطية تعتني بدراسة الموجودات وحقائقها، والبحث عن طبائع الأشياء، وتطلق على العلم النظري بمعناه الواسع، كما أنّها أيضاً تبحث في العلم الإلهي، وما بعد الطبيعة، المسمّى بالميتافيزقيا، وهذا الجانب منها هو المقصود بالفلسفة؛ «لأن أهم مباحثها هو المحرك الأول، باعتباره الموجود الأول، والعلة الأولى للوجود»[٢]، بل إنَّ أرسطو يرى أن العلم الإلهي، «غاية فلسفتهم ونهاية حكمتهم»[٣]، وعلى هذا فالفلسفة الأرسطية تبحث في الغيبيات بمقتضى القواعد المنطقية التي تواضعوا واصطلحوا عليها.

وأما مفهوم الفلسفة عند الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، فهي لا تختلف عمّا وضعه أرسطو، فأوّل فيلسوف في المسلمين، هو يعقوب بن إسحاق الكندي[٤]، تبع أرسطو في تعريف الفلسفة، حيث عرّفها بأنها: «هي علم الأشياء بحقائقها، بقدر طاقة الإنسان»[٥]،

(١) ينظر: مبادئ الفلسفة الإسلامية، ص ٩، لعبد الجبار الرفاعي، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، والمدخل إلى الفلسفة من وجهة نظر الإسلاميين، ص ٨، للدكتور فتح الله خليف، سنة الطبع ١٩٨٢م.

(٢) الفلسفة الإسلامية دراسة ونقد، ص ٢٨، للدكتور عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

(٣) نقض المنطق، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٦٧.

(٤) هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي الأشعثي _ توفي عام ٢٦٠هـ _ فيلسوف العرب، كان رأسا في حكمة الأوائل ومنطق اليونان والهيئة والتنجيم والطب وغير ذلك، له مصنفات كثيرة منها: رسالة في التنجيم، واختيارات الأيام. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٣٧، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ص ٢٨٤، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون ذكر سنة الطبع).

(٥) الفلسفة الإسلامية، دراسة ونقد، ص ٢٩.

وعلى هذا المفهوم للفلسفة، جرى عليه من يتعاطاها، وقد ذكر الفارابي[١] أن الفلسفة هي العلم بالموجودات بما هي موجودة[٢].

وقد عرفها الجرجاني بقوله: «التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية، لتحصيل السعادة الأبدية»[٣]، والتشبه بالإله يكون بتطلّب العلم به، عن طريق النظر في صفحة هذا الكون، وتتبع الموجودات بالفكر ليدرك ماهيتها، وينظر في عللها؛ «حتى يصل إلى الغاية القصوى، التي هي العلّة الأولى، والتي كان كل شيء بها ومن أجلها، ثم يرتدُّ على أعقابه محلّلاً العناصر والطبائع، كاشفاً عن حقيقة الجواهر والأعراض، مقسّماً ومرتباً حتى تكون له صورة واضحة عن الكون»[٤].

فقصارى أمر الفلسفة وغايتها، أن تبحث عن الله ﷻ بقدر الطاقة البشرية، وهذا يعنى: أن وسيلة البحث في ذلك الأمر العظيم، هي العقل!

الصلة بين المنطق والفلسفة:

(١) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي، أبو نصر الفارابي المنطقي _ ولد عام ٢٦٠هـ، وتوفي عام ٣٣٩هـ _ فيلسوف من حذاق الفلاسفة، ويعرف بالمعلم الثاني، وهو أكبر فلاسفة المسلمين، من مؤلفاته آراء أهل المدينة الفاضلة، الجمع بين رأيي الحكيمين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤١٧ ، والبداية= =والنهاية ١٥/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين، ص ٨٠، علق عليه الدكتور ألبير نصري نادر، دار المشرق، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

(٣) التعريفات، ص ١٢٠.

(٤) تاريخ الفلسفة العربية، ص٧، تأليف حنا الفاخوري، وخليل الجرّ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٢٨م.

وأما الصلة بين المنطق والفلسفة، فقد علمنا فيما تقدّم أن المنطقَ آلةٌ عاصمةٌ للذهن من الخطأ، والفلسفة هي البحث عن الغيبيات بمقتضى الطاقة البشرية، وهذا يعنى البحث عمّا لا سبيل إليه إلا بالوحيُّ، عن طريق العقل، وقد بين ابن الصلاح(١) العلاقة بين المنطق والفلسفة، بقــوله: «وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة»(٢)، كما أنَّ ابن خلدون(٣) أيضاً بيّن العلاقة الوطيدة بين المنطق والفلسفة، وزادها إيضاحاً، وكيف تركبّت الفلسفة من المنطق، بقوله: «ذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني، زعموا أن الوجـــود كلَّه الحسيَّ منه، وما وراء الحسيِّ، تدرك أدواتـــه وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقــائد الإيمانية من قبل النظر، لا من جهة السمع، فإنها بعض من مدارك العقل، وهؤلاء يُسمّــون فلاسفة، جمع فيلسوف...فبحثوا عن ذلك وشمّروا له، وحوّموا على إصابة الغرض منه، ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق...ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس، بهذا النظر

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري، المشهور بابن الصلاح _ ولد عام= =٥٧٧هـ، وتوفي عام ٦٤٣هـ _ محدثٌ مفسرٌ، عالم بالرجال والعلل، من مصنفاته: معرفة أنواع علم الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٠، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١١٣).

(٢) فتاوى ابن الصلاح، ص ٣٥، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، طبعة إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦هـ، توزيع مكتبة طيبة الرياض، ودار الكلمة الطيبة القاهرة.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد المعروف بابن خلدون الأشبيلي _ ولد عام ٧٣٢هـ، وتوفي عام ٨٠٨هـ _ الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، اشتهر بكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، وله المقدمة الشهيرة باسمه. ينظر: (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ٤/ ١٤٥، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، والبدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع ١/ ٣٧٦).

وتلك البراهين.

وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه، وهو الذي فرّعوا عليه قضايا أنظارهم، أنهم عثروا أولاً على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس، ثم ترقى إدراكهم قليلاً، فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحسِّ في الحيوانات، ثم أحسّوا من قوى النفس بسلطان العقل، ووقف إدراكهم، فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذّات الإنسانية، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل، كما للإنسان، ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر، تسع مفصلة، ذواتها جمل، وواحد أوّل مفرد، وهو العاشر، ويزعمون أنَّ السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلّقها بالفضائل، وأنَّ ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة، وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي، وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة، إلى خبطٍ لهم في تفاصيل ذلك معروف في كلماتهم»[(١)].

وهنا ابن خلدون بيّن كيف يتسلسل الفلاسفة من خلال القواعد المنطقية إلى طلب علم ما لا يدرك بالحسِّ -الغيبيات- فالفلسفة في أصلها مبنيّة على المنطق اليوناني، فالنظرة عندهم إلى الطبيعة وما وراء الطبيعة، من واقع ما اعتمدوه لأنفسهم من الاعتماد على العقل والأقيسة المنطقية، وقياس ما وراء الحسِّ على المشاهد من الحسِّ، ومن هذا الأصل تفرّع منه أقوالهم في العلم الإلهي، حيث خبطوا فيه خبط عشواء،

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٨، تحقيق تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي، لبنان، دون ذكر سنة الطبع.

وتكلموا فيه بمقالاتهم النكراء، والتي تبعهم على بعضها من المسلمين البلهاء، حيث تركوا الحق النازل من السماء.

ومن بعد المنطق، يأتي دور الفلسفة بعد أن هيأ لها المنطق الطريق بقواعده وأقيسته، ليأخذ العقل سبيله في البحث عمّا لا يدرك حقيقته من الغيبيات، التي لا تُعلم إلا بالوحيِّ، فالفلسفة «تسعى إلى غرضها ولا دليل لها إلا سوى العقل، فطريقة الفلسفة طريقة عقلية صرف، لا تقبل حقيقة إلا إذا اقتنع بها العقل»[(١)].

وحيث ابتلي المسلمون بهذه العلوم الأجنبية، وتلقّفها من لم يأخذ من مشكاة النبوة بحظٍّ وافر، ليزن الأشياء بميزانها العادل، لا وكس ولا شطط، كان من نتاج ذلك أن مزج المتفلسفون بين موضوعات العقيدة بموضوعات الفلسفة؛ لتجد الاصطلاحات الفلسفية مكانها بين مفاهيم الإسلام، بل ولتحاكم قضايا شرعية، إلى مصطلحات فلسفية منطقية، توزن الأمور بميزانها.

ومما ترتّب على ذلك، كثرة الخوض في مسائل وقضايا، هي إلى الفلسفة أقرب منها إلى العقيدة، كالبحث في الجوهر والعرض وأحكام الموجودات، وما تفرّع عن ذلك، وكما فعله بعض من ينتسب إلى المعتزلة[(٢)] ممن حاز قصب السبق في ذلك، وسنّوا في الإسلام سنة سيئة، حيث مزجوا العقائد الإيمانية، بالفلسفة اليونانية، فخلطوا الغثَّ بالسمين،

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية، ص ١١.

(٢) المعتزلة هي إحدى الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الغزال، اعتزل مجلس الحسن البصري، وحكم على مرتكب الكبيرة بمنزلة بين المنزلتين، والمعتزلة فرق شتى، يجمعها القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، ووأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصولهم الخمسة. ينظر: (الملل والنحل ١/ ٥٦، والفرق بين الفرق ص ٩٠).

وشغلوا الناس بالمراء في الدين، وتكلّفوا علمَ ما ليس بوسعهم(١).

وقد حــاول الفلاسفة «أن يدركوا كيفيّة ماهية ربهم بعقولهم، فتاهوا وضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يجنوا سوى الحيرة والتخبط والتناقض، فيما سطَّروه من الأقوال والمعتقدات»(٢)، وهذه سبيل من استعاض عن الكتاب والسنة، بالمنطق والفلسفة اليونانية.

ومكمن البلاء في الفلسفة والمنطق، أن العقل يُحكّم فيما لا قِبَل له به، وتتقاصر عنه قواه، ولا يدرك منه فتيلاً ولا قطميراً إلا بالوحيِّ، ويزيد الطين بِلّة، والسقم علّة، عند الفلاسفة، أنَّ الشيء لا يكون مقبولاً -أيّاً كان- ما لم يجزه سلطان العقل! وذلك لأنَّ هذه الفلسفة مرتبطة بالمنطق اليوناني، الذي يهتّم بالشكل والصورة، مع التطويل وقلة الفائدة، القائم على العقائد اليونانية الباطلة المبنيّة على الخرص والتخمين وتعدد الآلهة، حيث لا يؤمنون برسالات، وليس عندهم من الله ﷻ بيّنات، فجاء من أراد التوفيق بين المنطق والشرع، ليبرهن في المسائل الشرعية ويضع الحدود فيها، على الطريقة المنطقية اليونانية، فيأتي أولئك بدعاوى وأشياء في الدين، تكون خطأً، إما من جهة الشرع، أو من جهة ضعف البرهان، فينظّرون لها من خلال تلك القواعد المنطقية الصرفة، فينبعث من أجل ذلك المراء في الدين والخصومة فيه، كما أنَّه أيضاً يتفرع من لوازم أقوالهم، ومن ثَمَّ يُقدح في الأدلة السمعية ويُستخفُّ بشأنها.

---

(١) ينظر: علم الكلام وبعض مشكلاته، ص ٢٠، للدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة، مصر، سنة الطبع ١٩٩١م.

(٢) النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لمحمد الحمود النجدي، ١/ ١٥٤، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة السادسة ١٤٢٦هـ.

وعندما نتأمل في سبب ذلك، نجد أنَّ شيخ الإسلام بيّنه بقوله: «لأنهم طلبوا بالقياس ما لا يعلم بالقياس، وزاحموا الفطرة والنبوّة، مزاحمةً أوجبت مخالفتهم للفطرة والنبوة، وصاروا من شياطين الإنس والجنّ، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً»[١].

وأيضا هناك سببٌ أخر أيضاً، وهو أنَّه: «قد لبس إبليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم، فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة»[٢].

وما أحسنَ ما قاله الشاطبي[٣] في وصف حال من اتخذ العقل في الغيبيات، مطيَّةً يسير بها إلى هاوية الحيرة والاضطراب، قال: «فأنت ترى ما ينشأ بين الخصوم وأرباب المذاهب، من تشعب الاستدلالات، وإيراد الإشكالات عليها بتطريق الاحتمالات، حتى لا تجد عندهم بسبب ذلك دليل يعتمد، لا قرآنياً ولا سنيّاً، بل انجرَّ هذا الأمر إلى المسائل الاعتقادية، فاطَّرحوا فيها الأدلة القرآنية والسنيّة، لبناء كثير منها على أمور عادية، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم

(١) نقض المنطق، ص ١٦٧.

(٢) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ٢/ ٣٣٣، تحقيق د أحمد بن عثمان الزيد، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي _ توفي عام ٧٩٠هـ _ أصولي حافظ، له من المصنفات: الموافقات، والاعتصام، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية. ينظر: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للتنبكتي، ص ٤٨، إشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة افسلامية، ليبيا، سنة الطبع ١٣٨٩هـ، والأعلام ١/ ٧٥).

مِّن ﴾[١]... الآية، وقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾[٢]، وأشباه ذلك، واعتمدوا على مقدمات عقلية غير بديهية ولا قريبة من البديهيَّة، هرباً من احتمالٍ يتطرّق في العقل للأمور العادية، فدخلوا في أشدَّ مما منه فرُّوا، ونشأت مباحث لا عهد للعرب بها، وهم المخاطبون أولاً بالشريعة، فخالطوا الفلاسفة في أنظارهم، وباحثوهم في مطالبهم، التي لا يعود الجهل بها على الدين بفساد، ولا يزيد البحث فيها إلا خبالاً»[٣].

ومما يزيد الأمر سوءً عند من يتعاطى المنطق الصرف في مسائل الاعتقاد، أنَّ ما لم يحصل من تلك الطرق المنطقية القياسية، فليس عندهم بعلم، و«أنَّ من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرّورها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر»[٤].

فإذا طوّعوا مسائل الإيمان والاعتقاد، على تلك القواعد المنطقية، فأيُّ علم يحصل لهم؟

وأيضاً لهذه الطريقة في الاعتقاد خطر فادح، ومسلك وخيم، عبّر عنه شيخ الإسلام بقوله: «فإذا تقلدّوا عن طواغيتهم، أن كلَّ ما لم يحصل بهذه الطريق القياسية فليس بعلم، وقد لا يحصل لكثير منهم من هذه الطريق القياسية ما يستفيد به الإيمان الواجب، فيكون كافراً زنديقاً منافقاً جاهلاً ضالاً مضلاً ظلوماً كفوراً، ويكون من أكابر أعداء الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ

(١) سورة الروم آية (٢٨).

(٢) سورة الأعراف آية (١٩٥).

(٣) الموافقات ٥/ ٤٠٤، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٩٣.

ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]، وربما حصل لبعضهم إيمان، إما من هذه الطريق، أو من غيرها، ويحصل له أيضا منها نفاق، فيكون فيه إيمان ونفاق، ويكون في حال مؤمناً وفي حال منافقاً، ويكون مرتداً: إما عن أصل الدين، أو عن بعض شرائعه: إما ردة نفاق، وإما ردة كفر...فلهؤلاء من عجائب الجهل والظلم والكذب والكفر والنفاق والضلال ما لا يتسع لذكره المقام»[2].

فإذا كان هذا حال من يتعاطى الفلسفة اليونانية في مسائل الاعتقاد، فهو إلى المراء في الدين والخصومة فيه أقرب، وإذا كانت الحال تفضي ببعضهم إلى الزندقة، فلا يُستنكر منه حينئذٍ الاعتراض على نصوص الشرع بالمخاصمة، والمجادلة فيها بالباطل، ليدحض الحق، إذ كان الإيمان معدوماً أو ضعيفاً.

فالعلم الإلهي الذي هو غاية الفلسفة عندهم، لا يستطيعون أن يثبتوا منه شيئاً على وجه اليقين من خلال قواعدهم المنطقية الفلسفية، كما قرر ذلك شيخ الإسلام عنهم بقوله: «وأما ما يذكرونه من العلوم النظرية، فالصواب منها منفعته في الدنيا، وأما "العلم الإلهي" فليس عندهم منه ما تحصل به النجاة والسعادة، بل وغالب ما عندهم منه ليس بمتيقن معلوم، بل قد صرح أساطين الفلسفة: أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، وإنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق، فليس معهم فيها إلا الظنّ، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا

---

(١) سورة الفرقان الآيات (٣١_٣٢_٣٣).

(٢) نقض المنطق، ص ١٥٦.

يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾[١]، ولهذا يوجد عندهم من المخالفة للرسل أمر عظيم باهر»[٢].

فإذا كانوا لا يستطيعون أن يثبتوا من العلم الإلهي ما يحصل معه اليقين، فالأثر المترتّب على ذلك، كثرة جدالهم ومرائهم في الغيبيات، والخوض فيما لا يخرجون منه بطائل، وليس لهم بمُتناول، وهذا ظاهر من حالهم، فهم «أعظم الناس شكّاً واضطراباً، وأضعف الناس يقيناً، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم...وإنَّ فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل...ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ، إذ كلٌّ منهم يقدح في أدلة الآخر»[٣].

وإذا كانت القضايا الاعتقادية لا يصلح معها إلا اليقين، والفلاسفة لا يستطيعون أن يثبتوا من قواعدهم وأقيستهم من مسائل الإيمان ما تطمئن إليه القلوب وتنشرح به الصدور، إنما غاية علمهم ظنٌّ، والظنُّ لا يغني من الحق شيئا، فأيُّ مراء وجدال يحصل من وراء ذلك؟ والله المستعان.

ومن هذه الحيثية من كرع بفكره في هذا الماء الآسن الأجاج، وسرى في مفاصله وعروقه، استلان قلبه إلى المراء في الدين، والمجادلة فيه، والخوض في قطعيّاته، والجرأة على مسلّماته، بدعوى أن العقل لا يجيز ذلك، فتُعتسف النصوص وتُلوى أعناقها، وتُأوّل على غير مواضعها، هذا إذا لم تردَّ بالكليّة، لتوافق بذلك العقل فيما يزعمون، بل إنَّ بعضهم يطعن في دلالة الأدلة الشرعية، وأنها لا تفيد اليقين، ليكون العقل هو

---

(١) سورة يونس آية (٣٦).

(٢) نقض المنطق، ص ١٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥.

المشرّع![1].

ومن هذا الباب كان المراء في الدين والجدال فيه على أشدّه، عند الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، من أمثال الفارابي وابن سينا وأضرابهم، ممن أتي في الدين بأقوال منكرة، حيث مزج بعض قضايا الشرع بالمنطق والفلسفة، وكذلك المعتزلة لا تقلّ شأناً عنهم، حيث يرى بعض الباحثين أن المعتزلة هي أعظم مدارس الفكر والنظر، وأنها هي التي تمثّل الفلسفة الإسلامية الحقيقة[2]، وذلك لِما اعتمده أصحابها من الطغيان بالعقل، والمجاوزة به حدّه، ليقتحم لُجّة بحرٍ يغرق في ساحله، فالمعتزلة من أعظم الناس تعظيماً للعقل، واعتماداً عليه في مسائل الدين والعقيدة، حتى ردّوا بذلك بعض النصوص، وبعضا حملوها على مطية أهوائهم.

بل ويصل الأمر ذروته، عند من افتتن بهذا التراث اليوناني إلى أن زعم بعضهم أنَّ الله ﷻ أنقذ الناس وحفظ عقولهم وأذهانهم من الحيرة واللبس، بآراء أرسطو المنطقية، ولولاهما لكان الناس في حيرة!

فهذه الفلسفة -عندهم- طريق لرشاد الناس، وهدايتهم للحق، وأنَّها لا تنافي بينها وبين الدين[3].

ولما كان الأمر عندهم على هذا التصوّر، وقع الجدال الكبير، والمراء المستطير، في مسلّمات العقيدة، إذ إنَّ الشريعة جاءت بما تحار فيه العقول، ولا يمكن أن تحيط به علماً،

---

(١) ينظر: نقض المنطق، ص ٨٨.

(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية، ص ١٤٠.

(٣) ينظر: كتاب الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص ١٧، للدكتور محمد البهي، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ.

لأنَّ الواجب فيها، هو الإيمان بالغيب، فلّما أدخلوا الفلسفة اليونانية بمنطقها، في العلوم الإسلامية -ومن أخصّها علم العقيدة- وقع الاختلاف في مسائل ما كانت الأمة لتختلف فيها، وليست محلاّ للتنازع، وما كان أحدٌ من المسلمين ليتعدّى فيها نصوص الوحيين، إلا بعد ابتلائهم بالمنطق والفلسفة اليونانية، وحينئذٍ خاض أولئك المتفلسفة وتجرؤا على الاعتراض على الأدلة السمعيّة، وردِّها بأوهى الشبه، وجعلوا العقل بمنزلةٍ فوق منزلة أدلّة الكتاب والسنّة، لأنها عندهم لا تفيد إلا الظنّ، بخلاف دلالة العقل فهي قطعية.

ولّما جعلوا عمدتهم في دينهم ما أصّله أرسطو من نحاتة أفكاره، وألزموا الناس بذلك، وحاكموا إليه نصوص الشرع، كثر جدالهم، وعظم في الدين مراؤهم، وشغلوا الناس بخصوماتهم، وألبسوا عليهم دينهم، مظهرين الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحقِّ، وهم مع ذلك يصدّون عن طريقة السلف، ويبغونها عوجاً، حتى تفرّقت بهم السُبُل عن سبيل الله ﷻ، وآل بهم علم المنطق والفلسفة «إلى الحيرة في الحال، والضلال والشك في المآل»(١)، وذلك أنهم «يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون...ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن، لاتّسع لهم العذر عندنا...ولكن اختلافهم في التوحيد، وفي صفات الله تعالى، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة، وعذاب النار، وعذاب البرزخ، وفي اللوح، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبيٌّ إلا بوحي من الله تعالى»(٢).

---

(١) شرح الفقه الأكبر، ص ٢٩، للملا علي بن سلطان القاري، تحقيق مروان محمد الشعار، دار النفائس بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص١٣_ ١٥، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، سنة

فإذا كانت تلك المسائل الغيبية التي يُطلب فيها الإيمان، والتي لا يعلمها إلا نبيٌّ من طريق الوحي، كيف يأتي المتفلسف ليخوض فيها بمجرد عقله، وخيالات يراها دلالات، ويُعمِل عليها قواعد قومٍ وثنيين، ليس عندهم أَثَرَةٌ من علم، ولا بقيّةٌ من كتاب، ويتهم الأدلة الشرعية بعدم إفادتها اليقين؟ ثم يأتي ليحسن الظنَّ بعقول كاسدة، وأقيسة فاسدة، بل ويتهم بعضُ المتفلسفةِ الرسلَ عليهم السلام أنهم لم يبينوا الحق للناس، ليبّرروا اعتمادهم على العقل ومخالفتهم لما جاءت به الرسل عليهم السلام، كما ذكر عنهم شيخ الإسلام بقوله: «فإن المتفلسفة تقول: إن الرسل لم يتمكنوا من بيان الحقائق؛ لأن إظهارها يفسد الناس، ولا تحتمل عقولهم ذلك، ثم قد يقولون: إنهم عرفوها، وقد يقول بعضهم: لم يعرفوها، أو أنا أعرف بها منهم، ثم يبينونها هم بالطرق القياسية الموجودة عندهم»[1].

وإذا كان حالهم كذلك، فإنَّ المراء في الدين يجد خلالهم، المسلكَ الواسع، والطريقَ الرحب، فيما اعتمدوه تجاه الأدلة الشرعية، فالرسل عليهم السلام هم الواسطة بين الله عز وجل وبين خلقه في تبليغ الرسالة، فإذا تطاول على مقامهم الفلاسفة، واتهموهم بعدم البلاغ المبين، وبقصورهم في العلم، فيا ترى بماذا يهتدي الناس؟ ومن الذي يدلّهم على الرشاد؟ أيترك الله عز وجل الناس لما يوحي إليه الفلاسفة بعضهُم لبعض زخرفَ القول غروراً؟ إنَّ هذا لشيء عجاب!

ولما كانت هذه حالهم، وغاية بضاعتهم، اختلط عليهم أمر دينهم، وأصبح بعضهم كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، لم يتمكّن منه الإيمان، ولم يصل مع نصوص

الطبع ١٤١١هـ.

(١) نقض المنطق، ص ٧٦.

الشرع إلى درجة اليقين والإذعان، «حيث أعرضوا عن الآيات النازلة من السماء، وخاضوا مع الجهلاء، الذين يظن فيهم أنهم العقلاء والعلماء، وقد نبه الله تعالى على ذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾[(١)]، أي بالتأويلات الفاسدة، والتعبيرات الكاسدة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[(٢)]، فإن معنى الآية يشملهم، إذ العبرة بعموم المبنى، لا بخصوص السبب لذلك المعنى، والتأويلات الباطلة، والتحريفات العاطلة قد تكون كفراً، وتكون فسقاً، وقد تكون معصية، وقد تكون خطأً، والخطأ في هذا الباب، غير معفوٍّ ومرفوع»[(٣)].

ولهذا كان أولئك القوم «من أعظم بني آدم حشواً وقولاً للباطل وتكذيباً للحق في مسائلهم ودلائلهم، لا يكاد -والله أعلم- تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك»[(٤)].

ولهذا يكون مآل حذّاقهم وأساطينهم إلى الحيرة والاضطراب والشكِّ في العقيدة، من كثرة جدالهم فيها ومرائهم، وخوضهم بالباطل، وعدم وصولهم إلى غاية من عقيدة يستمسكون بها، ويعضّون عليها بالنواجذ، حتى إنَّ أحدهم ليقول عن نفسه: إنَّه لا يدري ما يعتقد! كما نقل شيخ الإسلام عن الخسروشاهي[(٥)] أنه قال: «ما عثرنا إلا على

(١) سورة الأنعام آية (٦٨).

(٢) سورة الأنعام آية (٦٨).

(٣) شرح الفقه الأكبر للملا علي القاري، ص ٣٣.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/ ٢٧.

(٥) هو عبد الحميد بن عيسى بن عمويه بن يونس بن خليل الخسروشاهي _ ولد عام ٥٨٠هـ، وتوفي عام ٦٥٢هـ _ كان فقيها أصوليا متكلما محققا بارعا في المعقولات، من مصنفاته مختصر المهذب في الفقه، ومختصر المقالات لابن سينا. ينظر: (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٦١، وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٧).

هذه الكليات -وكان قد وقع في حيرة وشك- حتى كان يقول: -والله- ما أدري ما أعتقد، -والله- ما أدري ما أعتقد»[١]، فيا لله العجب؟ أتصل الحال بمسلم عنده الكتاب والسنة فيهما تبيان كل شيء، وأظهر ما يكون فيهما بيان الاعتقاد، ثم بعد ذلك لا يدري ما يعتقد! وهل ذلك إلا من بلاء الاشتغال بعلوم اليونان الوثنيين، وترك ما تدّل عليه نصوص الوحيين؟ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وعند التأمل في بعض أسباب حيرة واضطراب من اعتمد علم المنطق والفلسفة في العقيدة، نجد أنَّ من أسباب حيرتهم، أنهم قد «تعرّضوا لما لا يمكن من إيضاح المحارات التي لا تتضح، والسير في الطريق لا توصل، والوزن بالموازين التي لم ينزلها الله تعالى، ولا علمتها رسله، ولا اجتمع عليها عقول العقلاء وفطن الأذكياء، وما خرج عن ذلك كله، فمن أين له الوضوح حتى يكون له ميزان يميّز به الحق من الباطل عند الدقة والخفاء والاختلاف الشديد؟»[٢].

وقد نقل شيخ الإسلام عن أبي حامد الغزالي أنه قال: «أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام، وهذا أبو عبد الله الرازي[٣] من أعظم الناس في هذا الباب -باب الحيرة والشك والاضطراب- لكن هو مسرف في هذا الباب، بحيث له نهمة في التشكيك دون التحقيق، بخلاف غيره، فإنه يحقق شيئاً ويثبت على نوع من الحق، لكن بعض الناس قد

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢٢٨.

(٢) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، ص ١٤، لمحمد بن المرتضى اليماني، دار الكتب العلمية بيروت، سنة الطبع ١٣١٨هـ.

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي، فخر الدين _ ولد عام ٥٤٤هـ، وتوفي عام ٦٠٦هـ _ الأصولي المفسر كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، له المصنفات: مفاتيح العيب في التفسير، ومعالم أصول الدين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٨١).

يثبت على باطل محض، بل لا بد فيه من نوع من الحق، وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم في الفلسفة والكلام: ابن واصل الحموي(١) كان يقول: أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي ثم أذكر المقالات، وحجج هؤلاء وهؤلاء، واعتراض هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء...فإذا كانت هذه حال حججهم فأي لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا؟» (٢)، والنماذج في ذلك كثيرة، من حيرتهم وعدم اهتدائهم إلى ما تطمئن به القلوب، وتقرُّ به العيون، من عقيدةٍ يهتدون بها سـواء السبيل، وهذه عاقبة من استسهل الخصومة والمراء في الدين، حيث يتشدّق بكـلامه فيما سكت عنه خِيرة الخـلق من القرون المفضلة ومن بعدهم، ثم لا يسعه ما وسعهم، وأخطأ قولَ من تقدمه من السلف: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾(٣).

ومن خلال ما تقدم يظهر سؤال مفاده، لماذا يعتمد أولئك على المنطق والفلسفة، وفي أدلة الكتاب والسنة الغنية والكفاية؟ أجاب عن ذلك الخطابي(٤) بقوله:«إني تدبرت هذا الشأن، فوجدت عظم السبب فيه، أن الشيطان صار بلطيف حيلته، يسوّل لكل من أحس من نفسه بفضل ذكاء وذهن، يوهمه أنه إن رضي في عمله ومذهبه بظاهر من السنة،

---

(١) هو محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل الحموي _ ولد عام ٦٠٤هـ، وتوفي عام ٦٩٧هـ، مؤرخ عالم المنطق والهندسة، من فقهاء الشافعية، له من المؤلفات: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، و مختصر المجسطي. ينظر: (شذرات الذهب ٧/ ٧٦٦ ، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٢٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٢٨.

(٣) سورة آل عمران آية (٧).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي _ ولد عام ٣١٩هـ، وتوفي عام ٣٨٨هـ _ فقيه محدث، له المصنفات: معالم السنن في شرح سنن أبي داوود، وإصلاح غلط المحدثين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٤).

واقتصر على واضح بيان منها، كان أسوة العامة، وعُدَّ واحداً من الجمهور والكافة، فحركهم بذلك على التنطع في النظر، والتبدّع بمخالفة السنة والأثر، ليبينوا بذلك عن طبقة الدهماء، ويتميزوا في الرتبة عمن يرونه دونهم في الفهم والذكاء، واختدعهم بهذه المقدمة حتى استزلّهم عن واضح المحجة، وأورطهم في شبهات تعلقوا بزخارفها، وتاهوا في حقائقها، ولم يخلصوا منها إلى شفاء نفس، ولا قبلوها بيقين علم، ولما رأوا كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه، ضربوا بعض آياته ببعض وتأولوها على ما سنح لهم في عقولهم، واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ولسننه المأثورة عنه، وردوها على وجوهها، وأساءوا في نقَلَتِها القالة، ووجهوا عليهم الظنون، ورموهم بالتزيد، ونسبوهم إلى ضعف المنة، وسوء المعرفة بمعاني ما يروونه من الحديث، والجهل بتأويله»[١].

ومن هنا اشتدَّ نكير السلف على من تعاطى المنطق اليوناني والفلسفة في الدين؛ لأن ذلك من أعظم أسباب المراء في الدين، وإحداث الخصومة في العقائد، ومعارضة النصوص، واتهامها بعدم بيان الحقِّ، وقصورها في الألفاظ، ليُحتاج بعد ذلك إلى منطق وفلسفة أرسطو لبيان الحقِّ الخافي من القرآن والسنّة! و«إذا تدبّر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة، وغيرهم من الأمم التي فيها ضلال وكفر، وجد القرآن والسنة كاشفين لأحوالهم، مبينين لحقهم، مميزين بين حق ذلك من باطله»[٢].

قال ابن الصلاح -مبيناً أمر الفلسفة وأثرها على السيئ الدين-: «الفلسفة رأس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت

(١) الغنية عن الكلام وأهله، ص ٢٦، نسخة ممغنطة الكترونية، محملة من الشبكة العنكبوتية .

(٢) نقض المنطق، ص ١١٣.

بصيرته عن محاسن الشريعة، المؤيدة بالحجج الظاهرة، والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليماً وتعلماً، قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان...وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشرِّ شرٌّ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين، وسائر من يقتدي به من أعلام الأئمة وسادتها وأركان الأمة وقادتها...وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية -والحمد الله- بالافتقار إلى المنطق أصلاً، وما يزعمه المنطقي للمنطق، من أمر الحدِّ والبرهان فقاقع قد أغنى الله عنها بالطريق الأقوم، والسبيل الأسلم الأطهر...ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به»[1].

ولو لم يكن في ذلك المسلك من «شيء يذمُّ به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذّم وجديراً بالترك:

إحداهما: قول طائفة منهم: إن أوّل الوجبات، الشكُّ في الله تعالى.

الثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصحَّ إيمانه، وهو كافر.

فيلزمهم على هذا تكفير المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه، وقد أُورد على بعضهم هذا، فقال: لا يشنّع عليَّ بكثرة أهل النار»[2].

---

(١) فتاوى ومسائل ابن الصلاح، ص ٣٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٩٣.

والعجب أن أوّل طريقة هؤلاء هو الشكُّ في الله تعالى، فانظر كيف ضرب المراء في الدين بأطنابه في أوّل ما أوجبوه من الاعتقاد! وكيف أوجبوا أن يكون الشكُّ طريقَ الإيمان، بل الإيمان -عندهم- لا يصحُّ إلا بذلك، والشكُّ أحد معاني الامتراء، نعوذ بالله من مضلات الفتن.

ويقرر الشاطبي في كلامه على استغناء الناس بالقرآن والسنة عما سواهما، ويبين أن المنطق والفلسفة لا حاجة للناس بهما، قال -في معرض كلامه على قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[(١)]- : «لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار علوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بُعث فيهم النبي الأمي ﷺ بملّة سهلة سمحة، والفلسفة -على فرض أنها جائزة الطلب- صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تُتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة»[(٢)].

(١) سورة الأعراف آية (١٨٥).

(٢) الموافقات ١/ ٦٥.

المبحث السادس: انتقال المراء في الدين إلى المسلمين.

لقد كان المسلمون في الصدر الأوّل من هذه الأمة في عافية مما ابتلي به من بعدهم، من المراء في الدين والخصومة في الشرع وكثرة الخلاف والاختلاف، الذي نتج عنه الفرقة، حتى انطبق على بعضهم قول الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١)، وكلما بعد الناس عن مشكاة الوحي، واستعاضوا عن ذلك بآرائهم وخيالاتهم التي يسمّونها عقليّات، ازدادت هوّة الخلاف، وضلّوا عما كان عليه الأسلاف، من الحق والعدل والإنصاف، والعلم ليس بكثرة الكلام وتفاريع القول، إنما هو بالكتاب والسنة وما ورد فيهما، ومن ذلك النهي عن التكلّف، ومنه تكلّف الكلام فيما لم يرد فيه حكمٌ شرعي، والخوض فيه بمحض الرأي، فكان المسلمون على ذلك ما شاء الله ﷻ، ثمّ حدث فيهم ما أخبر النبي ﷺ بوقوعه قدراً، وهو كثرة الخلاف والاختلاف، حيث جاء في الحديث: «من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً»(٢)، ومن ذلك الخصومة والجدل والمراء في الدين، وهو ما كان سبباً لضلال من قبلنا من الأمم وهلاكهم في دينهم، وهو كذلك أيضاً في بعض أفراد هذه الأمة.

---

(١) سورة الجاثية آية (١٧).

(٢) أخرجه أبو داود عن العرباض بن سارية ؓ في كتاب السنة، باب في لزوم السنّة، (٤٦٠٧)، والإمام أحمد في مسند العرباض بن سارية، (١٧١٤٢)، ٢٨/ ٣٦٧، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، كتاب العلم، (٣٢٩) وقال الذهبي: صحيح ليس فيه علّة ١/ ١٧٤.

ونستطيع القول بعد أن علمنا ما اعتمدته الأمم قبلنا من المراء في الدين، الذي جعلوه ذريعةً للكفر بربِّ العالمين والتكذيب بالمرسلين، نستطيع أن نستخلص من خلال استقراء التاريخ، أنَّ حدوث المراء في الدين عند المسلمين، كان له بابان ولج من خلالهما الممارون والمجادلون ببضاعتهم في الدين، وأحدثوا مسائل تكلّموا فيها، كانت مثار خلاف وفرقة، واستطالوا بألسنتهم في نصوص الوحيين، بالخوض والجدال العقيم.

وهذان البابان هما:

الأول: الطبيعة الجدلية عند بعض الناس، التي لها دوافعها ومثيراتها.

والثاني: تعريب الكتب اليونانية والفلسفية وحكمة الأوائل، والذي كان له الأثر الأعظم في الخلاف في الدين والجدال والمراء فيه.

ولعلّ من أوائل من سلك طريق المراء في الدين لدى المسلمين، ما كان في زمن النبي ﷺ حين فتح الله ﷻ عليه يوم حنين، وقسم الغنائم يومئذٍ في أجلاف العرب يتألّفهم على الإسلام، فقام ذو الخويصرة التميمي، وقال: «اعدل يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل؟»(١)، وهذا من الاعتراض على صاحب الشريعة، والتقدّم بين يديْه بالجدال والمخاصمة، وهذا الصنيع «خروج صريح على النبي عليه الصلاة والسلام، ولو صار مَنْ اعترض على الإمام الحق خارجياً، فمن اعترض على الرسول أحق بأن يكون خارجياً، أوليس ذلك قولاً بتحسين العقل وتقبيحه؟ وحكماً بالهوى في مقابلة النص؟ واستكباراً على الأمر بقياس العقل؟»(٢)، وهذا لا ريب فيه أنَّه

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، (٦٩٣٣)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج، (١٠٦٤).

(٢) الملل والنحل ١/ ٢٧.

اعتراض على النبي ﷺ فيما صنعه من قسمة الغنائم، وذلك بدافع الهوى، ولهذا غضب النبي ﷺ حتى تلوّن وجهه محمرّاً، وقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، وهذا الحدث يظهر لنا الطبيعة الجدلية، والتمرّسَ في المُماراة عند بعض الناس، حتى مع سيّد الخلق ﷺ، وأعظمهم منزلةً عند الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

وكم هم الذين ساقوا خلف هذه الطريقة، واعترضوا على أحكام الشريعة، فأكثروا فيها الجدال والمراء، وخاضوا فيما هو أبعد لهم من السماء، ولم يشعروا أن النبي ﷺ لو كان بين ظهرانيهم، لربَّما غضب على صنيعهم، كغضبه على ذي الخويصرة.

وهذه الطبيعة الجدلية، لها دورها في شيوع وذيوع الجدال والخصومة في الدين، والاعتراض على شريعة ربِّ العالمين، فإذا كان ذلك منذ بكور الإسلام، فكيف يكون الحال في الأزمان المتأخّرة، التي يُرفع فيها العلم، ويظهر فيها الجهل؟

ولقد دلّت النصوص الشرعية، أن أفراداً من هذه الأمة يتبّعون سَنَنَ أهل الكتاب، ومن سننهم الجدال والخصومة والمراء في الدين -كما مرَّ معنا في خصومة الأمم السابقة لرسلهم- واعتراض ذي الخويصرة التميمي على النبي ﷺ في قسمة الغنائم، يفسّرُ لنا ما سبق.

بيد أنَّ ذلك الاعتراض والخصومة، لم تكن تتعدّى صاحبها، بمعنى أن ذلك ممقوتٌ عند الناس، ليس له سوق تروج فيه، بخلاف ما ظهر من بعد القرون المفضّلة من انتشار المراء في الدين، واشتداد الخصومة فيه، وظهور المقالات البدعية، آخذٌ بعضها برقاب بعض، حتّى أصبح لذلك منظّريه ومدارسه ومؤلفاته.

ولقد جاء في الحديث من قول النبي ﷺ: «أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»[١]، ومعنى ذلك: أنه بعد وفاة النبي ﷺ ظهرت البدع، وكثرت الحوادث في الدين، وتشعّبت الأهواء، واُختلف في العقــيدة، و «جاءت الفتن، وعظمت المحن، وظهر الكفر والنفاق، وكثر الخلاف والشقاق، فلولا تدارك الله هذا الدين بثاني اثنين، لصار أثراً بعد عين»[٢]، وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة، فلم يكن في زمن النبي ﷺ ولا في صدر الإسلام، بُعيْد وفاة النبي ﷺ خوض ولا مراءٌ في الدين، كالذي حدث فيمن بعدهم، حاشا الخلاف في الفروع الاجتهادية الفقهية، التي يسوغ فيها الاختلاف، نظراً لاختلاف الفهوم، والاجتهاد في الأدّلة، ولقد تحدث ابن القيم عن اختلاف الصحابة في الفروع، ولكن لم يصل هذا الاختلاف إلى العقائد، حيث لم يجادلوا وينازعوا فيما خاض فيه أهل الأهواء والبدع، قال: «وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيماناً، ولكن -بحمد الله- لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأجروها

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ، في كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، (٢٥٣١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٤٨٥.

على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع، حيث جعلوها عضين، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها، من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيها أنكروه، كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه»[(١)].

وكذلك الأمر زمن الخلفاء الراشدين إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان حال المسلمين «لا اختلاف بينهم في شيء، بل ملة واحدة، ومقالة واحدة»[(٢)]، ولم يكن للمراء في الدين وللخصومة فيه، مكانٌ بينهم، بل كانوا يتعقّبون من يتعاطى ذلك بأشدِّ العقاب.

ولماّ كثرت الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتهاوت مملكتيْ فارس والروم، ودخل في الإسلام من أراد له الكيد والطعن، حيث لم تنفع المكايد الحربية، ولا أجدتْ المصاولة العسكرية، «فرأوا أن كيده من داخله أنجع وأفتك»[(٣)].

ولّما قُتل عمر رضي الله عنه، على يديْ أبو لؤلؤة المجوسيّ[(٤)]، وولي الخلافة من بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجد أولئك الكائدون الجوَّ قد تهيأ لهم أكثر من ذي قبل، وفتحوا على المسلمين باباً من الفتن، وهو شغل المسلمين بالخصومة فيما بينهم، والأدهى في الأمر، أنَّ إحداث تلك الخصومة والمراء، فيما كان سبباً لجمعهم، وألّف الله عز وجل به بين قلوبهم، وهو

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٩١، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٢) الفصل في الملل والنحل ١/ ٣٣٣.

(٣) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة _ عرض ونقد _ ١/ ٤٧، للدكتور سليمان بن صالح الغصن، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(٤) هو أبو لؤلؤة المجوسي يدعى بفيروز الديلمي غلام المغيرة بن شعبة، أصله من نهاوند، أسرته الروم، ثم أسره المسلمون، وقتل نفسه بعد قتله عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ينظر: (البداية والنهاية ١٠/ ١٢٥).

الدين والعقيدة، فإذا وقع الخلاف والفراق فيما هو أصل الاجتماع والوفاق، فكيف تجتمع بعد ذلك كلمة المسلمين؟

وعند النظر فيمن أشاع المراء في الدين وأفشاه، نرى أنَّ أولئك أحد رجلين:

إما رجل أصــله من أهل الكتاب أو المجوس، ثم دخل في الإسلام -والله أعلم- بإسلامه، ثم أظهر من المقالات والمحدثات، ما لا يعرفه أهل الإسلام، حيث مزج دين الإسلام بغيره من الأديان الباطلة، وذلك مثل بشر بن غياث المريسي(١) فقد كان أبوه يهودياً صباغاً، فذُكر عن بشرٍ، أنه يكثر الصلاة على عيسى بن مريم عليه السلام فقيل له: «إنك تكثر الصلاة على عيسى فأهل ذاك هو، ولا أراك تصلي على نبينا، ونبينا ﷺ أفضل منه، فقال...ذلك كان مشغولا بالمرآة والمشط والنساء» (٢)، ومن هنا تظهر خبيئة نفسه -إن صدق ذلك عنه- ولا يستغرب حينئذ أنَّ يدسَّ السمَّ في العسل، ولقد جاء بمحدثات عظيمة، مارى بسببها وجادل عنها، حتى أفضت إليه الحال، أنه أُثر عنه قوله: سبحان ربي الأسفل! بناءً على دعواه: أن الله تعالى لا يخلو منه مكان(٣).

---

(١) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي _ توفي عام ٢١٨هـ _ متكلم مناظر، كان فقيهاً ولكن نظر في الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٠، ووفيات الأعيان ١/ ٢٧٧).

(٢) السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد ١/ ١٧٠، تحقيق الدكتور محمد بن سعيد القحطاني، دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ.

(٣) العلو للعلي العظيم، للذهبي ٢/ ١٢٣٩، تحقيق الدكتور عبد الله بن صالح البراك، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٤هـ، وينظر: الرد على الجهمية، للدارمي، ص٥٩، تحقيق أحمد بن سال المصري، دار الكيان، الرياض.

وكذلك صنع عبد الله بن سبأ(١).

وأوّل من ظهر منه الكلام في القدر، رجل يدعى سوسن، ويقال: سنسويه بن يونس الأسواري كان نصرانياً فأظهر الإسلام(٢).

وذكر الدارمي(٣) أنَّ بعض من كان ديدنه الخصومة في الدين، أنه على غير الإسلام، وإنما دخل فيه تستّراً، وتعاطى فيه المراء كيداً، قال: «كان من هؤلاء الجهمية(٤) رجل، وكان الذي يظهر من رأيه الترفّض، وانتحال حبِّ علي بن أبي طالب ﵁، فقال رجل ممن يخالطه ويعرف مذهبه: قد علمت أنكم لا ترجعون إلى دين الإسلام ولا تعتقدونه، فما الذي حملكم على الترفّض وانتحال حبَّ علي، قال: إذاً أصدقك، إنَّا إنْ أظهرنا رأينا الذي نعتقده، رُمينا بالكفر والزندقة، وقد وجدنا أقواماً ينتحلون حبَّ علي ويظهرونه، ثم يقعون بمن شاءوا، ويعتقدون ما شاءوا، ويقولون ما شاءوا، فنسبوا بذلك إلى الترفّض والتشيع، فلم نر لمذهبنا أمراً ألطف من انتحال حبِّ هذا الرجل، ثم

---

(١) هو عبد الله بن سبأ _ توفي عام ٤٠هـ _ أصله من اليمن، قيل: كان يهودياً فأظهر الإسلام، من غلاة الزنادقة وأول من أظهر مذهب الرفض، وإليه تنسب الطائفة السبئية. ينظر: (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ٢٩/ ٣، والأعلام ٤/ ٨٨).

(٢) ينظر: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة، للالكائي ٢/ ٨٢٨، والشريعة للآجري، ص٢٢٠، وكتاب القدر، للفريابي، ص ٢٠٦، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٣) هو عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي _ ولد عام٢٠٠هـ، وتوفي عام ٢٨٠هـ _ الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، محدث مدينة هراة، له من المؤلفات: الرد على الجهمية، والنقض على بشر المريسي. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٢٠، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٣٠٢).

(٤) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان الترمذي، ومن عقائدهم: إنكار الصفات، والقول بأن الجنة والنار تبيدان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط. ينظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٣٣٨، والفرق بين الفرق ص ١٥٨).

نقول ما شئنا ونعتقد ما شئنا ونقع بمن شئنا، فلأن يقال لنا: رافضة أو شيعة، أحبُّ إلينا من أن يقال: زنادقة كفّار، وما عليٌّ عندنا أحسن حالاً من غيره ممن نقع بهم.

قال أبو سعيد رحمه الله: وصدق هذا الرجل فيما عبر عن نفسه، ولم يراوغ وقد استبان ذلك من بعض كبرائهم وبصرائهم، أنهم يستترون بالتشيع، يجعلونه تشبيثاً لكلامهم وخطبهم، وسلَّماً وذريعةً لاصطياد الضعفاء وأهل الغفلة، ثم يبذرون بين ظهراني خطبهم بذر كفرهم وزندقتهم، ليكون أنجع في قلوب الجهّال وأبلغ فيهم، ولئن كان أهل الجهل في شكٍّ من أمرهم، إن أهل العلم منهم لعلى يقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(١)].

فظهر مما تقدم أنَّ من أصناف الممارين، من يتخذ الدين جُنّةً يستتر بها؛ لترويج باطله، وللتنفيس عن مكنون حقده على الإسلام وأهله.

أو أنْ يكون الرجل جاهلاً بالدين ولغة العرب في كلامها، فتكلم بما لا علم له به، وتكلّف ما ليس عنده، وكما قيل: «العلم نقطة فكثره الجاهلون»[(٢)]، وكم من المسائل المحدثة، والأقوال المبتدعة، سببها جهل قائلها، إذْ تكلم فيما لا يُحْسِن.

وإن ظهور المراء في الدين في الأمة، واختلافها في أصول عقيدتها، يدخل فيما أخبر به النبي ﷺ، من ظهور الفتن آخر الزمن، وقد جاء في الحديث: أن بين الأمة وبين الفتن باباً يكسر، فإذا كُسر ذلك الباب، ولجت عليهم الفتن من أوسع أبوابها، وذلك الباب

---

(١) الرد على الجهمية، ص ١٨١.

(٢) إيثار الحق على الخلق، ص١١، وينظر: الإبداع العلمي، ص ٨٧، الدكتور أحمد بن علي القرني، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

عمر بن الخطاب، وكسره مقتله رضي الله عنه(١)، فبمقتله دخل على المسلمين ما دخل، اُبتدأ ذلك بقيام الثوّار على الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، الذي من أسبابه: تحريض من دخل في الإسلام كيداً، وأشاع فيهم بلسانه -من الجدل والخصومة- ما لا يبلغه سيفه، وهو عبد الله بن سبأ، حتى انتهى ذلك بمقتل عثمان رضي الله عنه بسيف من يدّعي الإسلام ، وعبد الله بن سبأ هو الذي حرَّض الهمج الرعاع على قتل عثمان رضي الله عنه حتى كان ذلك بقدر الله عز وجل، ووقع السيف في الأمة، وحصل بعده من البلاء العظيم على المسلمين مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وانفتح بابٌ من المراء في الدين، من قِبَل دهاة أهل الأديان، الذين امتلأت قلوبهم بالحقد والأضغان، على أهل الإيمان، حيث كانت الوسيلة النافعة لريِّ حقد قلوبهم على المسلمين، هو إشاعة الخلاف بينهم في الذي جمعهم واجتمعوا عليه، وهو الدين.

والخلاف في الدين يأتي من طرق الخصومة فيه، والمراء في مسلّماته، والتشكيك في ثوابته، والاضطراب في أصوله، وإحداث الأقوال المبتدعة، وإثارة الحيرة فيما يُطلب فيه اليقين والاعتقاد الجازم، ومن هذا الباب، دخل ابن سبأ ومن على شاكلته، في إفساد دين المسلمين، بإحداث الأقوال المخترعة، والمسائل المبتدعة، والمراء في الدين، ونفثوا بألسنتهم السموم، وأثار عجاج الجدال، وأضرموا نار الخصوم.

وابن سبأ بذلك قد أسّس أخبث فرقة في تاريخ الإسلام، وأعظمها ضرراً عليه، وهي الرافضة(٢)، واضطرمت حروب طاحنة بين من ينتسب إلى الإسلام، ولم يقتصر

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، (٥٢٥)، ومسلم في كتاب الفتن، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر، (١٤٤).

(٢) الرافضة: سموا بهذا الاسم، لأن زيد بن علي بن الحسين خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكر، فمنعهم من ذلك، فرفضوه، فقال لهم: رفضتموني؟ قالوا: نعم، وهم فرق كثيرة، منها ما=

الأمر على ذلك، بل انسحب البلاء إلى العقائد، حيث قال ابن سبأ بتأليه علي بن أبي طالب ﷺ، وأنه الوصيُّ بعد النبي ﷺ، وقال بالرجعة، وتكفير الصحابة والبراءة منهم، وله أقوال منكرة شنيعة، حتى حرّق عليٌّ ﷺ طـائفةً منهم بالنار، ونفى ابن سبأٍ إلى المدائن، فلما قُتـل عليٌّ ﷺ، خرج ابن سبأ مجاهراً بما هو عليه من إفساد عقـائد المسلمين، بالمماراة في الدين[1]، «ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة»[2]، حيث اشتعلت نار الخصومة والمراء والجدال في دين الله ﷻ، واضطرمت وانتشرت انتشار النار في الهشيم، وفرّخت البدع، وكثرت الفِرق.

وبدأت بوادر المراء في الدين أيضاً من نوع آخر، تخرج كالأفاعي من جحورها في أواخر عصر متأخري الصحابة ﷺ، أوائل القرن الثاني الهجري، فقد حدثت بدعة تكفير أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، وذلك على يديْ الخوارج[3] الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وقابل ذلك أيضاً الخوض في القدر والكلام فيه، ومن

=يصل إلى الكفر، ومنها دون ذلك، وسموا إمامية اثني عشرية. ينظر: (مقالات الإسلاميين ١/ ٦٥، والملل والنحل ١/ ١٦٩).

(١) ينظر: الفصل في الملل والنحل ١/ ٢٤٧_ ٣٧٢، والملل والنحل ١/ ١٩٢، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٢/ ١٠٧٧، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مراجعة الدكتور مانع بن حماد الجهني، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ، وعبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام، ص١١٢، للدكتور سليمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٢٨.

(٣) الخوارج: هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب، ويجمعهم: تكفير مرتكب الكبيرة، والخروج على الإمام الجائر، وفرق الخوارج متعددة، وهم أهل عبادة على جهل، ويسمّون: الحرورية. ينظر: (مقالات الإسلاميين ١/ ١٨٢، والفرق بين الفرق ص ٦١).

أول من تكلم في الإسلام ببدعة القدر والاستطاعة، هو معبد الجهني[١]، لما أثار الكلام في القدر بالبصرة، وزعم أن الأمر أنف، وأنكر علم الله ﷻ السابق للمقادير[٢]، فأنكره الصحابة ﷺ إنكاراً بليغاً، وحذّروا الناس منه، ثم خرج بعده غيلان الدمشقي[٣] حيث ورث من معبدٍ مقالته، وناظر من أجلها وخاصم، وكان مفوّها بليغاً صاحب منطق وجدل، وتلا ذلك أيضاً خصومةُ واصل بن عطاء[٤] للحسن البصري[٥]، «وهو أول من صنَّف في علم الكلام والجدل والخصام مع أهل السنة والجماعة»[٦]، وقد أظهر خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة، في مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد، وذلك حين ظهر قول الخوارج بتكفير أصحاب الكبائر، ويُعدُّ واصل بن عطاء أوَّل من بدأ الخصومة في ذلك، قال شيخ الإسلام: «كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق المليِّ،

(١) هو معبد بن عبد الله بن عليم _ وقيل: عكيم _ الجهني البصري القدري _ توفي عام ٨٠هـ _ . ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٥).

(٢) ينظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه، (٨).

(٣) هو غيلان بن مسلم الدمشقي _ توفي عام ١٠٥هـ _ كاتب من البلغاء، وتنسب إليه الفرقة الغيلانية من القدرية، وهو ثاني من قال بالقدر بعد معبد الجهني. ينظر: (البداية والنهاية ١٣/ ١٥٥، والأعلام ٥/ ١٢٤).

(٤) هو واصل بن عطاء الغزال _ ولد عام ٨٠هـ، وتوفي عام ١٣١هـ _ رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء المتكلمين. ينظر: (وفيات الأعيان ٦/ ٧، و تاريخ الإسلام، للذهبي ٨/ ٥٥٨، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ).

(٥) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد _ ولد عام ٢١هـ، وتوفي عام ١١٠هـ _ من أئمة التابعين والفقهاء كان إمام أهل البصرة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٤، والأعلام ٢/ ٢٢٦).

(٦) لوامع الأنوار البهية لمحمد بن أحمد السفاريني ١/ ١٢، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ.

وهو أوَّل اختلاف حدث في الملَّة، هل هو كافر أو مؤمن؟ فقالت الخوارج: إنه كافر، وقالت الجماعة: إنه مؤمن، وقالت طائفة: نقول هو فاسق، لا مؤمن ولا كافر، ننزله منزلة بين المنزلتين، وخلدوه في النار، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه -رحمه الله تعالى- فسموا معتزلة»[١]، وتكلّم أيضاً فيما شجر بين الصحابة، وخاض في ذلك بما يخالف منهج أهل الإيمان، وواصل بن عطاء بصنيعه ذلك قد وضع في تربة الابتداع أوّلَ بذرةٍ للمعتزلة، وتبعه على ذلك عمرو بن عبيد[٢]ونصر قوله، ومن أخباره: «أن أعرابياً جاء عمرو بن عبيد، فقال له: إن ناقتي سرقت فادع الله أن يردها عليَّ، فقال: اللهم إن ناقة هذا الفقير سرقت، ولم ترد سرقتها، اللهم أرددها عليه، فقال الأعرابي: يا شيخ الآن ذهبت ناقتي وأيست منها، قال: وكيف؟ قال: لأنه إذا أراد أن لا تسرق فسرقت، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفاً» [٣].

وقال أبو حنيفة فيه: «لعن الله عمرو بن عبيد، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام، فيما لا يعنيهم من الكلام»[٤]، وجاء من بعدهم أبو الهذيل[٥] وصنّف في مذهبهم مصنفين، زمن هارون الرشيد، واستمرَّ مذهبهم حتى ظهر في خلافة المأمون العباسي[٦]،

---

(١) الفتاوي ٣/ ١٨٢.

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب التميمي مولاهم _ ولد عام ٨٨هـ، وتوفي عام ١٤٤هـ _ من أبناء الفرس، شيخ المعتزلة والقدرية، وكان يشتم الصحابة. ينظر: (البداية والنهاية ١٣/ ٣٤٣، والأعلام ٥/ ٨١).

(٣) شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ٢/ ٨١٦ .

(٤) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٥/ ٢٢١، تحقيق عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم العلوم والحكم، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٥) هو محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى _ ولد عام ١٣٥هـ، وتوفي عام ٢٣٥هـ _ من أئمة المعتزلة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٣، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٦٥).

العباسي[١]، الذي أظهر القول بخلق القرآن الكريم، وامتحن العلماء عليه، وانتصر لمذهبهم، واستوزر منهم الوزراء، وابتليَ أهل السنّة بسببه بلاءً عظيماً[٢].

قال الذهبي[٣]: «كان الناس أمة واحدة، ودينهم قائماً في خلافة أبي بكر وعمر، فلما استشهد قفل باب الفتنة عمر رضي الله عنه وانكسر الباب، قام رؤوس الشر على الشهيد عثمان حتى ذبح صبراً، وتفرّقت الكلمة، وتمّت وقعة الجمل، ثم وقعة صفين، فظهرت الخوارج، وكفرت سادة الصحابة، ثم ظهرت الروافض والنواصب [٤]، وفي آخر زمن الصحابة ظهرت القدرية[٥]، ثم ظهرت المعتزلة بالبصرة، والجهمية والمجسِّمة[٦]

---

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي القرشي الهاشمي، _ ولد عام ١٧٠هـ، وتوفي عام _ ٢١٨هـ _ كان على مذهب الاعتزال، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، وامتحن به العلماء، وعرّب الكتب اليونانية، ونشر علم الأوائل والعقليات. ينظر: (البداية والنهاية ١٤/ ٢١٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٨٦.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي _ ولد عام ٦٧٣هـ، وتوفي عام ٧٤٨هـ _ حافظ لا يجارى، وعالم لا يبارى، صاحب علم العلل والرجال، من مؤلفاته: سير أعلام النبلاء، وتهذيب الكمال. ينظر: (فوات الوفيات ٣/ ٣١٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٩/ ١٠٠).

(٤) النواصب: أصل النصب هو العداوة، والنواصب مصطلح يطلق عموماً على من يبغض عليَّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، ويدخل في ذلك الخوارج بفرقهم، ومن يشتم عليا رضي الله عنه. ينظر: (لسان العرب ١/ ٧٦١، ومجموع الفتاوى ٢٥/ ٣٠١).

(٥) سمّوا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه استقلالاً، ويسمّون مجوس مجوس الأمة، ومتقدموهم ينكرون علم الله تعالى بالأشياء قبل وجودها، ومن أشهر فرقهم المعتزلة. ينظر: (مقالات الإسلاميين ١/ ٢٩٨، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٨/ ٤٣٠ _ ٤٥٠).

(٦) هم الذين حكوا لله -تعالى عما يصفون- جسماً، كما قال هشام بن الحكم الرافضي، وغيره ممن هو على= =طريقته. ينظر: (الملل والنحل ١/ ١١٨، والفرق بين الفرق، ص ١٧٩).

بخراسان في أثناء عصر التابعين مع ظـــهور السنة وأهلها إلى بعد المائتين، فظهر المــأمون الخلـيفة -وكان ذكياً متكلماً، له نظر في المعقول- فاستجلب كتب الأوائل، وعرب حكمة اليونان، وقام في ذلك وقعد وخبَّ ووضع، ورفعت الجهمية والمعتزلة رؤوسها، بل والشيعة، فإنه كان كذلك، وآل به الحال أن حمل الأمة على القول بخلق القرآن، وامتحن العلماء فلم يمهل وهلك لعامه، وخلَّى بعده شراً وبلاءً في الدين، فإن الأمة ما زالت على أن القرآن العظيم كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، لا يعرفون غير ذلك، حتى نبغ لهم القول بأنه كلام الله مخلوق مجعول، وأنه إنما يضاف إلى الله تعالى إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، فأنكر ذلك العلماء، ولم تكن الجهمية يظهرون في دولة المهدي والرشيد والأمين، فلما ولي المأمون، كان منهم، وأظهر المقالة»[1].

هذه نماذجُ بغيضةٌ في كيفيّة تسلل المراء في الدين إلى المسلمين، وذلك بدوره يوضّح لنا الباب الأول وهو: الطبيعة الجدلية، التي ولج من خلاله الداء العضال، إلى عقائد المسلمين، وهو المراء في الدين، وكيف استحكم في بعض النفوس، ونستطيع القول من خلال ما تقدّم: أنَّ الباب الأول للمراء في الدين لدى المسلمين، هو الطبيعة الجدلية، لدى بعض الناس، التي تشبّعت بحبِّ الخصومة واللّدد فيها، واستساغت المراء والاعتراض وإلقاء الشبه؛ ولذلك جاء في الحديث «ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه، إلا أُوتــوا الجدل»، ولا سيما ومن أسباب تلك الطبيعة الجدلية التي تؤزّها إلى ذلك أزّاً، هو الحقد والضغينة على الإسلام وأهله، ممّن تستر به خوفاً من سطوة المسلمين.

وممّا يتفرّع عما سبق من وجود تلك الطبيعة الجدلية، أيضاً كان للخلاف السياسي بين المسلمين نصيب من ذلك، الذي ابتداء بمقتل عثمان ﵁، إلى حرب الجمل وصفّين،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٦.

والاختلاف في الإمامة، ثم خروج الخوارج حيث انفرط العقد بعد ذلك، وهذا له أثرٌ ظاهر في تغذية تلك الطبيعة الجدلية وتعميق جذورها بين المسلمين.

وعند النظر في مدى تأثير ذلك الخلاف السياسي على إثارة المراء في الدين، نجد «أن الخلاف السياسي ما كان ليبتعد عن الدين، لأن كل فريق من الفرق المتنازعة كان يلجأ إلى نصوص الدين دائماً، ليؤيد موقفه، وهذا يدعوه إلى الاجتهاد في فهم النصوص، أو تأويلها تأويلاً خاصّاً، عندئذ صار كل حزب سياسي فرقة دينية لها معتقداتها، كالشيعة والخوارج...والمرجئة[(١)].

ثم عمد أصحاب كل فرقة بعد ذلك إلى اصطناع شعراء وعلماء...فصار الأمر متعلّقاً بالدين ومسائله»[(٢)].

وهذا ظاهرٌ بيّن من خلال استقراء التاريخ، وإن لم تكن بعض الفِرَق صبغتها سياسية، وما من شك أن الخلاف السياسي أوجد منازعةً وجدالاً ومراءً في الدين من بعض الوجوه.

وبعد ما سبق بيانه من وجود تربة مُهيئة للجدال والمراء، وهي الطبيعة الجدلية لدى بعض الناس.

تأمل بعد ذلك كيف سُقيت تلك التربة بماءٍ آسن، وأنتجت ثمارها مرّاً وحنظلاً في حلوق المسلمين، وذلك هو أثر تعريب الكتب الفلسفية والمنطقية، والحكمة اليونانية على

(١) سمو بذلك لأنهم أخروا العمل عن النية والعقد، وهم فرق كثيرة، يجمعها القول بأن العمل ليس من الإيمان. ينظر: (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢١٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ، والتبصير في الدين، ص ٩٧).

(٢) علم الكلام وبعض مشكلاته، ص١٨.

مسائل الاعتقاد، التي كان لها الأثر البالغ في اشتداد الجدل في العقيدة، والخصومة في الدين، وإحداث الأقوال المنكرة فيه، ومن ثَمَّ افترقت الأمة، وأصبحوا فِرقاً وشيعاً بعد أن كانوا أمة واحدة! وأضحت دلائل الكتاب والسنة عند بعض الفرق ظنّية! والأدلة العقلية -كما يزعمون- قطعية، وحكّموا الوحي إلى خيالات عقولهم.

وكانت الترجمة لكتب الأوائل في بداياتها على نطاق ضيق، تقتصر على كتب العلوم العلمية الصرفة، كالطبِّ والصناعة ونحو ذلك، ثم بعد ذلك انهالت الترجمة على الكتب الفلسفية، والعلوم العقلية والمنطقية، قال السيوطي[١]: «إن علوم الأوائل دخلت إلى المسلمين في القرن الأول لما فتحوا بلاد الأعاجم، ولكنها لم تكثر فيهم ولم تشتهر بينهم، لما كان السلف يمنعون من الخوض فيها...ثم قوي انتشارها في زمن المأمون لما أثاره من البدع، وحثَّ عليه من الاشتغال بعلوم الأوائل، وإخماد السنة»[٢].

وبداية الترجمة في الإسلام، كانت على يد خالد بن يزيد بن معاوية[٣]، فهو أوَّل من عرّب كتب اليونان، وترجم بعض كتب الكيمياء والطبِّ، «وهذا أوَّل نقل كان في

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي جلال الدين _ ولد عام ٨٤٩هـ، وتوفي عام ٩١١هـ _ إما حافظ مؤرخ أديب، له مصنفات كثيرة، منها: الاتقان في علوم القرآن، وتدريب الراوي. ينظر: (الضوء اللامع ٤/ ٦٥، واالبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/ ٣٦٧).

(٢) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، ص ١٢، تحقيق علي سامي النشار، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى.

(٣) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي _ توفي عام ٨٥هـ _ كان من أعلم قريش بفنون العلم، وكان بصيرا بصناعة الطب والكيمياء. ينظر: (وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٤، وسير أعلام= =النبلاء ٩/ ٤١٢).

الإسلام من لغة إلى لغة»[١]، ثم أتى الخليفة العبـــاسي أبو جعــفر المنصور[٢]، وهو «أول خليفة ترجمـت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية...وكتب اليونان فنظر الناس فيها وتعلّقوا بها»[٣].

ولما تولّى الخلافة هارون الرشيد، كان لوزيره يحيى بن خالد البرمكي[٤] اليد الطولى في ترجمة كتب اليونان، وهو الذي سعى في ترجمتها وإدخالها إلى المسلمين، حيث كان من قصّة ذلك، أنَّ «سبب خروجها من أرض الروم إلى بلاد الإسلام يحيى بن خالد بن برمك، وذلك أن كتب اليونانية كانت ببلاد الروم، وكان ملك الروم خائفاً على الروم إن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية، ويرجعوا إلى دين اليونانية، وتشتّت كلمتهم، وتتفرق جماعتهم.

فجمع الكتب في موضع، وبنى عليها بناء مطموساً بالحجر والجصِّ حتى لا يوصل إليها.

فلما أفضت رياسة دولة بني العباس إلى يحيى بن خالد وكان زنديقاً، بلغه خبر الكتب التي في البناء ببلد الروم، فصانع ملك الروم الذي كان في وقته بالهدايا، ولا يلتمس منه حاجة، فلما أكثر عليه، جمع الملك بطارقته، وقال لهم: إن هذا الرجل خادم

---

(١) الفهرست، لابن النديم، ص ٣٣٨، دار المعرفة، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

(٢) هو الخليفة العباسي عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس القرشي الهاشمي _ ولد عام ٩٥هـ، وتوفي عام ١٥٨هـ _ ثاني خلفاء بني العباس. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣ ، البداية والنهاية ١٣/ ٤٥٩).

(٣) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٢٦٩_ ٣٨٨، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دون ذكر سنة الطبع.

(٤) هو يحيى بن خالد بن برمك _ ولد عام ١٢٠هـ، وتوفي عام ١٩٠هـ _ أبو علي الوزير، وزير هارون الرشيد، وقد فوض أمور الخلافة إليه. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ٨٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٢١٩).

العربي قد أكثر عليَّ من هداياه ولا يطلب منيّ حاجة، ولا أراه يلتمس حاجة، وأخاف أن تكون حاجته تشق عليَّ، وقد شغل بالي، فلما جاءه رسول يحيى، قال له: قل لصاحبك: إن كانت له حاجة فليذكرها، فلما أخبر الرسول يحيى ردَّ إليه وقال له: حاجتي الكتب التي تحت البناء، يرسلها إليَّ أخرج منها بعض ما أحتاج وأردها إليه، فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحاً، وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان، وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربي أنه لا يخلو من حاجة، وقد أفصح بحاجته إليَّ وهي أخفُّ الحوائج عليَّ، وقد رأيت رأياً فاسمعوه، فإن رضيتموه أمضيته، وإن رأيتم خلافه تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا، فقالوا: وما هو؟ قال: حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما أحب ويردها، قالوا: فما رأيك، قال: قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلنا إلا أنه خاف إن وقعت في أيدي النصارى وقرؤوها، كان سبباً لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم، وأنا أرى أن أبعث بها إليها، وأسأله ألا يردها، يبتلون بها، ونسلم نحن من شرّها، فإني لا آمن أن يكون من بعدي من يجترئ على إخراجها إلى الناس؛ فيقعوا فيما خِيف عليها، فقالوا: نعم الرأي ما رأيت أيها الملك، فأمضه.

فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد، فلما وصلت جمع عليها كل زنديق وفيلسوف، فمما أخرج منها كتاب: حد المنطق...ثم جعل يحيى المناظرة في داره، والجدال فيما لا ينبغي، فيتكلم كل ذي دين في دينه، ويجادل عليه، وهو آمنٌ على نفسه»(١).

وهذا -والله أعلم- كان في زمن هارون الرشيد، لأن البرمكي كان وزيراً له، كما أنَّ هذه القصة تطلعنا على خطر هذه العلوم اليونانية على أهل الإسلام، ولما خافها النصارى على دينهم، رأوا أنَّ من المكر والكيد للإسلام أن يبعثوا بها إلى المسلمين، حتى يقعوا فيما

---

(١) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، ص ٨.

خافه أهل الكتاب على دينهم، والعجب كلُّ العجب أن من تولّى الترجمة أغلبهم من اليهود والنصارى وبعض الزنادقة ومن لا دين له[(١)]، فحالهم حال من ينقل السمَّ بيد العدو، فتلك الكتب اليونانية عرّبها من هو متهم في دينه إن كان مسلماً، أو نصرانيٌ أو يهوديٌ! فماذا عساه أن يعرّب للمسلمين؟ إذا كان المترجم على تلك الحال، هل يؤمن أن تمتدَّ يده إلى تحريف أو تبديل؟ وقد حرّفوا كتاب الله ﷻ من بعدما عقلوه، وحرفوه حروفاً ومعاني، هل يؤتمن أمثال هؤلاء؟ وقد تشبّعت قلوبهم ضغينةً على الإسلام وأهله، والله ﷻ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[(٢)].

وهل كان المسلمون قبل ترجمة تلك الكتب اليونانية في شيء من الحاجة حتى يُدخلوا على أنفسهم وعقيدتهم تلك السموم؟ أم أنَّه الترف العلمي، والبسط الدنيوي، والفضول المعرفي؟ الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ويا ليت تلك الكتب وقف شرُّها عند هذا الحدِّ، حيث لا منفعة فلا مضرّة، بل كانت سمّاً قاتلاً، وداءً عضالاً، انتشر في جسد الأمة إلى يومنا هذا! فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأما المأمون لمّا ولي الخلافة، أدخل العلوم اليونانية على المسلمين من أوسع أبوابها، ولم يكونوا يعرفون تلك العلوم من قبلُ، وأحضرها من جزيرة قبرص، لمّا هادن ملكها طلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت مخزونةً عندهم لا يصل إليها أحدٌ، فاستشار الملك

---

(١) ينظر: الفهرست، ص ٣٤٠.

(٢) سورة آل عمران آية (١١٨).

وزراءه فأبوا عليه ذلك، إلا أحدهم قال: «جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها»(١).

وأولئك النصارى عندما بعثوا بها إلى المسلمين، إنما صنعوا ذلك مكيدة، لأنهم خافوها على دينهم، وعلموا فسادها عليهم؛ وذلك لأنه «لما تنصّرت الروم منعوا منها، وأحرقوا بعضها، وخزنوا البعض، ومنع الناس من الكلام في شيء من الفلسفة، إذ كانت بضدّ الشرائع»(٢)، «ولهذا صحَّ ما توقعه البطريرك الداهية، فإن المسلمين خلطوا هذه العلوم بما توارثه من كتاب وسنة، ثم فهموا دينهم على ضوء هذه العلوم الوافدة، وما تضمنته من آراء كاسدة، ثم تطورت الحال فأصبحت هذه العلوم ديناً، وأمسى الرجل يعتبر من علماء الإسلام، وهو لا يعرف إلا نزراً يسيراً من الكتاب والسنة، لأنه ضرب بسهم في الإحاطة بهذه الترهات والأباطيل»(٣).

وإذا كان النصارى يتخوّفون تلك الكتب على دينهم مع ما هم فيه من الضلال والتحريف لدينهم واختراع طقوس عبادتهم بعقولهم، فإذا كانت تلك العلوم اليونانية على هذه الحالة من الخطر، مع كونهم أرسلوها إلى المسلمين مكيدةً، فكيف يكون الأمر حينئذٍ على أهل الإسلام؟ الذين قعد المتربصون منهم مزجر الكلب، يتحيّنون الفرصة، للتنفيس عن مكنون حقدهم ودفين عداوتهم، وقد ترجموا تلك العداوة بإشعال فتيل الخصومة في الشرع والمراء في الدين، أسوةً بصنيع الأمم المُهلَكة.

---

(١) لوامع الأنوار البهية ١/ ٩.

(٢) الفهرست، ص ٣٣٧.

(٣) كتاب ليس من الإسلام، لمحمد الغزالي، ص ١٦٥، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.

وبسبب إدخال تلك العلوم البغيضة على الإسلام، «حدثت الفتن بين المسلمين، والبغي على أئمة الدين، وظهر اختلاف الآراء، والميل إلى البدع والأهواء، وكثرت الوقائع والاختلافات»(١).

ومن بعد ترجمة كتب اليونان في عهد المأمون، على ذلك النطاق الواسع، اتسع جدال ومراء كل مأفون، وأعجز الخرقُ الراقع، حيث أخذ المراء في الدين منحنىً خطيراً، قعّد له أصحابه القواعد، ومهّدوا لبنيانه الأوابد، وراجت بضاعة الجدال في سوق الخصومة، وأُستسهل تشقيق الأقوال بالمراء في الدين، وكان من أثر ذلك أن تشعّبت المذاهب، وتفرّقت بأصحابها المسالك، «فانفتح باب الجدل، واحتاج كل أحد إلى ترجيح مذهبه وقوله، بحجة عقلية أو نقلية أو مركّبة منهما، فهذا الأمر كان مأموناً قبل المأمون، نعم زاد الشر والضرر، وقويت حجة المعتزلة وغيرهم، وأخذ أصحاب الأهواء ومخالفو السنة مقدمات عقلية من الفلاسفة، فأدخلوها في مباحثهم، وفرّجوا بها مضايق جدالهم، وبنوا عليها قواعد بدعهم»(٢).

وكان من تبعة ذلك، أنّه «نشأ للناس علم جديد، مردٍ مهلك، لا يلائم علم النبوة، ولا يوافق توحيد المؤمنين، قد كانت الأمة منه في عافية، وقويت شوكة الرافضة والمعتزلة، وحمل المأمون المسلمين على القول بخلق القرآن، ودعاهم إليه، فامتحن العلماء فلا حول ولا قوة الا بالله، إن من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف،

---

(١) لوامع الأنوار البهية ١/ ١١.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٠.

وتقدم عقول الفلاسفة، ويعزل منقول اتباع الرسل، ويماري في القرآن، ويتبرم بالسنن والآثار، وتقع في الحيرة»[(١)].

ولم يقتصر الأمر عند ذلك، بل «انتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار، وأقبلت المعتزلة والقرامطة[(٢)] والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها، فانجرّ على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة في الدين، وعَظُم بالفلسفة ضلال أهل البدع، وزادتهم كفراً إلى كفرهم»[(٣)].

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين من الهجرة، أظهر المأمون بدعة القول بخلق القرآن، فلمّا كانت السنّة الثامنة عشر ومائتين من الهجرة، امتحن العلماء والفقهاء والمحدِّثين بذلك، ومن لم يجب إلى القول بخلق القرآن، فإن كان له رزق في بيت المال قُطع، وإن كان مفتياً مُنع من الإفتاء وهكذا، ومن مذهب المأمون أن من لم يجب إلى القول بخلق القرآن، تضرب عنقه، «ووقعت فتنة صماء، ومحنة شنعاء، وداهية دهياء»[(٤)]، وذلك لأنَّ المأمون قرّب إليه بعضاً من رؤوس أهل البدع والأهواء، «منهم بشر بن غياث المريسى، فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم، ولم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل، وراج عنده الباطل، ودعا إليه وحمل الناس عليه

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٨.

(٢) القرامطة هم أتباع حمدان قرمط، كان داعية إلى المذهب الباطني. ينظر: (مقالات الإسلاميين ١/ ١٠٠، والفرق بين الفرق، ص ٢١١).

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي ٤/ ١٩١، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ٢١١، وينظر: أيضاً ١٤/ ٢٠٧.

قهراً، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته»[١]، وشغل الناس بأقوال ومقالات ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، وما أحسن ما قاله الإمام أحمد ﵀ وأعمق فقهه، لما امتحن بتلك المقالة، قال: «القرآن كلام الله، لا أزيد على هذا، ولما تلا الإمام قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢]، قال له رجل من المعتزلة: ما أردت بقولك سميع بصير؟ فقال: أردت منها ما أراده الله منها، وهو كما وصف نفسه، ولا أزيد على ذلك»[٣]، وهذا كلام متين من إمام جليل، يُظهر موقف السلف ممن يماري في دينه، وما الذي ينبغي فعله معه.

ولأجل هذا البلاء الذي دخل على الناس من تعريب الكتب اليونانية في عهد المأمون، من انتشار المراء في الدين، واتساع الخصومة فيه، وظهور المحدثات، أصبحت مسائل العقيدة الكبار، عرضةً لخصومة ومراء كلِّ زنديق، بل وكان من نتيجة ذلك أن حمل الخليفة المأمون الناس على مذهب الاعتزال بقوّة السلطان، وأدخل عليهم من القول خلق القرآن، بلاءً عظيماً، وخطباً جسيماً، تجرأ بعده أهل البدع والزندقة وأصحاب المراء والخصومات، وهذا من أسبابه: ترجمة كتب الأوائل.

ولجسامة هذا الحدث، قال الصلاح الصفدي[٤]: «حدثني من أثق به أن شيخ الإسلام ابن تيمية -روّح الله روحه- كان يقول: ما أظن أن الله يغفل عن

---

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢١٧.

(٢) سورة الشورى آية (١١).

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٢١١.

(٤) هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي _ ولد عام ٦٩٦هـ، وتوفي عام ٧٦٤هـ _ أديب، مؤرخ، كثير التصانيف، منها: كتاب الوافي بالوفيات، في التراجم. ينظر: (طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٩=

المأمون، ولابد أن يقـــابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخال العلوم الفلسفية بين أهلها»[(١)].

ومن ذلك الحين، انفتح باب المراء في الدين على المسلمين، واتسع الخرق على الراقع، وضربت الأهواء بجرانها، وتجرأ أصحابها على العقيدة في أصول أركانها، ووقع ما أخبر به النبي ﷺ قدراً من وقوع الافتراق في الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

ونجد عند النظر في تاريخ نشأة الفرق، أن من أعظم أسباب حدوثها: المراء في الدين، والخصومة فيه، وما أحسن ما وصف به الإمام عثمان بن سعيد الدارمي حال أولئك الممارين في الدين، المجادلين بشبهاتهم وأغلوطاتهم، منتهزين الفرصة، للإحداث في الدين، حيث كانوا في أيِّ زمن قـــلَّ فيه العلماء، وقبض فيه الفقهاء، قـال: «دعا إلى البدع دعاة الضلال، فشدَّ ذلك طمع كل متعوّذ في الإسلام، من أبناء اليهود والنصارى وأنباط العراق، ووجدوا فرصة للكلام، فجدّوا في هدم الإسلام، وتعطيل ذي الجلال والإكرام، وإنكار صفاته، وتكذيب رسله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم وأحسّوا من الرعاع جهلاً، ومن العلماء قلّةً، فنصبوا عندها الكفر للناس إماماً بدعوتهم إليه،

=وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، ٣٤٣/٨، تحقيق محمود الرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ).

(١) نقله السفاريني في كتابه لوامع الأنوار البهية ٩/١، ولم أقف عليه من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية.

وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل، وعمايات من الكلام يغالطون بها أهل الإسلام، ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويلبسوا عليهم أمرهم، ويشككوهم في خالقهم، مقتدين بأئمتهم الأقدمين، الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[١]، و: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[٢]»[٣].

ومثل ذلك أيضاً ما يترجم في عصرنا من كتب المستشرقين ونحوهم، وما يثيرونه من شبهاتهم، وما يدلّسونه على المسلمين بأغُلوطاتهم، ولا سيما مع وجود ابتعاث أبناء المسلمين لتلقّي العلوم الدنيوية من الدول النصرانية وغيرها، وكذلك ما ينشر من كتب ومجلات ومقالات، يكتبها من يريد في الإسلام سنة الجاهلية، وهذه الأمور وأشبهها تشترك مع ضرر ترجمة كتب الأوائل والمنطق والفلسفة، في كونها باباً يدخل منه على المسلمين ما لا يعرفونه في دينهم.

وحاصل الأمر: أن الطبيعة الجدلية لدى بعض النفوس المحبّة للخصام، مع ما انضاف إلى ذلك من تعريب الكتب اليونانية، حيث كمّل أحدهما الآخر، فكان لهما الأثران الكبيران في شيوع المراء في الدين، وانتقاله إلى المسلمين، حيث كان موجوداً عند من قبلنا من الأمم.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -مبيناً كيف خرجت الطوائف والفرق التي تنتسب إلى القبلة، من جراء تعاطي المراء والخصومة في الدين، والاعتراض على ما لا يكون معه إلا التسليم والإذعان، حيث كان من طُرقهم في ذلك معارضة الحقّ

---

(١) سورة المدَّثر آية (٢٥).

(٢) سورة ص آية (٧).

(٣) الرد على الجهمية، للإمام عثمان بن سعيد الدارمي، ص ٤١.

بالتحريف والتبديل-: «وهؤلاء المحرفة المبدلة في هذه الأمة من الجهمية وغيرهم، اتبعوا سنن من كان قبلهم من اليهود والنصارى وفارس والروم، فغيّروا فطرة الله تعالى وبدَّلوا كتاب الله، والله سبحانه وتعالى خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشريعة...وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن مبدأ التجهم في هذه الأمة، كان أصله من المشركين ومبدلة الصابئين من الهند واليونان، وكان من مبدّلة أهل الكتاب من اليهود، وأن الجعد بن درهم [١]ثم الجهم بن صفوان[٢]، ومن اتبعهما أخذوا ذلك عنهم.

وأنه بعد ذلك أواخر المائة الثانية وقبلها وبعدها، اجتلبت كتب اليونان وغيرهم من الروم من بلاد النصارى وعرّبت، وانتشر مذهب مبدلة الصابئة[٣] مثل أرسطو وذويه»[٤].

وهذا ظاهر من واقع استقراء التاريخ حيث خرج في المسلمين من يبتغي في الإسلام سنّة أرسطو.

---

(١) هو الجعد بن درهم _ قتله خالد بن عبد الله القسري، في أوائل القرن الهجري _ من الموالي، أصله من حران، وهو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا، ولا كلم موسى تكليما، وأن ذلك لا يجوز على الله. ينظر: (البداية والنهاية ١٣/ ١٤٧، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٤٣٣).

(٢) هو الجهم بن صفوان الراسبي مولاهم _ قتله سلم بن أحوز، عام ١٢٨ _ الكاتب المتكلم، رأس الجهمية، وأسُّ الضلالة، قتله سلم بن أحوز. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦، والأعلام ٢/ ١٤١).

(٣) الصابئة: أمة كبيرة، وهم قوم إبراهيم الخليل، وأهل دعوته، كانوا يسكنون حران، وهم قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون، والمشركون يعبدون الكواكب. ينظر: (الملل والنحل ٢/ ٣٠٧).

(٤) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ١/ ٣٧٣، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، سنة الطبع ١٣٩٢هـ.

الفصل الثالث

المراء في الدين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية وجهود السلف، في التحذير منه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ما جاء في القرآن الكريم من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

المبحث الثاني: ما جاء في السنّة النبويّة من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

المبحث الثالث: جهود السلف في التحذير من المراء في الدين.

المبحث الأول: ما جاء في القرآن الكريم من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

ورد في القرآن الكريم من البيان الشافي، والقول الفصل الكافي، بيانُ سوءِ عاقبة المراء والجدال والخوض في الدين، الذي كان من نهاياته أن اتخذ أصحابُهُ آياتِ الله ﷻ هزوا، وكفروا بها بعد أن استخفّوا بما تدّل عليه، نتيجةً للمراء وأثراً للجدال.

ويمكن تقسيم ما ورد في القرآن الكريم من التحذير من المراء في الدين، إلى قسمين:

القسم الأوَّل: ما جاء فيه النصُّ على تحريم المراء والنهيِّ عنه، وذكر سوء عاقبته.

القسم الثاني: ما ورد من النهي عما يرادف المراء، أو يشترك معه في معناه، كالجدال والخوض ونحو ذلك.

وتفصيل ذلك على هذا النحو:

القسم الأوَّل: ورد في القرآن الكريم ما تصرّف من مادّة " مرا " في نحو تسعةَ عشرَ موضعاً على وجه الحصر، ومعانيها تدور على ما جاء في تعريفه سابقاً، ويُستوحى من مجموع معاني ألفاظها الذمُّ للمراء، والتحذير منه، ومن تعاطيه، إلا ما جاء من معنى الآية من سورة الكهف حيث قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾[1]، وسيأتي الكلام عليها في موضعه -إن شاء الله تعالى-.

وألفاظ ما ورد في القرآن الكريم ممّا يتعلّق بمفهوم المراء، جميعُه على هذا النحو في أحدَ عشرَ لفظاً، وهي: ﴿ يَمْتَرُونَ - تَمْتَرُونَ - تَمْتَرُنَّ - يُمَارُونَ - أَفَتُمَٰرُونَهُۥ - نَتَمَارَىٰ

---

(١) سورة الكهف آية (٢٢).

- ﴿فَتَمَارَوْاْ - ٱلْمُمْتَرِينَ - مِرْيَةٍ - تُمَارِ - مِرَآءً﴾.

وإليك ذكر الآيات الكريمة، وكلام أهل العلم عليها، على وجه التفصيل، مبتدأً بتسلسلها حسب ترتيب سورها في المصحف:

١. قال الله ﷻ في شأن ما كان من أمر تحويل القبلة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)]، إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[(٢)].

وهذه الآيات جاءت في بيان أحقيّة ما توجَّه إليه النبيُّ ﷺ من استقبال الكعبة المشرفة، ردّاً على اليهود الذين اهتبلوا هذه الفرصة؛ لإحداث ما يستطيعون في قلوب المسلمين، من الريب وإثارة التشكيك، وبيّن الله ﷻ فيها، أن أهل الكتاب لهم قبلتهم التي لا يتابعون فيها غيرهم، كما أن للمسلمين قبلتهم التي هداهم الله ﷻ إليها، وأن أدنى متابعة لأهل الكتاب في ما هم عليه، ضلالٌ بعد هداية، ثم بيّن الله تعالى، أن الذين آتاهم الكتاب، يعرفون صدقَ النبي محمد ﷺ كما يعرف الوالد ولدَه، حيث لا يخفى عليه أمره.

ثم قال الله ﷻ موجّهاً الخطاب للنبي محمد ﷺ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، والمعنى أن ما كان من شأن تحويل القبلة، وغيرها ممّا أُوحيَ إليك، هو الحقُّ من الله ﷻ، الذي لا ينبغي فيه الشكّ ولا الامتراء، وعلى هذا فالتحذير منصبٌّ إلى النبيِّ ﷺ أن يكون من المتصفين بصفة الامتراء، وهذا أبلغ مما لو كان التحـذير -

(١) سورة البقرة آية (١٤٦).

(٢) سورة البقرة آية (١٤٧).

فحسب- من تلك الصفة.

والامتراء في هذه الآية الكريمة، افتعال من المرية، والتاء الداخلة على الكلمة تفيد «تكلّف المرية، وهي مجادلة تستخرج السوءَ من خبيئة المجادل»[١]، والامتراء هنا بمعنى الشك، والنهي عن الامتراء، إما أن يرجع إلى سياق تحويل القبلة، وإما أن يكون فيما يتعلّق بشأن ما جحده اليهود، من معرفتهم بنبوة النبي محمد ﷺ، وإما أن يكون راجعاً إلى ما يتعلّق بصحّة النبوة والشرع، وهذا -والله أعلم- أقرب إلى فحوى ما يدُلّ عليه سياق الآيات، ولكونه أعمُّ، يدخل فيه ما عداه.

ومما يتفرّع على ما تقدّم، يقال: هل يُتصوّر من النبيِّ ﷺ الامتراء في الحقِّ؟ لا ريب أنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ من ذلك، ومقصودُ النهيِّ للنبيَّ محمد ﷺ، إما أن يكون للاستمرار على اتباع نهج اليقين، ومجانبة الشك، وإما أن يكون المراد به الأمّة، أو أن يكون المراد بذلك الجميع وهو الظاهر[٢].

٢. قال الله: ﷻ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٣].

وهذه الآية كسابقتها، وهي تقتضي ذمَّ الممترين، إلا أنها جاءت في الكلام على شأن عيسى عليه السلام، حيث كان من أمٍّ دون أبٍّ، قال ابن جرير الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: الذي أنبأتك به من خبر عيسى، وأنَّ مثله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له ربه: ﴿كُن﴾، هو الحقُّ من ربك، يقول: هو الخبر الذي هو من عند ربك

(١) نظم الدرر ١/ ٢٦٧.

(٢) ينظر: تفسير النسفي ١/ ١٤١، وتفسير الطبري ٢/ ٣٠، والدر المصون ٢/ ١٧٠، والتحرير والتنوير ٢/ ٤١، ونظم الدرر ١/ ٢٧٠، واللباب ٥/ ٢٨٢.

(٣) سورة آل عمران الآيتان (٥٩ _ ٦٠).

﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ ، يعني: فلا تكن من الشاكين في أنّ ذلك كذلك»[(١)]، والخطاب هنا للنبي محمد ﷺ، والمقصود به من امترى في حال عيسى عليه السلام في كونه خُلق من غير أبٍ، وهم النصارى، قال ابن عاشور: «والمُعرّض بهم هنا هم النصارى الممترون»[(٢)].

٣. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴾[(٣)].

وموطن الشاهد من الآية، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴾، ومعنى الآية: أن الله ﷻ هو الذي ابتدأ خلْق البشر من سلالة من طين، ثم جعل نسلهم من بعد ذلك من ماء مهين، وقدّر لهم آجالاً في الدنيا تنتهي بالموت، وعنده تعالى أجلٌ مسمّىً لا يعلمه إلا هو، وهو موعد يوم القيامة، للجزاء والحساب، وبعد هذا كلِّه، ثَمَّ جملةٌ من الناس في ذلك يمترون، ومعنى﴿ تَمۡتَرُونَ ﴾: يحتمل معنيين، الأول: تشكون، والثاني: تختلفون، مأخوذ من المراء والجدال، وهو الاختلاف.

ودلالة هذه اللفظة تفيد معنى تكلّف الشكِّ، مأخوذٌ من بنية الكلمة، حيث جاءت على صيغة الافتعال[(٤)].

وفي هذه الآية دلالةٌ على التحذير من الامتراء فيما ظهرت دلائله، وتبيّنت حقائقه، وأن المراء في مثل هذا، ضربٌ من اللغو والعبث، إذ أغنى الصباح عن

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٩٥، وينظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٤٧.

(٢) التحرير والتنوير ٣ / ٢٦٤.

(٣) سورة الأنعام آية (٢).

(٤) ينظر: نظم الدرر ٢/ ٥٨٢، وتفسير النسفي١/ ٤٩٠، والتحرير والتنوير ٧/ ١٣١، واللباب ٨/ ١٧.

المصباح، ومع ذلك من الناس من فُتن بالمراء، فلا يستطيع التخلّيَ عنه، وأصبح له سجيةً، لما تفيده تركيبة الجملة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، حيث جاءت على هيئة الجملة الاسمية، وهي تفيد الاستمرار والثبوت، وممّا تضمّنته الآية أيضاً: التنفير من أصحاب المراء والخصومات، ومجانبة مجالسهم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

٤. قال الله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

ومطلع هذه الآية في الإنكار على المشركين في ابتغاء غير الله ﷻ حكماً، وهو الذي أنزل القرآن الكريم، فيه تبيان كلِّ شيء، ثم بيّن الله ﷻ أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يعلمون علماً غير قابلٍ للشكِّ، أن القرآن الكريم منزّلٌ من عند الله ﷻ، ولمّا كان أهل الكتاب -ولا سيّما اليهود- حيث هم أهل ريبٍ ولبسٍ للحقِّ بالباطل، وإثارة للشكوك، ولِما كانوا يكتمون ما عندهم من العلم بنبوّة النبي محمد ﷺ؛ لأجل ذلك توجّه النهيُ إلى النبي محمد ﷺ أن يكون عنده شكٌّ في أمر أهل الكتاب[2]، كما أنَّ النهي أيضاً ينسحب لمن سوى النبي ﷺ، لأن مقصود النهي، النهيُ عن الامتراء على العموم، وهذا النهي على ذلك الوجه، «من الكلام الذي تُخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره»[3]، «ويجوز أن يكون خطاباً لغير معيّن، ليعمَّ كلَّ من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب، أي: فلا تكوننّ أيُّها

(١) سورة الأنعام آية (١١٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر٢/ ٦٩٩.

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٣٠.

السّامع من الممترين، أي الشّاكين في كون القرآن من عند الله»[١]، ومما يُستوحى من معنى الآية الكريمة، النهيُ عن المراء الذي يفيد معنى الشكّ على وجه العموم، وهذا يفيده حذف معمول الامتراء.

٥. قال الله ﷻ:﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[٢].

هذه الآية ظاهرها أنها خطابٌ للنبي محمد ﷺ، إن كان في شكٍّ ممّا أنزل الله عليه من القرآن، فليسأل أهل الكتاب؛ فإنّهم عندهم علمٌ بصدقه في كتبهم، ولقد جاءه عليه الصلاة والسلام الحقُّ اليقين من الله تعالى، فليس هناك داعٍ إلى الشـكِّ، ولكن -والله أعلم- أنَّ هذه الآية جاءت خطاباً للنبي محمد ﷺ على سياق التعريض بغيره على عادة العرب في ذلك، لأنه ربما جاء الكلام مباشراً فيكون منه على المتلّقين نفورٌ، قال ابن عاشور: «وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي، يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق، متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنة نفور...أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يقصد سوق الكلام إليه»[٣]، فجاء الخطاب على تلك الهيئة، والمراد: أن من كان عنده شكٌّ وارتيابٌ ممّا جاء به النبي محمد ﷺ وما نزل عليه من الله ﷻ من الحقِّ، فليسأل أهل الكتاب؛ فإنهم عندهم خبرٌ منه، ومن سأل فقد عَلِم أن ما أنزل الله ﷻ هو الحقُّ الذي لا يُمترى فيه، فالحذر الحذر من تعاطي تلك الحقائق بالمراء، والممترون هم الشاكّون، «الذين يحتاجون في اعتقادهم إلى الممارة»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ١٧.

(٢) سورة يونس آية (٩٤).

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٦٠.

ومن رحمة الله ﷻ بخلقه أنَّه لم يجعل تلك الأمور الكبار المتعلّقة بالاعتقاد، يتناولها الناس بالمراء والجدال والخوض من غير ما دليل، بل حسم الشأن فيها بإيضاحها وبيانها، بما يقطع جدل كلِّ مجادل، ومراء كلِّ مُماري، فلله الحمد وله الفضل.

٦. قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، ومن المناسب أن يكون الكلام على الشاهد فحسب، حتى لا يطول الكلام ويتشعّب عمّا هو بصدده، والخطاب في هذه الآية للنبي محمد ﷺ، والضمير عائدٌ إلى القرآن الكريم، وقيل: عائدٌ إلى ما استحقَّه الكفار من العذاب بالنار، والأظهر -والله أعلم- أنه عائدٌ إلى القرآن الكريم، لأنه يتضمّن الثاني، وهذا الذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]، فيكون النهي عن الامتراء راجعاً إلى القرآن الكريم، حيث لا يجوز فيه ذلك، لوضوح دلائله، وسطوع أنواره، وهذا النهي عن الامتراء في القرآن الكريم بهذا الأسلوب، كناية تعريضية لمن وقع منه ذلك، ويدخل فيه دخولاً أوليّاً الكفار[(٣)]، ونظير هذه الآية، الآيةُ التي سبقت، قال ابن جرير: «فإن قال قائل: أو كان النبي ﷺ في شكٍّ من

(١) سورة هود آية (١٧).

(٢) الفتاوى ١٥/ ٧٧.

(٣) ينظر: اللباب ١٠/ ٤٥٨، وأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ١٩.

أن القرآن من عند الله، وأنه حقٌّ حتى قيل له: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ ، قيل: هذا نظير قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾»[١].

٧. قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[٢].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: فلا تَك في شكٍّ، يا محمد مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام، أنه ضلالٌ وباطلٌ، وأنه بالله شركٌ»[٣]، ويكتنف هذا الخطاب توجيهٌ لعبَدَةِ الأصنام، حيث إنَّهم فيما يتعاطونه من عبادة الأصنام، إنما يفعلونه على غير جادّة، وليس على سبيل، ولهذا جاء الخطاب محتملاً لمن خُوطب به، وإن كان ظاهره أن النبي محمد ﷺ هو المخاطب، ولكن يقال في الآية ما قيل فيما قبلها، قال القرطبي: «قل يا محمد لكل من شك: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، أنَّ الله ﷻ ما أمرهم به، وإنما يعبدونها، كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم »[٤].

٨. قال الله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[٥].

ومعنى يمترون: يشكّون، وهذه الآية جاءت في سياق كلام الملائكة مع نبي

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٢٠.

(٢) سورة هود آية (١٠٩).

(٣) تفسير الطبري ٧/ ١١٩.

(٤) الجامع الأحكام القرآن ١١/ ٢١٨.

(٥) سورة الحِجر آية (٦٣).

الله لوط عليه السلام، في شأن إهلاك قومه، حيث أنذرهم لوط عليه السلام عقوبة الله عز وجل، فامتروا فيها ولم يصدّقوه، قال البغوي: «أي: يشكُّون في أنه نازلٌ بهم، وهو العذاب، لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه»(١).

وعلى ضوء ما تقدّم، يتبيّن أنَّ الامتراء هو دأْب الأمم السالفة مع رسلهم، حيث تمتري كلُّ أمّة في رسولها، ولا ريب أنَّ ما قصّه الله عز وجل ممّا وقع فيه من قبلنا من المراء، أنَّ ذلك تحذيرٌ منه لكلِّ من بلغه القرآن الكريم.

٩. قال الله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾(٢).

هذه هي الآية الوحيدة التي ذُكر فيها لفظة "المراء"، وهنا مسألة مهمّة، هل من المراء شيء محمود؟ وهل يكون من الجدال بالتي هي أحسن؟ حيث قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، هذه الآية جاءت في سياق الكلام على مجادلة أهل الكتاب للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم في عِدّة أهل الكهف، وقد تخرّصوا في ذلك بظنونهم بغير علم، ورجموا بالغيب فيما لا دليل لهم عليه، وقد نهى الله عز وجل النبيَّ محمد صلى الله عليه وسلم أن يتعاطى معهم في مرائهم، أو يجاريهم في جدالهم؛ حيث لا دليل معهم، ولا فائدة ممّا شغلوا أنفسهم، من عِدّة أصحاب الكهف، والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، وقد اختلف المفسرون في المعنى من هذه الجملة،

---

(١) معالم التنزيل ٢/ ٥٩٠، وينظر: تفسير الطبري ٧/ ٥٢٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٦، والتحرير والتنوير١٤/ ٦٣، واللباب ١١/ ٤٧٥.

(٢) سورة الكهف آية (٢٢).

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى المراء الظاهر الذي استثناه الله ﷻ، ورخّص فيه لنبيه ﷺ، فقال بعضهم: هو ما قص الله ﷻ في كتابه أبيح له أن يتلوه عليهم ولا يماريهم بغير ذلك...وقال آخرون: المراء الظاهر أن يقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول»(١)، وقال شيخ الإسلام في معنى الآية: «أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته»(٢)، وهذا تفسير للأمر بالمراء الظاهر، هو ألا يشتغل المسلم في مجادلةٍ لا طائل من ورائها ولا فائدة منها، وفي هذا المعنى قال ابن عاشور: «والمراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه»(٣)، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة»(٤).

وما سبق مما ذكره المفسرون من معاني المراء الظاهر، لا ينافي بعضها بعضاً، بل كلُّها متفقة متعاضدة، يكمل أحدها الآخر.

وعلى ما تقدّم، يتبيّن أنَّ المراء الظاهر الذي جاء في الآية، هو المراء الذاهب بحجّة الخصم، المزيل لشبهته، المظهر للحقِّ، وقد جاء عند العرب معنى الظاهر: الذاهب كما قال الشاعر:

---

(٢) تفسير الطبري ٨/ ٢٠٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير السعدي ٣/ ٩٥٥.

وعيّرني الواشون أني أحبها وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارها[١].

أي: ذاهبٌ، وهذا المراء المذكور في الآية الكريمة، هو الذي يكون بالحجّة الظاهرة، برفق وسهولة، وسماحة في الأخلاق، من غير تعمّقٍ ولا تمحّل، ويكون في حدود ما أوحى الله ﷻ، مع التلطّف بالخصم ومداراته بالمجادلة بالتي هي أحسن من غير عنف، ليسهل عليه قبول الحقِّ، وعلى هذا فالمراء الذي أُمر به النبيُّ محمدٌ ﷺ، هو الجدال بالحجّة والدليل، فهو من باب الجدال المحمود المأمور به، وأُطلق عليه لفظ "المراء" استعارةً، من باب المشاكلة اللفظية، قال القرطبي: «ولم يبح له في هذه الآية أن يماري، ولكن قوله ﴿إِلَّا مِرَآءً﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب، سمّيت مراجعته لهم مراءً، ثم قيّد بأنه ظاهر، ففارق المراء الحقيقي المذموم»[٢]، وهذا المراء في الآية هو بخلاف المراء الذي هو من حيث الأصل لا يكون إلا خصومةً في الحق، وجدالاً بالباطل، وإغضاباً للُمماری، وإفساداً للمودّة.

١٠. قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[٣].

هذه الآية الكريمة جاء سياقها عقب البيان الشافي لحقيقة نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك هو القول الحقُّ الذي ليس سواه إلا الباطل، وهذا القول الحقُّ، هو الذي وقع فيه الخلاف والامتراء والشــكّ، من قِبَل اليهـود والنصارى، فاليهود -أخزاهم الله- قالوا: إنه ساحر كذاب! والنصارى أيضاً اختلفوا فيه كما مرَّ معنا

---

(٢) القائل أبو ذؤيب الهذلي، ينظر: التذكرة الحمدونية، لابن حمدون ٦/ ١٨٦، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(٣) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٤٩.

(٣) سورة مريم آية (٣٤).

سابقاً[١] من أقوالهم فيه، فمن قائل: إنه ولد الله، ومن قائل: إنه هــو الله، قال ابن جرير: «وأما قوله تعالى ذكره ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ فإنه يعني الذي فيه يختصمون ويختلفون، من قولهم: ماريت فلاناً: إذا جادلته وخاصمته»[٢]، ودلالة الكلمة "يمترون" يظهر منها أنهم يتكلفون المراء فيه أيضاً، قال البقاعي: «أي: يشكون شكا يتكلّفونه ويجادلونه به، مع أن أمره في غاية الوضوح، ليس موضعاً للشكِّ أصلاً»[٣].

وهذا الإخبار عن اختلافهم في عيسى عليه السلام تحذيرٌ لهذه الأمة من مغبّة المراء والجدال المذموم، قال الشيخ محـمد الأمين الشنقيطي: «وهذا الشك الذي وقع للكفار، نهى الله عنه المسلمين على لسان نبيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[٤]»[٥].

١١. قال الله عز وجل: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ

(١) ينظر: صفحة: ١٦١.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ٣٤١.

(٣) نظم الدرر ٤/ ٢٣٢.

(٤) سورة آل عمران الآيتان (٥٩ _ ٦٠).

(٥) أضواء البيان ٤/ ٣٤٧.

﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[(١)].

والشاهد من الآيتين قوله تعالى: ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، يخبر الله تعالى أنَّ المشـــــركين في مرية من القرآن الكريم، والضـمير في﴿مِّنْهُ﴾ عائدٌ إلى القرآن الكريم، والمشركون ما زالوا في شك وريب منه، عناداً منهم وجدالاً، إلى أن يأتيهم من أمر الله تعالى ما لا مردَّ له، من أهوال يوم القيامة، أو عذابٍ عاجلٍ لا يرون معه خيراً، حتى يقطع ذلك مرائَهم وشكّهم في القرآن الكريم، وممّا تدّل عليه الآية الكريمة، أنَّ من عواقب المراء في ما جاء به النبيُّ محمد ﷺ أنَّ صاحبه يستمرُّ في تردّده وشكّه حتى يفجأه موتٌ أو عذابٌ أليمٌ، وهذا المعنى يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[(٢)]، قـال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «وذكر تعالى في هذه الآية: أنهم لا يزالون كذلك، حتى تأتيهم الساعة: أي القيامة بغتة: أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم»[(٣)].

ولا ريب أن هذه الآية الكريمة، تضمّنت أعظم التحذير من المراء، وكل ما هو وسيلة إليه، كما تضمّنت أيضاً أن المُماري قد يعاقب على مرائه، بالتمادي فيه حتى يفجأه من الله تعالى عذاب عظيم.

١٢. قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ

---

(١) سورة الحج الآيتان (٥٥ _ ٥٤).

(٢) سورة الحج آية (٥٥).

(٣) أضواء البيان ٥/ ٨٠٢، وينظر: تفسير الطبري ٩/ ١٧٩، نظم الدرر ٥/ ١٦٦، واللباب ١٤/ ١٢٨.

وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١].

والمعنى: أن الله ﷻ أنزل التوراة فيها حكم الله ﷻ على موسى ﵇، كما نزل القرآن الكريم، على النبي محمد ﷺ، ثم توجّه الخطاب للنبي محمد ﷺ ألا يكون في شكّ من لقائه، واختلف في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾، على قولين، فقيل: أي لا تكن في مرية من لقاء موسى ﵇ ليلة الإسراء، وجاء في الحديث عن ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى، رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾»[٢].

وقيل المعنى: فلا تكن في شكٍّ من أنّك لُقّيت الكتاب مثلما أوتيَ موسى ﵇ التوراة، فكلٌّ من القرآن الكريم والتوراة قد تطابقا، وصدّق كلٌّ منهما الأخر، إذ هما حقٌّ من عند الله ﷻ، قال ابن جزي: «المعنى: لقد آتينا موسى الكتاب فلا تشك أنت في لقائك الكتاب الذي أنزل عليك، وعبر باللقاء عن إنزال الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[٣]»[٤].

وعلى ما تقدّم، فالنهي على القول الثاني في مرجع الضمير، منصبٌّ عن الشكِّ

---

(١) سورة السجدة آية (٢٣).

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن عباس، أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، بابٌ إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، (٣٢٣٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السموات، وفرض الصلوات، (٢٦٧).

(٣) سورة النمل آية (٦).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ١٨٠.

في القرآن الكريم[١]، وعلى كلا القولين فالمعاني متفقة لا تتعارض، فالنهي عن المرية من لقاء النبي محمد ﷺ لموسى عليه السلام، حقٌّ لا يجوز الشك فيه، كما أن القرآن الكريم أيضاً حقٌّ لا يجوز الشك فيه، والنبي محمد ﷺ لم يتطرق إليه شك فيما يرى ويأتيه من الوحي، وعلى هذا فالنهي عن الامتراء، يحتمل أن يكون على سبيل الأمر بالاستمرار على نهج اليقين في هذه الآيات العظيمة، وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٢]، كما أنه يدخل في الخطاب كلُّ من بلغه القرآن الكريم .

١٣. قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[٣].

قال ابن جـرير: «ألا إن هؤلاء المكذبين بآيات الله في شك من لقاء ربهم، يعني أنهم في شك من البعث بعد الممات، ومعادهم إلى ربّهم»[٤]، فهم في جدال ولِجاج، ومخاصمة وحجاج، من أمر اليوم الآخر، ولهذا جاء صنيعهم مؤكّداً بالحرف الناسخ "إنَّ" وبالجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار والثبوت، وأيضا ما يدّل عليه حرف الجرِّ "في" الذي يقتضي أنهم في حالة من الشك والمراء، قد أحاطت بهم من كل جانب، إحاطة الظرف بالمظروف، ولا ريب أن شكَّهم في لقاء ربّهم، كان له الأثر في

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٤٩/١٠، وتفسير القرطبي ٤١/١٧، ومعالم التزيل ٥٢٦/٣، وتفسير ابن كثير١١/ ١٠٥.

(٢) سورة الأحزاب آية (١).

(٣) سورة فُصِّلَت آية (٥٤).

(٤) تفسير الطبري ١١/ ١٢٦.

أعمالهم، حيث لم تكن على السداد، ومن هنا يُعلم ما للمراء من عواقب.

١٤. قال الله ﷻ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

والمعنى: أنَّ المشركين يستعجلون قيامَ الساعة على وجه التكذيب والجدال والاستهزاء، وأما المؤمنون بها فهم على وجلٍ وإشفاقٍ من موعدها، ويعلمون على وجه اليقين أنها حقٌّ وصدق، لا يمترون فيها ولا يشكّون، وأما الذين يخاصمون في الساعة ويمترون فيها، ويحاجّون في وقوعها، ويخالفون في وعد الله ﷻ بها، فهم الكفار الذين لا حظَّ لهم في الإسلام، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي: بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها، فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق»[2]، ومن عواقب هذا المراء، أنه سببٌ عظيم للسّقوط في مهاوي الضلال السحيقة، والتّردّي في مهابط الجهل، وهذا المعنى يفيده التعبير القرآني، من حيث الدلالة الظرفية في قوله تعالى: ﴿لَفِى﴾، وأيضاً من دلالة التنكير التي تفيد معنى التهويل والتعظيم في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

١٥. قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ

---

(١) سورة الشورى آية (١٨).

(٢) تيسير الكريم المنان ٤/ ١٥٨٩، وينظر: تفسير الطبري ١١/ ١٤٠.

﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾(١).

والمعنى: أن نزول عيسى عليه السلام آخرَ الزمن علمٌ على قرب قيام الساعة، حيث لا يقبل من أحدٌ إلا الإسلام ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، وهذا القول ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي حيث قال: «على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان حيٌّ، علمٌ للساعة، أي: علامةٌ لقرب مجيئها؛ لأنه من أشراطها الدالة على قربها»(٢).

وقيل: إنَّ القرآن الكريم أعلم الناس بخبر الساعة، وفيه العلم بها وأحوالها، وقد بيّن معنى ذلك ابن عاشور حيث قال: «تحقيق أن القرآن عِلْم للساعة، أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم»(٣).

وخلاصة الكلام في هذه الآية الكريمة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، وفيها نهيٌ عن الامتراء والشك في مجيء أشراط الساعة وإبّان قيامها، وما يدخل في ذلك مما يجب فيه الإيمان التّام والتسليم والإذعان، ولا ريب أن من مفاد هذا النهي في الآية الكريمة، ألا يُشكَّ ولا يُمترى في كل ما يتعلّق باليوم الآخر مما يجب الإيمان به، حيث تقتضيه النصوص الشرعية، ويدخل في ذلك ما جادل وخاض فيه، ممّن ينتسب إلى طوائف أهل القبلة، من إنكار عذاب القبر والتشكيك فيه، أو إنكار ما يكون في اليوم الآخر من بعض أنواع الشفاعة، أو الرؤية لله عز وجل، والحوض النبوي الشريف، ونحو ذلك، فهذه الآية في ظاهرها تتناول النهيَ عن ذلك جميعه، فكيف إذاً يجري الخلاف بين بعض طوائف أهل القبلة فيما جاء النصُّ بحسم مادّة الخلاف فيه؟

---

(١) سورة الزُّخرُف آية (٦١).

(٢) أضواء البيان ٧/ ٢٨٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٤٣.

ولكنّه المراء والجدال.

١٦. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾(١).

في هذه الآيات وصَفَ الله ﷻ شيئاً ممّا يُعذّب به الكفار يوم القيامة، من إطعامهم شجرة الزقوم، ومعاناتهم أكلها، وما يعاملون به من الشدّة والغلظة، ومن صبِّ الماء الحارّ فوق رؤوسهم، وبعد هذا يقال لهم تقريراً لما كذّبوا به، وتوبيخاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾، أي: ما كنتم به تشكّون وتجادلون، على وجه الاستهزاء والإنكار، يقال لهم ذلك حيث يرونه عياناً، قال البقاعي مبيناً ما تفيده دلالة اللفظة: ﴿تَمْتَرُونَ﴾: «أي: تعالجون أنفسكم وتحملونها على الشك فيه، وتردَّونها عما لها من الفطرة الأولى، من التصديق بالممكن، لا سيما لمن جُرِّبَ صدقه، وظهرت خوارق العادات على يده، بحيث كنتم لشدّة ردّكم له، كأنّكم تخصّونه بالشكّ»(٢).

وممّا تفيده هذه الآيات، أن عواقب المراء تلحق صاحبها في الدنيا، وكذلك أيضاً يكون لها الشؤم الأعظم في الدار الآخرة، وكفى بذلك تحذيراً من المراء في الدين.

---

(١) سورة الدخان آية (٥٠).

(٢) نظم الدرر ٧/ ٨١، وينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٤٦، وتفسير ابن كثير ١٢/ ٣٥١ .

١٧. قــال الله ﷻ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾(١).

هذه الآية الكــريمة جاءت في سياق الإنكار على قريش بشأن قصّة الإسـراء والمعراج، حيث كذّبوا النبيَّ محمداً ﷺ وجادلـوه وخاصموه ومـاروه فيها، وسألوه عن صفة بيت المقدس، فرفعه الله إليه ينظرُ، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به»(٢)، وأجابهم عن كلِّ ما سألوه من وصفه، ومع ذلك كلّه كذّبوه ولم يؤمنوا به وماروه، والمُماراة هي: «الملاحاة والمجادلة في الإبطال»(٣)، فهؤلاء المشركون حاولوا فلجَ حجّة النبي ﷺ بمرائهم ومجادلتهم، وأردوا الغلبة عليه بخصامهم، فلم يستطيعوا إلى ردِّ ما جاء به النبي ﷺ سبيلاً، قال ابن جـرير: «وتأويل الكـــلام: أفتجادلون أيها المشركون محمداً على ما يرى مما أراه الله مـــن آياته» (٤)، والذي يظهر -والله أعلم- أنَّ مراء المشركين للنبيِّ محمد ﷺ ليس بحثاً عن الحجة والدليل، بل هو إلى إحداث مهيّجات التكذيب والشكِّ أحرى وأقرب، قال البغوي: «والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه»(٥)، ومن هنا يُعلم أن المماري يطلب بمرائه إنكار الحقِّ المتقرّر بالدليل، وذلك بتشقيق الكلام وتشعيبه في غير ما فائدة، سوى المحاولة لوأد كلام المتكلم وقطعه، بأساليب يغترُّ بها الغِرُّ.

---

(١) سورة النجم آية (١٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، (١٧٢).

(٣) التحرير والتنوير٢٧ / ٩٩، وينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ١٨٥.

(٤) تفسير الطبري ١١/ ٥١٢.

(٥) معالم التنزيل ٤/ ٢٥٣.

١٨. قال الله ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[(١)].

كاف الخطاب في الآية الكريمة، يراد به جنس الإنسان، وهو الذي رجحه ابن جرير[(٢)]، والمخاطبة في الآية على هذا الوجه «للإنسان الكافر كأنَّه قيل له: هذا هو الله الذي له هذه الأفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم، ففي أيها تشكُّ و﴿تَتَمَارَىٰ﴾ معناه تتشكك» [(٣)]، وقد ذكر شيخ الإسلام معنىً نفيساً في هذه الآية بقـوله: «فبأي نِعَم ربك التي تدّل على وحدانيته تتشكك؟ وقيل: تشكُّ وتجادل»[(٤)]، وقيل: الخطــاب للنبيِّ محــمدٍ ﷺ، ويكون المعنى على هذا القول: «من باب الإلهاب والتعريض بالغير»[(٥)]، وعلى كلا الوجهين، ففي مدلول هذه الآية تحذيرٌ من المراء وتنفـيرٌ منه، لمجيء الاستفهام على وجه الإنكار.

١٩. قال الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾[(٦)].

والشـــاهد من الآية قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾، ومعنى ما تقدّم: أنَّ نبي الله ﷻ لوط عليه السلام أنذر قومه عذابَ الله لَمَّا كذبوه، وتمادوا في ظلمهم وطغيانهم، وكان

(١) سورة النجم آية (٥٥).

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩١.

(٤) الفتاوى ٨/ ٢٠٨.

(٥) روح المعاني ٢٧/ ١٠٠.

(٦) سورة القمر آية (٣٦).

من شأنهم أنَّهم شككّوا في ما أوعدهم عليه من غضب الله ﷻ، و«تكلّفوا الشك الواهي»[١]في الإنذارات، وهذا التماري مضمّنٌ معنى التّكذيب، حيث يفيده تعدي الفعل﴿فَتَمَارَوۡاْ ﴾ بحرف الجرِّ "الباء" وعلى هذا، فالمراء هنا تكذيبٌ بأمرٍ ظهرت حجته ولاحت دلائله.

القسم الثاني: ما ورد من النهي عما يرادف المراء، ويشترك معه في معناه، من الجدال والخوض، ونحو ذلك، ومن تلك الآيات ما يلي:

١. قال الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[٢].

في هذه الآية يخبر الله ﷻ أنه ما يجادل ويماري في آيات الله ﷻ، إلا من خالط الكفر قلبه، وأما من أسلم وجهه لله ﷻ، فليس له إلا الإيمان والعمل بما تدل عليه تلك الآيات، حيث كان في قلبه تعظيمٌ لما جاء من عند الله ﷻ، بخلاف الكافر الذي استخفَّ بآيات الله ﷻ، فلذلك جادل فيها واعترض على قائلها، بما يعلم هو من نفسه بطلانَه، قال ابن كثير -مفسّراً معنى الآية-: «ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه»[٣]، وفي سياق هذه الآية ودلالتها تحذيرٌ عظيمٌ من تعاطي الجدال والمراء في آيات الله ﷻ، وأنَّ المؤمن لا يكون منه ذلك أبداً، لما تفيده دلالة مفهوم الحصر في

---

(١) نظم الدرر٧/ ٢٦٢، وينظر: اللباب ١٨/ ٧٢، وتفسير الطبري ١١/ ٥٦٣.

(٢) سورة غافر آية (٤).

(٣) تفسير ابن كثير ١٢/ ١٦٩.

الآية.

٢. ومما يتفرّع عما سبق، يقال: ما السبب الحامل للكفار أن يجادلوا في آيات الله ﷻ؟ قيل: السبب في ذلك، مذكورٌ في الآية التي تليها، وهي قول الله ﷻ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[١]، قال ابن جرير: «يقول: وخاصموا رسولهم بالباطل، من الخصومة؛ ليبطلوا بجدالهم إياه وخصومتهم له الحقَّ الذي جاءهم به من عند الله ﷻ، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه»[٢]، وأيضاً ذكر الله تعالى السبب في هذه الآية من سورة الكهف: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾[٣]، قال ابن جرير: «إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مبشرين أهل الإيمان بالجنة، ومنذرين أهل الكفر بالنار، وأنتم تجادلونهم بالباطل، طلباً منكم بذلك أن تبطلوا الحقّ الذي جاءكم به رسولي، وعنى بقوله: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾: ليبطلوا به الحقّ ويزيلوه ويذهبوا به»[٤]، والدحض في اللغة يفيد معنى: الزوال[٥]، وقد سبق معنا ذكر جدال الكفار لأنبيائهم، الذي هو تفسيرٌ لهذه الآية، وأنهم ما جادلوا أنبيائهم إلا لتكذيبهم، وردِّ ما جاءوا به من عند الله ﷻ، ولذا وجد

---

(١) سورة غافر آية (٥).

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٤٠.

(٣) سورة الكهف آية (٥٦).

(٤) تفسير الطبري ٨/ ٢٤٢، وينظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٢.

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٣٥٧.

أولئك المشركون من المماحلة والمخاصمة، وسيلةً قريبةً لمعارضة الحقِّ، الذي هو في ظهوره أجلى وأوضح من الشمس في كبد السماء.

٣. وأيضاً ذكر الله تعالى سبباً آخر من أسباب جدال الذين كفروا في آيات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[1]، قال ابن كثير: «أي: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق، وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع»[2]، ومن هنا ندرك أنَّ ذوي النفوس المريضة بالكِبر، ينتهجون من الجدال والمماراة طريقاً، يرونه سبيلا ينفّسون منه كيرَ حسدِ قلوبهم.

٤. ومّما ورد من ذمِّ المراء في الدين أنَّ الله ﷻ يبغض من يجادل في آياته أشدَّ البغض، وكذلك هو مبغوضٌ لدى المؤمنين، حيث قال الله ﷻ: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[3]، فالمجادلون للآيات الله ﷻ، ليس لهم حجة ولا برهان على ما اعتمدوه من الجدال، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ

---

(١) سورة غافر آية (٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير ١٢/ ٢٠١.

(٣) سورة غافر آية (٣٥).

بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾[١]، «وهذا وصف لازم، لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا»[٢]، وحيث كان الجدال في آيات الله تعالى بهذه المثابة، كانت منزلة أصحابه عند الله ﷻ وعند المؤمنين، منزلة المُبغَض كأشدِّ البغض؛ «لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل، ونسبته إليه، وهذه أمور يشتدُّ بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون، يمقتون على ذلك أشد المقت، موافقة لربهم، وهؤلاء خواصُّ خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه»[٣].

وعلاوةً على ما تقدّم من ذمِّ الجدال والمراء في الدين، ولو لم يكن فيه إلا أنَّ الله تعالى يبغض صاحبه أشدَّ البغض، لكفى به تحذيراً، فكيف وقد انضاف إليه ما تقدم؟

٥. ومن أسلوب القرآن الكريم أيضاً في عرض شناعة المراء في الدين قول الله ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾[٤]، وهذا الاستفهام للتقرير في سياق التعجّب من صنيع من يجادل في أعظم الأمور ظهوراً، وهي آيات الله ﷻ، كيف يصرف عنها، وإلى أيِّ شيء بعدها يذهب؟ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال[٥]؟

(١) سورة الحج آية (٣).

(٢) تفسير السعدي ٤/ ١٥٤٩.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٥٥٠.

(٤) سورة غافر آية (٦٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٠٠.

٦. ويبلغ الوعيد في كتاب الله ﷻ لمن يجادل في آيات الله ﷻ ويماحل فيها، أنَّه لا مفرَّ له من الله ﷻ، ولا مهرب من قبضته، فإذا مارى وجادل في آيات الله ﷻ ليردَّها، ويستنكف عن قبولها، فكيف يكون حاله إذا صار إلى الله ﷻ؟ فهل جداله ذاك نافعه؟ وهل يستطيع أن يتخلّص من موقفه بين يدي ربِّه بمرائه؟ قال الله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[(١)]، وفي طيِّ هذه الآية من التهديد لمن يجادل في آيات الله ﷻ ما هو ظاهر لكل ذي قلب سليم[(٢)].

٧. قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[(٣)].

يبيّن الله ﷻ في هذه الآية، أنَّه تعالى قد أوضح وبيّنَ في هذا القرآن الكريم من كل مَثَلٍ يصلح معه حال الناس، ولكنَّ طبيعةَ الإنسان: الجدل، فهو أكثر المخلوقات جدلاً وخصومةً، وهذا السياق يقتضي ذمَّ الجدل الذي عاقبته إبطال الحق، وكذلك ذمَّ من يتعاطاه، والمعنى: أنَّ الإنسان «أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة»[(٤)]، وهذا في الإنسان من حيث الأصل، ولكن من وقر الإيمان في قلبه، فإنه لا يخاصم ولا يجادل فيما لا يسوغ فيه ذلك، وقد مرّ معنا قريباً، أنه ما يجادل في آيات الله ﷻ إلا الذين كفروا.

٨. وممّا ذكره الله ﷻ عن الأمم الماضية تحذيراً لهذه الأمة أن تسلك ذلك

---

(١) سورة الشورى آية (٣٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١٢/ ٢٨٤، وتفسير الطبري ١١/ ١٥٣.

(٣) سورة الكهف آية (٥٤).

(٤) تفسير الطبري ٨/ ٢٤١، وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٥١٢.

السبيل، أنهم كانوا مع إيثارهم للدنيا واستمتاعهم بنصيبهم منها على وجه نسوا به حظَّهم من الآخرة، أنهم كانوا يتعاطون في الدين الخوض والجدال بالباطل، ولهذا شبّه الله تعالى حال منافقي هذه الأمة، بحال من سبقهم من الأقوام الماضين، قال الله ﷻ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، والمعنى: «أي: وخضتم بالباطل والزور، وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل»(٢).

والخوض بالباطل علامة على البطالة وعدم الرغبة في العمل، ولمّا كانت النصوص الإلهية تتضمّن أعمالاً تقتضيها، ويستلزم ذلك أن يكون آخذها متصفاً بالجدِّ، قال الله ﷻ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾(٣)، لم يكن من حيلة أولئك البطّالين الفارغين، إلا أن جادلوا فيها وأوسعوا فيها المراء، خروجاً بها عمّا نزلت من أجله، قال شيخ الإسلام: «وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض، لأن فساد الدين، إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الاعتقاد الحق، والأول: هو البدع ونحوها، والثاني: فسق الأعمال ونحوها»(٤).

---

(١) سورة التوبة آية (٦٩).

(٢) تفسير السعدي ٢/ ٦٦٦.

(٣) سورة مريم آية (١٢).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/ ١١٨، تحقيق الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل=

٩. ومن عاقبة ذلك الخوض في الدين، ما ذكره الله ﷻ عن المجرمين يوم القيامة حيث يتحدّثون عن أنفسهم وما ارتكبوه، ممّا أوجب غضب الله ﷻ عليهم حيث حلّوا نار الجحيم، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[١]، وجاء في الآية الأخرى التهديد لهم أيضاً؛ لما تؤول إليه عاقبتهم، قال الله ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[٢].

١٠. قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٣]، وهنا يذكر الله ﷻ أن من يخاصم في دينه ويجادل في شرعه، بغيةَ صدِّ الناس عنه من بعد تبيّنه وظهوره واستجابة الناس لأمر الله تعالى، فإن شُبَهَ أولئك زائلةٌ لا ثبات لها، وهم مع ذلك مستحقّون لغضب الله ﷻ وعذابه العظيم، وفي الآية الكريمة تحذيرٌ عظيم، لكلِّ من يجادل في الدين، ويحاجُّ فيه ويخاصم.

١١. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

في هذه الآية ينهي الله ﷻ هذه الأمة من التفرّق والاختلاف، كما وقع لمن أُتوا

=دار العاصمة، الطبعة السادسة ١٤١٩هـ.

(١) سورة المدثر آية (٤٥).

(٢) سورة المعارج آية (٤٢).

(٣) سورة الشورى آية (١٦).

(٤) سورة آل عمران آية (١٠٥).

البيّنات من أهل الكتاب، قال ابن كثير: «ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم»(١)، «وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا في أصول الدين، من اليهود والنصارى، من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق»(٢).

ومن المعلوم أنَّ من أسباب التفرق والاختلاف، المراء في الدين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»(٣)، ولم يكن تفرقٌ واختلافٌ في هذه الأمة إلا بعد ظهور المراء في الدين، والجدل في العقائد، من بعد القرون المفضلة، حيث كان من ذلك فرصة سانحة لأهل الأهواء والدسائس والمكر، أن يدخلوا ببضاعتهم البغيضة بين المسلمين، وإثارة الكلام فيما المسلمون منه في عافية، والخروج بمصطلحات فلسفية حادثة، يُحكّمون النصوص الشرعية إليها! حتى حصل من ذلك على المسلمين بلاءٌ عظيم.

١٢. قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾(٤).

الشاهد قوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٨.
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٤٣.
(٣) أخرجه علي بن أبي طلحة في صحيفته، ص ٢١٩، تحقيق راشد عبد المنعم الرجال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، والطبري في تفسيره ٣/ ٣٨٦، والآجري في الشريعة، ص ١٨.
(٤) سورة المائدة آية (١٤).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، قـال إبراهيم النخعي[١]: «أغرى بعضهم ببعض بخصُومات بالجدال في الدين»[٢].

وهذا المراء الذي جاء ذَمُّه في القرآن الكريم، نلحظ أنَّ كلَّ أمّةٍ من الأمم السابقة لها حظٌّ ونصيبٌ منه، وقد تعاطوه ومارسوه؛ للكفر بآيات الله ﷻ، وكفى بالمراء تحذيراً، أنَّه هو الوسيلة التي تواطأ عليها الأقوام السابقون، لتكذيب من بعث الله ﷻ إليهم من المرسلين، وكأنّما تواصوا به، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]، ولقد بيّن الله ﷻ صنيع كـلّ أمّة مع نبيّها في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٤]، فكان جدالهم بالباطل ومراؤهم؛ لأجل التكذيب، وفي ضمن ذلك عَرْضٌ ظاهرٌ لشناعة المراء وسوء عاقبته، وأنّه لا يكون إلا ممن خالط التكذيبُ والشكُّ قلبَه، ومما تقدّم نعلم أيضاً أن الأمم المكذبة لرسلها مَاروا رسلهم في أصل ما دعوهم إليه من الإيمان بالله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له، ولا ريب أنّ في ضمن الآيات التي سبق الكلام عليها، تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلك مسلك من سبقها في ذلك، وقد وقع لبعض أفراد هذه الأمة من سار على سبيل تلك الأمم، فكان للمراء والجدال والملاحاة في دين الله ﷻ نصيب، أحدثوا بذلك من المحدثات والبدع، ما تفرّقت به الأمة إلى طوائف يلعن بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً، وهذا كلُّه بسبب المراء فيما نُهوا عنه.

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود الكوفي _ ولد عام ٤٦هـ، وتوفي عام ٩٦هـ _ تابعي جليل، إمام حافظ، فقيه أهل العراق، (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠، وتذكرة الحفاظ١/ ٧٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٤/ ٥٠٠، وسعيد بن منصور في سننه، (٧٢٢)، ٤/ ١٤٤٩، تحقيق الدكتور سعد سعد الحميد، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٣) سورة البقرة آية (١١٨).

(٤) سورة غافر آية (٥).

المبحث الثاني: ما جاء في السنّة النبويّة من ذكر المراء في الدين، وبيان ذلك.

من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أنَّ النبي محمداً ﷺ ما ترك خيراً إلا ودلَّ الأمّةَ عليه، ولا شرّاً إلا وحذرها منه، ومن ذلك ما ورد في السنة المطهّرة من النهيِّ والتحذير عن المراء في ا لدين، حيث سلكت ذلك الطريقَ الأممُ المُعذّبةُ الهالكةُ، ومن المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، أنّ من واجبات الإيمان هو التسليم والإذعان، وعدم الجدال والمراء، في قضايا الاعتقاد ولا سيما ما يتعلّق بأعظم الواجبات وأهم المهمّات، وهي حقوق الله ﷻ على خلقه.

وقد انتخبت مما ورد من الأخبار في ذلك الأحاديث الصحيحة، وما يتقوّى بغيره ففي الحديث الصحيح غنيةٌ عن الحديث الضعيف، وأما الأحاديث الموضوعة والضعيفة ضعفاً لا ينجبر، فقد ضربت عنها صفحاً(١).

---

(١) من الأحاديث الضعيفة في هذا الباب ما جاء عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك ﷺ، قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثم انتهرنا، فقال: مهلا يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء، فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى إثماً أن لا تزال ممارياً، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان: المراء، وشرب الخمر، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس أن يعبد ولكنه قد رضي منكم بالتحريش، وهو المراء، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على ثنتين وسبعين كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم، قالوا: يا رسول الله ومن السواد الأعظم؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي، من لم يمار في دين الله، ومن لم يكفر أحداً من أهل التوحيد بذنب غفر له، ثم قال: إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريباً، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله، ولا يكفرون أحدا من أهل التوحيد بذنب. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير=

وما ورد من الأحاديث في النهيِّ عن المراء في الدين، يمكن تقسيمه إلى قسمين:

القسم الأوَّل: ما ورد من النهيِّ عن المراء بخصوصه.

القسم الثاني: أحاديث عامّة يدخل فيها النهي عن المراء.

ومن هذا الإجمال إلى التفصيل:

القسم الأوَّل: ما ورد من النهيِّ عن المراء بخصوصه.

١. عن أبي أُمامةَ الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «أَنا زعيم ببيت في

=(٧٦٥٩)، ٨/ ١٥٢، والآجري في الشريعة، ص ٦٠، وقال الهيثمي: فيه كثير بن مروان وهو ضعيف جداً. ينظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ٣٨٨، وقال الألباني: موضوع. ينظر ضعيف الترغيب والترهيب ١/ ٧٣. وكذلك أيضاً من الأحاديث الضعيفة ما جاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً. أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المراء، (١٩٩٤)، والطبراني في معجمه (١١٠٣٢)، ١١/ ٥٧، والبيقهي في الشعب (٨٤٣٢)، ٦/ ٣٤٠، والحديث ضعفه الألباني. ينظر: ضعيف الترغيب والترهيب ١/ ٧٤. وكذلك أيضاً من الأحاديث الضعيفة ما جاء عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: ست خصال من الخير، جهاد أعداء الله بالسيف، والصوم في يوم الصيف، وحسن الصبر عند المصيبة، وترك المراء وأنت محق، وتبكير الصلاة في يوم الغيم، وحسن الوضوء في أيام الشتاء. أخرجه البيهقي في الشعب، (٢٧٥٥) ٣/ ٢١، والحديث ضعفه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ٨/ ١٧٠، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ. وكذلك أيضاً من الأحاديث الضعيفة ما جاء عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: سيأتي على أمتي زمان، يكثر القراء، ويقل الفقهاء، ويقبض العلم، ويكثر الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل بينكم، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم، ثم يأتي زمان يجادل المنافقُ المشركُ المؤمنَ. أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٢٧٧)، ٣/ ٣١٩، والحاكم في مستدركه (٨٤١٢)، ٤/ ٥٠٤، والحديث من طريق دراج أبي السمح، وتفرد به ابن لهيعة، وضعفه الألباني. ينظر: السلسلة الضعيفة ٨/ ١٩١.

رَبَضِ الجنّة لمن ترك المراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسطِ الجنَّة لمن ترك الكذبَ وإن كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنّة لِمن حسَّن خُلُقَهُ»(١).

الكلمات الغريبة:

زعيم: أي كافل(٢).

رَبَضَ: قال ابن فارس: «الراء والباء والضاد، أصلٌ يدلُّ على سكونٍ واستقرار»(٣)، وقال ابن الأثير: «هو بفتح الباء: ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المُدُن وتحت القلاع»(٤).

معنى الحديث:

في هذا الحديث بيان أنَّ الجنة تتفاوت درجاتها، وتتفاضل منازلها، والشاهد منه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنا زعيم ببيت في رَبَضِ الجنَة لمن ترك المراءَ وإن كان مُحقًّا».

فمن منازل الجنّة ودرجاتها: ربضها، وهو: «نواحيها وجوانبها من داخلها، ولا من خارجها»(٥)، وابن الأثير في بيانه للربض، ذكر أنَّه ما حول الجنة خارجاً منها، تشبيهاً لما حول القلاع والمدن من الأبنية والرباع، وهو وإن كان صحيحاً لغةً، إلا أنَّ المعنى يأباه؛ لأن ما كان خارج الجنة فليس منها، وليس هناك منزلة في الجنة خارجةً عنها، وحيث لا دليل على ذلك، فتعيّن أنَّ ربض الجنة من داخلها.

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، (٤٨٠٠)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٧٤٨٨) ٨/٩٨، وقال النووي: إسناده صحيح. ينظر. (رياض الصالحين ص ٢٧٣، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ).

(٢) ينظر: مختار الصحاح، ص ٢٤٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ص ٤١٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٣٤٠.

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري ٩/٦٨، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

وقد تكفّل النبي ﷺ ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء، وكونه يترك المراء والجدال مع أنَّ الحقَّ له، «خوفًا من أن يقع صاحبه في اللِّجَاج المُوقِع في الباطل»(١)، لأن المُماري والمُمارى كلًّا منهما يستحلب ما عند صاحبه من الحجة، ويستدرُّ غضبه؛ ليحصل له النفاذ من خلال ذلك، إلى الغلبة على صاحبه وتوهين دليله، فلذلك نُدب المسلم إلى ترك المراء في كلِّ الأحوال؛ «كسراً لنفسه؛ كيلا يرفع نفسه على خصمه بظهور فضله»(٢)، وقطعاً لكلِّ وسائل وأسباب الفرقة والاختلاف بين المسلمين.

٢. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن العبدُ الإيمان كلَّه حتى يترك الكذب في المُزَاحة، ويترك المراء وإن كان صادقًا»(٣).

معنى الحديث:

المسلم لا يبلغ درجة الإيمان الكامل، إلا إذا ترك المراء وإن كان الحقُّ له، وهذا فيه فضيلة لمن ترك المراء وهو محقٌّ، فكيف إذا كان المراء فيما لا يجوز فيه المراء؟ أو كان المراء سبباً للفرقة والاختلاف والتنازع؟ أو لإحداث التشكيك والاضطراب في الدين، وفيما يجب فيه التسليم التّام، لا ريب أنَّ النهيَ عنه في تلك الأحوال أشدُّ وأعظم.

---

(١) شرح السندي على ابن ماجه ١/ ٣٩، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داوود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي ١٣/ ١٠٨، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ.

(٣) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة ﷺ، (٨٦٣٠)، ١٤/ ٢٧٨، وأخرجه الطبراني في الأوسط، (٥١٠٣)، ٥/ ٢٠٨، تحقيق طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين القاهرة ١٤١٥هـ، وفي سنده مكجول لم يسمع من أبي هريرة، ومنصور بن آذين، قال عنه ابن حجر: مجهول، ينظر: (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، ٢/ ٢٨١، تحقيق إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ)، ولكن معناه يقويه حديث أبي أمامة المتقدم.

قال الشافعي -مبيّناً بعض ما كان سببه المراء في الدين-: «لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء -والله- ما توهمته قط، ولأن يبتلى المرء بما نهى الله عنه خلا الشرك بالله، خير له من أن يبتلى بالكلام»(١)، لأن علم الكلام، علم يقوم على الاستدلال في قضايا الاعتقاد بالعقل، ومن أثر ذلك الجدال والمراء، ولهذا كان من نتائجه في العقائد، أن يصل بأصحابه إلى واد سحيق من الاضطراب، وتشقيق الأقوال إلى ما يخالف الصواب، ويبعث على الشك والارتياب.

٣. عن كعب بن مالك ﷺ: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طلب العلم؛ ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار»(٢).

معنى الحديث:

فيه الوعيد الأكيد لمن طلب العلم لا يبتغي به وجه الله تعالى، وإنما الحامل له على طلبه مجاراة العلماء، ومعنى مجاراة العلماء، أيْ: «يجري معهم في المناظرة والجدال؛ ليظهر علمه رياء وسمعة»(٣)، أو مُماراة السفهاء، ومعنى ذلك: «أيْ: يحاججهم ويجادلهم مباهاة وفخراً...والمُماراة: المحاجة والمجادلة من المرية، وهو الشك، فإن كلًّا منهما يشك فيما

(١) ينظر: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة والجماعة، للإمام الحافظ قوام السنة الأصبهاني ١/ ١١٥، تحقيق محمد بن ربيع مدخلي، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا، (٢٦٥٤)، في سنده إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال فيه الترمذي: إسحق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تكلم فيه من قبل حفظه، وقال الألباني: صحيح لغيره، ينظر: صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٥٣، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(٣) فيض القدير ٦/ ١٧٦.

يقوله صاحبه أو يشككه بما يورده على حجته، أو من المريء، وهو مسح الحالب الضرع ليستنزل منه اللبن، فإن كلا من المتناظرين، يستخرج ما عند صاحبه، والسفهاء: الجهال فإن عقولهم ناقصة مرجوحة بالإضافة إلى عقول العلماء»[(١)].

وإذا كان طلب العلم متوعّدٌ عليه صاحبُه، إذا كان من الدواعي له على طلبه، المماراة والمجادلة، فممّا يتضمّنه الحديث: النهي عن المراء والمجادلة، إذ لو كان ذلك من الحقِّ، لكان طلبُ العلم لأجله فضيلة.

٤. عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾».

معنى الحديث:

هذا الحديث يبيّن فيه النبي ﷺ سببَ ضلال الأمم، عما كانوا عليه من الهدى إلى خلافه، وسبب ذلك هو الجدل الذي يتفق مع المراء في المعنى.

ولمّا تبدّلت حال الأمم الماضية من العمل بما لديهم من العلم، إلى طلب ما لا يطلب بالعقول، وأخذوا يلوكون بألسنتهم ما ليس في وسعهم، واعتاضوا عن الإيمان والعمل، بالمراء والجدل، وقعوا في الضلالة، وارتكسوا في حمئة الجهالة، وخرجوا من نور العلم النبويِّ، إلى نحاتة أفكار كلِّ جاهل وغبيٍّ، وهذا ما بيّنه الله تعالى في القرآن الكريم، عن حال المنافقين من هذه الأمة، وما سلكوه من الخوض في الدين والاستمتاع بالدنيا، كما كان في الأمم الماضية سواء بسواء، قال الله ﷻ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا

(١) المصدر السابق ٦/ ٢٢٨.

ﱡﭐ... ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1]، وقد سبق الكلام على هذه الآية[2].

ولمّا كان في عقائد الأمة من الانحراف -من بعد القرون المفضلة- الذي قاد إلى التفرّق والاختلاف، علمنا أنَّ من أسبابه الجدل والمراء والخوض والخصومة، فيما يجب فيه الكفُّ والوقوف على نصوص الكتاب والسنّة، ولمّا كان صدرُ هذه الأمة من الصحابة ﭫ أبعد الخلق عن الجدال والمراء في دين الله ﻷ، لم يكن عندهم اختلاف في العقيدة، ولا ظهور لمصطلحات تضاهي نصوص الشريعة، إنما كان قصارى ما عندهم ﭫ أن يعلموا ما علّمهم النبي ﷺ؛ ليعملوا به، ويعلّموه الناس، ولمّا ترك بعض أفراد هذه الأمة تلك السبيل المهيع، والطريق المنهج، وتكلموا في الدين بما ظاهره استدراكٌ على الشريعة، وقعوا في الجدل المنهي عنه، ومن ثَمَّ كان الضلال، وفُتح الباب لكل متربّصٍ وحاقدٍ لهذا الدين؛ ليلقي من سمِّ جداله ومرائه، ما هو محلُّ التشكيك والاضطراب، والضرب بين نصوص السنّة والكتاب.

وقد فُتح هذا الباب على مصراعيه، وهو في هذا الزمن أشدُّ من ذي قبل، قال الآجري: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدال، وأمروهم بالأخذ بالسنن، وبما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله

---

(١) سورة التوبة آية (٦٩).

(٢) ينظر: صفحة: ٢٦٢.

ﷻ»[١]، وقال المناوي: «من ترك سبيل الهدى وركب سنن الضلالة، والمراد لم يمش حاله إلا بالجدل، أي الخصومة بالباطل»[٢].

والمراء في الدين، يترقّى بأصحابه من لوازم أقوالهم إلى أمور عظيمة منكرة، فتعاطي المراء في الدين من وسائل الضلال والوقوع في شَرَك الهوى، ونسيان الهدى، قال ابن عبد البرّ[٣]: «تناظر القوم وتجادلوا في الفقه، ونهوا عن الجدال في الاعتقاد، لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين، ألا ترى مناظرة بشر في قوله، جل وعز: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[٤]، قال: هو بذاته في كل مكان، فقال له خصمه: هو في قلنسوتك وفي حشّك وفي جوف حمارك -تعالى الله عما يقولون-...وأنا -والله- أكره أن أحكي كلامهم -قبحهم الله- فمن هذا وشبهه نهى العلماء»[٥] وكذلك ذُكر عن بشر بن غياث المريسي أنَّه كان يقول: سبحان ربّي الأسفل[٦] -تعالى الله عن ذلك علّواً كبيراً- وهذا وأمثاله، من نتائج المراء في الاعتقاد.

---

(١) الشريعة، ص ٦١.

(٢) فيض القدير ٥/ ٤٥٣.

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر _ ولد عام ٣٦٨هـ، وتوفي عام ٤٦٣هـ _ الإمام العلامة، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب، من مؤلفاته: التهميد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣، ووفيات الأعيان ٧/ ٦٦) .

(٤) سورة المجادلة آية (٧).

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٥، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ.

(٦) ينظر: كتاب العلو للعلي العظيم ٢/ ١٢٣٩، والرد على الجهمية، للدارمي، ص ٥٩.

٥. عن معاوية ﵁، عن النبي ﷺ، أنه نهى عن الغلوطات [١].

غريب الحديث:

الغلوطات: جمع غَلوطة، وأصل هذه المادّة كما قال ابن فارس:«الغين واللام والطاء، كلمةٌ واحدة، وهي الغَلط: خلاف الإصابة. يقال: غَلِط يَغْلَط غَلَطاً. وبينهم أُغلوطةٌ، أيْ: شيءٌ يُغالِط به بعضُهم بعضاً» [٢]، وقال في لسان العرب في بيان أصل الكلمة: «الأصلُ فيها الأغْلُوطات، ثم تُركتِ الهمزةُ، كما نقول: جاءَ الأحمرُ، ثم تقول: جاء الحمر بطرح الهمزة، ويقال مسألة غلوط» [٣]، وقد فسَّر ابن سيده معنى الغَلَطِ بقوله: «الغَلَط أن يَعْيا بالشّيء» [٤].

فالأغلوطات فيها معنى المراء من هذا الوجه، إذ كلاهما يشتركان في إثارة الحفيظة، واللدّد في الخصومة، والتعنّت في إلزام الخصم بالحجة، لما فيهما من المعاياة.

وقال الخطابي -في هذا المعنى-: «والأغلوطات واحدها أغلوطة، وزنها افعولة من الغلط كالأحموقة من الحُمق، والأسطورة من السطر، فأما الغلوطات فواحدها غَلوطة، اسم مبني من الغلط كالحلوبة والركوبة من الحلب والركوب، والمعنى أنه نهى أن يعترض العلماء بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط ليُستزلوا بها ويستسقط رأيهم فيها» [٥].

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا، (٣٦٥٦)، وسكت عنه، وأخرجه أحمد في مسند معاوية ﵁، (٢٣٦٨٨)، ٣٩/ ٩٣، وفي سنده عبد الله بن سعد، قال في عون المعبود ١٠/ ٦٥: مجهول.

(٢) معجم مقاييس اللغة ص ٧٧٤.

(٣) لسان العرب ٧/ ٣٦٣.

(٤) المخصص ٤/ ٢١.

(٥) معالم السنن ٥/ ٢٥٠، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

معنى الحديث:

تضمّن هذا الحديث النهي عن المسائل التي يُفحم بها المسئول، ويطلب فيها زلّته وعثرته، والمراء داخلٌ في عموم هذا النهي؛ لأنه مشتملٌ على تلك الأغلوطات، كما تضمّن الحديث أيضاً: «كراهية الخوض في المحدثات كثيراً، لأن الخوض يورث الجدال، والجدال يغفل عن المسألة»[١].

وقال ابن الأثير -مبيّناً جوانب من معنى الحديث-: «أراد المسائل التي يغالط بها العلماء؛ ليزلُّوا فيها فيهيج بذلك شرٌّ وفتنة، وإنما نهى عنها؛ لأنها غير نافعة في الدِّين، ولا تكاد تكون إلَّا فيما لا يقع»[٢]، وأيضاً هذه الأغلوطات سبيل إلى تعاطي المراء في الدين، والجرأة على نصوص الشريعة، بالخوض فيما لا تتسع له عقول البشر، ولا يمكن العلم به إلا من طريق الوحي.

وتحدّث ابن رجب[٣] عن مساوئ هذا المسلك عند بعض من ابتلي به، حيث قال: «ومن فقهاء أهل الرأي من توسَّع في توليدِ المسائل قبلَ وقوعها، ما يقع في العادة منها، وما لا يقع، واشتغلُوا بتكلُّفِ الجواب عن ذلك، وكثرة الخصومات فيه، والجدال عليه حتَّى يتولدَ مِنْ ذلك افتراقُ القلوب، ويستقرَّ فيها بسببه الأهواءُ والشحناءُ والعداوةُ والبغضاءُ، ويقترن ذلك كثيراً بنيّة المغالبة، وطلب العلوِّ والمباهاة، وصرف وجوه الناس وهذا ممَّا ذمه العلماءُ الربانيون، ودلَّتِ السُّنَّةُ على قبحه وتحريمه»[٤].

---

(١) الفوائد، لتمام الرازي ٢/ ٢٠٠، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٦٧٦.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي _ ولد عام ٧٠٢هـ، وتوفي عام٧٨١هـ _ فقيه حنبلي، حافظ للحديث، له تصانيف كثيرة، منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، والقواعد، ولطائف المعارف. ينظر: (ذيل تذكرة الحفاظ، ص١٨٠، والبدر الطالع ١/ ٣٦٧).

(٤) جامع العلوم والحكم ٢٤٨/١، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، دارة الملك عبد العزيز=

وهذا المراء والجدال والخصام، فيما إذا كان في بعض فروع الشريعة التي تتسع فيها مساحة الخلاف، ويسوغ فيها الاجتهاد، فكيف إذا كان ذلك المراء والخصام في مسائل العقيدة وأصول الدين والغيبيات، وفيما لا يجوز فيه الخلاف أصلاً؟ لا ريب أنَّ الأمر أخطر، وآثاره أعظم، والفرقة بسببه أكبر، ولمّا فُتح هذا الباب، ودخله المُمارون، فمن الناس «من توسع في البحث...وأكثر الخصومة والجدال؛ حتى تولد منه الأهواء والبغضاء، ويقترن ذلك بنية الغلو والمباهاة»[١].

وقال الخطابي: «والمعنى أنه نهى أن يعترض العلماء بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط ليُستزلوا بها ويستسقط رأيهم فيها، وفيه كراهية التعمق والتكلف فيما لا حاجه للإنسان إليه من المسألة ووجوب التوقف عما لا علم للمسؤول به»[٢].

«وقال الأوزاعي[٣]: إنَّ الله ﷻ إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم، ألقى على لسانه المغاليط»[٤].

وحاصل الأمر أن إثارة مغاليط المسائل، يدخل في عباءة المراء في الدين؛ لما يفضي إليه من المفاسد؛ ولهذا حذّر سلف الأمة من هذا المسلك، حيث قال ابن مسعود: «إياكم وصعاب القول»[٥].

=الطبعة التاسعة ١٤٢٣هـ.

(١) فيض القدير ٦/ ٣٠١.

(٢) معالم السنن ٥/ ٢٥٠ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي _ ولد عام ٨٨هـ، وتوفي عام ١٥٧هـ _ أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٧، ووفيات الأعيان ٣/ ١٢٧).

(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٤٧.

(٥) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٣/ ١٩٤.

وقال الزهري[١] لمّا سُئل عن مسألة: «نحن نرى أن لا تسألوا عن عويص المشكلات، إذ عافاكم الله أن تنزل بكم»[٢].

وقال الحسن: «شرار عباد الله يتبعون شرار المسائل، يُعّمون بها عباد الله ﷻ»[٣].

٦. عن عائشة رضِي الله عنها، عن النبِيِّ ﷺ قال: «إنَّ أبغض الرّجال إلى الله الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»[٤].

غريب الحديث:

الألدُّ: مأخوذٌ من اللديدين، وهما جانبا الوادي، وصفحتا العنق.

وقيل: هما جانبا كلِّ شيء، والألدُّ: «الشديدُ الخصومة الجَدِل، واشتقاقه مِن لَديدَيِ العنق، وهما صفحتاه، وتأْويله: أَن خَصْمَه أَيَّ وجهٍ أَخَذ من وجوه الخصومة، غلبه في ذلك»[٥].

وهناك وجهٌ آخر ذكره القرطبي شارحاً معنى الألد ونسبته إلى الخصم، قال: «وسمي الْخَصِم بذلك لإعماله لدَيْدَيهِ في الخصومة، وهما جانبا الفم، وقيل: لأنك كلما أخذت في جانب من الحجَّة أخذ جانبًا آخر منها، وعلى هذا: فالألدُّ صفة، فكان حقَّه أن

---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري _ ولد عام ٥٨هـ، وتوفي عام ١٢٤هـ _ تابعي مدني، أحد أكابر الحفاظ ورواة الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦، وصفة الصفوة لابن الجوزي١/ ٤٧٦، تحقيق عبد الرحمن اللادقي، وحياة شيحا اللادقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ).

(٢) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٣/ ٢٠٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٢٣٥.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب الألد الخصم، وهو الدائم في الخصومة، (٧١٨٨)، ومسلم في كتاب العلم، باب في الألد الخصم، (٢٦٦٨).

(٥) لسان العرب ٣/ ٣٩٠.

يكون تابعًا للخصم، فيقول: الخصم الألد، لكنه لما كثر استعماله عومل معاملة الأسماء»[١].

الخصم: هو الجَدِل، وقد تقدّم بيانه[٢].

معنى الحديث:

بيّن النبي ﷺ أنَّ من أبغض الرجال إلى الله ﷻ، من صفته كثرة الخصومة، والشدة فيها، ومعنى الألـــدِّ الخَصِم: هـــو «المولع بالخصومة بحيث تصير الخصومة عادته، فالأول ينبئ عن الشدة، والثاني عن الكثرة»[٣]، وذلك لأنَّ وزن الفعل في قوله "الخصم" على وزن فَعِل، وهو من أوزان صيغ المبالغة[٤].

وهذا من حيث المعنى «يحتمل الشدّة، ويحتمل الكثرة»[٥]، والخصومة المذمومة التي التي يدّل عليه الحديث: هي الخصومة بالباطل، التي تتفق مع المراء من حيث المفهوم والمعنى، وهذا الحديث فيه التحذير من المراء والجدال وشدة الخصومة، والاعتراض على الحق وردّه وتزييفه، حيث يبغض الله ﷻ من اتصـــف بذلك، وجاء تأكيد ذلك من حيث مجيء الجملة اسميةً، وأيضاً أُكّدت بالحرف الناسخ "إنَّ"، ومن خلال ذلك يدرك المتأمل شناعة الخصومة، وهذا من حيث الأصل، فكيف إذا اتصلت الخصومة بما يزيدها سوءً، من الخصومة في مسائل الإيمان وأصول الدين؟.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٨٩.

(٢) ينظر: صفحة: ٦٠.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٧/ ٣٠٣.

(٤) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٣/ ٩٢.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٢٣.

وهذا الـرجل الخَصِمُ الألدُّ: «قد ذمَّه الله تعالى؛ لمدافعته من الحـــق ما يعلمه، وتشهد به نفسه، قـــال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾[1]»[2].

ولقد وضّح أبو العباس القرطبي[3] هذا الحديث، وعواقب من اشتدت بهم المجادلة، ونزع بهم المراء في الدين، إلى أن أتوا بأمور عظيمة، وما وقعوا فيه من لوازم وخيمة، وكيف تفرّع بهم المراء والخصومة، إلى أمورٍ لم يجدوا لها جواباً، وحارت فيها عقولهم؛ لكونهم بحثوا وتكلّفوا علمَ ما ليس بوسعهم، حيث قال: «وهذا الخصم المبغوض عند الله تعالى، هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق، وردَّه بالأوجه الفاسدة، والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين، كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، سلف أمته، إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية، مدار أكثرها على مباحث سوفسطائية، أو مناقشات لفظية، ترد بشبهها على الآخذ فيها شبهٌ ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم، لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلّها! وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها!

(١) سورة البقرة آية (٢٠٤).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ٦/ ٥٨٢.

(٣) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى المالكى _ ولد عام ٥٧٨هـ، وتوفي عام ٦٥٦هـ _ العلامة المحدث، أحد العلماء الكبار، له المصنفات: تلخيص الصحيحين، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. ينظر: (تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٨، وشذرات الذهب ٧/ ٤٧٣).

ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البله، ولا الأطفال، لَمّا بحثوا عن تحيز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلّقات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات أو غيرها، وأن الكلام هل هو متّحدٌ، أو منقسمٌ؟ وإذا كان منقسماً، فهل ينقسم بالأنواع، أو بالأوصاف؟ وكيف تعلّق في الأزل بالمأمور؟ ثم إذا انعدم المأمور، فهل يبقى ذلك التعلّق؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً، هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنها بحثٌ عن كيفية ما لا تعلم كيفيته.

فإن العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات، وكيفية الصفات،؛ ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١)، ولا تبادر بالإنكار فعلَ الأغبياء الأغمار، فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك، مع علمك بوجودها، وعن كيفية إدراكاتك، مع أنك تدرك بها، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز.

وغاية علم العلماء، وإدراك عقول الفضلاء، أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات، منزهٌ عن صفاتها، مقدسٌ عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به.

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه، واعتقدناه، وما لم يتعرضوا له، سكتنا عنه، وتركنا الخوض فيه.

هذه طريقة السلف، وما سواها مهاوٍ وتلف»(١).

وهذا بعض نتائج اللّدد في الخصومة، والمراء في دين الله ﷻ، الذي يستلزم الإعراض عن النصوص والانشغال بالجدليات، وما يُتوهّم من عقليات، وما هي إلا ضرب من الضلال والمحدثات، دعا إليها الجدال والمراء والخصومات.

٧. عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم جدال المنافق، عليم اللسان»(٢).

معنى الحديث:

النبي ﷺ خاف على أمته جدل المنافق في الدين، وإثارة الشك فيه؛ لكونه جمع بين فساد العقيدة، مع علمه بأساليب المنطق والكلام والتشدّق فيه، وهذا المعنى ذكره المناوي بقوله: «أي: عالم للعلم منطلق اللسان به، لكنه جاهل القلب والعمل، فاسد العقيدة، مغرٍ للناس بشقاشقه وتفحصه وتقعره في الكلام»(٣)، وهذا يحصل منه كثيرٌ من المغالطة للحقِّ، وإلقاء الشبه في قلوب من لا علم عنده.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٩٠.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، في كتاب العلم، باب ذكر ما كان يتخوف ﷺ على أمته جدال المنافق، (٨٠)، ١/ ٢٨١، قال المحقق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ٢٢١، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ.

ولمّا قدم الأحنف بن قيس(١) على عمر بن الخطاب ﷺ، وكان الأحنف مفوّها منطيقاً فصيحاً، فخاف عمر ﷺ أن يكون من أولئك المتشدقين المتفيهقين، فحبسه عنده سنةً كاملةً يختبره، ويرى حاله كلَّ يوم وليلة، فلم يرى منه إلا ما يحبُّ، فقال له: أتدري لم حبستك عندي؟ قال: لا، قال: إن رسول الله ﷺ حدثنا...فذكر الحديث، ثم قال: خشيت أن تكون منهم، فالحمد لله يا أحنف(٢).

ومن هنا يتبيّن أنَّ معرفه المتكلم بطرق الكلام وأساليب المنطق والقدرة على تطويع العبارات، حسب ما يريد من المعاني ويتفق معه من الخواطر، كلُّ ذلك لا يدّل على اتصاف المتكلم بعلمٍ موروثٍ عن النبي ﷺ، وعلى هذا لا يُغترُّ بفصاحة المُماريين والمجادلين، وجزالة منطقهم، وقدرتهم على التصرّف بالعبارات، وتزويق المعاني الباطلة، بألفاظ توهمها الصحة، لأنَّ العبرة بالمضمون والمعاني، لا بالحروف والمباني.

٨. عن معاذ بن جبل ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إياكم وثلاثة: زلة عالم، وجدال منافق، ودنيا تقطع أعناقكم، فأما زلة عالم، فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وإن زل، فلا تقطعوا عنه آمالكم، وأما جدال منافق بالقرآن، فإن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فخذوه، وما أنكرتم فردوه إلى عالمه، وأما دنيا تقطع أعناقكم،

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي _ ولد عام ٣هـ، وتوفي عام ٧٢هـ _ الأمير الكبير، العالم النبيل، أبو بحر التميمي، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل، من سادات التابعين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٧٢، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٩٩).

(٢) ينظر: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، للحسيني ١/ ٤٢ تحقيق سيف الدين الكاتب، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠١هـ، وتاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٣١١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٨٨ .

فمن جعل الله في قلبه الغنى، فهو الغني»[١].

معنى الحديث:

والشاهد منه، كما سبق في الحديث المتقدّم، وهو جدال المنافق بالقرآن الكريم، والقرآن الكريم حمّال وجوه، وقد سمع أنس بن مالك ﷺ أحد أبنائه يخاصم رجلاً، فقال: «لا تخاصم بالقرآن، وخاصم بالسنة»[٢]؛ لأن السنة تفسر القرآن، وأولئك المجادلون بالقرآن، يقتنصون منه ما يلوون معناه إلى يوافق أهوائهم، وفي السنة ما يردُّ ذلك، ولهذا من يقع في الجدال والمراء غالباً هم أجهل الناس بالسنّة، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا»[٣].

وضرب بعض الآيات ببعض، واتباع المتشابه منه، وإغفال محكمه، وحمله على غير تأويله، هذا كلُّه قد وقع في الأمة، ولهذا لمّا كان صبيغ بن عسل زمن عمر بن الخطاب ﷺ يضرب بعض الآيات ببعض، ويأخذ بمتشابه القرآن، أدبه عمر أدباً بليغا ردعه عما كان يتعاطاه من القرآن من هذا الجدال[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٨٧١٥)، ٨/ ٣٠٧، وفي سنده عمرو بن مرة،لم يسمع من معاذ، وكذلك في سنده: عبد الله بن صالح كاتب الليث وثقه عبد الملك بن شعيب بن الليث ويحيى في رواية عنه، وضعفه أحمد وجماعة. ينظر: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/ ٤٤٤)، وأخرجه وكيعٌ في الزهد، عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن معاذ، وهذا -والله أعلم- هو الأصح أنه موقوف على معاذ بن جبل. ينظر: (الزهد، لوكيع، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٨/ ٤٣٨ موقوفاً على معاذ، من طريق وكيع عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن معاذ.

(٢) ينظر: كتاب ذم الكلام وأهله ٢/ ٢٥.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٢٣.

(٤) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٦٣٥.

٩. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُمار أخاك ولا تُمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه»[١].

معنى الحديث:

تضمّن هذا الحديث النهيَ عن مُماراة المسلم، حفاظاً على أُخوة الإسلام، ودفعاً لعواقبها، وهذا النهي على عمومه في كلِّ مراء، فكيف إذا كان المراء يتعلّق بالدين ومسائل الإيمان وقضايا الاعتقاد، والجرأة بالخوض في نصوص الشريعة، والمُماحلة فيها، والتماس المتشابهات، وصرف ما تقتضيه ظواهر النصوص إلى معاني مُحدثة؟ لا ريب أن النهي حينئذٍ أشدُّ، لما يترتب عليه من المفاسد العظيمة، فمن الصفا ت المحمودة في المسلم، ترك المراء والمخاصمة مطلقاً[٢].

١٠. عن السَّائب رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، فجعلوا يثنون عليَّ ويذكروني فقال رسول الله ﷺ: «أنا أعلمكم»، يعنى به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمِّي، كنت شريكي فنعم الشَّريكُ، كنت لا تداري ولا تماري[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب البرِّ والصلة، باب ما جاء في المراء، (١٩٩٥)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب لا تعد أخاك شيئاً فتخلفه، (٣٩٤)، تحقيق الشيخ محمد الألباني، وضعفه، دار الصديق، الجبيل، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، وضعف سنده ابن حجر، ينظر: (بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص ٥٠٠، تحقيق طارق ابن عوض الله، دار ابن حزم، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ)، وقال الجزري: إسناده جيد. ينظر. (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/ ١٠٦).

(٢) ينظر: عون المعبود ١٣/ ٢٤٣.

(٣) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب، باب في كراهية المراء، (٤٨٣٦)، وأخرجه ابن ماجه في أبواب التجارات، باب الشركة والمضاربة، (٢٢٨٧)، ص٣٢٧، قال ابن الملقن: هذا حديث صحيح الإسناد، ينظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث الواقعة في الشرح الكبير لابن الملقن ٦/ ٧٢٤، تحقيق مجدي بن السيد، ومحيي الدين بن جمال الدين، وعبد الله بن سليمان، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

معنى الحديث:

في هذا الحديث يصف النبيُّ ﷺ السائبَ رضي الله عنه «بحسن الخلق والسهولة في المعاملة»[(١)]، ومن ذلك عدم المماراة والمخاصمة، وهذا الحديث يدل أنَّ المُماراة ليست من الأخلاق الكريمة، وهذا من حيث العموم، ويشتدُّ شأن ذلك إذا كان المراء فيما يحرم.

١١. عن جندب بن عبد الله البجليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا»[(٢)].

معنى الحديث:

هذا الحديث في النهي عن وسيلة من الوسائل التي تفضي إلى المراء، وهو الاختلاف في القرآن الكر يم، حتى لا تكون قراءة القرآن سبباً للجدال والخصومات، وإذا وقع الخلاف بسببها، تعيّن الأمر بالقيام والفرقة، لئلا يفضي ذلك إلى الخصام والمراء، والوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا الاختلاف في القرآن الكريم الحامل على المراء، هو من الاختلاف الذي لا يجوز، وهو بدوره يؤدي إلى المراء والجدال وضرب بعض الآيات ببعض؛ «لأن الاختلاف يؤدي إلى الجدال، والجدال يؤدي إلى الجحد وتلبيس الحق بالباطل»[(٣)].

وقد جاء عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض،

---

(١) معالم السنن ٧/ ١٨٨.

(٢) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي، أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب كراهية الاختلاف، (٧٣٦٥)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعه، والنهي الاختلاف في القرآن، (٢٦٦٧).

(٣) فيض القدير ٢/ ٦٣.

فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم»[١]، وهذا الشك من أسبابه المراء الذي دافعه حبُّ الغلبة وعلوِّ النفس، وهذا كلُّه سبيلٌ إلى الفرقة والاختلاف، فيما هو سبب الألفة والوفاق، وهذا الحديث «فيه الحض على الألفة والتحذير من الفرقة في الدين، فكأنه قال: اقرءوا القرآن والزموا الائتلاف على ما دل عليه، وقاد إليه، فإذا اختلفتم فقوموا عنه، أيْ: فإذا عرض عارضُ شبهةٍ، توجب المنازعة الداعية إلى الفرقة، فقوموا عنه: أي فاتركوا تلك الشبهة الداعية إلى الفرقة، وارجعوا إلى المحكم الموجب للألفة، وقوموا للاختلاف وعما أدى إليه»[٢].

١٢. عن أبي هريرة ﵁ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى أحمرَّ وجهُه، حتى كأنَّما فقىء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم، ألا تتنازعوا فيه»[٣].

غريب الحديث:

نتنازع: نتخاصم[٤].

فقئ: الفَقْءُ الشَّقُّ والبَخْصُ[٥].

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم ٩/ ٢١٦، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ١٠/ ٢٨٥.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، (٢١٣٣)، وأبو يعلي في مسنده،(١٣٢١)، ٥/ ٤٢٩، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، والإمام أحمد من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، (٦٦٦٨)، ١١/ ٢٥٠، وقال الألباني: صحيح لغيره، ينظر: (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٣٣).

(٤) مختار الصحاح، ص ٥٦٣.

(٥) لسان العرب ١/ ١٢٣.

وجنتيه: مفرد وجنة وهي: «الوجنةُ ما ارتفع من الخَدَّين للشِّدق»(١).

معنى الحديث:

في هذا الحديث بيان أنَّ بعض الصحابة جرت بينهم خصومة في شأن القدر، فلمّا سمع النبيُّ ﷺ كلامهم، غضب كأشدّ الغضب، إلى أن احمرَّ وجهه، كأنّما عُصِرَ على خديْه حبُّ الرمان، ممّا سمع من التنازع فيما لا يجوز فيه التنازع والخلاف، وهذا الغضب من النبي ﷺ إذا تأملنا سببه، وجدناه أنَّه «إنما غضب؛ لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، وطلب سرّه منهيٌّ، ولأنَّ من يبحث فيه لا يأمن من أن يصير قدرياً أو جبرياً، والعباد مأمورون بقبول ما أمرهم الشرع، من غير أن يطلبوا سرَّ ما لا يجوز طلب سرِّه»(٢)، حتى قال النبي ﷺ مستفهماً على وجه الإنكار: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟».

ثمَّ بيّن النبي ﷺ أن سبب من هلك من الأمم الماضية بتنازعهم فيما يحرم فيه التنازع من أصول الدين ومسائل الإيمان، ومن ذلك القدر.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر»، وهذا يدلّنا على أنَّ الخصومة والخلاف في مسائل الإيمان سببٌ لحصول العذاب، بل وفي تعجيله، ومفهوم الحصر في الحديث «يدلُّ على أن غضب الله وإهلاكهم، كان من غير إمهال، ففيه زيادة وعيد»(٣).

ولأجل هذه المفاسد العظيمة قال النبي ﷺ محذّراً: «عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه»، فهذه عزمةٌ منه ﷺ على أمته، ألا يتنازعوا ويتخاصموا في دينهم، ولما خالف بعض هذه الأمة هذا الأمر منه ﷺ بالكفِّ عن النزاع في مسائل الإيمان وما يتعلّق بالعقيدة،

---

(١) لسان العرب ١٣/ ٤٤٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للحافظ محمد عبد الرحمن المباركفوري ٦/ ٣٣٥، تحقيق علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ.

(٣) مرقاة المفاتيح ١/ ٢٧٧.

ووقعوا في المراء في الدين، تفرّقت بهم المذاهب، وتفرّعت بهم المسالك، واشتبهت عليهم السبُل، واختلفت قلوبهم، وحادوا عن الطريق المنهج، لمّا فعلوا ذلك كله، استحقّوا العقوبة بما أوعدهم الله ﷻ عليه بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)، ومن هنا يُعلم أنَّ المراء في مسائل العقيدة، هو ممّا نهى عنه النبي أشدَّ النهي، الذي يؤكّده قوله ﷺ: «عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»، مع ما اقترن بذلك من حال النبي ﷺ من الغضب الشديد، إنكاراً لذلك، وهذا -والله أعلم- درءً لعواقب المراء الوخيمة على الأمة، وحفظاً لها من مغبّة الفرقة.

ولذلك لمّا حصلت الخصومة في الاعتقاد، والمراء في الدين، وقع في الأمة، ما لا يعلم عواقبه ونهاياته إلا الله ﷻ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -في بيان بعض آثار ترك ما نهى عنه النبيُّ ﷺ من المراء والتنازع في الدين-: «ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضْرب ٱلآيات بعضَها ببعض: إنَّا قد نُهينا عن هذا. أهـ.

فمن دفع نصوصا يَحْتَجُّ بِها غيره لم يؤمن بِها، بل آمَنَ بما يَحْتَجُّ، صار ممّن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وهذا حال أهل الأهواء، هم مُختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متَّفقُون على مُخالفة الكتَاب، وقد تركوا كلُّهُم بعض النُّصوص، وهو ما يجمعُ تلك الأقوال، فصاروا كما قال الله عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢)، فإذا ترك النَّاس بعضَ ما أنزل الله، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، إذ لم يبقَ هنا حقٌّ جامعٌ يشتركون فيه بل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا

(١) سورة النور آية (٦٣).

(٢) سورة المائدة آية (١٤).

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

« وقد كان رسول الله ﷺ يتخوف ما أشبه هذا، على أمته، ويحذرها إياهم، ثم الصحابة بعده والتابعون، مخافةَ أن يتكلموا في الله، وفي القرآن بأهوائهم، فيضلوا ويتماروا به على جهل، فيكفروا»[(٣)]، وهذا الحديث يشبه في معناه الحديث التالي.

١٣. عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصواتَ رجلين اختلفا في آيةٍ، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرَفُ فى وجهه الغضب، فقال: «إنَما هلك من كان قبلكم باختلافهم فِي الكتاب»[(٤)].

غريب الحديث:

هجّرت: مأخوذٌ من الهاجرة وهي: «نصف النهار عند زوال الشمس إِلى العصر»[(٥)].

معنى الحديث:

وهذا الحديث فيه بيان أنَّ الخصومة في القرآن الكريم محرّمةٌ، لغضب النبي ﷺ، وهو لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله ﷻ، واختلاف الرجلين في آية، يحتمل أن ذلك الاختلاف في شيء من المتشابه لم يردَّ إلى المحكم، أو أنه من قبيل الخصومة، أو أنه أوقع شكّاً، وتنافراً للقلوب، وكلُّ هذا وارد ومحتمل.

---

(١) سورة المؤمنون آية (٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٢٦.

(٣) الرد على الجهمية، للدارمي، ص ٤٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (٢٦٦٦).

(٥) لسان العرب ٥/ ٢٥٠.

وهلاك الأمم الماضية، هو هلاكهم في الدين، حيث اختلفوا في كتبهم حتى أورثهم ذلك الكفر بها، وإحداث البدع، كما ذكر الله عن بني إسرائيل: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[١]، فالاختلاف في الوحي والنصوص الشرعية، مفضٍ إلى تعطيل وترك ما تدّل عليه، وإذا كان الأمر كذلك، استُعِيض عنها بالعقليات، التي هي بابٌ إلى الضلالات، وهذا ما حصل للطوائف المتسبة إلى القبلة[٢].

١٤. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ محمرّاً وجهه، ونحن نتمارى في آية من القرآن، فقال: «ما هذا الذي كنتم فيه؟» قلنا: آية من القرآن، تمارينا فيها، قــال: «لا تماروا في القرآن فإن المراء في القرآن كفر»[٣].

معنى الحديث:

وهذا الحديث كما مضى في الذي قبله، من نكير النبي ﷺ ونهيه عن الجدال والمراء والتنازع في الدين، وأعظم ما يكون من ذلك القرآن الكريم، فإن المراء فيه كفرٌ.

وقد اختلف الشرّاح لهذا الحديث في معنى المراء في القرآن الكريم، فقال البغوي: «واختلفوا في تأويله، فقيل: معنى المراء: الشك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[٤]، أي: في شك.

---

(١) سورة الجاثية آية (١٧).

(٢) ينظر: شرح مسلم للنووي ١٦/ ٤٣٥، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية عشر ١٤٢٧هـ.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، (٣٩٦١)، ٤/١٩٧، وابن أبي شيبة في مصنفه، (٣٠٦٦٩)، ١٠/ ٢٥٥، والإمام أحمد في مسنده، (١٧٨١٩)، ٢٩/ ٣٥٣، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٩٠: رجاله موثقون، وكذلك صححه الألباني. ينظر: سلسة الأحاديث الصحيحة، (١٥٢٢)، ٤/ ٢٦، نشر مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.

(٤) سورة هود آية (١٧).

وقيل: المراء: هو الجدال المشكك، وذلك أنه إذا جادل فيه، أداه إلى أن يرتاب في الآي المتشابهة منه، فيؤديه ذلك إلى الجحود، فسماه كفراً باسم ما يؤول إليه من عاقبته إلا من عصمه الله ﷻ.

وتأوله بعضهم على المراء في قراءته، وهو أن ينكر بعض القراءات المروية، وقد أنزل الله القرآن على سبعة أحرف، فتوعدهم بالكفر، لينتهوا عن المراء فيها، والتكذيب بها، إذ كلها قرآن منزل يجب الإيمان به...وقيل: إنما جاء هذا في الجدال بالقرآن من الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد، وما كان في معناهما على مذهب أهل الكلام والجدل»[(١)]، وأيّاً ما كان الأمر، فهذه المعاني في تأويل معنى المراء في القرآن الكريم، كلها صحيحة، ولا يجوز تعاطي المراء في القرآن عليها، لأن عاقبة ذلك الكفر بالقرآن الكريم.

١٥. عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(٢)].

معنى الحديث:

في هذا الحديث يقرّر النبي ﷺ قاعدةً عظيمةً من قواعد الدين، وهي: التسليم والإذعان، والقبول والإيمان لكلِّ ما جاء في الشرع؛ لأن الأصل في ذلك، هو التعبّد لله ﷻ، وهذا هو الشاهد من الحديث: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يكره المسائل ويعيبها، وجاء في القرآن

(١) شرح السنة للبغوي ١/ ٢٦١، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، (٧٢٨٨)، ومسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، (١٣٣٧).

النهي عنها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾(١)، وذلكم أن الشريعة أنزلها الله ﷻ ليعمل بها، لا ليجادل فيها، فإذا كانت «همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي، إلى فرض أمور قد تقع، وقد لا تقع، فإن هذا مما يدخل في النهي، ويثبط عن الجدِّ في متابعة الأمر، وقد سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال له: «رأيت النبي ﷺ يستلمه ويقبله، فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عليه؟ أرأيت إن زحمت؟ فقال له ابن عمر: اجعل "أرأيت" باليمن، رأيت النبي ﷺ يستلـمه ويقبله»(٢)، «ومراد ابن عمر: أنه لا يكن لك همٌّ إلا في الاقتداء بالنبي ﷺ، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسّره قبل وقوعه، فإنه قد يفتر العزم على التصميم على المتابعة، فإن التفقه في الدين، والسؤال عن العلم إنما يحمد إذا كان للعمل، لا للمراء والجدال»(٣)، وكثرة المراء في الدين، وتشقيق المسائل بالجدل، مَصرَفةٌ عن العمل.

وفي هذا الحديث أرشد النبيُّ ﷺ -لمّا أمر بترك الاختلاف عليه، حيث كان ذلك سببَ هلاك الأمم- أرشد إلى صرف الهمم إلى تعاطي ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ففي ذلك شُغُلٌ عن كلِّ شاغل، وكان الإمام مالك «يعيب كثرة الكلام وكثرة الفتيا، ثم قال: يتكلم كأنه جمل مغتلم، يقول: هو كذا هو كذا يهدر في كلامه...وكان مالك يكره المجادلة عن السنن أيضا...وقيل لمالك: يا أبا عبد الله، الرجل يكون عالما بالسنن يجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبل منه، وإلا سكت»(٤).

(١) سورة المائدة آية (١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب تقبيل الحجر، (١٦١١).

(٣) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٤٤.

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٢٤٧.

القسم الثاني: أحاديث عامّة، يدخل فيها النهي عن المراء.

١. أبي شريح الخزاعي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»[(١)].

معنى الحديث:

الشاهد منه قوله عليه الصلاة والسلام:«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت».

ومعنى ذلك: «أن المرء إذا أراد أن يتكلم، فليفكّر قبل كلامه، فإن علم أنه لا يترتب عليه مفسدة ولا يجرُّ إلى محرم ولا مكروه فليتكلم، وإن كان مباحاً فالسلامة في السكوت لئلا يجرَّ المباح إلى المحرم والمكروه»[(٢)]، هذا والمراء في الدين ليس من قول الخير، بل وليس من المباح، فيلزم أن يكون من المحرّم؛ لما يفضي إليه، فمن خالط الإيمان بشاشةَ قلبه فليتركه، لأن المسلم «إما أن يتكلَّم بما يحصل له ثوابًا وخيرًا فيغنم، أو يسكت عن شيء يجلب له عقابًا وشرًّا فيسلم»[(٣)]، ومن أكثر ما يجلب الشرَّ المراء والخصومة، هذا من حيث العموم، فكيف إذا انضاف إلى ذلك كونه في الدين، ومسائل الإيمان؟ وعلى هذا تضمّن الحديث النهي عن المراء في الدين من حيث العموم.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي شريح، أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، وقول الله تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، (٦١٣٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان، (٤٨).

(٢) فتح الباري ١٠/ ٦٥٤.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥/ ٢٠٠.

٢. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(١)].

معنى الحديث:

هذا الحديث العظيم، أصل من أصول الإسلام، إذ انطوى تحت مبانيه، جملة كبيرة من أحكام الشرع، فمن كمال إسلام المرء، أن يترك الاشتغال بما لا تتعلق به عنايته، من الأقوال والأفعال، قال عمر بن عبد العزيز: «من عدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه»[(٢)]، ولا ريب أنَّ مما لا يعني هو المراء، ولا سيما إذا كان ممّا يتعلّق بالدين، فالاهتمام بما يعني من العلم والعمل، وترك ما لا يعني من المراء والخصومات في الدين، ذلك من حسن الإسلام[(٣)].

٣. عن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسـول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء من تكلم بالكلمة ليضحك الناس، من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة، (٢٣١٧)، وأخرجه أيضاً مرسلا من طريق علي بن الحسين، (٢٣١٨)، قال الترمذي: وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة، وأخرجه ابن ماجه في أبواب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، (٣٩٦٧)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق علي بن الحسين عن أبيه، (١٧٣٧)، ٣/ ٢٥٦، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: حسن لشواهده.

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم ١/ ٢٩٠.

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن رجب ١/ ١٤١.

﴿ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)، فقال: «فإذا رأيتم الَّذين يَتَّبِعُونَ ما تشابَهَ منه، فأُولئكَ الذين سمَّى الله فاحذَرُوهم»(٢).

معنى الحديث:

قال ابن حجر -مبيّناً خطر اتباع المتشابه-: «والمراد التحذير من الإصغاء إلى الذين يتبعون المتشابه من القرآن، وأول ما ظهر ذلك من اليهود...وقال الخطابي: المتشابه على ضربين: أحدهما ما إذا رُدَّ إلى المحكم واُعتبر به عرف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه فيفتنون »(٣)، وهذا ما سلكه المُمارون في الدين، فهم يطلبون ما لا علم لهم به، ولا تبلغه عقولهم، بتشقيق الأسئلة والاعتراضات وتطويل الكلام، فيما لا طائل تحته، حتى يصلوا إلى حال من القول، لا يُظنَّ أن يصدرَ من مسلم! قال سفيان بن عيينة(٤): «سمعت من جابر الجعفي(٥) كلاماً خشيت أن يقع عليَّ وعليه البيت»(٦).

---

(١) سورة آل عمران آية (٧).

(٢) متفق عليه من حديث عائشة ﵂، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، بابٌ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، (٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (٢٦٦٥).

(٣) فتح الباري ٨/ ٢٦٦.

(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي _ ولد عام ١٠٧هـ، وتوفي عام ١٩٨هـ _ الإمام الكبير الحافظ، شيخ الإسلام. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٥، وطبقات المفسرين للأدنروي ص ٢٣).

(٥) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي _ توفي عام ١٢٨هـ - متشيّعٌ، رُمي بالكذب وعقيدة الإيمان بالرجعة. ينظر: (تهذيب الكمال ٤/ ٤٦٥، تحقيق د بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤١٥هـ، والأعلام ٢/ ١٠٥).

(٦) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٧.

وغاية ما عندهم تقفّرهُم للمتشابه، والخوض فيما لا علم لهم به، وهم مع ذلك يعرضون عمّا ظهر علمه من المحكم، ولا يردّون ما أشكل عليهم إليه، ومن هنا ظهرت الأهواء والفرق، كلُّ طائفة تلعن أختها، وكلُّ فرقة تكفّر الأخرى.

٤. عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»[١].

معنى الحديث:

قال ابن بطال[٢]: «ما أحق من علم أن عليه حفظةً موكلين به، يحصون عليه سقط كلامه وعثرات لسانه، أن يخزنه ويقل كلامه فيما لا يعنيه، وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندمه من قول الزور، والخوض في الباطل، وأن يجاهد نفسه في ذلك ويستعين بالله ويستعيذ من شر لسانه»[٣]، وهذا كلام نفيس في الزجر عن المراء والخصومة، ولا سيّما في الدين، حذراً من مغبّة عواقبها.

٥. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٦٤٧٤).

(٢) علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال _ توفي عام ٤٤٩هـ _ من أهل قرطبة، عالم بالحديث، له من المصنفات: شرح صحيح البخاري. ينظر: (شذرات الذهب ٥/ ٢١٤، والأعلام ٣/ ٢٨٢).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ١٠/ ١٨٥.

النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[(١)] حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروته وسنامه؟» ، قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: «كف عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »[(٣)].

معنى الحديث:

الشاهد منه: قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» ، ومن ذلك القول على الله ﷻ بلا علم، ومن أسبابه: المراء والجدال والخصومات، كما وقع لطوائف من أهل القبلة، ومثال ذلك ما قاله الشافعي عمنْ ناظره من أهل الأهواء، أنّه تفوّه بأمر عظيم لا يصدر من مسلم، وأمثلة ذلك كثيرة[(٤)].

ومعنى: حصائد ألسنتهم: «أي: محصوداتها شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع، ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس، يتكلم بكل نوع من الكلام

---

(١) سورة السجدة آية (١٦).

(٢) سورة السجدة آية (١٧).

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (٢٦١٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في أبواب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، (٣٩٧٣)، وأخرجه الإمام أحمد في مسند معاذ بن جبل ﵁، (٢٢٠١٦)، ٣٦/ ٣٤٥، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٤) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٢٧٨، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٠.

حسناً وقبيحاً»[١]، ومن فروع الكلام القبيح، المراء في الدين، ويشبه هذا الحديث، الحديث الأخر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق»[٢]، والأحاديث في الأمر بحفظ اللسان كثيرة، وليس هذا موضع ذكرها، ومن ذلك الحديث العظيم، «إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[٣]، وممّا يتعيّن فيه حفظ اللسان، والحذر منه: المراء في الدين وإشاعة الخصومة بين المسلمين، وكم فُتح على المسلمين بذلك من أبواب الشرِّ، لا يعلم عاقبتها إلا الله ﷻ.

---

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٦٤٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب حفظ اللسان، (٢٩٨٨).

المبحث الثالث: جهود السلف في التحذير من المراء في الدين.

بعد أن تقرر بيان التحذير من المراء في الدين، من مشكاة النبوة، سواء أكان من القرآن الكريم، أو من السنّة النبوية، فقد كان للسلف -رحمهم الله- إثرَ ذلك، جهودٌ عظيمةٌ وآثارٌ كريمة، في التحذير من المراء في الدين، والزجر عنه وبيان خطره على الأمة، وسوء مغبّته على الناس، آخذين ذلك ممّا فهموه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا الصنيع المبارك منذ القرون المفضلة، بدءً من الصحابة ﷺ ثمَّ التابعين وتابعي التابعين، ومن جاء بعدهم مقتفياً أثرهم، ومتبعاً طريقهم بإحسان، من العلماء الربانيين والولاة الصالحين، على مرِّ العصور والسنيين.

ولقد كان لأهل السنة والجماعة في ذلك القدح المعلّى والنصيب الأوفى، وحازوا قصب السبق الذي لا يُدرك شأوه، في التحذير من المراء في الدين والخصومة في الشرع، والجدال بالباطل؛ لإدحاض الحقِّ، حيث قطعوا على أهل البدع والمحدثات طريقهم بالجدال والمراء والخصومات، وألزموهم المحجّة الواضحة بالتسليم المطلق لما يدل عليه القرآن الكريم والسنة من العقائد المحكمة، من غير خوض بالباطل، ولا جدال بالهوى، ولا مراء في الحقِّ بعد ما تبيّن، ولا تطويل للكلام وتشقيقٍ للقول، بل يتكلمون بما تدّل عليه النصوص، ويشرحون معانيها ولا يتعدّون ذلك إلى ما سواه، ولا يتكلّفون علمَ ما لم يرد ذكره في الكتاب والسنة، وهم في ذلك -ولله الحمد- مقتدين بسنّة النبي ﷺ، وسائرون على ما سار عليه الصحابة في ذلك، على صراطٍ مستقيمٍ، منهجٍ قويمٍ.

وقد بيّن شيخ الإسلام طريقة السلف في هذا الباب، حيث قال: «بل بلغ من مبالغتهم في السكوت عن هذا: أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كفِّه، تارة بالقول العنيف، وتارة بالضرب، وتارة بالإعراض الدّال على شدّة الكراهة

لمسألته»[١]؛ وذلك «أن ترك الخصومة والجدال هو طريق من مضى ، ولم يكونوا أصحاب خصومة ولا جدال ، ولكنهم كانوا أصحاب تسليم وعمل»[٢].

وفي طيِّ المؤلفات وبطون المصنفات من ذلك -في كتب العقائد وغيرها- ما هو شاهدٌ على تعظيم أهل السنة والجماعة لنصوص الوحيين، والوقوف عندها وعدم الخوض فيها بالباطل، إذ حفلت كتبهم -ولا سيما ما يتعلق بالاعتقاد- بالتحذير من المراء في الدين، وبيان شناعة الخصومات في العقائد.

وإنَّ من أصول أهل السنّة والجماعة في العقيدة: **ترك المراء في الدين، وتجنّب الخصومات والجدال فيه**[٣]، وذلك منثور في تواليفهم المباركة، ومصنفاتهم التي سارت مسير الشمس، كما هو مأثورٌ أيضاً من أقولهم المسدّدة، وعباراتهم الموفّقة، ومن ذلك قول الإمام أحمد إمام أهل السنة: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين لقول الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٤]، يعني: يجادل فيها تكذيباً بها»[٥].

---

(١) نقض المنطق، ص ٢.

(٢) كتاب السنة، لأبي بكر الخلال، ٤/ ٢٢، تحقيق عطية بن عتيق الزهراني، دار الراية، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

(٣) ينظر: عقيدة السلف لابن أبي زيد القيرواني، ص ٦١، تقديم الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٤) سورة غافر آية (٤).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٧٦.

وقال الإمام الإسماعيلي[١]: «ويرون ترك الخصومات والمراء في القرآن وغيره»[٢].

والمأثور من ذلك عن السلف كثير، والمقصود هو بيان ما تقرر من عقيدتهم -رحمهم الله- من ترك المراء في الدين.

وفي بيان جهود السلف -رحمهم الله- في تقرير هذا المنهج المبارك، من التحذير من المراء في الدين، يمكن تقسيمه إلى قسمين:

أوّلاً: جهود الصحابة ﭫ.

الثاني: جهود التابعين وعلماء أهل السنة والجماعة في مختلف العصور.

ومن الإيجاز إلى التفصيل:

القسم الأوّل: جهود الصحابة.

من ذلك أن الأحنف بن قيس -رحمه الله- كان فصيحاً مفوّها منطيقاً صاحب بلاغة وحكمة وإجادةٍ للكلام، وفد على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﭬ فحبسه عنده سنةً، قال الأحنف: فحبسني عمر عنده سنة يأتيني في كل يوم وليلة، فلا يأتيه عني إلا ما يحب، ثم دعاني فقال: يا أحنف هل تدري لم حبستك عندي؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين،

(١) هو الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي الشافعي _ ولد عام ٢٧٧هـ، وتوفي عام ٣٧١هـ _ إمام حافظ محدث فقيه. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٩٣، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٧).

(٢) اعتقاد أهل السنة، ص٥٠، تحقيق د جمال عزون، مكتبة المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

قال: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق عليم، وإنا كنا نتحدث: إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم، فخشيت أن تكون منهم، فاحمد الله يا أحنف.

وأيضاً قال له عمر ﷺ: قد بلوتك وخبرتك، فرأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك[١].

وهذا الصنيع من عمر بن الخطاب ﷺ بالأحنف بن قيس، يدّل على التوقّي العظيم والحذر البالغ، عند الصحابة ﷺ من ظهور بوادر المراء في الدين؛ لأن المنافق العليم قد أُوتي من المنطق والعلم بطرائق الكلام والإقناع، ما يستطيع أن يلبس على الناس دينهم، من واقع الخوض في المتشابهات، والتشكيك بكثرة الجدل والخصومات، ومن أجل هذا حبس الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ الأحنف بن قيس حتّى يتبيّن له أمره.

وأيضا من مواقف عمر بن الخطاب المسدّدة بهذا الصدد، أنه لما قدم المدينة النبوية رجل يدعى صبيغ[٢]، وكان من شأنه أنه كان يسأل عن متشابه القرآن الكريم، ويتكلم في أشياء لم يسبقه فيها أحد، وقد كان عمر ﷺ حُدّثَ عنه وشأنه فقال: «اللهم أمكنّي منه»[٣]، ثمَّ «جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن:

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٨٨، وتاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٣٠٩.

(٢) صبيغ بن شريك من بني عسل التميمي، وفد على معاوية، ولم يزل بشرٍّ بعد جلد عمر، حتى قتل في بعض الفتن، وهو الذي كان يتتبع مشكل القرآن. ينظر: (تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ٤٠٨، والأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة للخطيب البغدادي، ص ١٨٠، تحقيق عز الدين علي السيد، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ).

(٣) ينظر: فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٤٤٦، تحقيق د وصي الله بن محمد عباس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾[١]، قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾[٢]، قال: هي السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾[٣]، قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾[٤]، قال: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: ثم أمر به فضرب مائة، وجعله في بيت، فلما برأ دعا به، فضربه مائة أخرى، وحمله على قتب، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى، فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر ما أخاله إلا قد صدق، فخلِّ بينه وبين مجالسته الناس»[٥].

وجاء أنَّ عمر ؓ ضربه بجريد النخل الرطب، حتى سالت منه الدماء، ثم تركه حتى برأ، فعاود عليه الضرب، ثم تركه حتى برأ، ثم دعاه ليضربه الثالثة، «فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا، وإن كنت تريد إن تداويني، فقد -والله- برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن لا يجالسه أحد من المسلمين،

(١) سورة الذاريات آية (١).
(٢) سورة الذاريات آية (٢).
(٣) سورة الذاريات آية (٤).
(٤) سورة الذاريات آية (٣).
(٥) البحر الزخار ١/ ٤٢٤، للحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو البزار.

فاشتدَّ ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر إن يأذن للناس بمجالسته»[١].

ولا ريب ما في هذا العمل من عمر ﷺ من قطع كل صوت يخرج على الناس بالخصومات والجدال في الدين، وتأديب صاحبه بالأدب الوجيع، ليكون لمن خلفه آية.

ولكن قد يأتي من يستشكل صنيع عمر ﷺ بصبيغ، لمّا سأله عن معاني آيات من كتاب الله ﷻ، أحب أن يعلم تأويلها، فكيف قابله بالضرب والنفي والهجر والتشهير؟ والجواب على هذا أن يقال: « إن الناس كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ في حياته، ويفدون إلى خلفائه بعد وفاته -رحمهم الله- ليتفقهوا في دينهم، ويزدادوا بصيرة في إيمانهم، ويتعلموا علم الفرائض التي فرضها الله عليهم، فلما بلغ عمر ﷺ قدوم هذا الرجل المدينة، وعرف أنه سأل عن متشابه القرآن، وعن غير ما يلزمه طلبه مما لا يضره جهله، ولا يعود عليه نفعه، وإنما كان الواجب عليه حين وفد على إمامه أن يشتغل بعلم الفرائض والواجبات والتفقه في الدين من الحلال والحرام، فلما بلغ عمر ﷺ أن مسائله غير هذا، علم من قبل أن يلقاه أنه رجل بطّال القلب، خالي الهمة عمّا افترضه الله عليه، مصروف العناية إلى ما لا ينفعه، فلم يأمن أن يشتغل بمتشابه القرآن، والتنقير عما لا يهتدي إلى فهمه، فيزغ قلبه فيهلك، فأراد عمر ﷺ أن يكسره عن ذلك، ويذلّه، ويشغله عن المعاودة إلى مثل ذلك»[٢].

وقال عمر ﷺ:«أما إن الزمان ينهدم بزلة عالم، وجـــدال منافق، أو أئمة

(١) أخرجه الدارمي، في باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع، (١٥٠)، ١/ ٢٥٤.

(٢) الإبانة الكبرى ١/ ٢٨٠.

مضلين»[١].

وقال أيضاً ﷺ: «سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[٢].

وقال أيضاً ﷺ: « يأيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردُّ أمر رسول الله ﷺ برأيي اجتهاداً -فوالله- ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب بين رسول الله ﷺ وأهل مكة»[٣].

وقال ﷺ: «اتقوا الله في دينكم، قال سحنون[٤]: يعني الانتهاء عن الجدال فيه»[٥].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «إياكم والخصومة فإنها تمحق الدين»[٦].

و لمّا خرجت بوادر الزنادقة في زمنه ﷺ وظهرت الطائفة السبئية [٧]، وقالوا فيه قولا عظيماً، وادّعوا فيه ما لا يكون إلا لله ﷻ، أضرم النار وحرّقهم[٨].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٩٦.

(٢) أخرجه الدرامي باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب، (١٢١)، ١/ ٢٤٠.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٨٢)، ١/ ٧٢، والبزار في مسنده، (١٤٨)، ١/ ٢٥٣.

(٤) عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون _ ولد عام ٢٠٢هـ، وتوفي عام ٢٥٦هـ _ فقيه مالكي مناظر. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٣، والبداية والنهاية ١٤/ ٣٧٤).

(٥) الاعتصام ٢/ ٤٢٤.

(٦) شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٣.

(٧) هم أتباع عبد الله بن سبأ، الذي قال لعلي بن أبي طالب: أنت أنت، يعني الإله، ومن عقائدهم أن عليا لم يمت، وأنه خاتم الأوصياء. ينظر: (الملل والنحل، ص ٢٠٤، والتبصير في الدين، ص ١٢٣).

(٨) البدء والتاريخ، للمطهر المقدسي ٥/ ١٢٤، اعتنى بنشره كلمان هوار، دار صادر، سنة الطبع ١٨٩٩م.

وقتل عليٍّ رضي الله عنه لأولئك الزنادقة تحريقاً بالنار، يعكس شدّة الموقف وصرامته، في محاربة المراء في الدين.

وممّا يبيّن شدة خوف الصحابة رضي الله عنهم من المراء بمعارضة قول النبي ﷺ، وتقديم غيره عليه، موقف عمران بن حصين رضي الله عنه، لمّا نقل قول النبي ﷺ في الحياء، حيث حدّث قائلاً: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله» ، قال: أو قال: «الحياء كله خير» ، فقال رجلٌ: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينةً ووقاراً لله، ومنه ضعفٌ، قال: فغضب عمران حتى احمرتا عيناه، وقال: ألا أرانى أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه؟ قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد الرجل، فغضب عمران [(١)].

وموقف عمران بن حصين رضي الله عنه وغضبه من الرجل؛ «لأنه عارض قول النبي ﷺ بغيره، وقد وقع الإنكار من جمعٍ من السلف، بل ومن الخلف على من عارض قول النبي ﷺ بقول أحد من الناس كائنا من كان، واشتدَّ نكيرهم على المعارض...والعجب ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الأخر كيف يطيب قلبه بعد ما سمع حديثاً من أحاديث النبي ﷺ، في شيء من الأشياء، أو باب من الأبواب، ثم يميل إلى إصغاء قول أحد من آحاد الأمة؟ ويقدم ذلك القول الذي جاء ممن يخطئ ويصيب»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، (٣٧).

(٢) السراج الوهاج في كشف مطالب مسلم بن الحجاج لصديق حسن خان القنوجي ١/ ٩٥، تحقيق أحمد فريد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ثلاث من كن فيه يجد لهن حلاوة الإيمان، ترك المراء في الحق، والكذب في المزاحة، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»(١).

وقال أيضاً: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محق، ويدع الكذب في الممازحة ولو شاء لغلب»(٢).

وقال معاذ بن جبل ﷺ : «إذا أحببت رجلا فلا تشاره ولا تماره، ولا تسأل عنه غيره، فلعلك أن تلقى عدواً له فيخبرك بما ليس فيه؛ فيقطع الذي بينك وبينه»(٣).

وقال أبو الدرداء ﷺ:«لا تزال ظالما ما كنت مخاصما، ولا تزال آثما ما كنت مماريا، ولا تزال كاذبا ما كنت محدثا»(٤).

وقال عبد الله بن عباس ﷺ : «لا تمارينَّ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يغلبك، والسفيه يزدريك»(٥).

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/١١٨، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٢) شعب الإيمان ٤/٣١٧، ومثله أيضاً عن علي بن أبي طالب، أخرجه أبن أبي زمنين في أصول السنة، ص٢٣٣، تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحيم البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

(٣) اعتلال القلوب، للخرائطي ١/ ٢٤٤، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

(٤) الزهد، لأبي داوود، ص ٢٠٩، تحقيق ياسر بن إبراهيم بن محمد، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار المشكاة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٣/ ١١٥.

وقال أيضاً في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾(١)، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٣)، وقوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾(٥)، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾(٦)، وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾(٧)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم، بالمراء والخصومات»(٨).

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كفى من العلم الخشية، وكفى من الجدال أن يذكر العالم حسناته وينسى سيئاته، وكفى من الكذب أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه»(٩).

---

(١) سورة الأنعام آية (٦٨).

(٢) سورة آل عمران آية (٧).

(٣) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٤) سورة الشورى آية (١٣).

(٥) سورة الأنعام آية (١٥٩).

(٦) سورة آل عمران آية (١٠٥).

(٧) سورة الأنبياء (٩٣).

(٨) شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٣، وينظر: الإبانة الكبرى ١/ ١٧٩.

(٩) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال١٠/ ٢٥٧، للعلامة علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تصحيح وضبط بكري حياني، وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، تاريخ الطبع ١٤١٣هـ.

«دخل أبو مسعود على حذيفة، قال: اعهد إليَّ، قال: أولم يأتك اليقين؟ قال: بلى، قال: فإن الضلالةَ حقَّ الضلالة، أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وإياك التلّون في دين الله، فإن دين الله واحد»(١)، ولا ريب أنَّ المراء في الدين قائدٌ إلى التلّون فيه.

وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه «استحقاق حقيقة الإيمان، ترك المراء والمرء صادق»(٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تهادوا تحابوا، ولا تتماروا فتباغضوا»(٣).

وكان إسلام الصحابي الجليل قيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه إسلاماً حسناً، وكان سيِّدَ قومه فسئل، قيل له: بما سدت قومك؟ فقال: «ببذل القرى، وترك المراء، وكف الأذى، ونصرة المولى»(٤).

ومن خلال ما تقدّم نرى أن المراء في أصله مذموم، وأنه سببٌ للبغضاء والفرقة، فكيف إذا كان المراء شره أعظم، وخطره أوخم، لا ريب أنه حينئذٍ يتأكّد ذمّه، وهذا فيما إذا كان في مسائل العقيدة وأصول الإيمان، والقاعدة المقررة عند أهل العلم أن الوسائل لها أحكام المقاصد.

ولَمَّا ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة رضي الله عنهم تبرؤا منهم، «وتواصَوا وأوصَوا أخلافهم أن لا يسلِّموا عليهم، ولا يصلّوا على جنائزهم، ولا يعودوا مَرضاهم»(٥)،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٣.

(٢) أخرجه هناد بن السري الكوفي في كتابه الزهد، باب المراء، ٣/ ٤٩، تحقيق محمد أبو الليث الخير آبادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

(٣) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٥٢٢.

(٤) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف ١٢/ ٢٦٥.

(٥) الوافي بالوفيات، للصفدي ٢٧/ ٢٤٠، لمجموعة المحققين، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، الألمانية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

وهذا كلُّه من حرصهم على قطع أسباب الجدال في الدين، والمراء في مسلّماته، وإحداث الكلام، فيما يفضي إلى الخصام.

القسم الثاني: جهود التابعين وعلماء أهل السنة والجماعة في مختلف العصور.

جهود أهل السنة والجماعة في التحذير من المراء في الدين، بعد الصحابة ﷺ كانت أكثر من ذي قبل وبشكل أوسع، وذلك حيث كَثُرَ الكلام واتسع الخصام، واختلفت المذاهب وتنوّعت الآراء، وذلك على حين فترةٍ من العلم، وشيوعٍ من الجهل، مع ما قارن ذلك من ظهور من يكيد لهذه الأمة بإحداث الخصومات والجدال في الدين، وإحداث الأُغلوطات والمسائل المشتبهات، ولأجل هذا تصدّى أهل السنة والجماعة لمحاربة هذا البلاء الذي نجم على المسلمين، وقد ظهر ذلك من خلال أقوالهم وتقريراتهم وما عقدوه من الأبواب، فيما ألّفوه من المصنفات والمؤلفات، من الكتب العقدية وغيرها.

ولقد كان من منهج علماء أهل السنة والجماعة، أنَّهم يجتنبون مجاراة أهل البدع والأهواء في مرائهم في الدين، وخوضهم بالباطل، وتنطّعهم في تقفّر ما ليس لهم به علم، وإجراء ألسنتهم بما هو عنهم بمناط العيّوق بعداً، ولكن لمّا كَثُر خصامهم، واشتدَّ في الدين مراؤهم، وتجرؤا على نصوص الشريعة جرأة عظيمة، وشغلوا الناس عما ينفعهم إلى طلب ما يضرّهم، تصدّى لهم جهابذة علماء السلف بالردِّ عليهم وإلزامهم الحجة، وقطعوا منهم الوتين، بمرائهم في الدين.

قال الإمام الدارمي -لمّا اتضح له سوء قصد أولئك المماربن المجادلين في الدين، وخبث ما يريدون من التوصّل إليه بمرائهم-: «فحين رأينا ذلك منهم، وفطنا لمذهبهم وما يقصدون إليه، من الكفر وإبطال الكتب والرسل ونفي الكلام والعلم والأمر عن الله تعالى، رأينا أن نبيّن من مذاهبهم رسوماً من الكتاب والسنة وكلام العلماء، ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم، فيحذروهم على أنفسهم وعلى أولادهم وأهليهم، ويجتهدوا في الرد عليهم، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى، طالبين به ما عند

الله.

وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا، وما أشبهه، وقد كانوا رزقوا العافية منهم، وابتلينا بهم، عند دروس الإسلام وذهاب العلماء، فلم نجد بدّاً من أن نردَّ ما أتوا به من الباطل بالحقِّ، وقد كان رسول الله ﷺ يتخوّف ما أشبه هذا على أمته ويحذرها إياهم، ثم الصحابة بعده والتابعون، مخافةَ أن يتكلموا في الله وفي القرآن بأهوائهم فيضلوا، ويتماروا به على جهل فيكفروا، فإن رسول الله ﷺ قد قال: «المراء في القرآن كفر»[1]، وحتى إن بعضهم كانوا يتقون تفسيره، لأن القائل فيه إنما يقول على الله، قال أبو بكر الصديق ﷺ:أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم. اهـ.

وسئل عبيده السلماني[2] عن شيء من تفسير القرآن، فقال: اتق الله، وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن. اهـ.

فهذا الصديق خير هذه الأمة بعد نبيها والخليفة بعده، قد شهد التنزيل، وعاين الرسول، وعلم فيما أنزل القرآن، إلا ما شاء الله، توقّى أن يقول في القرآن، مخافة أن لا يصيب ما عنى الله فيهلك، ثم عبيده السلماني بعده، وكان من كبار التابعين.

فكيف بهؤلاء المنسلخين من الدين والعلم؟ الذين ينقضونه نقضاً، ويفسرونه بأهوائهم، خلاف ما عنى الله، وخلاف ما تحتمله لغات العرب، ولقد قال بعض أهل

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن، عن أبي هريرة ﷺ، (٤٦٠٣)، وأخرجه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة ﷺ، (٧٩٨٩)، ١٣/ ٣٦٩، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الوعيد على ترك الصلاة، (١٤٦٤)، ٤/ ٣٢٤، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) هو عبيدة بن عمرو السلماني المرادي الكوفي _ توفي عام ٧٢هـ _ من كبار التابعين، بارع في الفقه ثبت في الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٤١، وتذكرة الحفاظ ١/ ٥٠).

العلم: لا تهلك هذه الأمة حتى تظهر فيهم الزندقة، ويتكلموا في الرب تبارك وتعالى»[١].

وقال الدارمي أيضا في موضع آخر في الرد على من أنكر العرش لله تعالى: «وما ظننا أن نضطّر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به، حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا، وإلى الله نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرى الإسلام، وإليه نلجأ، وبه نستعين»[٢].

ومن هذه المقالة الراسخ صاحبها في العلم، يتضح أنَّ السلف لم يكونوا ليتكلموا فيما مارى فيه أهل البدع، وخاضوا فيه بأهوائهم، فضلاً أن يكونوا قد تكلموا بذلك ابتداءً! ولكن لمسيس الحاجة لذلك، كانوا هم فرسان الميدان، والذابّين عن حمى الدين والإيمان، بل إن شيخ الإسلام قرّر أنَّ من لم يردَّ مقالةَ أهل البد ع أهل الخوض والمراء، ويفحمهم بالسنّة، ويناظرهم بالدليل والحجّة فهو -والحالة هذه- لم يوفِّ الإسلام حقّه، قال: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع، مناظرةً تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقّه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين.

وقد أوجب الله على المؤمنين الإيمان بالرسول والجهاد معه، ومن الإيمان به تصديقه في كل ما أخبر به، ومن الجهاد معه دفع كل من عارض ما جاء به وألحد في أسماء الله وآياته»[٣].

---

(١) الرد على الجهمية، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ١٦٤.

فالردُّ على أهل البدع بقطع دابر شبهاتهم وفلج حججهم بالدليل الصحيح الصريح، نوعٌ من الجهاد في سبيل الله ﷻ.

ولهذا كان من جهود السلف في التحذير من المراء في الدين، وكشف مُماحلة المبطلين، ونقض أساس أقوال المتشدّقين المتفيهقين، ما أُثر عنهم من أقوال وأفعال ومواقف بهذا الصدد، وهم بذلك شارعون وناهلون من مورد الشريعة العذب الزلال، وواردون عليها عللاً بعد نهل، وسقوا منها الناس حتى ضربوا بعطن، فما أصبح لديهم اليقين، ليتطاول عليه الظنُّ، ولن يجد عليه سبيلا -إن شاء الله تعالى-.

وهذا أوان الشروع في بيان مواقفهم وأقوالهم وما أُثر عنهم، ومن ذلك ما يلي:

قال ابن أبي ليلى[(١)]: «لا تماروا فإن المراء لا يأتي بخير، وقال: لا أماري أخي: فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه»[(٢)].

وقال سليمان الخواص [(٣)]: «ما من رجل أراه على حال، إلا رجوته قبل أن يتعلم القرآن والسنة، فإذا تعلم فلم ينزع عن ذلك المراء، فلست أرجوه»[(٤)].

وقال معاوية بن قرة[(٥)]: «كان يقال: الخصومات في الدين تحبط الأعمال»[(٦)].

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي _ توفي عام ٨٣هـ _ من أكابر التابعين، إمام علامة حافظ. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٣، ووفيات الأعيان ٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه أبو القاسم في الحجة في بيان المحجة ٢/ ٥٢٢.

(٣) هو سليمان الخواص، من العباد الكبار والزهاد بالشام، وله مقالات في الزهد. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧١، والثقات، لابن حبان ٨/ ٢٧٩).

(٤) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله ٥/ ٢٠٦.

(٥) هو معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني _ ولد عام ٣٦هـ، وتوفي عام ١١٣هـ _ إمام عالم ثبت، من التابعين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٣).

(٦) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله ٥/ ٦، وينظر: الشريعة، للآجري، ص٦١.

وقال عمر بن عبد العزيز: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»(١)، وقال: «قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع»(٢).

وقال أيضاً لمّا سأله رجل عن شيء من الأهواء: «عليك بدين الأعرابي، والغلام في الكتّاب، والهُ عمن سواه»(٣)، ومعنى هذا الكلام: أنَّ من أسباب البدع وظهور الأهواء، هو التنطع بالقول في مسائل يجب فيها التوقّف وعدم الخوض والمراء وتشقيق الكلام في ما لا تحتمل، «وهذا الذي قاله عمر بن عبد العزيز، قاله غيره من السلف في النهي عن الخوض في مسائل الكلام، فإنما هو لأنَّهم رأوا أنه لا يحتاج إليه، لتبيين صحة الدين في أصله، إذ كان رسول الله ﷺ، إنما بعث مؤيداً بالحجج، فكانت مشاهدتها للذين شاهدوها وبلاغها المستفيض ومن بلغه، كافياً في إثبات التوحيد والنبوة معاً عن غيرها، ولم يأمنوا أن يوسع الناس في علم الكلام، وأن يكون فيهم من لا يكمل عقله، ويضعف رأيه، فيرتبك في بعض ضلالة الضالين وشبه الملحدين، ولا يستطيع منها مخرجاً، كالرجل الضعيف غير الماهر بالسباحة، إذا وقع في ماء غامر قوي، لم يؤمن أن يغرق فيه، ولا يقدر على التخلص منه»(٤).

قال محمد بن الحنفية(٥): «لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصومات الناس في ربّهم»(٦).

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٩٠.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٩٥.

(٤) المصدر السابق ١/ ٩٥.

(٥) محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي _ ولد عام ٢١هـ، وتوفي عام ٨١هـ _ ينسب إلى أمه خولة بنت جعفر الحنفية، تابعي جليل، أحد الأبطال الشجعان. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٠، ووفيات الأعيان ٤/ ١٦٩).

(٦) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٢٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم

وقال سفيان بن عيينة: «لم أرَ فقيهاً قطُّ يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله »[١].

وقال الزهري: «اروُوا هذه الأحاديث كما جاءت، ولا تناظروا فيها»[٢]، وقال أيضاً: «أمرّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت»[٣].

وقال الإمام الشافعي: «المراء في العلم، يقسي القلب، و يورث الضغائن».

وقال أبو الزناد[٤]: «وما برح من أدركنا من أهل الفقه والفضل، من خيار أوليّة الناس، يعيبون أهل الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي، وينهون عن لقائهم ومجالستهم ويحذرون مقاربتهم أشدَّ التحذير، ويخبرون أنهم أهل ضلال وتحريف، لتأويل كتاب الله وسنن رسول الله ﷺ، وما توفي رسول الله ﷺ حتى كره المسائل، وناحيةَ التنقيب والبحث، وزجر عن ذلك وحذَّره المسلمين في غير موطن، حتى كان من قوله كراهية لذلك: « ذروني ما تركتم فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا ما استطعتم »...»[٥].

وقال الأحنف بن قيس: «كثرة الخصومة تنبت النفاق في القلب»[٦].

العلم وفضله ٢/ ١٢٤.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣١.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٣٩.

(٤) هو عبد الله بن ذكوان القرشي المدني _ ولد عام ٦٥هـ، وتوفي عام ١٣١هـ _ الإمام الفقيه الحافظ المفتي، من كبار المحدثين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٣٤).

(٥) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٦.

(٦) شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٥.

وقال ذو النون المصري(١): «ثلاثة من أعلام أعمال الكياسة: ترك المراء والجدال في الدين، والإقبال على العمل بيسير العلم، والاشتغال بإصلاح عيوب النفس، غافلاً عن عيوب الناس»(٢).

قال الإمام أبو القاسم الأصبهاني(٣) -في معرض بيان منهج أهل السنة والجماعة في اقتفاء أثر من قبلهم من السلف، حيث لم يتكلّفوا الخوض فيما ما لم يكلّفوه ولم يتجشموا المراء في الدين-: «وأهل السنة يتركون البحث عما لم تحط عقولهم به من المشكلات، التي لم يتكلم فيها المتقدمون والأئمة الماضون، ولم يخوضوا فيها، وهم أعلم بالتنزيل والتأويل، ومنهم أخذ العلم، وبهم يقتدى»(٤).

وقال وهب بن منبه(٥): «دع المراء والجدل من أمرك، فإنه لن تعجز أحد رجلين، رجل هو أعلم منك، فكيف تعادي وتجادل من هو أعلم منك؟ ورجل أنت أعلم منه فكيف تعادي وتجادل من أنت أعلم منه؟»(٦).

وكان أبو حنيفة النعمان، يكره المراء والجدال، ولو على سبيل الحقِّ، وقد دخل عليه

(١) هو ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري _ توفي عام ٢٤٥هـ _ أحد الزهاد العباد من أهل مصر، وله مقالات في الزهد والتعبد. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٣، ووفيات الأعيان ١/ ٣١٥).

(٢) شعب الإيمان ٧/ ٥٢٢.

(٣) هو إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الاصبهاني _ ولد عام ٤٥٧هـ، وتوفي عام ٥٣٥هـ _ الملقّب بقوام السنّة، من أعلام الحفاظ، كان إماماً في التفسير والحديث واللغة، من مؤلفاته: الحجة في بيان المحجة، ودلائل النبوة. ينظر: (تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٨٠).

(٤) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٥٩.

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار _ ولد عام ٣٤هـ، وتوفي عام ١١٤هـ، الإمام، العلامة، الإخباري القصصي، من التابعين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٥، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٥).

(٦) معجم ابن المقرئ، (٣٢٢)، ص ١١٨، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

جماعة في مجلسه معهم رجلان، فقالوا: «هذا رجلٌ يقول: إن القرآن مخلوق، والآخر يقول: إنه غير مخلوق، فقال أبو حنيفة: لا تصلَّوا خلفهما، فقيل له: أما الأول فنعم؛ لأنه يقول: القرآن مخلوق، وأما الثاني فلماذا لا نصلي خلفه؟ فقال: إنهما تنازعا في الدين، والمنازعة في الدين بدعة»(١).

وللإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في ذلك أقوال مسدّدة وعبارات بليغة، وكان يعيب المراء في الدين والجدال فيه، ويحذّر منه، قال -لمّا سأله رجل عن مسألة-: «قال رسول الله ﷺ كذا، فقال: أرأيت لو كان كذا، قال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، ثم قال مالك: أو كلما جاء رجل أجدل من الآخر، ردَّ ما أنزل جبريل على محمد ﷺ»(٣).

وقال أيضاً: «كلمَّا جاءنا رجلٌ أجدلَ من رجل، تركنا ما نحن عليه، إذاً لا نزال في طلب الدين!»(٤).

وقال: «مهما تلاعبت به من شيء، فلا تلاعبنَّ بأمر دينك»(٥).

وقال: «إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه

---

(١) ينظر: شرح الفقه الأكبر، ص ٢٧.

(٢) سورة النور آية (٦٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٣.

(٤) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٥/ ٦٩.

(٥) ينظر: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٣.

الصحابة والتابعون لهم بإحسان»[(١)].

ومن جميل ما نُقل من كلام الإمام مالك في ذلك، ما كان من وقائع محاورة بينه وبين من أُتهم بالإرجاء، وأراد أن يلقي بعض الأسئلة عليه، فجرت هذه المحاورة التي تبيّن خطر المراء في الدين، قال الرجل للإمام: «اسمع مني، قال: احذر أن أشهد عليك، قال: -والله- ما أريد إلا الحق، فإن كان صواباً فقل به أو فتكلم، قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني، قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك، قال: فإن جاء رجل، فكلمنا، فغلبنا؟ قال: اتبعناه، فقال مالك: يا هذا، إن الله بعث محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقل»[(٢)].

وقيل لمالك بن أنس: «يا أبا عبد الله الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه وإلا سكت»[(٣)].

وقال: «الجدال في الدين ينشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب ويقسي، ويورث الضغن»[(٤)]، وهذا أمرٌ ظاهرٌ، فالمراء يُذهب هيبة العلم؛ لأن العلم مزكّي للنفوس، والمراء بالنقيض من ذلك؛ لأنه يتضمن حبَّ الغلبة والظهور على الخصم، فتأتي الأدواء القلبيّة تباعاً من أثر المراء.

وقال أيضاً -مبيّناً هدي خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ وهم الصحابة ﷺ في السكوت عمّا لا ينفع-: «لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلّموا في الأحكام

---

(١) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٥/ ٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٦.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٦.

والشرائع، ولكنه باطل يدلُّ على باطل»(١).

وقال الإمام مالك: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهمٍ والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله ﷻ وفي الله ﷻ، فالسكوت أحبّ إليّ؛ لأنّي رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين، إلا فيما تحته عمل»(٢).

وقال -فيمن يكثر من الجدل والمراء في الدين-: «أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه، أيدع دينه كلَّ يوم لدين جديد؟»(٣)، ولهذا نجد أن الباطل الذي يقوم على المراء يتشعّب بأهله إلى طرائقَ قدداً، وأما الحقُّ فهو سبيل واحد، لا يختلف أهله فيه.

وكذلك ما ورد أيضاً من جواب الإمام مالك المشهور، لمن سأله عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه، فقال الإمام مالك مقالته التي سارت بها الركبان، وصارت مثلاً يتداوله أهل الإيمان: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٤)؛ لكونه سؤالاً تعدَّى صاحبه فيه المشروع، وتكلّف ما لم يؤمر به.

وجاءه رجل من أهل المغرب وقال: «إن الأهواء كثرت قبلنا، فجعلت على نفسي إن أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرني -فوصف له مالك شرائع الإسلام- ثم قال: خذ بهذا ولا تخاصم أحداً في شيء»(٥).

---

(١) أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٥/ ٧٢.

(٢) ينظر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٧.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٣٠.

(٤) ينظر: الحجة في بيان المحجة ٢/ ٢٧٤.

(٥) ينظر: الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي ١/ ٥٥١، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

وقال عبد العزيز بن الماجشون[١]: «احذروا -الجدل فإنه يقرّبكم إلى كل موبقة، ولا يسلمكم إلى ثقة»[٢].

وقال قتيبة بن مسلم[٣]: «المراء هو من دواعي الشنآن»[٤]، فإذا كان في مسائل الاعتقاد، وقعت الخصومة فيها، وهذا هو الداء العضال، والخطر الأكيد.

وقال مسلم بن يسار[٥]: «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان الشيطان زلته»[٦].

وقال العوام بن حوشب[٧]: «-والله- لأن أرى عيسى -ابنه- يجالس أصحاب البرابط -آلة طرب- والأشربة والبــاطل، أحبُّ إليَّ من أن أراه يجالس أصحاب الخصومات»[٨].

---

(١) هو عبد العزيز بن عبد الله التيمي مولاهم _ توفي عام ١٦٤هـ _ الإمام المفتي، كان فقيه النفس وقورا كبير الشأن، أصله من أصبهان. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: الفقيه والمتفقه ١/ ٥٥.

(٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة الباهلي _ توفي عام ٩٦هـ _ أحد القواد المشاهير، والأبطال الشجعان، من ذوي الدهاء والعقل والتدبير والحزم. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٤١٠، البداية والنهاية ١٢/ ٦١٥).

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١٣/ ٢٣٥.

(٥) هو مسلم بن يسار الأموى بالولاء _ توفي عام ١٠٨هـ _ فقيه زاهد من النساك. ينظر: (سير أعلام النبلاء النبلاء ٥/ ٥١٠، والأعلام ٧/ ٢٢٣).

(٦) أخرجه الدارمي، باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة، (٤١٠)، ١/ ٣٨٩، والآجري في الشريعة، الشريعة، ص ٦١.

(٧) هو العوام بن حوشب بن يزيد الربعي الواسطي _ توفي عام ١٤٨هـ _ إمام محدث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥٤، وشذرات الذهب ٢/ ٢٢٢).

(٨) البدع، لابن وضاح، ص ١٠٧، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى

وقال أبو إسحاق الفزاري[١]: «لأن أجلس إلى النصارى في بيعهم، أحبُّ إليَّ من الجلوس في حلقة يتخاصم فيها الناس في دينهم»[٢].

وقال معروف الكرخي[٣]: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح له باب العمل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العلم، وفتح عليه باب الجدل»[٤].

سمع بكر بن عبد الله المزني[٥] رجلاً يقول: «دع المراء لقلة خيره، فقال: بل دعه لكثرة شره»[٦].

وقال أبو يوسف[٧]: «العلم بالخصومة والكلام جهلٌ، والجهل بالخصومة والكلام

١٤١٦هـ، وينظر: الاعتصام ١/ ١٣٩.

(١) هو إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ابن خارجة الفزاري _ توفي عام ١٨٨هـ _ الإمام الكبير= =الحافظ، من كبار العلماء وأئمة الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٩، وطبقات ابن سعد ٧/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الصغرى المسمى الشرح والإبانة على أصول الديانة، ص ٢٥، تحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني، دار الآثار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

(٣) هو معروف بن فيروز الكرخي _ توفي عام ٢٠٠هـ _ أحد أعلام الزهاد والمتصوفين، اشتهر بالصلاح والعباده. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٣١).

(٤) ينظر: الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٧٨.

(٥) هو بكر بن عبد الله بن عمرو أبو عبد الله المزني _ توفي عام ١٠٦هـ _ الإمام القدوة الواعظ الحجة، كان ثقة ثبتا في الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤/ ٢١٦، تحقيق د عواد بشار معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ).

(٦) أنساب الأشراف للبلاذري ١١/ ٢٥٢.

(٧) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري _ ولد عام ١١٣هـ، وتوفي عام ١٨٢هـ _ الإمام العلامة المجتهد، صاحب أبي حنيفة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٦، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٧٨).

علم»[١].

ومن شواهد ترك السلف للمراء، أنَّ رجلاً جاء إلى محمد بن سيرين[٢] وماراه في شيء، ففطن له ابن سيرين، فقال له: «إني قد أعلم ما تريد، وأعلم بالمماراة منك، ولكني لا أماريك»[٣].

وأيضاً يسنُّ محمد بن سيرين سنة حسنة في قطع الطريق على من أراد المراء والجدال في الدين، حيث دخل عليه رجلان من أهل الأهواء، فقالا: «يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله، قال:لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان وخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها فيقرُّ في قلبي»[٤].

وقال الحسن البصري لرجلٍ سأله عن مسألة، حيث قال له الرجل: «ألا تناظر في الدين؟ فقال له الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أنت أضللت دينك فالتمسه»[٥].

هكذا كان السلف في منتهى الحزم في قطع كلِّ بوادر الخصومات والمراء في الدين، ولا يجعلون لأيِّ مُماري فرصةً ينفذ من خلالها إلى ما يريد.

وقال الحسن البصري: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله ٥/ ٢٠٤.

(٢) هو محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك ﷺ _ ولد عام ٣٣هـ، وتوفي عام ١١٠هـ _ فقيه عابد كبير= =الشأن، اشتهر بتعبير الرؤيا. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠٦، ووفيات الأعيان ٤/ ١٨١).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٦٦.

(٤) ينظر: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٥١.

(٥) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٦٦.

منهم»[١].

وكان عمران القصير[٢] يقول: «إياكم والمنازعة والخصومة، وإياكم وهؤلاء الذين يقولون: أرأيت، أرأيت»[٣].

وقال الأوزاعي: «بلغني أن الله إذا أراد بقوم شرّاً، ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل»[٤].

وهذا ظاهر فيمن يشتغل بالمراء والخصومات، أنَّه لا يتأتَّى منه عمل، ولا يُوفّق إليه.

وقال الفضيل بن عياض[٥]: «لا تجادلوا أهل الخصومات فإنهم يخوضون في آيات آيات الله»[٦].

وهذا شريك القاضي[٧] تقدّم إليه أحد الناس في شهادة، فلم يقبل شهادته، فقال له ذلك الرجل: « لِمَ تردُّ شهادتي؟ فقال: أما إني لا أطعن

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٢.

(٢) هو عمران بن مسلم القصير المنقري _ توفي عام ٢٨٤هـ _ من أهل البصرة. ينظر: (الأنساب، للسمعاني ٤/ ٥١٤، والثقات، لابن حبان ٧/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٦٢.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٣.

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي _ توفي عام ١٨٧هـ _ أحد العباد الكبار، والزهاد المشهورين، كان شاطرا لصاً يقطع الطريق، ثم تاب وأصلح. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢٣، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٧).

(٦) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٦.

(٧) هو شريك بن عبد الله القاضي أبو عبد الله النخعي الكوفي _ توفي عام ١٧٧هـ _ أحد الأئمة الأعلام. ينظر: (تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٥٩١).

عليك في بطـن ولا فرج، ولكـــن متى تدع الخصومة في الدين أجـــزت شهادتك»[١].

وقـــال سفيان الثوري[٢] -لرجــل أوصاه-: «إيـاك والأهواء والخصومة»[٣].

والخصومة»[٣].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أصول السنة عندنا، التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين»[٤].

وسُئل سهل بن عبد الله التستري[٥]، متى يعلم الرجل أنه من أهل السنة والجماعة؟

والجماعة؟ فعدَّ عشر خصال، ذكر منها: «ولا يماري في الدين»[٦].

ورأى صفوان بن محرز[٧]، قوماً يتجادلون، فقام ينفض ثيابه، «ويقول: إنما أنتم جرب»[٨].

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٦.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري _ ولد عام ٩٧هـ، وتوفي عام ١٦١هـ _ أمير المؤمنين في الحديث، سيد أهل زمانه في العلم والدين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٣٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ١٥٤.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٧٦.

(٥) هو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى التستري _ ولد عام ٢٠٠هـ، وتوفي عام ٢٨٣هـ _ أحد أئمة الصوفية وعلمائهم. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩).

(٦) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ٢٠٥.

(٧) هو صفوان بن محرز المازني العابد أحد الأعلام، ثقة له فضل وورع. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٦، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٩).

(٨) البدع، لابن وضاح، ص ١١٥، وينظر: الاعتصام، للشاطبي ٢/ ٣٣٧.

وقال سهل بن مزاحم[١]: «مثل الذي ينازع في الدين مثل الذي يصعد على الشرف، إن سقط هلك، وإن نجا لم يحمد»[٢].

ورأى عميرة بن أبي ناجية[٣] «قوماً يتمارون في المسجد، وقد ارتفعت أصواتهم فقال: هؤلاء قوم قد ملّوا العبادة، وأقبلوا على الكـلام، اللهم أمت عميرة، فمات من عامه»[٤].

وقال البربهاري محذّراً من المراء في الاعتقاد وتعاطيه: «والكلام والخصومة والجدال والمراء مُحدث، يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة»[٥]، ويقول أيضاً أيضاً موضحاً أنَّ من الاستقامة ترك المراء في الدين: «وإذا أردت الاستقامة على الحق وطريق أهل السنة قبلك، فاحذر الكلام وأصحاب الكلام والجدال والمراء والقياس والمناظرة في الدين، فإن استماعك منهم -وإن لم تقبل به- يقدح في القلب الشك »[٦].

ثم شرح مبيناً طريقة أهل العلم في ذلك، وأنهم لا يمارون في الدين، ويجتنبون من يستزلّهم إليه، قال: «وإذا سألك الرجل عن مسألة في هذا الباب[٧]، وهو مسترشد،

(١) هو سهل بن مزاحم المروزي _ توفي عام ٢٢١هـ _ من أهل مرو، وكان فقيها مفتيا عابدا، ويكنى أبا بشر. ينظر: (طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٧، الثقات لابن حبان ٨/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه أبو القاسم في الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٠٥.

(٣) هو عميرة بن أبي ناجية البدري _ توفي عام ١٥٣هـ _ كان ناسكا متعبدا يقال أن أباه أبا ناجية كان روميا روميا يدعى حريثا. ينظر: (الأنساب، للسمعاني ١/ ٢٩٦ ، والجرح والتعديل، للرازي ٧/ ٢٤، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى).

(٤) ينظر: الاعتصام ٢/ ٤٥٣.

(٥) شرح السنة، ص ٦٣.

(٦) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٧) أي: ما يتعلق بالاعتقاد.

فكلمه وأرشده، وإذا جاءك يناظرك فاحذره، فإن في المناظرة المراء والجدال والمغالبة والخصومة والغضب، وقد نهيت عن جميع هذا، وهو يزيل عن طريق الحق، ولم يبلغنا عن أحد من فقهائنا وعلمائنا أنه جادل أو ناظر أو خاصم»(١)، وهذا حقٌّ، فإن أهل العلم لم يكونوا من المراء والخصومة في شيء، أما في حال الردِّ على المبتدعة، وكشف شبهاتهم، فإنهم يقارعونهم، ويردون عليهم، فعلماء أهل السنة والجماعة، لا يتكلمون في هذا الباب ابتداءً، وإنما من خلال الردود، إلزاماً للخصم بالحجة، وإبراءً للذمّة.

«فإن قيل: لو قُدّر أن رجلا جاء يسأل ويخاصم في مسألة من مسائل الدين، هل يجارى في ذلك؟ قيل له: هذا الذي نهينا عنه، وهو الذي حذرناه من تقدم من أئمة المسلمين، فإن قال قائل: فماذا نصنع؟ قيل له: إن كان الذي يسألك مسألته، مسألة مسترشد إلى طريق الحق لا مناظرة، فأرشده بأرشد ما يكون من البيان بالعلم من الكتاب والسنة، وقول الصحابة، وقول أئمة المسلمين، وإن كان يريد مناظرتك ومجادلتك، فهذا الذي كره لك العلماء، فلا تناظره، واحذره على دينك، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين إن كنت لهم متبعاً، فإن قال: ندعهم يتكلمون بالباطل، ونسكت عنهم؟ قيل له: سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به، أشدُّ عليهم من مناظرتك لهم، كذا قال من تقدم من السلف الصالح من علماء المسلمين»(٢).

ويبيّن البربهاري رحمه الله أن سبب البدع، والتفرّق في الدين، وظهور المحدثات، هو الجدال والخصومة والمراء في الدين، قال: «واعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين، إلا من الكلام، وأهل الكلام والجدل والمراء

---

(١) شرح السنة، ص ١٢٠.

(٢) الشريعة، ص ٦٥.

والخصومة، والعجب كيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال؟ والله يقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[١]، فعليك بالتسليم والرضى بالآثار والكفِّ والسكوت»[٢]، وقال أيضاً -مؤكّداً معنى ما سبق-: «واعلم -رحمك الله- لو أن الناس وقفوا عند محدثات الأمور، ولم يتجاوزوها بشيء، ولم يولّدوا كلاماً مما لم يجئ فيه أثر عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة، لم تكن بدعة»[٣].

وقال الذهبي: «أجمع سبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسلمين والسلف وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفيَ عليها رسول الله ﷺ أولها: الرضا بقضاء الله و قدره والتسليم لأمـــره...وترك المراء والجدال والخصـومات في الدين»[٤].

وقد عدَّ الذهبي من الكبائر: المراء، قال: «الكبيرة الستين: الجدل والمراء واللدد»[٥]، والذي يظهر من سياقه أنه على العموم، ولا ريب أنَّ ذلك يشتدُّ ويعظم إذا كان في الدين ومسائل العقيدة.

ويذكر شيخ الإسلام أنَّ المراء في الدين من البدع، قال: «والمراء والجدال في الدين بدعة»[٦]، وهذا ظاهرٌ لكون المراء في الدين مُحدث؛ لأنَّه يتضمّن الزيادةَ على المشروع، وهو الوقوف حيث وقفت النصوص، كما أنه أيضاً سبيلٌ إلى بدعٍ جديدة، تتفّتق من

---

(١) سورة غافر آية (٤).

(٢) شرح السنة، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٤) الكبائر، ص ١٥٦، المكتبة الأموية، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة الطبع ١٣٩٥هـ.

(٥) الكبائر، ص ٢٢١.

(٦) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ص ٤٤٦، تحقيق الدكتور حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

خلال تطويل الكلام، وتشقيق المسائل، وهذا ظاهرٌ في ذيوع مقالات بدعية، سببها المراء والجدل والخصومة، والوسائل لها أحكام المقاصد، فاجتمع في المراء في الدين، كونه بدعة بذاته، وكونه وسيلة إلى بدع أخرى.

وقال الطحاوي في عقيدته -مبيّناً عقيدة السلف-: «ولا نماري في دين الله»[١]، فالمراء في دين الله تعالى ليس من هدي السلف.

وقال بعض العلماء: «ما رأيت شيئا أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة»[٢]، فكيف إذا كانت الخصومة في الدين؟ لا ريب أن الأمر أعظم، وخطره أكبر.

قال ابن بطة مؤكّداً أن ما يكون من الفتنة بالمخاصمة في الدين والجلوس إلى أهل الجدال، أعظم فتنةً من فتنة الدجال، لما يكون من إلباس الباطل لبوس الحق وتزويقه وزخرفته بالقول، حتى ينخدع به من لا خلاق له من علم، قال: «فالله الله يا معشر المسلمين لا يحملن أحدا منكم حسن ظنه بنفسه وما عهده من معرفته بصحة مذهبه، على المخاطرة بدينه في مجالسة أهل هذه الأهواء، فيقول أداخله لأناظره، أو لأستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد من فتنة الدجال، وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب»[٣].

---

(١) العقيدة الطحاوية، ص١٢، دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

(٢) ينظر: الأذكار، للنووي، ص ٣٤٦.

(٣) الإبانة الكبرى ١/ ٣٢٦.

وقال البغوي: «واتفق علماء السلف من أهل السنة على النهي عن الجدال والخصومات في الصفات»[١].

وقال ابن عبد البر: «وقد أجمع أهل العلم بالسنن والفقه وهم أهل السنة، عن الكف عن الجدال والمناظرة فيما سبيلهم اعتقاده بالأفئدة، مما ليس تحته عمل، وعلى الإيمان بمتشابه القرآن والتسليم له ولما جاء عن النبي ﷺ في أحاديث الصفات كلها وما كان في معناها، وإنما يبيحون المناظرة في الحلال والحرام وما كان في سائر الأحكام يجب العمل بها»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع، أو الذي يضر المستمع، وعن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء، فلا تفيد علماً ولا ديناً»[٣].

وهذا كلام متين، في توخّي الحذر من كل ما يهيج المراء في الدين، فإذا كان الكلام يُنهى عنه خشية أن يحمله المستمع على غير محمله، أو لا يبلغه عقله، وهذا من باب تحديث الناس بما يعقلون، وكذلك المناظرات والمطارحات التي قد يتفرّع من لوازمها شبهات وأهواء، من جراء إرادة إظهار الحق، فكيف حينئذٍ يكون القول في المراء في الدين؟ الذي هو بذرة البدع والخلاف، والباعث عليه قصد الغلبة وإفحام الخصم وإحفاظه.

---

(١) شرح السنة ١/ ٢١٦.

(٢) الاستذكار شرح مذاهب علماء الأمصار ٨/ ١١٨، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ١٨٤، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

وكذلك من جهود علماء أهل السنَّة والجماعة في التحذير من المراء في الدين، أنْ ضمّنوا مصنّفاتهم العقدية والحديثية، أبواباً عقدوها؛ لبيان خطر المراء في الدين، فمن ذلك ما يلي:

الإمام الدارمي عقد في كتابه السنن باباً، وسمه بعنوان: «باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة»(١)، وساق تحته بعض الأحاديث والآثار التي تنهى عن المراء في الدين.

وكذلك أيضاً صنع الآجري، جعل في كتابه الشريعة باباً بعنوان:

« باب ذم الجدال والخصومات في الدين»(٢) .

وكذلك «باب ذكر النهي عن المراء في القرآن»(٣)وساق تحته جملة من الأخبار، وبعض آثار السلف في ذلك في النهي عن الخصومة والجدال والمراء في الدين.

وابن بطة العكبري في كتابه الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، عقد باباً بعنوان:

«باب ذم المراء والخصومات في الدين، والتحذير من أهل الجدال والكلام»(٤).

وأيضاً عقد الإمام العدني(٥) في كتابه الإيمان باباً، وسمه بعنوان:

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٣٨٧.

(٢) الشريعة، ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤) ١/ ٣٣٨.

(٥) هو محمد بن يحيى بن أبى عمر، أبو عبد الله العدنى الدراورى _ توفي عام ٢٤٣هـ _ أحد حفاظ الحديث، جاور بمكة وولي قضاء عدن. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٩٦، وتذكرة الحفاظ ٢/ ٥٠١).

«باب ترك المراء»[١].

وفي موطأ الإمام مالك بابٌ بعنوان:

«باب الخصومة في الدين، والرجل يشهد على الرجل»[٢].

وكذلك أبو داود السجستاني في كتابه السنن عقد باباً عنوانه:

«باب في كراهية المراء»[٣]، وكذلك: « باب النهي عن الجدال في القرآن»[٤].

وأيضا الترمذي في سننه عقد باباً بعنوان:

« باب ما جاء في المراء»[٥].

وكذلك ابن عبد البرِّ عقد باباً في كتابه جامع بيان العلم وفضله، وسمّاه:

«باب ما تكره فيه المناظرة والجدال والمراء»[٦].

وأما دور الولاة في ذلك، فهو دورٌ عظيم، ولهم في ذلك تاريخ حافل في القضاء على بوادر الخصومات والجدل في الدين، وتعقّب من يتعاطى ذلك بإيقاع أشد العقوبات عليه، ولقد دوّنت كتب التورايخ من ذلك جملةً صالحةً من المواقف والوقائع، التي تثلج

(١) الإيمان، ص ٧١، تحقيق حمد بن حمدي الجابري، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

(٢) موطأ الإمام مالك، رواية محمد بن الحسن الشيباني، ص ٢٩٧، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، وزارة الأوقاف المصرية، سنة الطبع ١٤١٧هـ.

(٣) سنن أبي داود، ص ٦٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٥١.

(٥) جامع الترمذي، ص ٤٦١.

(٦) ينظر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٠.

صدر كل مؤمن، ومن ذلك ما فعله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(١) بمعبد الجهني البصري لمّا أثار الخوض في القدر، وتكلّم فيه بما يخالف النصوص، حيث صلبه ثمَّ قتله، وقيل: قتله الحجاج بن يوسف الثقفي(٢)بعد أنْ عذّبه بأصناف العذاب(٣).

ولما خرج غيلان القدري بمقالته التي ورثها من معبد الجهني، أخده الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك(٤)وقتله وصلبه، بعد مناظرة جرت بينه وبين الأوزاعي(٥).

وكذلك صنع خالد بن عبد الله القسري(٦)، بالجعد بن درهم الذي أظهر مقالته بنفي الصفات عن الله تعالى، هو أول من قال بخلق القرآن الكريم، وكان خالد بن عبد الله القسري «يخطب يوم النحر فقال من كان منكم يريد أن يضحي فلينطلق فليضحي فبارك الله في أضحيته، فإن مضح بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا -سبحانه عما يقول الجعد علوا كبيرا- ثم نزل فذبحه»(٧).

---

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الأموي _ ولد عام ٢٦هـ، وتوفي عام ٨٦هـ _ الخليفة الفقيه. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤٦، وفوات الوفيات٢/ ٤٠٢).

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي _ ولد عام ٤٠هـ، وتوفي عام ٩٥هـ _ الأمير الداهية السفاك للدماء المبير. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣، البداية والنهاية ١٢/ ٥٠٧).

(٣) ينظر: تاريخ ابن عساكر ٥٩/ ٣٢٠.

(٤) هو هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي _ ولد عام ٧٢هـ، وتوفي عام ١٢٤هـ _ الخليفة الأموي. ينظر: ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥١، وفوات الوفيات ٤/ ٢٣٨).

(٥) ينظر: تاريخ ابن عساكر ٤٨/ ٢٠٥.

(٦) هو خالد بن عبد الله بن يزيد البجلي القسري _ توفي عام ١٢٦هـ _ أمير العراقين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان بن عبد الملك. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥، وشذرات الذهب ٢/ ١١٢).

(٧) ينظر: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة ١/ ٣٥٢.

ومن مواقف خالد بن عبد القسري أنه أتي برجل قد عارض القرآن الكريم، وجاء بهذيانات يعارض بها سورة الكوثر، فقال ذلك المخذول: إنا أعطيناك الجماهر، فصلِّ لربك وجاهر، ولا تطع كل سافه وكافر.

فلما ظفر به خالد ضرب عنقه وصلبه، فمرَّ به رجل وهو مصلوب، فضرب بيده على خشبته، فقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، فأنا ضامن لك أن لا تعود[١].

وأيضاً قتل سلم بن أحوز[٢] الجهم بن صفوان، الذي أخذ مقالته عن الجعد بن درهم، ولما قبض عليه قال له سلم بن أحوز: «لو كنت في بطني لشققته حتى أقتلك، فقتله...وقال له: يا جهم إني لست أقتلك، لأنك قاتلتني، أنت عندي أحقر من ذلك، ولكني سمعتك تتكلم بكلام أعطيت الله عهداً، أن لا أملكك إلا قتلتك، فقتله»[٣].

ولما كثر الزنادقة في عهد الخليفة العباسي المهدي[٤] قتلهم قتلاً ذريعاً، وتطلّبهم في كل مكان، وشرَّد بهم من خلفهم، وكذلك فعل ولده من بعده، الخليفة الهادي[٥].

---

(١) ينظر: الرد على الجهمية، للدارمي، ص ١٨٣.

(٢) هو سلم بن أحوز بن أربد بن محرز التميمي، كان على شرطة نصر بن سيار بخرسان. ينظر: (توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لمحمد بن عبد الله القيسي، ١/ ١٦٣، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م).

(٣) ينظر: فتح الباري ١٣/ ٤٢٣.

(٤) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس _ ولد عام ١٢٧هـ، وتوفي عام ١٦٩هـ _ ثالث الخلفاء العباسيين. ينظر: (البداية والنهاية ١٣/ ٥٤٠).

(٥) هو موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس _ ولد عام ١٥٧هـ، وتوفي عام ١٧٠هـ _ رابع الخلفاء العباسيين، الملقب بالهادي. ينظر: (البداية والنهاية ١٣/ ٥٥٨).

وهذا الخليفة العباسي هارون الرشيد كان يكره المراء في الدين، وكان شديداً على من يبدو منه شيءٌ من المراء في الدين، أو الجدال فيه، ويُوقع بصاحبه أقسى العقوبات قطعاً لدابر هذا المرض العضال، وكان من جهوده في ذلك، أنه تطلّب بشراً المريسي لما أظهر مقالته بالقول بخلق القرآن، حتى اختفى منه، وأقسم لو وجده لقتله، وقال: «بلغني أن بشراً المريسي، يزعم أن القرآن مخلوق، لله عليَّ إن أظفرني به، إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحدا قط»(١).

وهذه قصةٌ عظيمةٌ تبيّن شدةَ كراهة هارون الرشيد للمراء في الدين، وذلك أنه في مجلس الرشيد، أبو معاوية الضرير(٢)، وكان يُحدّث بحديث محاجّة موسى لآدم عليهما السلام(٣)، «فقال عمُّ الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعترض على الحديث؟ عليَّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك، فقام الناس إليه يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه، وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمُّه بالأيمان المغلظة: ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة منيّ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها، فأطلقه»(٤).

وهذا الصنيع الموفّق من هارون الرشيد، هو الذي ينبغي فعله تُجاه من يتعاطى المراء في الدين، أو يتكلم بما يظهر منه الاعتراض على نصوص الوحيين، أو إثارة ما يدعو إلى

---

(١) ينظر: السنة، لعبد الله بن أحمد ١/ ١٢٧.

(٢) هو محمد بن خازم السعدي الكوفي _ ولد عام ١١٣هـ، وتوفي عام ١٩٥هـ _ إمام حافظ محدث حجة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ٧٣، وطبقات الحفاظ، ص١٢٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره وبعد، (٣٤٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم، (٢٦٥٢).

(٤) ينظر: البداية والنهاية ١٤/ ٣١، وينظر تاريخ بغداد ١٦/ ١١.

الشكِّ والاضطراب، أو يلقي بأسهمه في مقاتل من لم يتمكّن الإيمان من قلبه، وكم المسلمون بحاجة إلى مثل ما فعله هارون الرشيد، ولا سيما في الأزمنة المتأخرة التي تجرأ فيها كثيرٌ من الناس بالخوض في مسائل معضلة من الدين، وتجاسروا على ما لا علم لهم به، وأثاروا بصنيعهم التشكيك والاضطراب والحيرة والارتياب، وأصبحت بعض قضايا الدين، التي يتوقّف فيها بعض جهابذة العلماء، ولا يتكلم فيها سواهم، أصبحت كلأً مباحاً، لكلِّ ضالة من البشر، نفقت في سوق الكساد.

وهذا موقف آخر من هارون الرشيد مع ظهور نوابت المعتزلة في زمانه، حيث كان عليهم عذاباً أليماً، حيث قال بعض من يدخل على الرشيد: «دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته؛ لأنه قال القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله ﷻ»[1].

ولهذا لمّا كان ولاة الأمور حرباً على أولئك المُمارين في دين الله، المتنطعين في تقفّر ما لا سبيل إلى العلم به، كانت البدع في زمانهم ميتة خامدة، والتعظيم للنصوص ظاهراً، والسنّة متّبعة، حتى خلف من بعدهم خلوف، اتخذوا المراء في الدين بضاعة، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

وهذه المواقف المسدّدة من ولاة الأمور، وقبلهم العلماء الراسخون، في النكير على الممارين في الدين، اللذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، يخوضون فيه خوضَ المتشكّك، ويجادلون فيه جدال الحيران، ويغرون الأغمار بحلاوة المنطق، وحسن البيان، ويسلكون بهم سنّة من أهلكهم الله ﷻ في اتخاذ الدين مجالاً للّهو والخوض، كما قال الله ﷻ:

(١) ينظر: البداية والنهاية ١٤/ ٣٢.

﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١).

هذه المواقف الكريمة، في الحفاظ على الشريعة، من عادية الممارين، الخائضين في الدين، المتهوّكين بصنيعهم في المسلمين، ترسم الطريق أمام أجيال المسلمين في كلِّ زمان ومكان، طريقةَ التعامل مع من استخفَّ بدينه، حتّى حمله ذلك على التلاعب به، وجعله غرضاً للخصومات، ومرمى لسهام الشبهات، ولا سيما مع تقادم الزمن، ورفع كثير من العلم، وظهور وفشو الجهل، وحلول الفتن؛ الحاجة تشتدَّ أمام مواجهةِ هذه الفتنة التي يتمثّل خطرها في قالب المراء في الدين، والتي أمست أشكالها تأخذ مسمّيات متلونة، وأقنعة مموّهة، تروج على أغمار الناس.

وعند التأمل اليوم في واقع حال المسلمين، نجد أنَّه مع اتساع تقنية وتطوّر وسائل الاتصال والإعلام، سواء المقروءة أو المسموعة أو المرئية أو الشبكات العنكبوتيّة، أرى أن تلك الوسائل الإعلامية الحديثة، كان لها الأثر البالغ في توسيع نطاق المراء في الدين، والخوض في مسائل منه معضلة، من قِبل من لا يحسنها، بل ومَن هو أجنبيٌّ عنها، حتى أصبحت بعض المسائل المصيرية للأمة، وعضل المسائل الشرعية الكبار، أصبحت تلك أشبه ما يكون بما يؤتدم به في المحافل والمجالس ووسائل الإعلام المختلفة، ويمدُّ يده إليها من شاء، وكيفما شاء!.

(١) سورة التوبة آية (٦٩).

وما تقدّم يحتمّ على المسلمين، المحافظةَ التامةَ على دينهم، من خلال طرق شتّى، ومنها محاربة المراء في الدين، وقطع بوادره، بالتصدّي لمن كانت هذه بضاعته، بما يتناسب معه، وهذا الأمر يدخل في مفهوم الأمر بالمعروف والنهي المنكر.

وإنَّ من ضرورة اتباع منهج سلف الأمة، أخذ الموقف الذي وقفوه مع من يخوض في المسائل الشرعية، ويُماري في دين الله ﷻ؛ ليلبس على الناس دينهم.

وإنَّ موقف أهل السنة والجماعة مع من يتعاطى المراء والجدال والخصومة في الدين، موقفٌ في غاية ما يكون من الصرامة، من وأد ولائد المراء في مهودها، لما علموه من الخطر العظيم، على ما ترك النبي ﷺ عليه أمته من الهدى ودين الحق.

والطريق الخفية لردِّ ذلك وعدم قبوله، هو إلباسها لبوس المراء في الدين، وإثارة الخصومة فيه؛ ليجد التشكيك مجالاً صالحا لبعث الحيرة والاضطراب، فيما لا يجوز فيه إلا اليقين والتسليم الكامل؛ لتؤول الحال في النهاية إلى الانسلاخ من ثوابت الشريعة، والتعري من لباس الإيمان، ليصبح من ابتلي بهذا في ظلمة الشك والحيرة، لا يكاد يبصر حقّاً، ولا يستقرُّ على إيمان، ويطلب علماً ما هو ببالغه، وليس في مقدوره، ليرجع إليه طرف النظر والبحث فيما لم يكلّف به، خاسئاً وهو حسير.

فإذا علمت من خلال ما تقدم خطر المراء في الدين، وكيف كان موقف السلف ممن يتعاطاه، عرفت فساد ما وقع فيه بعض «أهل زمانك من التهافت على مشاهدة وسماع بعض المناظرات، مع بعض أهل الأهواء من غير ضرورة، وكذا فتح الباب على مصراعيه لكل أحد؛ ليحاور ويجادل عبر الشبكة العنكبوتية، أو ما ابتلي به أقوام من السعي الحثيث للتقارب مع أهل الأهواء، وإتاحة المجال لهم ليتحدثوا عن عقائدهم وضلالاتهم بإجراء المقابلات معهم عبر القنوات والمجلّات وغيرها، ونشر مقالاتهم وأهوائهم تحت

شعارات زائفة، يحدوها ثقة كاذبة، ثم ما يلبث هؤلاء، حتى تصير حالهم إلى لون من المباسطة والمؤاخاة، ولربّما لمزوا إخوانهم من أهل السنة لسوء ظنهم بهؤلاء المبتدعة، ونحو باللائمة عليهم لما بين الفريقين من المباينة.

وقد أعان على ذلك تقارب فلسفات تالفة، تلقّوها عن الكفار، فصارت عنايتهم في البحث عن نقاط الاتفاق، ونظرتهم متوجّةٌ إلى ما يتحلّى به المخالفون من الصفات الإيجابية -كما يقولون- ومن ثمَّ يجدون ما يلتقون به معهم، ويرون أن ذلك من بعد النظر وسعة الأفق، وخلافه ضيق عطن، وإقصاء للآخر، ونظر سوداوي -كما يعبرون- والله المستعان»[(١)].

وهذا أشبه ما يكون بتقنينٍ للمراء في الدين، ووضع أليّةٍ لقبوله والتناغم معه، دون نكير ولا استهجان.

ومما زاد الأمر شدة في زماننا أن المراء في الدين، تشعّب وتعددت وسائله، مع تطور وسائل الاتصال والإعلام، وأصبحت الجرأة على أصول الشريعة ظاهرة، والانتقاد لها متاحاً، تحت مسمّى الحرية الفكرية، والقبول بالتعددية المذهبية أو الطائفية، حتى ولج من هذا الباب، كلُّ زنديق ومماري، ليخرج على الناس بآبدةٍ ترقِّق ما بعدها من المجادلات والخصومات في دين الله ﷻ، ولا سيّما في هذا العصر الذي تقاربت فيه الثقافات بين الأمم، حيث انبهر بعض المسلمين بالحضارة الغربية وأُعجبوا بأنماط حياتهم في مختلف ميادينها، ومن ذلك طريقة التفكير ودراسة الأشياء، حتى خرج من رحم ذلك، الحرية الشخصية في إبداء الرأي في جميع الميادين، ومن أثر ذلك أنْ فُسح

(١) فقه الرد على المخالف، ص ٥٤، للدكتور خالد السبت، مركز المصادر للمعلومات، جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

الطريق أمام المثقفين وأنصاف المتعلمين والمتعالمين، ليخوضوا في المسائل الشرعية الكبار، ويتكلموا ويكتبوا عبر الصحف وغيرها، في أمورٍ هي إلى الجدال والمراء والخوض بالباطل، أقرب منها إلى تحرّي الحق.

بل والأشدُّ من ذلك أن رفعوا عقيرتهم بأنَّ الشريعة ليست حكراً على أحد، وليس في الإسلام "كهنوتاً" وليس لطائفةٍ معينة أن تفرض وصايتها على الدين والشريعة، بمعنى: أن الكلام فيها متاحاً لكل من أراد ذلك، من دون ضوابط ولا قيود، تحت مسمّى حرية التعبير، واحترام الرأي الأخر، حتى أثار بعضهم: أنَّ من مسلّمات وثوابت الشريعة، موضعَ خلاف، وأن الحق متعدد، ليس منحصراً في أحد، ليمرّروا من ذلك خصومات وشبهات على المسلمين، ما كان ليجرؤوا عليها قبلُ، حتى وصل الحال إلى «تلك الفوضى العارمة أمام العامة والخاصة عبر القنوات والمنتديات وساحات الحوار في الشبكة العنكبوتية، حتى بلغ الأمر حدَّ الإسفاف في مناوشات وتهارش مقيت، بلغة سوقيّة تنبئ عن ضحالة في العلم والتفكير، وتصحّر في الأخلاق وآداب الحوار والرد والمناظرة، يجترئ أصحابها على الأحكام العظيمة بالعبارات المحتملة والموهمة من غير خطام ولا زمام، متجردين من علم راسخ يضبطهم أو ورع يردعهم، حتى غدت بعض تلك الوسائط، ميداناً مفتوحاً لهذا العبث، وغلب على كثير منها أهل الجهل والمراء»[1]، ولا سيما وقد وجد أفراخ المبتدعة، متنفساً لهم بتلك المنافذ الحوارية لترويج باطلهم، حتى اتسع جدالهم، وعظم في الدين مراؤهم، وافتتن بهم بعض الأغمار، من صغار العلم، وحديثي الأعمار، وهذا من غربة الإسلام كما بدأ.

---

(١) فقه الرد على المخالف، ص ٧.

الفصل الرابع

أنواع المراء في الدين

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: المراء في الله ﷻ وتوحيده.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المراء في ذات الله تعالى.

المطلب الثاني: المراء في أفعال الله تعالى وأسمائه وصفاته.

المطلب الثالث: المراء في توحيد الله تعالى.

المبحث الثاني: المراء في القرآن الكريم.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المراء في القرآن الكريم، والخوض في متشابهه.

المطلب الثاني: التنازع في أحكام القرآن الكريم ومعانيه.

المبحث الثالث: المراء في السنّة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ردّ السنّة اكتفاءً بالقران.

المطلب الثاني: المراء في حجيّة أحاديث الآحاد.

المبحث الرابع: المراء في الحقّ بعد ما تبيّن.

المبحث الخامس: المراء فيما لا سبيل إلى العلم به.

المبحث السادس: المراء بالسؤال عمّا نُهي عنه شرعا.

تمهيـــــد

علمنا فيما تقدم ما اعتمدته الأمم السالفة من المراء في الدين، الذي اتخذوه وسيلة توصلوا بها إلى عدم قبول ما جاءت به الرسل عليهم السلام، ثم كيف دخل هذا الداء إلى هذه الأمة، فخاض بعض من انتسب إليها في الدين، كالذي خاض فيه من تَقدّمهم من الأمم المُهلَكين، وعلمنا ما ورد في نصوص الوحيين من التحذير منه، وما عليه السلف الصالح أهل السنّة والجماعة من تركه والتحذير منه، ومن أهله وموقفهم في ذلك.

بيد أنَّه من المهم أن ينتقل البحث -بعد ما سبق بيانه- إلى ذكر أهم أنواع المراء في الدين، وأشكاله التي تشكّل في قوالبها، وأهم المداخل التي ولج منها الممارون في الدين إلى عقيد ة المسلمين، والتي كان لها الأثر الكبير في انحرافاتٍ عقدية، وانقسامات طائفيّة، كانت سبباً لتفرّق الأمة، ما زال أثرها وسوء مغبّتها إلى يومنا هذا.

وأنواع المراء في الدين بحسب الاستقراء والتتبع، بعد جمع النظير إلى نظيره، وضمِّ الشبيه إلى مثيله، ستة أنواع على ما يلي بدأً بالأهم فالمهم:

المبحث الأول: المراء في الله ﷻ وتوحيده.

المراء في الدين، من أخطر الأشياء، وأعظم الأسباب لهدم العقائد، والتشكيك فيها، والسفسطة فيما لا تشك فيه العقول وتحكم ببداهته، و كثرة الخصومة والجدال، وتشقيق المسائل والأقوال، والتمادي بالمراء والخوض في ما لا يجوز، قد يحدث اضطراباً وحيرةً وتشكيكاً، فيما توافق على صحّته النقل الصريح، مع العقل الصحيح، وشهدت له الفِطَر بالقبول، وهذا ظاهرٌ في جملة من القضايا الاعتقادية، التي وقع الخوض والمراء فيها، حيث حلَّ الشكُّ منها محلَّ اليقين، عند من كانت بضاعته في الدين: المراء والجدال.

وإنَّ من المسلّمات اليقينية التي فاقت الشمس وضوحاً وجلاءً، ما يتعلّق بالإيمان بالله ﷻ، أوّل أركان الإيمان الستة، وما يندرج تحت هذا الركن من مسائل هي من أصول الإيمان التي لا يصحُّ إيمان عبدٍ بدونها.

وهذا الجانب العظيم من اعتقاد ذوي الإيمان، لم يسلم من عادية المراء والتهوّك فيه بالمجادلة والمخاصمة، والجرأة فيه بالخوض بالباطل، حتى دخل على الناس من الأقوال والمقالات والشبه، ما يقَفُّ له الشعر، ويقشعرُّ منه الجلد، ويضطرب له الفؤاد، ولا يخطر على المسلم ببال، وهذا الأمر يفسر طبيعة الإنسان من حيث هو، كما قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2]، ولقد كثر خصام هذا المخلوق

(١) سورة النحل آية (٤).

(٢) سورة يس آية (٧٧).

الضعيف في ربّه تعالى، وأكثر فيه المراء، وجادل بالباطل ليدحض به الحقّ، كما وصف الله ﷻ الإنسان بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾(١) .

وكان المراء في الله ﷻ عند الممارين، له أوجهٌ ومسالك، ومن أبرزها ما يلي:

١. المراء في ذات الله تعالى.

٢. المراء في أفعال الله تعالى وأسمائه وصفاته.

٣. المراء في توحيد الله تعالى.

---

(١) سورة الكهف آية (٥٤).

المطلب الأول: المراء في ذات الله تعالى.

من شدّة خصومة الإنسان في ربّه تعالى، أنَّه استطال بعقله القاصر إلى ما لا يمكن إدراكه، ولا يصل منه إلى ما ينفعه، ولم يُطالب أن يتكلّف علمه، وهو البحث عن كيفيّة الذات الإلهيّة المقدسة، وما يتصل بذلك.

وذات الله ﷻ: هي حقيقته، «وقيل: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهو موجود بحقائق الإيمان على الإيقان بلا إحاطة إدراك، بل هو أعلم بذاته، وهو موصوف غير مجهول، وموجود غير مدرك، ومرئي غير محاط به؛ لقربه كأنك تراه، يسمع ويرى، وهو العلي الأعلى، وعلى العرش استوى، تبارك تعالى، ظاهر في ملكه وقدرته، قد حجب عن الخلق كنه ذاته، ودلّهم عليه بآياته»[(١)].

وهذا النوع من العلم لا يعلمه إلا الله ﷻ، وعقول البشر أضعف وأعجز من أن تدرك هذه العلوم التي تحار فيها؛ وذلكم «أن الكلام في ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل، أو على جهة الإحاطة على حدِّ علم الله، كلاهما باطل، بل من المتشابه الممنوع، الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[(٢)]، ولقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٣)]، وإنما تتصور المخلوقات وما هو

---

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ١/ ١٨٥.

(٢) سورة طه (١١٠).

(٣) سورة الشورى (١١).

نحوها»[١].

والعقول الصحيحة والفطر السليمة قد شهدت بوجود حقيقة الإله المعبود، وهذا ما فطر الله ﷻ الناس عليه، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢]، إلا أنَّ الذات الإلهية المقدّسة، لا يمكن للبشر أن يدركوا منها شيئاً، حاشا ما أطلعه الله عليه من أسمائه وصفاته، فالله ﷻ بيّن في كتابه العزيز، أنَّ له الأسماء الحسنى، ووصف نفسه بالصفات العلى، فإذا ما علم المكلفون ربّهم ﷻ بأسمائه وصفاته، استطاعوا أن يعبده بمقتضى الخشية منه ﷻ، وأما الدخول فيما وراء ذلك، فهو سيرٌ في سُبُل المهالك؛ وذلكم لأنَّ «الله تعالى غيب لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، ولولا أنه سبحانه عرّف عباده على نفسه، ما عرفوه كما هو، لقد عرف الله تعالى عباده على نفسه من خلال أسمائه وصفاته، ولولا تعريفه نفسه بذلك إلى خلقه، ما عرفوه سبحانه»[٣]؛ لعظمته وجلاله.

ومعرفة العبد لربّه ﷻ، «هي عبارة عن معرفة وجود ذاته بصفات الكمال، فيما يزل ولا يزال، دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته، لاستحالة ذلك عقلاً»[٤].

ولقد عُرف من المراء في ذات الله ﷻ ما فعله المشركون مع النبي ﷺ، حيث ورد في الحديث عن أبي بن كعب ﷺ: «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل

---

(١) إيثار الحقِّ على الخلق، ص ٩١.

(٢) سورة الروم (٣٠).

(٣) إيضاح الدليل في قطع حجة أهل التعطيل، لابن جماعة، ص ٢٠، تحقيق وهبي سليمان غاوجي الألباني، مكتبة دار السلام، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

(٤) شرح الكواكب المنير، للفتوحي الحنبلي ٣٠٨/١، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، سنة الطبع ١٤١٣هـ.

الله ﷻ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾(١)»، وهذا -والله أعلم- من باب المباهتة والمخاصمة للنبي ﷺ ومرائه، محاولةً لدحض الحق الذي تقرّر لديهم، ولم تسعفهم حجّةٌ في دفعه، وإلا كيف يسأل هؤلاء مثل هذا السؤال -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

قال الله ﷻ : ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾(٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ مرة رجلاً إلى رجلٍ من فراعنة العرب: أن ادعه لي فقال: يا رسول الله إنه أعتى من ذلك، فقال: اذهب إليه فادعه، فأتاه فقال له: يدعوك رسول الله، فقال: رسول الله! وما الله؟ أمن ذهب هو؟ أو من فضة؟ أو من نحاس؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، وقال: قد أخبرتك يا رسول الله أنه أعتى من ذلك، فقال ارجع إليه فادعه، فأتاه فأعاد عليه القول الأول، فأعاد عليه مثل جوابه الأول، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه فادعه، فرجع إليه الثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما، إذ بعث الله ﷻ بسحابة حيال رأسه فرعدت وأبرقت ووقع منها صاعقة ذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله ﷻ:﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾(٣)» (٤)، وهذا الحديث يدُّل على شدة مخاصمة ذلك المشرك في ذات الله ﷻ،

---

(١) سورة الإخلاص الآيتان (١ _ ٢).

(٢) سورة الرعد آية (١٣).

(٣) سورة الرعد آية (١٣).

(٤) أخرجه البزار في مسنده، (٧٠٠٧)، ١٣/ ٣٦١، وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح، غير ديلم بن غزوان، وهو ثقة. ينظر: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/ ١٢٦)، والطبراني في المعجم الأوسط=

وهذا المراء مفاده: التشغيب على النبي ﷺ وردِّ ما جاء به، صنيعَ الأمم المعذّبة.

ولقد بين النبيُّ محمد ﷺ أنَّ من مداخل الشيطان على الإنسان، أن يأتيه بوساوس وخواطر تسوق إليه الحيرة والاضطراب، والتشكيك والارتياب، ومن أعظم ذلك التفكير في الذات الإلهية المقدسة، ومحاولة التسلّق بالعقل إلى ما يحار فيه، ولا يهتدي إليه سبيلا.

والاسترسال في ذلك قد يكون من أسباب الخوض والمراء في الذات الإلهية المقدسة؛ لأنه إذا تكلّف بعقله الدخول في هذا الأمر العظيم، قد يقع في التشبيه والتمثيل، أو التكييف والتعطيل، ومن أثره ذلك أنْ يكثُرَ الكلامُ ويتفرّع القول، فيتولّدُ حينئذٍ الجدال والمراء.

والإيمان الكامل ينافي سلوك هذه الطريق المُهلكة، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّمَ به، قال: «أوقد وجدتموه؟»، قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[(١)]، وهذا الحديث يدلُّ «أنَّ هذه الإلقاءات والوساوس التي تلقيها الشياطين في صدور المؤمنين تنفر منها قلوبهم، ويعظم عليهم وقوعها عندهم، وذلك دليل على صحة إيمانهم ويقينهم ومعرفتهم بأنها باطلة، ومن إلقاءات الشيطان، ولولا ذلك لركنوا إليها، ولقبلوها ولم تعظم عندهم، ولا سمّوها وسوسة، ولما كان ذلك التعاظم وتلك النفرة

=(٢٦٠٢)، ٣/ ٩٦، وأبو يعلى في مسنده، (٣٣٤١)، ٦/ ٨٧، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، وقال المحقق: إسناده صحيح.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (١٣٢).

عن ذلك الإيمانَ، عبّر عن ذلك بخالص الإيمان»[١].

وهذا يدلنا على أن الإيمان ينافي الوساوس في الذات الإلهية، فكيف بالمراء الذي هو أعظم خطراً منها، وجالبٌ للمزيد من الشكوك والوساوس!

قال إسحاق بن راهويه[٢]: «لا يجوز التفكر في الخالق ويجوز للعباد أن يتفكروا في المخلوقين بما سمعوا فيهم، ولا يزيدون على ذلك؛ لأنهم إن فعلوا تاهوا»[٣].

وهذا هو الواقع من حال أهل الأهواء والبدع أنَّهم تفكروا في الخالق تعالى بعقولهم، وشبّهوه بالمخلوق، فكثر مراؤهم وجدالهم، وتعاطوا بآرائهم ما لا يهتدون إليه سبيلاً، فضلوا ضلالاً بعيداً.

ولقد بين النبي ﷺ، أن المراء في ذات الله ﷻ سيكون في هذه الأمة قدراً، فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟» ، قال: وهو آخذ بيد رجل، فقال: صدق الله ورسوله، قد سألني اثنان وهذا الثالث، أو قال: سألني واحد وهذا الثاني[٤].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ٣٤٤.

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي _ ولد عام ١٦١هـ، وتوفي عام ٢٣١هـ _ أبو يعقوب الإمام الكبير، شيخ المشرق، سيد الحفاظ. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٥٨ ، وتهذيب الكمال ٢/ ٣٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٧٢.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁، أخرجه البخاري عن أنس ﵁ بلفظ ((لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله)) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه، (٧٢٩٦)، ومسلم، واللفظ له في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (١٣٥).

وورد أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[(١)]، وفي رواية «فليقل آمنت بالله»[(٢)].

وهذه الأحاديث تبيّن: أنَّ النبي ﷺ حسم مادّة الخوض في الذات الإلهية بأوهام العقول، وأقفل الباب قبل فتحه، وأخبر عن المخرج فيما لو فُتح.

والنهي في الحديث عن تلك الوساوس ليس من باب النهي «عن إيقاع ما وقع منها، ولا عن ألا تقع منه، لأن ذلك ليس داخلا تحت الاختيار»[(٣)]؛ لأن الخواطر تعتري الإنسان قدراً، ولكن الاسترسال معها هو المحذور، والأشد من ذلك الخوض في هذه المسائل العظام، والولوج فيها بالمراء والخصام.

ولهذا بين النبي ﷺ العلاج الأنجع لمثل هذا، «وهذه كلها أدوية للقلوب السليمة، الصحيحة المستقيمة، التي تعرض الشبهات لها ولا تمكث فيها...فأما القلوب التي تمكنت منها أمراض الشبه، ولم تقدر على دفع ما حلَّ بها بتلك الأدوية المذكورة، فلا بد من مشافهتها بالدليل العقلي، والبرهان القطعي»[(٤)].

ومما تقدم بيانه، تظهر شناعة المراء في الذات الإلهية والخوض بالآراء والعقول، لما يفضي ذلك إلى الحيرة والاضطراب، وتأمل مناظرة الجهم بن صفوان حيث خاصمته

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (٣٢٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (١٣٤).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ٣٤٥.

(٤) المصدر السابق١/ ٣٤٥.

طائفة السمنية[١] في الله ﷻ، قالوا له: هل رأيت إلهك؟ قال: لا، قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قالوا: فشممت له رائحة؟ قال: لا، قالوا: فوجدت له حسّاً؟ قال: لا، قالوا: فوجدت له مجسّاً؟ قال: لا، قالوا: فما يدريك أنه إله؟ فمكث أربعين يوماً لا يصلي، لا يدري ما يعبد! حتى خرج على الناس ببدعة عظيمة، وتأوّل القرآن الكريم على غير تأويله، وكذّب بالأحاديث التي تخالف مذهبه، وكفّر من اعتقد ظواهر القرآن والسنّة مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ[٢].

ولأجل هذا الأمر الفظيع، ورد النهي عن المراء في ذات الله ﷻ؛ لما يفضي إليه من الكفر والزندقة، وعلى ما تقدم فالمراء في الذات الإلهية من أعظم الأخطار التي تهزُّ عقيدة المؤمن، ومع الأسف الشديد أنَّ بعض من ينتسب إلى القبلة من الطوائف الزائغة، قد اتخذوا ذلك ديناً، فكثر خصامهم وجدالهم ومراؤهم في ربّهم ﷻ، وشغلوا الناس بما عافاهم الله ﷻ منه، وتأمل هذا السؤال الذي سؤله الإمام الشافعي عن علم الكلام، فألقى على السائل مسألةً في الفقه، فأجاب عنها، فأورد عليه الشافعي شيئاً أفسد جواب السائل، فأجاب بغيره، فأدخل الشافعي ما أفسد به جوابه مرة أخرى، فجعل كلما جاء السائل بجواب أفسده عليه الشافعي؛ ليريه كيف تكون الخصومة والجدال وتشقيق الكلام، حتى قال الشافعي: هذا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس، يدخله

(١) السمنية: فرقة من أصحاب التناسخ، قالوا: بقدم العالم، وإبطال النظر والاستدلال، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس. ينظر: الفرق بين الفرق ص ٢٠٢، والتبصير في الدين ص ١٤٩).

(٢) ينظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد، ص ١٩، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٤٢١.

مثل هذا! فكيف الكلام في ربِّ العالمين الذي الجدال فيه كفر؟[١].

وقد ورد في ذلك نهيٌ بخصوصه عن المراء في ذات الله ﷻ، كما ورد عن عبد الله بن سلام ﵁ قال: خرج رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله، فقال لهم: «لا تتفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق ملكاً قدماه في الأرض السابعة السفلى، ورأسه قد جاوز السماء العليا من بين قدميه إلى كعبيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، الخالق أعظم من الخلق»[٢].

(١) ينظر: الآداب الشرعية ١/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٧، والحديث بمجموع طرقه وشواهده حسنه الألباني. ينظر: (السلسلة الصحيحة ٤/ ٣٩٦، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ).

المطلب الثاني: المراء في أفعال الله تعالى وأسمائه وصفاته.

هذا النوع من المراء ابتلي به المسلمون بعد القرون المفضلة، ودخل على الإسلام منه شرٌّ مستطير، واتسع فيه الخلاف والنزاع اتساعاً عظيماً، وأصبح الناس بعده شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، وانقسم الناس إلى طوائف، كلٌّ يدّعي التحاكم إلى الكتاب والسنة، وفي الواقع نجد تحاكم الفرق الضالة إلى عقولهم وما استقرَّ في عقائدهم المنحرفة، التي حملوا النصوص عليها، وأساءوا الظنَّ بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فحرّفوه إلى ما تهواه عقولهم، وردّوا ما ثبت عن النبيﷺ من صحيح الأخبار، واستغنوا عنها بنحاتة الأفكار، وأقوال الفلاسفة من سائر المشركين والكفار.

وما قدروا الله ﷻ حق قدره، إذ نبذوا ما وصف الله ﷻ به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ وراءهم ظهرياً، فاشتطّوا عن الحقّ مكاناً قصياً، ويقال لهم فيما خاضوا فيه: أأنتم أعلم، أم الله ﷻ ورسوله ﷺ؟ فكيف يتقدّمون بين يدي الله ﷻ ورسوله ﷺ؟ والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[1]، وفي نصوص الوحيين الكفاية من كلِّ ما تهوّك فيه المجادلون، وتقلّب في حمئته الممارون، قال الدارمي: «ولولا ما اخترع هؤلاء الزائغة من هذه الأغلوطات والمعاني، يردون بها صفات الله ويبدلون بها كلامه، لكان ما ذكر الله من ذلك في كتابه كافياً لجميع

---

(١) سورة الحُجُرات آية (١).

الأمة، مع أنه كاف شاف إلا لمتأوّل ضلال، أو متبع ريبة»[١].

وإنَّ هذا النوع من المراء قد انتزح منه أهل الأهواء والبدع، حتى ضربوا في الضلال بعطن، وكدروا منه الدلاء، وأعظموا في الإسلام المنكر والبلاء، وقد كان المسلمون في عافية من ذلك، حتى خلفت خلوف أدخلوا في الدين ما ليس منه، وثوّروا مسائل وأحدثوا أقاويل، لم تكن في ملّة إلا أفسدتها، ولا نحلة إلا فرّقت بين أهلها، وقد علمنا فيما تقدم كيفيّةَ دخول الكتب الفلسفية والمنطقية إلى بلاد الإسلام وكيف كان أثرها[٢]، بيد أنَّ الخطب يعظم، والأمر يشتدُّ، إذا كان المراء والجدال والخوض بمحض العقول، فيما يتعلّق بأفعال الله ﷻ وأسمائه وصفاته، التي لا يمكن أن تُعلم إلا من طريق الوحي، ثم يُترك في ذلك الوحي لقواعد -يزعمون أنها- عقلية منطقية، ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، حاكموا النصوص إليها، فقالوا على الله ﷻ بغير علم، وردّوا على الرسول ﷺ خبره بغير فهم، وقد جعلوا مما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، غرضاً لمرمى سهام شبههم، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتأولون القرآن الكريم على غير تأويله، ويردّون ما صحَّ عن النبي ﷺ من أحاديث بحجة أنها لا تفيد اليقين، و قد قال بعض أهل العلم: «لا تهلك هذه الأمة حتى تظهر فيهم الزندقة، ويتكلّموا في الرب تبارك وتعالى»[٣] -ولعمر الله- لقد خاض من قلَّ نصيبه من العلم في مسائل عظيمة من الدين وأصول الإيمان، سئل الإمام مالك عن البدع، فقال: «أهل البدع الذين تكلمون في أسماء

---

(١) الرد على الجهمية، ص ١٥٩.

(٢) ينظر: صفحة ٢١١.

(٣) الرد على الجهمية، للدارمي، ص ٤٤.

الله تعالى وصفاته وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»[(١)].

وقد كان المسلمون في عافية من هذا المراء في أفعال الله ﷻ وأسمائه وصفاته، حتى ابتدع ذلك فيهم الجهم بن صفوان الترمذي وأدخل عليهم منه ما لا يعرفونه، وخاض في ذلك وأكثر فيه المراء، حتى تفرّع عن مقالاته من ينتسب إلى محدثاته، وهم الجهمية الذين حملوا لواء الجدال والمراء في ذلك، واصطنعوا عبارات ومصطلحات تكلّفوها ليس لهم فيها برهان، ولم يقتدوا بمن سبقهم من أهل العلم والإيمان، خارجين بذلك عن زمرة أهل السنة والجماعة، ولم يسعهم ما وسع النبي ﷺ وأصحابه من أهل القرون المفضلة، وهؤلاء هم أتباع الجهم في ضلاله، وكل من سلك سبيلهم الحائدة عن سواء السبيل، ممن أحسن ظنَّه بغير ما بعث الله ﷻ به نبيه ﷺ من الهدى والعلم، قال شيخ الإسلام -متحدّثاً عن بعض صنائعهم-: «هم أول من أحدث في الإسلام هذه الصفات السلبية وإبطال نقيضها، مثل قولهم: ليس فوق العالم ولا هو داخل العالم ولا خارجه، وليس في مكان دون مكان، وليس بمتحيز ولا جوهر ولا جسم ولا نهاية ولا حدِّ ونحو هذه العبارات، فإن هذه العبارات جميعها وما يشبهها لا تؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين، ولا من أئمة الدين المعروفين، ولا يروي بها حديث عن النبي ﷺ، ولا توجد في شيء من كتب الله المنزلة من عنده، بل هذه هي من أقوال الجهمية ومن الكلام الذي اتفق السلف على ذمّه، لّما أحدثه من أحدثه، فحيث ورد في كلام السلف ذم الجهمية كان أهل هذه العبارات داخلين في ذلك، وحيث ورد عنهم الكلام والمتكلمين، كان أهل هذه العبارات داخلين في ذلك، فإن ذلك لما أحدثه

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية ١/ ٢٦٨.

المبتدعون كثر ذم أئمة الدين لهم، وكلامهم في ذلك كثير قد صنف فيه مصنفات، حتى إن أعيان هذه العبارات وأمثالها ذكرها السلف والأئمة فيما أنكـروه على الجهمية وأهل الكلام المحدث»[1].

وعندما نتأمل في بعض الأمثلة من خوض أولئك المبطلين المُمارين في هذا الباب، نجد أنها في غاية الشناعة، ونهاية الجرأة على الله ﷻ، والتعمق والتنطع والتكلّف الذي ذُمَّ في الشرع، ولا ريب أن حكاية أقوالهم فيها ما فيها، إلا أنَّ تبيان الحقِّ وردَّ الباطل قد يستلزم ذلك بضوابط وقواعد، على أن بعض السلف قد كره حكاية أقوال المجادلين في الله ﷻ بغير علم، قال ابن عبد البر: «وتناظر القوم وتجادلوا في الفقه، ونهوا عن الجدال في الاعتقاد؛ لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين، ألا تـرى مناظرة بشـرٍ في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[2]، حين قال: هو بذاته في كل مكان، فقال له خصمه، هو في قلنسوتك وفي حشك وفي جوف حمار -تعالى الله عما يقولون-...وأنا -والله- أكره أن أحكي كلامهم قبحهم الله، فمن هذا وشبهه نهى العلماء»[3].

وما من شكٍّ أنَّ المراء في هذه المسائل يخرج بأصحابه إلى ما يردُّه الشرع، ويقفُّ منه الشعر، ويستعظمه القلب، ويستبشعه العقل، وهذه نتيجة حتميّة لكل من خرج عما دلَّ عليه الكتاب والسنة، من الحق الذي تصدقه الفطر وتشهد له العقول بالصحة، إلى حيث الضلال والطريق التي لا توصل إلا إلى الهلكة والحيرة.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٥٦.

(٢) سورة المجادلة آية (٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٥.

قال الدارمي -متحدثاً عن حال أولئك الممارين مصوراً حقيقة اعتقادهم التي وصلوا إليها من جراء المراء في أفعال الله تعالى وصفاته-: «نبغت هذه النابغة بين أظهر المسلمين، فأعظموا في الله القول، وسبوه بأقبح السباب، وجهلوه ونفوا عنه صفاته، التي بها يُعرف صفةً صفةً، حتى نفوا عنه العلم الأول السابق والكلام والسمع والبصر والأمر كله، ثم جعلوه كلا شيء، فقالوا في الجملة: ما نعرف إلهاً غير هذا الذي في كل مكان، فإذا باد شيء صار مكانه، فنظرنا في صفة معبودهم هذا فلم نجد بهذه الصفة شيئاً غير هذا الهواء القائم على كل شيء، الداخل في كل مكان، فمن قصد بعبادته إلى إله بهذه الصفة فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده ذاك بإله، كفرانه لا غفرانه»[١].

ومن أساليب أهل البدع في مرائهم في أفعال الله ﷻ وأسمائه وصفاته أنهم زعموا أن آيات الصفات في القرآن الكريم مجازات لا حقيقة لها، وأنَّ ظواهرها غير مراد[٢]، فنفوا بذلك كلَّ ما أثبته الله ﷻ لنفسه، واستدلوا على ذلك بما يزعمونه من الدليل العقلي، وأن النصوص إذا وردت على خلاف ما يقتضيه العقل -عندهم- فإنهم يلجئون تجاه الأدلة النقلية إلى طريقين:

إما أن يقال: إنها غير صحيحة، وإما أن يقال في حال كونها صحيحة: إن ظاهرها غير مراد، وهم في هذا إما أن يؤولوا، أو يفوضوا، وهذا ما يسمونه بالقانون الكلي[٣]،

(١) الرد على الجهمية، ص ١٢٩.

(٢) ينظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم ١/ ٦٣٢، تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

(٣) ينظر: أساس التقديس، للرازي، ص ٢٣٤ _ ٢٣٥، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، سنة الطبع ١٤٠٦هـ.

وقد تصدّى شيخ الإسلام للرد على هذا القانون الذي اخترعه أهل الكلام، فنقضه من أساسه، فخرَّ عليهم سقف قانونهم من فوقهم، وأتاهم بالحقِّ من حيث يطلبون غيره(١).

ولا ريب أنَّ إساءة ظنّهم بما جاء في الكتاب والسنة، من صفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله، كان سبباً لخوضهم ومرائهم، وتخرّصهم بظنونهم، فإذا أساءوا ظنونهم بالحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

قال ابن القيم: «ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبيّن، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق، إلى ما يوهم بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنَّ السوء، وظنَّ أنه هو وسلفه عبّروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره

---

(١) وذلك في كتابه الكبير درء تعارض العقل والنقل.

التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوء الظنِّ بالله»[(١)].

ومن مراء أهل الأهواء في هذا الباب أيضاً، أنهم تكلّموا في أشياء سكت عنها النبي ﷺ ووسعه في ذلك ما أوحاه الله ﷻ إليه، وهؤلاء القوم لم يسعهم ما وسع النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، حتى خاضوا في مسائل جلبت لهم الحيرة والتخبّط، ولم يتحصّلوا منها على طائل، سوى ما ذهبوا إليه من الضلال، ومن ذلك خوضهم في الاسم هل هو المسمّى أم لا؟ فقالوا: «الاسم غير المسمّى، وأسماء الله ﷻ غيره، وما كان غيره فهو مخلوق»[(٢)]، والذين ذهبوا إلى هذا القول من المبتدعة هم الجهمية ليسلم لهم القول بأنَّ القرآن الكريم مخلوق، وكلُّ هذا من البدع التي شغب بها المبتدعة على الناس، ولهذا قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري: «القول في الاسم أهو المسمى أو غير المسمى؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، والخوض فيه شين والصمت عنه زين، وحسب امرىء من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الصادق ﷻ وهو قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾[(٤)]، ويعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فمن تجاوز ذلك فقد خاب

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٢٣١.

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ١٨٦، وينظر: أصول الدين، لأبي منصور عبد القاهر البغدادي، ص ١٣٨، تحقيق أحمد شمس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) سورة الإسراء آية (١١٠).

(٤) سورة الأعراف آية (١٨٠).

وخسر»(١).

وكذلك خوضهم في مسألة: الصفة هل هي الموصوف أو غيره؟ ويقال أيضاً في التعبير عنها: هل الصفات هي الذات أو غيرها؟ وهذه المسألة شبيهةٌ بسابقتها، وهذه من الألفاظ التي لم تأتِ في كتاب ولا سنّة، ولو كان فيها علمٌ لبيّنها النبي محمد ﷺ ولم يتركها للممارين والمجادلين، حتى يخوضوا فيها بأهوائهم.

وقصارى هذه المسائل وأشباهها، التوصل إلى نفي الصفات عن الله ﷻ، لأن إثبات الصفات عندهم يلزم منه تعدد القدماء، وهذا من لوازم قولهم: أن الصفات غير الذات؛ وذلك لأنهم « يزعمون أن إثبات الصفات ينافي التوحيد، ويزعمون أنهم هم الموحدون فإن من أثبت الصفات فهو مشبه ليس بموحد، وأنه يثبت تعدد القدماء لا يجعل القديم واحداً فقط، فالجهمية من المتلفسفة والمعتزلة وغيرهم يبنون على هذا»(٢).

والمقصود هنا هو التنبيه على بعض ما يتعاطاه أهل البدع في مخالفة الكتاب والسنة فيما وصف الله ﷻ به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، حيث لجئوا إلى طرق معوجّة؛ لإبطال ما دلّت عليه النصوص، بمراءٍ بارد، ومجادلةٍ مارد، وابتدعوا أشياء واصطلحوا مصطلحات ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، وذلك ليتوصّلوا إلى تقرير معتقداتهم بأهوائهم بأساليب جدليّة، يميّعون معها دلالات النصوص ليحرفوها إلى ما اعتقدوه، والمقام يضيق عن حصر طرقهم التي أبطلوا بها دلالات النصوص

---

(١) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٢٠٨.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ١/ ٤٦٣، وينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٣/ ٣٣٦، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/ ١٠٩٠، للدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

في أسماء الله ﷻ وصفاته، ولكنَّ المراد هو بيان الإطار العام لمرائهم في هذا الباب، وما اعتمدوه من الجدال المذموم، والمراء العقيم، لتقرير ما اعتقدوه، وردِّ ما لا يوافق أهواءهم، والله المستعان.

قال الإمام أبو القاسم الأصبهاني: «قال بعض علماء أهل السنة: الكلام في صفات الله صعب، والدخول فيها شديد، ومن تكلم في صفات الله بما لا يليق به، ونسب إليه ما لا يحسن في صفاته، وترك الاتباع، وآثر الاختراع، ضلَّ عن الهدى وقد ذم الله أقواماً خاضوا في آياته فقال عز من قائل لنبيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[(١)]، فأمره بالإعراض عنهم، ثم أمر نبيه أن يبين للمؤمنين ما أنزله إليه من كلامه فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[(٢)]، وكل ما بينه الله تعالى، أو رسوله فقد كفانا الله»[(٣)].

وهذا الباب العظيم لا يمكن للعقول أن تخوض فيه، بالتخرّصات والظنون، والمجادلات والمراء، «فإنَّ العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات، وكيفية الصفات؛ ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٤)]...»[(٥)].

---

(١) سورة الأنعام آية (٦٨).

(٢) سورة النحل آية (٤٤).

(٣) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٧٧.

(٤) سورة الشورى آية (١١).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٩٠.

المطلب الثالث: المراء في توحيد الله تعالى.

يمكن تقسيم المراء في توحيد الله ﷻ، وذلك بحسب الاستقراء إلى نوعين كما يلي:

الأوّل: مراء المشركين في توحيد الله ﷻ، وهذا المراء منصبٌّ على توحيد الألوهية على وجه الخصوص، وهو الذي وقعت فيه الخصومة واشتدّت فيه المحاجّة والمجادلة بين الرسل عليهم السلام، وبين خصومهم ومن تشبّه بهم واقتفى أثرهم.

الثاني: المراء في توحيد الربوبية، وهذا وقع عند من مارى فيه وجادل، على وجه المكابرة والمعاندة.

وتفصيل ذلك على هذا النحو:

النوع الأول: المراء في ربوبية الله ﷻ.

وهذا المراء في هذا النوع من التوحيد، لم يكن من بني آدم إلا على وجه المكابرة والجحود باللسان لما استيقنه القلب، كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]، ولا يُعرف من جادل فيه وأكثر فيه المراء، إلا الشواذُّ من الناس، الذين اجتالتهم الشياطين وحرفتهم عن الفطرة السويّة، ولعلّ من أبرز الذين جادلوا في هذا النوع من التوحيد وماروا فيه، ما يلي:

---

(١) سورة النمل آية (١٤).

• الدهرية الذين يجحدون البعث والمعاد، ويزعمون أنَّ الله تعالى لا يبعث من في القبور، ولا يحيي الموتى للبعث والنشور، ويزعمون أنَّ هذه الحياة الدنيا هي الحياة التي ليس بعدها غيرها، فليس إلا الفناء، ويقولون ما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١]، وهذا إخبار عن الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم على ذلك، ومعنى قولهم: أنه ليس «ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة»[٢]، وكما قال قائلهم:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام[٣].

وعقيدتهم هذه فيها نفيٌ لبعض خصائص الربوبية، ومنها القدرة على إحياء الموتى وبعثهم بعد تفرقهم في الأرض، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، وقال قائلهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾[٥]، وقد أنكروا ذلك صراحة، مع إيمانهم بأنَّ الله تعالى هو الخالق الرزاق، وهذه السفسطة منهم، تقّول بلا علم، ومراء بمحض الهوى دون دليل، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

---

(١) سورة الجاثية آية (٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير ١٢/ ٣٦٣.

(٣) القائل هو شداد بن الأسود الليثي. ينظر: الروض الأنف ٣/ ٢٠٣.

(٤) سورة السجدة آية (١٠).

(٥) سورة يس آية (٧٨).

• الطبائعيون ويُسمّون أصحاب الطبائع، القائلون: بأن الأصل في الوجود العناصر الأربعة: الطين والماء والنار والهواء، وهذا المذهب كما ترى، مبنيٌّ على إنكار الخالق لهذا العالم، وأنه لا مدبِّر له، كما أنهم أيضاً يستبعدون كل مؤثر لهذا الكون، سوى ما زعموا من صنع الطبيعة، وهؤلاء لهم امتدادٌ إلى هذا الوقت المعاصر، وهم الشيوعيون القائلون: إن المادة هي أساس كل شيء، ولا يؤمنون بدين، وينكرون جميع الغيبيات، وهم يشبهون من وجه ما في عقيدتهم عقيدة الطبائعيين(١).

• القائلون بالصدفة، الذين يزعمون أن العالم ليس له خالق، ولكن وُجد مصادفة من جراء تجمع الذّرّات والجزئيات عن طريق الصدفة فتكوّن منها هذا العالم، ومعرفة هذا القول كافٍ في بيان نزوع هؤلاء إلى المراء والمجادلة بغير علم، ولهذا أحسن الإمام أبو حنيفة في قوله، لما ناظر قوماً منهم، أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد! فقالوا: هذا محال، لا يمكن أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟...إذا كان هذا محالاً، فإننا نشاهد هذا الكون مدبراً أتم تدبير، فهل يصدق عاقل أنه وجد بالصدفة من غير موجد؟ هذه الكواكب التي تطلع وتغرب في سير منتظم، لا يتقدم هذا عن وقته، ولا هذا عن وقته، وهذه الشمس وهذا القمر اللذان سيرهما في الشتاء له حدٌّ، وفي الصيف له حدٌّ، وهذه الرياح التي تثور أحياناً وتسكن أحياناً، وهذه

(١) ينظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي ٢/ ٣٠٧، والملل والنحل، للشهرستاني، ص٣٠٥، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٢٩٢.

البحار، وهذه الأنهار، وهذه الأشجار، وهذه المخلوقات المنبثّة في البر وفي البحر، والحيوانات والجماد، هل يعقل أنها وجدت بالصدفة؟ لا يمكن»[١].

• ومن أشهر من عُرف عنه الإنكار للخالق وجحده، بل وزعم أنه هو الربُّ الأعلى! وقال لمن استخفّه من قومه: ما علمت لكم من إلهٍ غيري! هو فرعون، وقد كان يعلم كذب ما ادّعاه، كما قال له موسى عليه السلام فيما حكاه الله عز وجل عنه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٢]، ولكن حَمَلَه الجدال والمراء؛ ليكابر ويجحد ما استقرَّ في الفطر، ومثله النمرود الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، وقد سبق ذكر ذلك فيما تقدّم[٣].

النوع الثاني: المراء في توحيد الألوهية

وأما المراء في أُلوهيّة الله عز وجل فالذي تولّى كبره هم مشركو العرب، والمشركون فيمن تقدّمهم من الأمم المهلكة الغابرة، وسلف الكلام في بيان ما جادلت به الأمم السابقة أنبيائهم ورسلهم عليهم السلام بهذا الصدد[٤].

وهذا نموذج من مراء المشركين من العرب في توحيد الألوهية، الذين قالوا ما حكاه الله عز وجل عنهم حيث دعاهم النبي محمد ﷺ إلى إفراد الله عز وجل بالعبادة والألوهية:

---

(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزِّ الحنفي ١/ ٣٥ _ ٣٦.

(٢) سورة الإسراء آية (١٠٢).

(٣) ينظر صفحة: ١٢٢.

(٤) ينظر صفحة : ٧٧.

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[١]، فغاية جدالهم أنهم قالوا: كيف يكون المعبود إلهاً واحداً؟ بل عدّوه ضرباً من العجب!

وعند النظر في شدة الخصومة والمراء في توحيد الله ﷻ، نجد أنَّ المراء فيما يتعلق بتوحيد الإلوهية أكثر وأشدُّ من المراء في توحيد الله ﷻ في ربوبيته، ولهذا كانت عامّة دعوة الرسل عليهم السلام، لأقوامهم بهذا النوع من التوحيد، الذي وقع فيه الضلال، وعظم فيه الجدال، وهو المراء في أُلوهيّة الله ﷻ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾[٢]، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣]، قال ابن عباس: «من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به»[٤]، وهم بذلك يغالطون أنفسهم، يعتقدون ربوبية الله ﷻ ثم يشركون معه في ألوهيّته، حيث يصرفون العبادة إلى غير مستحقّها، وكذلك كلُّ من سار على شبهتهم الموصلة لهم إلى هذا الشرك، حيث زعموا أن ما يعبدونه ويتقرّبون إليه من دون الله ﷻ وسائط وشفعاء يتقربون بسببها إلى الله تعالى زلفى؛ ليشفعوا لهم عند الله ﷻ، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا

---

(١) سورة ص آية (٥).

(٢) سورة النحل آية (٣٦).

(٣) سورة يوسف آية (١٠٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٨٣.

(٥) سورة الزُّمَر آية (٣).

﴿لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)].

وهذا النوع من الجدال في التوحيد والمغالطة فيه ما زال قائماً، له أصحابه الذين ينافحون عنه ويخترعون له الشبه، ويلبّسون على الدهماء، فيا لله العجب من هذه الوثنية المتأصّلة في قلوب بعض الناس[(٢)]!.

ومن ألوان المراء في توحيد الله تعالى: مراء أهل الضلال والبدع والشبهات في مفهوم التوحيد واختلافهم في ذلك، على حسب تنوّع ضلالهم وتباين باطلهم، الأمر الذي جعلهم في هذا الباب أحزاباً وشيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون، بيد أنهم تشابهوا في الضلال والحيدة عن الصراط المستقيم.

والذين خالفوا الرسل عليهم السلام في مفهوم التوحيد ممن ينتسب إلى القبلة، يمكن إيجاز القول فيهم بتقسيمهم إلى أربعة أقسام:

الأول: التوحيد عند الفلاسفة كابن سينا وأضرابه الذين عرّفوا التوحيد: بأنَّ واجب الوجود «واحد من كل وجه، ليس فيه أجزاء حدٍّ ولا أجزاء كمٍّ، أو يقال: ليس فيه كثره حدٍّ ولا كثرة كمٍّ، ويقال: ليس فيه تركيب المحدود من الجنس والفصل ولا تركيب الأجسام»[(٣)].

وحقيقة هذا المذهب إثبات ربٍّ لا وجود له إلا في الأذهان، وقد بيّن ابن القيم

(١) سورة يونس آية (١٨).

(٢) ينظر على سبيل المثال: بعض الشبه والردود عليها في كتاب كشف الشبهات للإمام المجد محمد بن عبد الوهاب، طبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، وكتاب منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داوود بن جرجيس، للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، دار الهداية، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١/ ٤٦٥.

مفهومهم في التوحيد، وشرحه شرحاً وافياً، أحاط فيه بالمقصود، حيث قال: «فأما توحيد الفلاسفة فهو إنكار ماهية الربِّ الزائدة على وجوده، وإنكار صفات كماله، وأنه لا سمع له ولا بصر ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة ولا كلام ولا وجه ولا يدين، وليس فيه معنيان متميز أحدهما عن الآخر ألبتة، قالوا: لأنه لو كان كذلك لكان مركباً وكان جسماً مؤلفاً، ولم يكن واحداً من كل وجه، فجعلوه من جنس الجوهر الفرد، الذي لا يحس ولا يرى ولا يتميز منه جانب عن جانب، بل الجوهر الفرد يمكن وجوده، وهذا الواحد الذي جعلوه حقيقة رب العالمين يستحيل وجوده، فلما اصطلحوا على هذا المعنى في التوحيد وسمعوا قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[2]، نزّلوا لفظ القرآن على هذا المعنى الاصطلاحي، وقالوا: لو كان له صفة أو كلام أو مشيئة أو علم أو حياة أو قدرة أو سمع أو بصر لم يكن واحداً، وكان مركباً مؤلفاً، فسموا أعظم التعطيل بأحسن الأسماء، وهو التوحيد وكسوه ثوبه، وسمّوا أصح الأشياء وأحقّها بالثبوت، وهو صفات الرب ونعوت كماله، بأقبح الأسماء وهو التركيب والتأليف، فتولد من بين هذه التسمية المنكرة للمعنى الصحيح وتلك التسمية الصحيحة للمعنى الباطل، جحد حقائق أسماء الرب وصفاته بل وجحد ماهيته وذاته وتكذيب رسله»[3].

وهذا المذهب الذي انتهجه الفلاسفة في باب التوحيد لم ينتهي عند هذا الحدِّ، بل امتدَّ أثره إلى من نشأ على اصطلاحهم ممن آثر البدعة على السنة، حتى جعل ذلك أصلاً

(١) سورة البقرة آية (١٦٣).

(٢) سورة المائدة آية (٧٣).

(٣) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٢٩.

لدينه ولم يعرف سواه، فإذا تعارض عنده العقل مع النقل قدم عليه العقل، ومن هذه البليّة تفرّعت البدع، وانتشر الجدال، واستطار في الدين المراء.

وهذا يمهد لنا الطريق إلى **القسم الثاني**: وهو توحيد الجهمية القدرية، والتوحيد عندهم، «العلم بأنَّ الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً، على الحد الذي يستحقه والإقرار به»[١]، وخلاصة توحيدهم: أنهم ينفون عن الله ﷻ كلَّ صفة وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ ولا يثبتون له شيئاً ألبتة، وتوحيدهم قائم على جحد حقائق الأسماء والصفات، بل وصفوا الله ﷻ بما يُوصف به العدم المحض، فحقيقة توحيدهم هو المبالغة في إنكار ما بعث الله ﷻ به الرسل، وأنزل من أجله الكتب.

القسم الثالث: توحيد الجبرية، وحقيقة هذا التوحيد عندهم هو توحيد الله ﷻ بكون أفعال العباد مخلوقة له تعالى، وأنه هو الفاعل لها دونهم، ومعناه: إخراج أفعال العباد أن تكون فعلاً لهم، وأما نسبتها إلى العباد وكونهم هم الفاعلون لها، فهذا مناقض لتوحيدهم.

القسم الرابع: توحيد الاتحادية[٢] القائلين بوحدة الوجود، وكون الوجود واحداً، وحقيقة التوحيد عندهم، أن الربَّ هو العبد! ليس في الكون خالق ومخلوق، بل الوجود

---

(١) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار المعتزلي، ص ١٢٨، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة الطبع ١٤١٦هـ.

(٢) هم القائلون باتحاد الخالق بالمخلوق، كقول النصارى في عيسى بن مريم، وكقول الصوفية في بعض أقطابهم، ويسمى الاتحاد الجزئي، ومنهم من يقول باتحاد الخالق بجميع المخلوقات، وهذا الاتحاد الكلي، وهو قرين وحدة الوجود. ينظر: الموسوعة الميسرة ٢/ ٩٥٣، وجواهر المعاني ١/ ٢٥٩، علي بن العربي براده المغربي الفاسي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

عندهم واحد بالعين، فوجود الخالق هو وجود المخلوق(١).

وكذلك من المراء في توحيد الله تعالى ما قرّره المتكلمون من معنى التوحيد، حيث زعموا أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل هو توحيد الربوبية فحسب، فأهملوا توحيد الألوهية، وجعلوا توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية، وفسروا كلمة التوحيد لا إله إلا الله، أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، فالتوحيد عندهم هو توحيد الأفعال(٢).

---

(١) ينظر: الصواعق المرسلة ٣/ ٩٢٩، ومجوع الفتاوى ٢/ ١٢٧، وفصوص الحكم، لابن عربي، ص ٨٤، تحقيق وشرح محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، سنة الطبع ١٤٠٥هـ، ورسائل ابن عربي، ص ١٢٠، تحقيق قاسم محمد عباس، وحسين محمد عجيل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي الإمارت العربية المتحدة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ٣/ ٩٨، وينظر كتاب: حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، ص ٤٧٢، للدكتور عبد الرحمن بن صمايل السلمي، دار المعلمة للنشر والتوزيع، بدون ذكر سنة الطبع، وشرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٢٨٣.

المبحث الثاني: المراء في القرآن الكريم.

قبل الدخول في الكلام عن المراء في القرآن الكريم، لابدَّ من بيان ما يدخل في معنى المراء من ذلك وما يخرج منه، مما هو من قبيل تثوير العلم من القرآن الكريم واستنباط معانيه.

والكلام على هذه المسالة من جانبين:

الأول: المراء الذي جاءت النصوص بالتحذير منه، والوعيد على فاعله.

والثاني: ما ليس منه ولا يدخل في معناه، وهو ميدان الاجتهاد المنضبط بالشرع، لمن تأهّل له، ورسخت قدمه في العلم، بحسب الشروط والضوابط المعتبرة في ذلك عند أهل العلم، وهذا على النحو التالي:

المطلب الأول: المراء في القرآن الكريم، والخوض في متشابهه.

المراء في القرآن الكريم من هذا الوجه له نوعان هما:

الأوَّل: المراء في القرآن الكريم من حيث اختلاف القراءة فيه على الأحرف السبعة التي نزل بها.

الثاني: المراء في القرآن الكريم من حيث الخصومة فيه واتباع متشابهه، وتأويله على غير ما فهمه السلف الصالح، وإحداث أقوال لا تسعفها النصوص، ولا تعضدها لغة العرب.

فالنوع الأوَّل: هو المراء فيه من حيث اختلاف القراءة فيه بالأحرف السبعة، وقبل الكلام عن ذلك من المناسب أن أُقدّم لمحةً تاريخيةً، تبيّن كيف كان بدّو ظهور المراء في القرآن الكريم، من هذا الوجه.

ومن طبائع الأشياء، أن آحادها تبدو في نشأتها صغيرةً، ثم ما تلبث أن تتعانق أواخرها بأوائلها؛ لتكبُر شيئاً فشيئاً، والحال أنَّ المراء في القرآن الكريم بدأت بواكيره التي أدَّت إلى جمع المصحف على حرف واحد، في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، وذلك «أن حذيفة بن اليمان ﷺ قدم على عثمان ﷺ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى...»(١)، الحديث، وهذا يطلعنا على أنَّه لم يكن خلاف بين المسلمين في شأن

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، (٤٩٨٧).

قراءة القرآن الكريم، حتى تعددت فيهم القراءة بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن أوّل ما نزل، فتعددت القراءة بتلك الأحرف في مختلف الأمصار؛ لأنَّ الصحابة ﷺ توطّنوا فيها بعد الفتوح الإسلامية، وتفرّق كلُّ واحد منهم في مصر من الأمصار، وأخذ كلٌّ منهم يُقرئ القرآن للناس، كما أخذه من رسول الله ﷺ، ومعنى هذه السبعة الأحرف أيْ: «على سبع لغات، وكان رسول الله ﷺ، يُلقّن كلَّ قبيلة من العرب، على حسب ما يحتمل من لغتهم، تخفيفاً من الله ﷻ ورحمة بأمة محمد ﷺ، فكانوا ربما إذا التقوا، يقول بعضهم لبعض: ليس هكذا القرآن، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ، ويعيب بعضهم قراءة بعض، فنهوا عن هذا، وقيل لهم: اقرؤوا كما عُلّمتم، ولا يجحد بعضكم قراءة بعض، واحذروا الجدال والمراء فيما قد تعلمتم»[1].

وإن كان شيء من الاختلاف على هذا النحو، قد وقع في زمن النبوة، إلا أنَّ النبي ﷺ بين أظهرهم، يعلّم جاهلهم، ويبيّن ما أشكل عليهم من أمرهم، ويصدرون عنه، وقد ورد في الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ، «يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرئنها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبّرت حتى سلّم فلبّبْته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإنَّ رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) الشريعة، للآجري، ص ٧١.

كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[(١)].

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر، فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذْ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني، ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله ﷻ فرقاً، فقال لي: يا أبيُّ أُرسل إلي: أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أنْ هوّن على أمتي، فرد إلى الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أنْ هوّن على أمتي، فرد إلى الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ»[(٢)].

وهذا الإشكال لم يلبث أن طواه الزوال، ولم يكن بعد ذلك البيان النبويِّ أيُّ خلاف، حتى حصل الاختلاف نفسه زمن عثمان ﷺ، ولكن بشكل أخطر، وتطورات أكبر، روى ابن جرير بسنده قال: «لما كان في خلافة عثمان، جعل المعلِّم يعلِّم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءةَ الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا، (٥٠٤١)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن انزل على سبعة أحرف، وبيان معناها، (٨١٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أنَّ القرآن أنزل على سبعة أحرف، وبيان معناها، (٨٢٠).

إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيبًا فقال: أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشدُّ فيه اختلافًا وأشدُّ لحنًا»[١].

ثم جمع القرآن الكريم على المصحف الإمام، ونسخه في مصاحف، وبعث بكلِّ مصحف إلى مصر من الأمصار[٢].

وهذا الاختلاف في القرآن الكريم، قد كان ثم «زال وكفى المؤمنين مؤنته، وذلك -بفضل الله ورحمته- ثم بجمع عثمان بن عفان ﷺ، الناسَ كلَّهم على إمام واحد، باللغات المشهورة المعروفة»[٣].

النوع الثاني: المراء في القرآن الكريم من حيث الخصومة فيه، وهذا يتفرع إلى ثلاثة فروع:

- المراء في القرآن الكريم من حيث الطعن في ثبوته وحفظه من الزيادة والنقصان.

وذلك على نحو ما يتعاطاه بعض الروافض من القول بتحريف القرآن الكريم، وأن الصحابة قد حرّفوه، وزادوا منه وانتقصوا، وأنَّه لم يجمع القرآن الكريم، سوى أئمة الإثني عشرية[٤].

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٩.

(٢) ينظر حديث حذيفة بن اليمان في صحيح البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، (٤٩٨٧).

(٣) الإبانة الكبرى ٢/ ٧٠.

(٤) ينظر نكت الانتصار لنقل القرآن، للباقلاني، ص ٩٥، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، وكتاب موقف الرافضة من القرآن الكريم، ص ٤٧، للمؤلف مامادو كارامبيري، مكتبة ابن تيميّة، دون ذكر سنة الطبع، وينظر من كتب الرافضة على سبيل المثال: تفسير الصافي للفيض الكاشاني=

• المراء في القرآن الكريم من حيث حقيقته، أهو منـــزّلٌ من عند الله ﷻ، أو مخلوق؟

ولقد أحدث أهل البدع في الإسلام حَدَثاً عظيماً إذ قالوا: إن القرآن الكريم مخلوق، وأدخلوا على المسلمين من ذلك فتنةً وصفها ابن كثير بقوله: «وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء، لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها»(١)، ومن هذا الاختلاف في القرآن الكريم في مسألة تنزيله، تفرع عن ذلك خلاف أخر في مسألة كلام الله ﷻ، وذهب المخالفون للسنّة فيه مذاهب شتّى وتفرقوا شيعاً، على قدر ضلالهم وبعدهم عن الحق، وكان الحامل للواء هذه البدعة بشراً المريسي، وقد ذكر ابن عبد البر بسنده، أن بشراً المريسي كتب إلى منصور بن عمار السلمي(٢) كتاباً يسـألـه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق؟ ويظهر من خلال هذا السؤال التعنت والمراء، فكتب إليه منصور بن عمار كتاباً أبان فيه عن طريقة السلف في مثل هذا المراء والجدال، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإياك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهل السنة، ومن لا يرغب بدينه عن الجماعة، فإنه إن يفعل فأولى بها نعمة، وإلا يفعل فهي الهلكة، وليس لأحد على الله بعد المرسلين حجة، ونحن نرى أن الكلام في القرآن بدعة، يتشارك فيها السائل والمجيب، تعاطى السائل ما ليس له، وتكلّف المجيب

=١/ ٤٠، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، والأصول من الكافي، لمحمد يعقوب الكليني ١/ ٢٢٨، دار صعب، بيروت.

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢٠.

(٢) منصور بن عمار بن كثير السلمي _ توفي في حدود عام المائتين الهجري _ الواعظ، البليغ، الصالح، الرباني. ينظر: (تاريخ مدينة دمشق ٦٠/ ٣٢٤، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٩٣).

ما ليس عليه، ولا أعلم خالقاً إلا الله، والقرآن كلام الله، فانته أنت والمختلفون فيه إلى ما سماه الله به، تكن من المهتدين، ولا تسمِّ القرآن باسمٍ من عندك؛ فتكون من الهالكين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشونه بالغيب، وهم من ا لساعة مشفقون والسلام»(١).

• المراء في القرآن الكريم باتباع متشابهه، وتأويله على غير ما تحتمله ألفاظه، والخروج بمعانيه إلى ما لا تقتضيه مبانيه، وضرب الآيات بعضها ببعض، ترويجاً للبدع وإحداثاً في الدين.

وهذا المراء هو الذي يتعاطاه أهل الأهواء والمذاهب والبدع، الذين يخوضون في آيات الله ﷻ، ويتبعون المتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وصرفه إلى غير ما تقتضيه ألفاظه، الذين يتأولونه بأهوائهم، ويفسرونه بآرائهم، «وفسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردُّوه إلى مذاهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم»(٢).

فهم يتقرر لديهم الاعتقاد أوّلاً، ثم يبحثون من دلائل القرآن الكريم، ما يرونه موافقاً لهم، ولو بليِّ أعناقها لتوافق ما هم عليه، قال شيخ الإسلام فيهم وأمثالهم: «وهؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة وذلك من جهتين:

تارة من العلم بفساد قولهم.

وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على

(١) الاستذكار ٨/ ١١٩، وينظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٩٧.

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص ٦٧.

المعارض لهم»[(١)].

وكل صاحب بدعة يستدلُّ على بدعته من القرآن الكريم، ولا يتفق له ذلك إلا بتحريفه للآيات عن معانيها، «وأنت تجد جميع هذه الطوائف تنزّل القرآن على مذاهبهم وبدعها وآرائها، فالقرآن عند الجهمية جهمي، وعند المعتزلة معتزلي، وعند القدرية قدري، وعند الرافضة رافضي، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(٢)]»[(٣)]، ويقول ابن القيم مبيّناً: أنَّ «أهل الباطل على اختلاف أصنافهم لا يزالون يتعلَّقون به، ولا تزال تعمد كل طائفة منهم إلى آية من كتاب الله، فيقودها إلى مذهبه الذي يدعو إليه، ويدعي أن لها دلالة خاصة عليه، وكذلك يفعل في كثير من الأخبار التي يجرها إلى معتقده»[(٤)].

وعندما نتأمل في حال أهل الأهواء مع القرآن الكريم ندرك أنَّ «جميع أهل البدع مختلفون في تأويله، مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه: إما أن يتأولوه تأويلاً يحرّفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدون ما أنزله الله من معانيه»[(٥)].

وأنت ترى أنَّ هذا الصنيع تلاعب بالقرآن الكريم، وتمردٌ على معانيه، وهذا من

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٥٨.

(٢) سورة الأنفال آية (٣٤).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل ١/ ٢٧٣، تحقيق عمر بن سليمان الحفيان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٨٢.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ٢/ ٧٨٥.

الجدال الممقوت والمراء المكشوف؛ لأجل تدعيم الأهواء والمذاهب التي أعلنت على نفسها بالإفلاس من الأدلة والحجج.

ومن ذلك أيضا أن يأتي بعض أهل البدع و«يظهر له دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه، ويحتمل احتمالاً ضعيفاً موافقةَ مذهبِه، فيحملها على مذهبه، ويناظر على ذلك مع ظهورها له على خلاف ما يقول»[١] .

ولا عجب حينئذٍ أن يتقدموا بعقولهم بين يدي القرآن الكريم، ويروا أنَّ دليل العقل حجةٌ قطعية، ودليل القرآن الكريم حجةٌ لفظية ظنيّة، فيسيئون الظنَّ بكتاب الله ﷻ وبدلالته، ويحسنون ظنونهم بعقولٍ بخست الموازين، وظلّت عن سبيل المؤمنين، فيجعلون العقل مقدماً على كلام الله ﷻ ووحيه إلى رسوله ﷺ، ومن ثَمَّ يسلكون أيَّ سبيلٍ توصلهم إلى إبطال حجة الدليل السمعي[٢] .

بل ويصل الأمر ببعض أهل البدع إلى التحريف اللفظي أو المعنوي أو كليهما، للقرآن الكريم؛ لينصر مذهبه، ويعضد قوله، وفي أحايين أخر، لا يبالي بعض الخائضين في القرآن الكريم، أن يخترع من عنده أوجهاً من القراءة للقرآن الكريم؛ لتوافق مذهبه، فهو لا يبحث عن الدليل ليعتقد، بل يعتقد ثم يلوي أعناق النصوص لتوافق مذهبه، وإذا لم يستطع، ذهب إلى ما هو أدهى من ذلك، إلى الكــذب في القرآن الكريم!

قــال أبو بكر الباقلاني[٣]: «قال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ١٧٠، بعناية بسام عبد الوهاب الجالي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٢) ينظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٦٣٢.

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري أبو بكر الباقلاني _ ولد عام ٣٣٨هـ، وتوفي=

والاجتهاد في إثبات قراءةٍ، وأوجهٍ، وأحرفٍ، إذا كانت تلك الأوجه صواباً في اللغة العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأها»[١].

وإذا كان قوم يجيزون ذلك فلا عجب من تحريفهم لبعض آيات القرآن الكريم لتوافق ما هم عليه من الباطل.

ومن ألوان مراء أهل الأهواء في القرآن الكريم، أنَّ بعضهم يلجأ إلى تغيير الحركات الإعرابية؛ لتوافق مذهبه، وهذا الصنيع هو طريقهم إلى التحريف المعنوي للآيات، ومن هذه النماذج: أنَّ عمرو بن عبيد مرَّ على أبي عمرو بن العلاء[٢]، «فقال له عمرو: كيف تقرأ ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾[٣]، فقال أبو عمرو: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ بفتح الياء، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾[٤]، بفتح التاء، فقال له عمرو: ولكني أقرأ: ﴿وَإِن يُسۡتَعۡتَبُواْ﴾، بضم الياء ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتِبِينَ﴾، بكسر التاء، فقال أبو عمرو: ومن هنالك أبغض المعتزلة لأنهم يقولون برأيهم»[٥].

فهذا المعتزلي لم يتورّع أن يقرأ القرآن على هواه، أو يعارضه برأيه، وقد روى

=عام ٤٠٣هـ _ ثقة جيد الاستنباط، سريع الجواب، انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته، من مؤلفاته: إعجاز القرآن. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٦٩).

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن، للباقلاني، ص ٦٠، وينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢/ ١٢٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عالم الكتب، سنة الطبع ١٤٢٤هـ.

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار العريان المازني النحوي القاري _ ولد عام ٧٠هـ، وتوفي عام ١٥٤هـ _ أحد القراء السبعة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦).

(٣) سورة فُصِّلَت آية (٢٤).

(٤) سورة فُصِّلَت آية (٢٤).

(٥) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل لسنة والجماعة ٢/ ٨١٦.

اللالكائي بسنده عن معاذ بن معاذ[١]، «قال: كنت عند عمرو بن عبيد، فجاءه رجل فقال: ألا تعجب من فلان يزعم أن ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[٢]، في اللوح المحفوظ، فقال عمرو بن عبيد: لئن كانت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ في اللوح المحفوظ، فما على أبي لهب من لوم، وما على الوليد من لوم، يعني في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[٣]»[٤]، وتأمل هذه المعارضة للقرآن الكريم بهذا المراء والجدال، الذي مفاده الاعتراض على حكم الله تعالى، والردِّ لما أنزل ﷻ من الحق.

ومن ذلك أيضاً، أنَّ من المعتزلة من يقرأ قول الله ﷻ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[٥]، بنصب لفظ الجلالة، ويكون موسى عليه السلام هو الفاعل للتكليم، نفياً لصفة الكلام عن الله ﷻ على مذهبهم، قال شيخ الإسلام: «روى أن عمرو بن عبيد قال لأبي عمرو بن العلاء: أحب أن تقرأ هذا الحرف: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[٦]؛ ليكون موسى هو الذي كلَّم الله، ولا يكون في الكلام دلالة على أنَّ الله كلَّم أحداً، فقال له: فكيف تصنع بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[٧]»[١]، وبهذا قال

(١) هو معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان التميمي _ ولد عام ١١٩هـ، وتوفي عام ١٩٦هـ _ الإمام الحافظ قاضي أهل البصرة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٥، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٤).

(٢) سورة المَسَد آية (١).

(٣) سورة المدَّثر آية (١١).

(٤) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٨١٣.

(٥) سورة النساء آية (١٦٤).

(٦) سورة النساء آية (١٦٤).

(٧) سورة الأعراف آية (١٤٣).

الزمخـــشري في كشـــافه عند هذه الآية: «بالنصب»[٢]، والذي دعا إلى ذلك التعصب الاعتزالي، والزمخشري قد شحن تفسيره من هذا النوع.

وهذه الطريق طريقٌ خفية، قد اتخذها أهل الأهواء مسلكاً ينفذون من خلالها إلى احتراف آيات القرآن الكريم إلى مذاهبهم وبدعهم، «وإذا كان بعض أولي العلم قد تمرُّ عليه أساليب بعض المفسرين والمعربين من أرباب المذاهب الكلامية، ولا يدرك أبعادها العقدية لخفائها ودقّة استعمال الأساليب اللغوية في التوظيف العقدي لآيات القرآن الكريم حتى غدا بعضها من الشيء»[٣]«الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفا»[٤].

وقــد أحسن شيخ الإسلام حيث وصفهم بقــوله: «ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه...حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم، ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها، ولا يهتدي لذلك»[٥].

ولا يقف مراء أولئك في القرآن الكريم عند هذا الحدِّ، بل يتجاوزونه إلى ما هو

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٢.

(٢) الكشاف ٢/ ١٧٩.

(٣) الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم ١/ ٢٠ للدكتور محمد بن عبد الله السيف، دار التدمرية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

(٤) الانتصاف من الكشاف، لابن المنير الاسكندراني، حاشية على تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ١٦٧.

(٥) مقدمة في أصول التفسير، ص ٧٦، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

أعظم منه، إلى محاولة إسقاط بعض الآيات التي لا يجدون تأويلاً يدفعونها به، من ذلك ما رواه البخاري في كتابه خلق أفعال العباد بسنده إلى أبي نعيم البلخي[(١)]، قال: «كان رجل من أهل مرو صديقاً للجهم ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوماً آية كذا وكذا، فقال: ما كان أظرف محمداً! فاحتملتها، ثم قرأ سورة طه، فلما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[(٢)]، قال: أما -والله- لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف، فاحتملتها، ثم قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى، قال: ما هذا؟ ذكر قصة في موضع فلم يتمها، ثم ذكرها ههنا فلم يتمها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثبت عليه»[(٣)].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنَّ القاضي المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد[(٤)]، كتب على ستارة الكعبة "ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم" محرفاً قول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

---

(١) هو شجاع بن أبي نصر البلخي أبو نعيم المقرىء، كان صدوقا مأموناً، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن حجر: صدوق. ينظر: (تهذيب التهذيب ٢/ ١٥٣، تحقيق إبراهيم الزيبق و عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، وتقريب التهذيب، لابن حجر، ص ٣٣٤).

(٢) سورة طه آية (٥).

(٣) خلق أفعال العباد، للإمام البخاري، ص ٢٦، تحقيق بدر البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(٤) هو أحمد بن أبي دؤاد بن فرج الإيادي المعتزلي _ ولد عام ٦٠هـ، وتوفي عام ٢٤٠هـ _ تولى القضاء للمعتصم، ثم للواثق، كان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الادب، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، وهو صاحب محنة الإمام أحمد بن حنبل. ينظر: (البداية والنهاية ١٤/ ٣٦٢، وشذرات الذهب ٣/ ١٧٩).

﴿شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١)، وهذا كلُّه فرارٌ من إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه(٢).

ومن المراء في القرآن الكريم الذي وقع من بعض طوائف أهل القبلة، الأخذ بظاهر القرآن الكريم، دون النظر إلى مقاصده، وجمع النظير مع نظيره، وهذا يعني: الأخذ ببعض الآيات بمحض الرأي، مبتورةً عن غيرها ممّا يفسرها أو يخصصها أو يقيدها، وقد وصف النبيُّ ﷺ هذا الصنف من الناس بقوله: «يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»(٣)، أيْ: يقرؤون القرآن ولا تفقهه قلوبهم، وذلك لأنهم اتبعوا «ظواهر القرآن على غير تدبر ولا نظر في مقاصده ومعاقده، والقطع بالحكم به ببادئ الرأي والنظر الأول...ومعلوم أن هذا الرأي يصدُّ عن اتباع الحق المحض، ويضاد المشي على الصراط المستقيم»(٤).

وهذا النوع من الأخذ بالقرآن على هذا الوجه، كان له الأثر في خروج مارقة من الدين، تكفر المسلمين وتستحلّ دمائهم وأموالهم، وتنزل الآيات التي جاءت في وعيد الكفار، على أهل الإسلام، وما زال المسلمون يجدون من هذا المسلك، البلاء إلى زمننا هذا.

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ١٣/ ١٨٤.

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، (٦٩٣١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، (١٠٦٤).

(٤) الموافقات ٥/ ١٤٩، وينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٦٠، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية عشر ١٤٢٧هـ.

ومن مراء أهل الأهواء والبدع في كتاب الله ﷻ، أنهم إذا وردت عليهم آيةٌ تنقض أصل مذهبهم من أساسه، ولا يجدون لها مدفعاً، ولا حيلةً يتخلّصون بها منها، ظهر من حالهم الكراهة والاشمئزاز والتبرّم منها، ولهذا «كلُّ من عارض بين الوحي والعقل وردَّ نصوص الكتاب والسنة بالرأي الذي يسميه عقلاً، لابدَّ أن ينقض تلك النصوص المخالفة لعقله ويعاديها، ويودُّ أنها لم تكن جاءت، وإذا سمعها وجد لها على قلبه من الثقل والكراهة بحسب حاله، واشمأزَّ لها قلبه»(١)، وهذا هو حال أهل الأهواء والبدع مع نصوص القرآن الكريم، الأمر الذي اشتدَّ به مراؤهم في القرآن الكريم.

وبسبب مراء أهل الأهواء في كتاب الله ﷻ، انفتح على المسلمين من أبواب الشرور، ما لا يعلمها إلا الله ﷻ، وخرج كلُّ مبتدع يبرزُّ بدعته بما يماري به من آيات الله ﷻ القرآنية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم، دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة وغيرهم، فيما هو أبلغ من ذلك، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة، فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه»(٢).

وكذلك من أراد أن يوافّق بين الدين والفلسفة، عند الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، ماروا في القرآن مراءً عظيماً، وفسّروا القرآن بما استقرَّ في أذهانهم الفلسفية، وحكّموا النظريات الفلسفية على الآيات القرآنية، وحكموا على حقائق القرآن الكريم بكونها رموز وإشارات لا يفهمها عامة الناس، إنما يفهمها الخواص، ثم فسروها على ما

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٣/ ١٠٣٦.

(٢) مجموع الفتاوي ١٣/ ٣٥٩، وينظر: الأصول من الكافي للكليني ١/ ٤٢١ _ ٤٣٦، وفصوص الحكم لابن عربي، ص ٦٤.

تقتضيه أهوائهم، وأتوا من ذلك بالأعاجيب التي توصّلوا من خلالها إلى تحريف معاني القرآن بتفسيرات باطنية، لا توافق الشريعة، بل تناقض أساسها، وهي في الواقع شرح لنظريات فلسفية ألصقت بالقرآن الكريم زوراً، ويُعدُّ ابن سينا من أبرز من سلك هذا المسلك حيث نظر إلى القرآن الكريم وإلى الفلسفة، فحكّم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية، فشرحها شرحاً فلسفياً صرفاً، وكانت طريقته التي يسلكها في شرحه غالباً هي شرح النصوص الشرعية بالآراء الفلسفية[1].

وسياق ذكر ما ألصقوه بالقرآن الكريم من ترهاتهم وأباطيلهم يطول، ويتشعّب به الكلام، والمقصود التنبيه على شيءٍ مما كانوا يتعاطونه من المراء في القرآن الكريم، ليُستدلَّ بذلك على ما سواه.

وهم بذلك جمعوا بين أمرين:

١. إبطالهم للمعنى الحقِّ من القرآن الكريم.

٢. اختلاق معنىً لا يسعفه اللفظ القرآني، ولا النظم البياني.

---

(١) ينظر كتاب: التفسير والمفسرون ٤١٩/٢، للدكتور محمد حسين الذهبي، سنة الطبع ١٤٢٤هـ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ورسائل ابن سينا، طبعة بريل، سنة الطبع ١٨٩١م، وجامع البدائع، لابن سينا، الطبعة الأولى.

حكم المراء في القرآن الكريم:

المراء في القرآن الكريم بنوعيه: المراء في قراءته على الأحرف السبعة، والمراء فيه على نحو ما يتعاطاه أهل البدع والأهواء، كلُّ ذلك ورد فيه النهي عن المراء في القرآن الكريم، ومن ذلك:

ما ورد عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ، قال: «المراء في القرآن كفر»[(١)]، وعن عبد الله بن عمرو ﵁، أن النبي ﷺ، قال: «لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر»[(٢)].

معنى الحديثين:

الحديثان يتناولان النهيَ عن المراء في القرآن الكريم، وهذا المراء بمعنى الجحد والشكِّ فيه، قال ابن عبد البر: «والمعنى: أن يتمارى اثنان في آية، يجحدها أحدهما ويدفعها ويصير فيها إلى الشك، فذلك هو المراء الذي هو كفر...وهذا يبين لك أن المراء الذي هو الكفر هو الجحود والشك كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[(٣)]...»[(٤)]، والمراء على هذا، ذريعةٌ إلى جحد بعض ما في القرآن الكريم، نتيجةً لِما يكون من أثر الملاحاة والمهارشة باللسان، لتؤول العاقبة إلى الكفر؛ «وذلك أنه إذا جادل

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب السنّة، باب النهي عن الجدال في القرآن، (٤٦٠٣)، والإمام أحمد في مسند أبي هريرة، (٧٩٨٩)، ١٣/ ٣٦٩، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناد صحيح على شرط الشيخين .

(٢) أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده، (٢٤٠٠)، ٤/ ٤٣، تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في ترك المماراة في القرآن، (٢٢٥٧)، ٢/ ٤١٦، وصحح إسناده الألباني، وقال: رجاله ثقات، ينظر: سلسة الأحاديث الصحيحة ٥/ ٤١٨.

(٣) سورة الحج آية (٥٥).

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٠.

فيه، أداه إلى أن يرتاب في الآي المتشابهة منه، فيؤديه ذلك إلى الجحود، فسماه كفراً باسم ما يخشى من عاقبته إلا من عصمه الله»(١).

ومذهب أهل السنة والجماعة: ترك المجادلة والمراء في القرآن الكريم، قال الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلّمه سيد المرسلين محمداً ﷺ، وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين»(٢).

والحديثان أيضاً يتناولان النهي عن المراء والمجادلة في اختلاف القراءة به على الأحرف السبعة بإنكار بعضها؛ وذلكم أنَّ الله تعالى «قد أنزل –سبحانه- كتابه على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فنهاهم ﷺ عن إنكار القراءة التي يسمع بعضهم بعضاً يقرؤها، وتوعدهم بالكفر عليها؛ لينتهوا عن المراء فيه والتكذيب به، إذ كان القرآن منزلاً على سبعة أحرف، وكلها قرآن منزّل يجوز قراءته ويجب علينا الإيمان به»(٣)، وهذا المراء في القرآن الكريم على هذا الوجه «هو أن ينكر بعض القراءات المروية، وقد أنزل الله القرآن على سبعة أحرف، فتوعدهم بالكفر لينتهوا عن المراء فيها، والتكذيب بها، إذ كلها قرآن منزل يجب الإيمان به، وكان أبو العالية الرياحي(٤) إذا قرأ عنده إنسان لم يقل: ليس هو كذا، ولكن يقول: أما أنا فأقرأ هكذا»(٥)، وجاء في الحديث عن أبي جهيم رضي الله عنه أن رجلين

---

(١) شرح السنة، للبغوي ١/ ٢٦٢.

(٢) العقيدة الطحاوية ص ١٣.

(٣) معالم السنن للخطابي ٧/ ٧.

(٤) هو رفيع بن مهران الرياحي البصري _ توفي عام ٩٠ _ الإمام، المقرئ، الحافظ، المفسر. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، وطبقات المفسرين، للأدنروي، ص ٩).

(٥) شرح السنة، للبغوي ١/ ٢٦٢.

اختلفا في آية من القرآن، فقال: هذا تلقيتها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبي ﷺ فقال: «القرآن يُقرأ على سبعة أحرف فلا تماروا في القرآن فإن مراءً في القرآن كفر»[١].

وبهذا السبب جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه القرآن الكريم على حرف واحد، درءً لما نُهي عنه في الشرع من المراء والجدال فيه.

والحديثان أيضاً يتناولان النهي عما وقع فيه أهل الأهواء من المراء في القرآن الكريم، وضرب الآيات بعضها ببعض، كما يصنع أهل البدع والأهواء من «الجدال بالقرآن من الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد وما كان في معناهما، على مذهب أهل الكلام والجدل»[٢]، وفي هذا جاء الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٣]،قالت: قال رسول الله ﷺ «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

وعلى ما تقدم فالجدال والمراء في القرآن الكريم بمقتضى الهوى سببٌ للكفر وذريعةٌ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي جهيم بن الحارث رضي الله عنه، (١٧٥٤٢)، ٢٩/ ٨٥، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ينظر: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧ / ٣١٥).

(٢) شرح السنة، للبغوي ١/ ٢٦٣.

(٣) سورة آل عمران آية (٧).

إليه، ولأجل ذلك نُهي عنه، قال عمر بن الخطاب ﵁: «إن هذا القرآن كلام الله، فلا أعرفنَّكم ما عطفتموه على أهوائكم، إلا أن يكفر به عبدٌ عَمْدَ عين»(١) .

فهذه الأحاديث على وجازة ألفاظها، احتوت النهي عن كل مراء في القرآن الكريم بأيِّ شكل من أشكال المراء.

(١) ينظر: الرد على الجهمية، للدارمي، ص١٥٢.

المطلب الثاني: التنازع في أحكام القرآن الكريم ومعانيه.

وبعد بيان المراء الذي لا يجوز في القرآن الكريم، مما ورد في النصوص التحذير منه، على نحو ما يتعاطاه أهل الأهواء والبدع، فإن التباحث في معاني القرآن الكريم، والاختلاف فيما يدلُّ عليه من معاني وأحكام على سَنَنِ أهل العلم الراسخين فيه، المنضبط بقواعد الشرع، ليس من المراء الآنف الذكر، ولكنَّه من تثوير العلم ومفاتشة العلماء به، وإحياء معانيه بالمذاكرة، واستنباط حكمه وأحكامه، والغوص على أسراره، واستخراج درره، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «من أراد العلم فليثور القــرآن، فإن فيه عــلم الأولين والآخــرين»[1]، فالمناظرة والمباحثة في استنباط معاني القرآن الكريم لمن تأهّل لذلك مع توخّي منهج السلف الصالح، هو دأْب أهل العلم، وطريق الفهم لكتاب الله تعالى، بخلاف ضدِّ ذلك من المراء والجدل والخوض الذي يؤول أمره إلى خلاف مقاصد القرآن الكريم.

بيد أنَّ الاستنباط من القرآن الكريم له شروطه وضوابطه وقواعده، لا يجوز تعدّيها ولا الخروج عنها، فالاختلاف في معاني القرآن الكريم وأحكامه، إنما يكون سائغاً مقبولاً إذا كان تحت نطاق الاستنباط المبنيِّ على القواعد الأصولية، وما تعرفه العرب من لغتها بدلالة الألفاظ[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٨٦٦٦)، ٩/ ١٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في تعليم القرآن، (١٩٦٠)، ٢/ ٣٣١، والخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه ١/ ٨٢ .

(٢) ينظر شروط الاستنباط من القرآن الكريم مفصلةً في كتاب منهج الاستنباط من القرآن الكريم، للباحث فهد بن مبارك الوهبي، ص ١٩٩، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة=

وأما الخلاف الذي لا يتقيّد صحابه بذلك فليس خلافاً يعتدُّ به، بل يَرِدُ عليه الحديث الذي رواه جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله ﷻ برأيه فأصاب فقد أخطأ»[١]، وهذا -والله أعلم- «إنما هو فيمن قال فيه بما سنح في وهمه، وخطر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول»[٢]، وقال الترمذي -بعد سياق هذا الحديث-: «هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شدّدوا في هذا، في أن يفسر القرآن بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد[٣] وقتادة[٤] وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن، فليس الظنُّ بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسّروه بغير علم أو من قبل أنفسهم»[٥]، والحاصل أن تفسير القرآن الكريم بمحض

=الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بلا علم، (٣٦٥٢)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (٢٩٥٢)، وخطأ ابن أبي حاتم هذا الحديث، وقال: كذا حدثنا سريج،ولكن أخرجه حماد بن زيد عن أبي عمران الجوني عن عمر: اقرؤوا القرآن ما أتلفت عيه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا، وقال: وأحسب أن ذاك خطأ. ينظر: كتاب العلل لابن أبي حاتم ٤/ ٦١٨، تحقيق الدكتور سعد الحميد، والدكتور خالد الجريسي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

(٢) أحكام القرآن، للجصاص ٣ /١٩، تحقيق محمد الصادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ، وينظر: شعب الإيمان، للبيهقي ٢/ ٤٢٣.

(٣) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود _ ولد عام ٢١هـ، وتوفي عام ١٠٤هـ _ تابعي شيخ القراء والمفسرين، أحد كبار أصحاب ابن عباس، عرض القرآن عليه ثلاث مرات. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٥٠، وتذكرة الحفاظ ١/ ٩٢).

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري الضرير _ ولد عام ٦٠هـ، وتوفي عام ١١٧هـ _ أحد المفسرين الحفاظ، والعلماء الفقهاء. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧٠، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٢٢).

(٥) سنن الترمذي، ص ٦٦٣.

الرأي هو المنهي عنه.

ومن إعجاز القرآن الكريم البلاغي، أنَّ ألفاظه على وجازتها، احتملت من المعاني ما لا حصر له ولا حدَّ، فهو موجز المباني، عظيم المعاني، كلٌّ يغترف من ثبج بحره، على قدر القرائح والفهوم، وتنوّع العقول، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[١]، ومن ثمَّ كان اختلاف العلماء في معانيه، الصحابة ﷺ فمن بعدهم.

وهذا الاختلاف في أحكام القرآن الكريم ومعانيه ومسائله التي يسوغ فيها الخلاف، من باب الاجتهاد في الاستنباط، وغالب هذا الاختلاف راجعٌ إلى اختلاف التنوّع، الذي هو اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، لا اختلاف التضادّ[٢]، قال ابن عبد البر: «وأما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه، فقد تنازع أصحاب رسول الله ﷺ في كثير من ذلك»[٣]، وهذا من الفقه الذي «أجمعوا على الجدال فيه والتناظر؛ لأنه علم يُحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول، للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك، لأن الله ﷻ لا يوصف عند الجماعة أهل السنة إلاَّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله ﷺ، أو أجمعت الأمة عليه، وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو بإمعان نظر»[٤].

وهذا النوع من الاختلاف لا يكون سبباً للتفرّق والنزاع، واختلاف القلوب، وأصحاب النبي ﷺ «قد اختلفوا في أحكام الدين، ولم يفترقوا ولم يصيروا شيعاً، لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد الرأي، والاستنباط من الكتاب

(١) سورة الرعد (١٧).

(٢) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/١٤٩.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٢/١٢٠.

والسنة فيما لم يجدوا فيه نصّاً، واختلفت في ذلك أقوالهم، فصاروا محمودين؛ لأنهم اجتهدوا فيما أمروا به...وكانوا مع ذلك أهل مودة وتناصح، وأخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فلما حدثت الأهواء المردية التي حذر منها رسول الله ﷺ، وظهرت العداوات، وتحزب أهلها فصاروا شيعًا، دلَّ على أنه إنما حدث ذلك من المسائل المحدثة التي ألقاها الشيطان على أفواه أوليائه»[1].

وهذا الاختلاف الذي وقع بين الصحابة ﷺ في بعض أحكام القرآن الكريم لا يحمل على التنازع ولا المفارقة في أخوة الدين وذهاب المودّة، الأمر الذي يؤّدي إلى تعدد الفرق والشيع، وهذا بخلاف ما يكون من الاختلاف في مسائل العقيدة وأصول الدين، حيث يحمل ذلك أصحابه إلى البغي والظلم والعدوان، وهذا ما وقع بعينه بين طوائف من ينتسب إلى القبلة.

---

(١) الموافقات ٥/ ١٦٠.

المبحث الثالث: المراء في السنّة.

السنة النبوية هي أحد مصادر التشريع، وهي وحي من الله ﷻ إلى النبي ﷺ غير القرآن الكريم، وكما وقع المراء في القرآن الكريم من قِبل أهل الأهواء، حيث ألحدوا فيه، كذلك صنعوا مع السنّة الثابتة الصحيحة مما ورد عن النبي ﷺ، على درجات متفاوتة بينهم في ردّها، ما بين مؤول لها، ومقدم للعقل عليها، ولهم في ذلك مسالك سلكوها، وطرقٌ انتهجوها، لردِّ الأحاديث التي لا توافق أهوائهم، وتعود على أساس عقائدهم بالإبطال، وقد سلكوا من ذلك طرقاً، ومن أبرزها طريقين رئيسين، تفرّع عنهما غيرهما، وهذان الطريقان على هذا النحو:

١. ردُّ السنة اكتفاءً بالقرآن.
٢. المراء في حجيّة أحاديث الآحاد.

المطلب الأول: ردّ السنّة اكتفاءً بالقران.

لما كانت السنة النبوية مفسّرةً للقرآن الكريم شارحةً له مبيّنةً لمعناه، كثر جدال ومراء أهل الأهواء والبدع فيها، كما هو الحال عندهم في القرآن الكريم، ولّما علموا أن حجيّة السنة النبوية تخصمهم وتفلج حججهم وتكسر سَورة جدالهم، عمدوا إلى طريق معوجٍّ لإبطالها، ليخلو لهم الجوُّ، حتى ينقرّوا بعد ذلك ما ينقرّوا.

وإنَّ من أساليب أهل الأهواء من ترك العمل بالسنة، ما نهى عنه النبي ﷺ كما جاء في الحديث عن أبي رافع ﵁، عن النبي ﷺ قال: «لا ألفـينَّ أحدكَم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقـول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[1].

والنبي ﷺ في هذا الحـديث «يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول اللهّ ﷺ مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض فإنهم تعـلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضُمّنت بيان الكتاب فتحيروا وضـلوا»[2].

وهؤلاء تركوا العمل بالسنَّة اكتفاءً بالقرآن الكريم -كما يزعمون- وهم على أحوال مختلفة كما يلي:

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب السنة، بابٌ في لزوم السنة، (٤٦٠٤)، والترمذي في أبواب العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ، (٢٦٦٣)، وابن ماجه في كتاب السنة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ وبيان من عارضه، (١٣)، والإمام أحمد في مسند أبي رافع، (٢٣٨٧٦)، ٣٩/ ٣٠٢، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين .

(٢) معالم السنن، للخطابي ٧/ ٨.

الأول: إما أن يكونوا تركوا بعض ما تدّل عليه السنّة من أحكام، وذلك كالخوارج حين تركوا السنة التي جاءت بحكم زائد على ظاهر القرآن الكريم، مثل رجم الزاني المحصن، وقطع يد السارق من الكف ونحو ذلك، فهذا تعطيلٌ لبعض السنة، وردٌّ لها استغناءً بالقرآن الكريم، قال شيخ الإسلام -في بيان موقفهم من السنة-: «وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه، لكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا»[1].

والعجيب في الأمر أنهم كلّما تقدم بهم الزمن ازدادوا بعداً عن الدين ومخالفةً للسنة، ونزوعاً إلى الضلال، حتى زعموا أن دار مخالفيهم دار كفر، فاستحلوا الدماء والأموال، ثم أتى بعدهم ممن ضرب في الضلال بعطن، وزعم أن نكاح بنات البنات وبنات البنين، وبنات أولاد الأخوة حلال! وغير ذلك ممّا يطول ذكره من بدعهم وخروجهم عن السنة، وافتراقهم عن الأمة، وليس هذا مقام ذكر انحرافهم، بقدر ما يكون به بيان بعدهم عن السنة وعظيم تركهم لها، على دعوى أنهم يأخذون دينهم من القرآن الكريم فقط[2].

وإذا تأملنا كيف تهوّكت الخوارج في هذه البدع والضلالات إلى هذا الحدِّ، وكلما خرجت أمةٌ منهم أتت بالعجائب والأوابد والغرائب، وجدنا أن من أسباب ذلك هو قدحهم في الصحابة وطعنهم فيهم، بعد معركة صفين التي كان من أثرها مسألةُ

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٠٨.

(٢) ينظر: في فرق الخوارج وعقائدهم: كتاب الفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي ص ٦١ _ ٨٩، والملل والنحل، للشهرستاني ١٣١ _ ١٦١.

التحكيم، والتي بسببها خرجوا على أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، وما زال تركهم للسنة آخذاً بهم، إلى أنْ قذف بهم في وادٍ من الضلال سحيق[١].

«وموجز القول: أن الخوارج لم يقبلوا من السنة إلا ما جاء عن طريق صحابي لم يشترك في الفتنة الكبرى وما بعدها من الأحداث، وبذلك ردّوا أحاديث جمهور الصحابة التي ظهرت بعد الفتنة»[٢]، ولعلَّ ما ابتدعته الخوارج في الإسلام -ومن ذلك ترك العمل بالسنة- كان من أسباب تهيئة الجوِّ لمن أتى بعدهم للقدح والطعن في نقلة السنن، ليؤول الأمر إلى ترك السنّة بالكلية.

الثاني: إما أن يكونوا تركوا العمل بالسنة جملةً وتفصيلاً، ولا يقبلون منها شيئاً، بدعوى أن الصحابة قد كفروا إلا نفراً قليلاً منهم، وهذا فيه وجه شبهٍ مع شبهة الخوارج، إلا أن سبب اعتقادهم في كفر الصحابة مختلف، وذلك كما يعتقده الروافض الذين قدحوا في الصحابة وكفّروهم، وألصقوا بهم ما هم أولى به، وكان على أثر ذلك أنهم أبطلوا جميع ما نقله الصحابة ﷺ عن النبي ﷺ ولم يعتدّوا به لا في أصل ولا في فرع، ولا يعتدّون إلا بأقوال أئمتهم الذين يعتقدون فيهم العصمة، وهذا تركٌ للسنة وإبطال لها من جميع وجوهها، حيث توصّلوا إلى ذلك بالقدح فيمن نقلها؛ لأنهم زعموا أنهم كفار، «بل وجعلوا من عبادتهم لله التقرب إلى الله بلعنهم صباحاً ومساءً...ولم يخل كتاب

(١) وينظر المزيد من مقالاتهم وفرقهم: كتاب الفرق بين الفرق، للبغدادي ص ٦١ _ ٨٩، والملل والنحل، للشهرستاني، ص ١٣١ _ ١٦١، وينظر كتاب فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، للدكتور غالب بن علي العواجي، المكتبة العصرية الذهبية، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ.

(٢) القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، للدكتور خادم حسين بخش، ص ٨٧، دار الصديق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

من كتب الشيعة -على كثرتها وبطلانها- من سبٍّ وشتمٍ للخلفاء الراشدين وسائر الصحابة إلا من استثنوهم»(١)، فمن جراء ذلك لم يلتفتوا إلى ما نقله الصحابة من السنة؛ للسببين الماضيين، ولم يقف غيّهم عند هذا، بل سعوا إلى اختلاق أحاديث يلصقونها بآل البيت فيها هدمٌ لقواعد الدين وأصول الإسلام، وإظهار الكفر والزندقة، فهم صدّوا عن سبيل الله ﷻ، وفي الوقت ذاته يبغونها عوجاً، وذلك وغيره من أسباب رفضهم للسنة والطعن والتشكيك فيها(٢).

وبعد ذلك الموروث البغيض في التعامل مع السنة من قِبَل الخوارج والرافضة وأضرابهم من الزنادقة، خرجت أفراخ تفقّست مِن شُبه مَن تقدّمهم، إلا أنَّ أصحابها جاءوا بما لم يأتِ به الأوائل -عدا الروافض- من الرفض الكلّي للسنّة ونبذها ورائهم ظهرياً، وعدم الاعتداد بها، وهذه الطائفة حذت حذو من تزندق قبلُ في اطراح السنّة والرغبة عنها، وهؤلاء وإن كانوا قد خرجوا في العصر الحديث، إلا أنهم لهم أسلافهم، وذلك أنه كان في أواخر القرن الثاني الهجري من يدعو إلى عدم الاعتداد بالسنة، وقد جرت مناظرة بين الإمام الشافعي وبين أحد من يرى ذلك الرأي، حيث قال في كتابه

---

(١) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وموقف الإسلام منها ١/ ٤٣١، وينظر: الأصول من الكافي، للكليني ١/ ٤٢٠، وبحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، للمجلسي، ١/ ١٣٧، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، والأنوار النعمانية، لنعمة الله الجزائري، ١/ ٨١، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٢) ينظر في فرق الروافض ومقالاتهم في كتاب الفرق بين الفرق، ص ٣٠_ ٥٩، والملل والنحل، ص ١٦٩ _ ٢٣٥، وأصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية ٢/ ٧١٦، للدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، بدون ذكر الطبعة وسنة الطبع والناشر .

الأم: «باب حكاية قول الطائفة التي ردت الأخبار كلها»[١]، ثم ساق ذكر المناظرة التي جرت بينه وبين من يرى ترك العمل بالسنة، لظنيّة ثبوتها وعدم الحاجة للسنة مع القرآن الكريم لقطعية ثبوته[٢]، والذي يهمّنا هنا هو بيان امتداد هذه الطائفة التاريخي من ذلك القرن إلى أن خرج أفراخهم في هذه العصور المتأخرة -والله أعلم- ماذا سيكون بعدُ.

وهذه الفرقة التي خرجت في هذا الزمن والتي رُضعت بلبان الاستعمار الانجليزي لبلاد الهند، اختزلت السنة من التشريع، وهم الذين يُسمّون "القرآنيون" لأجل تعويلهم -فيما يزعمون- على القرآن الكريم وحده، واكتفائهم به دون السنّة النبوية، وشأنهم أنهم لا يلتفتون إلى ما ورد في السنة إطلاقاً، وقد خرجت هذه الفرقة في الهند وباكستان، وفي حديث أبي رافع ﷺ الآنف الذكر «دليل من دلائل النبوة وعلامة من علاماتها، فقد وقع ما أخبر به، فإن رجلا قد خرج في الفنجاب من إقليم الهند، وسمى نفسه بأهل القرآن، وشتان بينه وبين أهل القرآن، بل هو من أهل الإلحاد، وكان قبل ذلك من الصالحين، فأضله الشيطان وأغواه وأبعده عن الصراط المستقيم، فتفوه بما لا يتكلم به أهل الإسلام، فأطال لسانه في رد الأحاديث النبوية بأسرها رداً بليغاً، وقال: هذه كلها مكذوبة ومفتريات على الله تعالى، وإنما يجب العمل على القرآن العظيم فقط دون أحاديث النبي ﷺ، وإن كانت صحيحة متواترة، ومن عمل على غير القرآن فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٣]، وغير ذلك من أقواله الكفرية، وتبعه على ذلك كثير من الجهال وجعلوه إماماً، وقد أفتى علماء العصر بكفره

(١) ٧/ ٢٧٣، تحقيق محمد بن زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.

(٢) ينظر: الأم ٧/ ٢٧٣.

(٣) سورة المائدة آية (٤٤).

وإلحاده وأخرجوه عن دائرة الإسلام، والأمر كما قالوا»[١].

وهذه الفرقة التي لقّبت نفسها بالقرآنيين، أو أهل الذكر والقرآن[٢]، وكان لهم شبهات تعلّقوا بها[٣]، وهي -بحمد الله ﷻ- كبيت العنكبوت، ليس لهم فيما جنحوا إليه حجة، وحديث أبي رافع رضي الله عنه علمٌ من أعلام النبوة، حيث خرج قدراً ما حذّر منه النبيﷺ، «وهؤلاء ومن هو على شاكلتهم قد سخّـــرتهم شياطين الإنس لهـدم الإسلام من داخله بوسيلة مكشوفة تتمثل في إظهـــار التمسك بالقرآن والاكتفاء به؛ لأن السنة ظنٌّ»[٤].

موقف السلف منهم:

لأجل شدة خطر هذه النزعة -في ترك العمل بالسنّة، أو ترك بعضها- على عقائد المسلمين، وإحداث البدع، كان لأهل السنة والجماعة موقفٌ مستلهمٌ من نصوص الكتاب والسنة، حيث نهى النبي ﷺ أن يترك أمره ونهيه، بعلّة أنَّ ما في القرآن الكريم غنيةً عن غيره، وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه، أنه «لا يجوز الإعراض عن حديثه عليه الصلاة

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٤٦٠.

(٢) من أقطابهم ومؤسسيهم عبد الله جكْرَالَوِي الذي أنكر السنة قاطبة وألف في ذلك رسائله، واستوطن لاهور بباكستان، ينظر: كتاب القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، ص ٢٥.

(٣) ينظر شبهاتهم والردود عليها في كتاب شبهات القرآنيين، للدكتور عثمان معلم محمود، ص ١٧، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

(٤) السنة المفترى عليها، ص ٥٧، سالم علي البهنساوي، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ، وينظر: زوابع في وجه السنة قديما وحديثاً، ص ٩١، لصلاح الدين مقبول أحمد، دار عالم الكتب، دون ذكر سنة الطبع.

والسلام، لأن المعرض عنه معرض عن القرآن»[١]، والسلف في ذلك قد حملوا على عواتقهم مسؤولية بيان تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فكان تعظيمهم للسنة والعمل بها، تعظيماً ظهَرَ في أفعالهم واقتدائهم بالنبي ﷺ، والإنكار على من رغب عن السنة، وذلك بدءً من الصحابة ﷺ فمن بعدهم من سلف الأمة، وخيار الملّة، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يحكمون، فمن هذه المواقف الكريمة على من بدا منه شيءٌ من الرغبة عن السنّة ما يلي:

قال عمر بن الخطاب ﷺ في كيفية التعامل مع من يجادل بشبهات القرآن الكريم، وأنَّ الاحتجاج عليه بالسنّة خاصمٌ له فيما يتعاطاه: «سيأتي أناس سيجادلونكم بشبهات القرآن، خذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ﷻ»[٢]، وهذا فيه أنَّ من يزعم أنَّه مكتفٍ بالقرآن دون السنّة، أنه من أجهل الناس بكلام الله ﷻ، وإذا كان كذلك، فلن يأتي منه إلا البدع والمحدثات، والخروج عن السنن المحكمات.

وفهم السنة والعمل بها، يقطع الطريق على من أراد الجدال بشبهات القرآن تاركاً للسنّة، وذلك أنَّ السنة مفسرةٌ له مبينةٌ لمعناه، فمن تنكّب عن طريقها ضلَّ عن سواء السبيل، قال ابن عبد البر: «أهل البدع أضربوا عن السنة، وتأولوا الكتاب على غير ما بيَّنت السنّة فضلوا وأضلوا»[٣]، وهذا واقعٌ من حال أهل البدع، وتأمل صنيع الروافض والخوارج ومن هو على شاكلتهم، تجد ما قاله ابن عبد البر مطابقاً لحالهم.

---

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٣٩، والدارمي باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب، (١٢١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٣٣٦.

وقد علم الصحابة ﷺ مكانة السنة، وقدر ما سمعوه من النبي ﷺ من هديه، وأنه لا غُنيةَ لأحدٍ عن ذلك أبداً، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما -في بيانه لصفة حجة النبي ﷺ، وأنه عليه الصلاة والسلام، أعلم الناس بتأويل القرآن، وهو الشارح الأول له-: «ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»[1].

ومن خلال هذا ندرك أن فهم القرآن الكريم مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالسنة، فمن فصل بينهما فهو أشبه ما يكون حالاً بالأعور، الذي لا يبصر إلا من عين واحدة، أو من بعض عين، وكيف يريد من ابتغى فهم القرآن الكريم والعمل به، وقد ترك سنّة من عليه نزل؟ وأنّى له ذلك؟ إلا أن يضرب في الضلال شأواً بعيداً لا يُلحق مداه.

ولهذا ما من صاحب محدثة وبدعة إلا وهو يبغض الحديث وأهله، قال أحمد بن سنان القطان[2]: «ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وإذا ابتدع الرجل بدعة، نزعت حلاوة الحديث من قلبه»[3]، وقال أيوب السختياني[4] : «إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا وحدثنا من القرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مضلٌّ»[5]، وعنه أيضاً،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، (١٢١٨).

(٢) هو أحمد بن سنان بن أسد بن حبان القطان الواسطي _ توفي عام ٢٩٥هـ _ إمام حافظ محدث ثقة صدوق. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٤٤، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢١٣).

(٣) أخرجه الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٢٠، وينظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٤٥.

(٤) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان العنزي مولاهم _ ولد عام ٦٦هـ، وتوفي عام ١٣١هـ _ تابعي من النساك الزهاد، وحفاظ الحديث. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٦/ ١٦ ، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠).

(٥) الكفاية في علم الرواية، ص ٤٩، للخطيب البغدادي، مراجعة عبد الحليم محمد عبد الحليم، وعبد الرحمن حسن محمود، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى.

أن رجلاً قال لمطرّف بن عبد الله بن الشخير[(١)]: «لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا»[(٢)]، والذي يظهر أنَّه يريد بذلك السنة، حيث إن النبي ﷺ هو أعلم الخلق بكتاب الله ﷻ، وقال الأوزاعي -مؤكداً لهذا المعنى-: «الكتاب أحوج إلى السنة، من السنة إلى الكتاب»[(٣)]، وقال ابن عبد البر معلقاً على قول الأوزاعي: «يريد أنها تقضي عليه، وتبين المراد منه»[(٤)].

وهذا موقفٌ أخر من الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنه أنه ذكر الشفاعة، فقال رجل: «يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن، فغضب عمران، وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً، ووجدت المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً والعصر أربعاً؟ قال: لا، قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنّا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟ أوجدتم فيه: في كل أربعين شاةً شاةٌ، وفي كل كذا بعيراً كذا، وفي كل كذا درهماً كذا؟ قال: لا، قال : فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبي ﷺ؟ وقال: في القرآن ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[(٥)]، أوجدتم في القرآن: «لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام»؟ أما سمعتم الله قال في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

---

(١) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري _ توفي عام ٩٥هـ _ الإمام القدوة الزاهد، من كبار التابعين. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧، وتذكرة الحفاظ ١/ ٦٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٣٣٢.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٣٣٢.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٣٢.

(٥) سورة الحج آية (٢٩).

فَٱنتَهُواْ ﴾[١]، قال عمران: فقد أخذنا عن رسول الله أشياء ليس لكم بها علم»[٢].

فعجيب شأن من نبذ سنّة النبي ﷺ وراء ظهره، واشترى بها ثمناً قليلاً، واستعاض عنها بالهوى والضلال، فبئست البضاعة وبئس المآل.

(١) سورة الحشر آية (٧).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ١٤٩.

المطلب الثاني: المراء في حجيّة أحاديث الآحاد.

قبل الكلام على مراء أهل الأهواء في قبول أحاديث الآحاد، لابدَّ من بيان معنى أقسام الأخبار الواردة عن النبي ﷺ، حتى يتضح لنا كيف تسلّط المارون على بعض السنن، وردّوها بأوهى الشبه، وخاضوا فيها، غير أنهم أقلُّ شأناً من سابقيهم ممن تقدم الكلام عليهم، وبعض الشرِّ أهون من بعض.

الأخبار الواردة عن النبي ﷺ قسّمها أهل العلم إلى قسمين رئيسين:

الأوَّل: المتواتر: وهو ما رواه جماعة يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب، وأسندوه إلى شيء محسوس.

وأما حجيّته: فقد قال أهل العلم كافة: أن المتواتر يفيد العلم القطعي.

الثاني: الآحاد: هو ما قصرت فيه صفة التواتر، وهذا الذي وقع فيه الخوض والمراء من قِبل أهل الأهواء .

وهو على نوعين: منه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، والمقبول منه، مراتب بعضها أصحُّ من بعض، وهو على ثلاثة أقسام:

المشهور: وهو الذي رواه عدد كثير من الرواة، ولم يبلغ التواتر، ولم يقع به العلم.

العزيز: ما رواه اثنان أو ثلاثة.

الغريب: هو ما ينفرد بروايته راوٍ واحد.

والمقبول من ذلك ما توافرت فيه شروط الصحّة، وهي اتصال السند بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، وعدالة الرواة، بأن لا يكون في السند من لا يقبل حدثيه، وضبط الرواة لما يروونه حتى يؤدوه إلى غيرهم، مع السلامة من الشذوذ والعلّة.

فإذا صحَّ الحديث مستكملاً شروط الصحة، فهو حديث يجب العمل بمقتضاه، وهو حجة تبنى عليه الأحكام، غير أنه ليس كالخبر المتواتر، لكن إذا احتفَّ بخبر الآحاد قرائن الصحة والقبول، رفعته إلى منزلة المتواتر، من حيث إفادته العلم اليقيني، ووجب العمل به[١].

وعندما ننظر في الأخبار الواردة عن النبي ﷺ نجد جمهورها الأعظم، والأعمّ الأغلب منها من قبيل الآحاد، والمتواتر بالنسبة إليها قليل، «فمن تنكب عن قبول خبر الآحاد، فقد عمد إلى ترك غالب السنن»[٢]، ولأجل هذا « ذهبت طائفة إلى نفي أخبار الآحاد جملة، والاقتصار على ما استحسنته عقولهم في فهم القرآن، حتى أباحوا الخمر»[٣].

وبهذا الصنيع قد ضرب بعض المبتدعة في الأحاديث النبوية بسهم نافذ، وزعموا أن حجية خبر الآحاد غير صالحة للاحتجاج، ولا سيما فيما يتعلّق بالعقائد، ففرقّوا بين

---

(١) ينظر: الكفاية في علم الرواية، ص٥٠، والتقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، ص ١٨، للحافظ العراقي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، وشرح مختصر الروضة، للطوفي ٢/ ٧٤، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ونخبة الفكر، للحافظ ابن حجر، ص ١٢، شرح الدكتور سعد الحميد، دار علوم السنة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، وشرح الكوكب المنير، لابن النجار ٢/٣٢٣، وموقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ١/ ١٣٠، وشرح لغة المحدث، لطارق بن محمد عوض الله، ص ١٠١ _ ١٢٤، مكتبة ابن تيمية، الجيزة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، وأخبار الآحاد في الحديث النبوي، للشيخ عبد الله بن جبرين، ص ١٢٩، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

(٢) شرح لغة المحدث منظومة في علم مصطلح الحديث، ص ١٠١.

(٣) الاعتصام ٢/ ٢٦.

الاستدلال بأحاديث الآحاد في الأحكام وفي العقائد، وذلك منهم اصطلاح حادث، ابتدعوه من عند أنفسهم، ليس لهم في ذلك سلف، «وحينما تفيد أخبار الآحاد العلم، فإنه يحتج بها في العقائد، ومع ذلك فالتفريق بين الأحكام والعقائد أمر استجدَّ في وقت متأخر، أما السلف من الصحابة والتابعين، فكانوا يتلقون الأحاديث كلها دون تفريق، ويؤمنون بما جاءت به ويصدقون، ويعملون بما فيها من أحكام، والإسناد الصحيح الذين يروون به حكماً من أحكام الصلاة أو الزكاة أو الحدود أو النكاح فيعملون بمقتضاه، هو نفسه الإسناد الذي يروون بطريقه حديثاً في الصفات أو الرؤية أو القدر أو غيره، دون أن يفرقوا بين هذه الأحاديث المروية التي جاءت بهذا الإسناد»(١).

وهؤلاء الممارون في السنة، الخائضون فيها بغير علم، إذ تركوا العمل بخبر الآحاد جملةً وتفصيلاً، اطّرحوا غالب السنة، بدعوى أنها لا تفيد اليقين، ومن أثر ذلك أن جعلوا مكان ما تركوا من السنّة حكم العقل، ليعتقدوا بمقتضى عقولهم ما اشتهته أهوائهم، فوقع النزاع الشديد في العقائد بين طوائف أهل القبلة حتى آل الأمر إلى تكفير بعضهم بعضاً.

وإذا قرأنا في بدايات رفض أهل الأهواء قبول أخبار الآحاد، قراءةً تاريخية، وجدنا أنهم لّما تقرر لديهم اعتقادهم الذي ابتدعوه، ومذهبهم الذي أصّلوه، رأوا من نصوص الوحيين ما ينقض ما ذهبوا إليه، فتسلّطوا على نصوص القرآن الكريم بالتأويل والتحريف، وعلى نصوص السنّة بإنكار أحاديث الآحاد والطعن في ثبوتها، وكونها لا تفيد اليقين مع أنَّ جمهور الأحاديث على هذا الوجه، وتجاوز أمر بعضهم إلى أنْ «ردّوا المتواتـر -مع ندرته عندهم- بأنه وإن كان قطعي الثبوت، لكنه غير قطعي الدلالة،

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/ ٧٥٠.

لتطرق الاحتمالات إليه كنصوص القرآن»[١]؛ وذلك كما قال الفخر الرازي: «أما التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى فغير جائز»[٢]، ثم ساق خمسة أوجه، مفادها تعطيل السنّة، وتوهين ما روي عن النبي ﷺ بشبهاتٍ تصوّرها يكفي في معرفة بطلانها.

والحديث إذا ثبت عن النبي ﷺ من وجهٍ يصلح للاحتجاج به، فإن مقتضى الإيمان هو التسليم والإذعان، كما قال الله ﷻ مخبراً عن حال المؤمن، والمراد به الإنشاء الطلبي: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾[٣]، وحديث الآحاد من ذلك، فمن ترك العمل به، فقد ترك ما قضى به النبي ﷺ.

فهذا التقسيم الذي اصطنعه أهل الأهواء في الحديث، وأن حديث الآحاد لا يقبل ولا يصلح للاحتجاج، ما هو إلا مراءٌ ومجادلةٌ؛ لإبطال ما لا يوافق ما ذهبوا إليه مما ثبت عن النبي ﷺ، «وهو ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدّعون أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية على مقتضى الدليل، فيجب ردُّها، كالمنكرين لعذاب القبر والصراط والميزان ورؤية الله عز وجل في الآخرة»[٤]، فردُّ حديث الآحاد -عندهم- لكونه حديث آحاد، أهون من ردِّ السنة هكذا اعتباطاً دون مبرر، وأقبل لنفوس الجهلة لهذا التعليل العليل.

«وهذه التفرقة لا دليل عليها من القرآن أو السنة أو إجماع الصحابة أو أقوال

---

(١) أخبار الآحاد في الحديث النبوي، ص ١٣٠.

(٢) أساس التقديس ص ٢١٥.

(٣) سورة الأحزاب آية (٣٦).

(٤) الاعتصام ٢/ ٢٣.

جمهورهم أو بعضهم، وبالتالي فإنه لا يوجد سند شرعي لهذا التقسيم، خصوصاً وأن القرآن الكريم قد اعتدَّ بخبر الاثنين والأربعة»[١].

والحامل للواء إنكار أخبار الآحاد هم المعتزلة[٢]، وقد ذكر ابن حزم هذا المعنى: أنَّ «جميع أهل الإسلام كانوا على قبول خبر الواحد الثقة عن النبي ﷺ يجري على ذلك كل فرقة في علمها كأهل السنة والخوارج والشيعة والقدرية حتى حدث متكلمو المعتزلة بعد المائة من التاريخ فخالفوا الإجماع في ذلك»[٣]، واعتمدوا عدم الأخذ بأخبار الآحاد.

وهؤلاء الذين تركوا العمل بخبر الآحاد ما زال لهم وارثٌ ورث مقالتهم، واتصلت بدعتهم منذ ذلك الزمن إلى العصر الحديث، فما برحت أصداء تلك البدعة تتردّد في العالم المعاصر، ولا سيما مع ما تزامن من شبه المستشرقين وطعونهم في السنة، وكان لهم أبواق ممن ينتسب إلى الإسلام، يوصلون خوضهم ومرائهم إلى بلاد المسلمين، وأثر ذلك في تعميق القول بالتشكيك في السنة لا ينكر، وعلى سبيل الخصوص خبر الآحاد[٤].

---

(١) السنة المفترى عليها، ص ١٥٨.

(٢) ينظر: أساس التقديس، للرازي، ص ٢١٥.

(٣) الإحكام شرح أصول الأحكام، لابن حزم ١/ ١١٠، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، دون ذكر الناشر، وسنة الطبع.

(٤) ينظر: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ٢/ ٣٧، إعداد الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، وكتاب السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد عليها ١/ ١٣١، لعماد السيد الشربيني، دار اليقين، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٨٧، للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، والمستشرقون والحديث النبوي=

وكذلك ما كان من موقف بعض الفرق البدعية الخارجة عن حمى الإسلام التي خرجت في العصر الحديث كالقاديانية[١] والبهائية[٢]، كان لها دورها على نطاق أوسع، غير أنَّ هذه الفرق، لا يخفى شأنها ومكرها ضد الإسلام وأهله، كما قد يخفى غيرها.

ومن أمثلة ما أحدثه المعتزلة من ترك الاحتجاج بخبر الآحاد، في هذه العصور المتأخرة ما قاله محمد عبده[٣] بهذا الصدد: «ولا يمكن أن يعتبر حديث من حديث الآحاد دليلاً على العقيدة»[٤].

«ولقد صرح عديد من الكتاب في العالم العربي بعدم حجية السنة في التشريع الإسلامي، أو رفض بعض أجزائها، أو عدم الثقة بخبر الآحاد، أو التشكيك في دواوين السنة، أو إثارة الشبهات حول رواة الحديث من الصحابة ومن بعدهم، وكل هذا يؤدي

=للدكتور محمد بهاء الدين، دار النفائس الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، المستشرقون والسنة، للدكتور سعد المرصفي، دار الريان، لبنان، دون ذكر سنة الطبع.

(١) حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الانجليزي بالقارة الهندية، لإبعاد المسلمين عن دينهم، وخاصة جهاد الانجليز، أسسها ميرزا غلام أحمد القادياني، وادعّى النبوة، وأن لهم دين جديد مستقل عن الاسلام، ، وكفّر كل مسلم لم يدخل في القاديانية. ينظر: (الموسوعة الميسرة ١/ ٤١٩، و القاديانية دراسة وتحليل، ص ١٩، لإحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، لاهور، الطبعة السادسة عشر، ١٤٠٤هـ).

(٢) حركة خرجت من المذهب الشيعي، عام ١٢٦٠هـ، أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي، تحت رعاية الاستعمار الانجليزي، بهدف إفساد العقيدة الاسلامية، ولهم عقائد مضادة للشريعة الاسلامية. ينظر: (الموسوعة الميسرة ١/ ٤١٢، والبهائية نقد وتحليل، ص ١٣، لإحسان إلهي ظهير، دار المجدد).

(٣) هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني – ولد عام ١٢٦٦هـ، وتوفي عام ١٣٢٣هـ – مفتي الديار المصرية، متكلم، حكيم، أديب، لغوي، كاتب، صحافي سياسي. ينظر (الأعلام ٦/٢٥٢، ومعجم المؤلفين١٠ / ٢٧٢).

(٤) السنة المفترى عليها، ص ١٤٣، نقلا عن الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٥/ ٣٧.

إلى إنكار السنة»[١].

وهؤلاء وأمثالهم لمّا اطّرحوا أحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد، وقعوا في تحكيم العقول، ونبذ ما جاء به الرسول ﷺ، فانفتح عليهم بابٌ من الخوض والجدال، لا يستطيعون غلقه.

ومذهب أهل السنة والجماعة «أن أخبار الآحاد المتلقاة بالقبول تصلح لإثبات أصول الديانات»[٢]، فإذا صحَّ الحديث من وجهٍ يُحتجُّ به، وجب العمل به، والتمحّل بأشياء يُتوصَّل بها إلى ردِّ الحديث الثابت، ما هو إلا ضربٌ من جحود الحقِّ بعد ثبوته، ولا يخفى أنَّ هذا المعنى مما يدخل تحت لفظ "المراء" قال الإمام الشافعي بعد إيراده حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «نضَّرَ الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها، فربَّ حامل فقهٍ غير فقيهٍ، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»[٣]: «فلما ندب رسول الله ﷺ إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأً يؤدّيها، والمرء واحد، دلَّ على أنه لا يَأْمُر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدَّى إليه، لأنه إنما يؤدي عنه حلال وحرام يجتنب، وحدٌّ يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا»[٤].

---

(١) زوابع في وجه السنة قديما وحديثا، ص ٧١.

(٢) المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية ١/ ٤٩٦، تحقيق الدكتور أحمد بن إبراهيم الذروي، دار الفضلية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده، ص ٢٤٠، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، وأبو داوود من طريق عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت ﷺ، في أبواب العلم، باب فضل نشر العلم، (٣٦٦٠)، والترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في الحثِّ على تبليغ السماع، (٢٦٥٦)، قال الألباني: وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات، ينظر: (السلسلة الصحيحة١/ ٤٠٣).

(٤) الرسالة، ص ٤١٦، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ.

وهذا -ولله الحمد- دليل صحيح صريح، في قبول الخبر الصحيح، وليس لمن طعن في أخبار الآحاد، حجة ودليل، إلا أن يردَّ على النبي ﷺ أمرّه، ويخالفه عن بصيرة، إذ إن قبول خبر الواحد «مجمع عليه من السلف، معلوم بالتواتر من عادة النبيﷺ في توجيهه ولاته ورسله آحاداً للآفاق، ليعلموا الناس دينهم، ويبلغوهم سنة رسولهم من الأوامر والنواهي، والمخالف في ذلك معاند، أو ناقص الفطرة»[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٢/ ١٢٦.

المبحث الرابع: المراء في الحقّ بعد ما تبيّن.

المراء في الحقِّ بعد ما تبيّنَ، صورة من صور اللّدد في الخصومة، واللجاجة في المجادلة، إذ المقصود من مراجعة الكلام وتقليبه بين المتناظرين، هو معرفة وجه الصواب من الأقوال، واستظهار أقربها إلى الحق، وإذا تبيّن الحقُّ فليس ثَمَّ إلا التسليم والقبول، بيد أنَّ من الناس من اتخذ الجدال في الحق والمراء فيه بعد تَبيُّنه، مطيّةً للتكذيب بها لا يتفق مع ما استقرَّ في هواه، فهو أشبه ما يكون بردٍّ وتكذيب الحق هكذا! اعتباطاً بلا دليل ولا حجة، كراهيةً له، حيث جاء على خلاف المألوف، ولعلَّ هذا من بواعث المراء في الحق بعد ما تبين، لأنَّ المراء فيه بعد وضوحه، دليلٌ على كراهته واستثقاله وعدم قبوله، ثم بعد ذلك يذهب ليلتمس المخارج من تبعته، ولهذا كان النهيُّ عنه في الشرع صريحا ظاهراً.

والجدال في الحقِّ بعد تبيّنه محرّمٌ؛ لأنه من الجدال المذموم، «وقد ذم الله تعالى في القرآن ثلاثة أنواع من المجادلة، ذمَّ أصحاب المجادلة بالباطل ليدحض به الحق، وذمَّ المجادلة في الحق بعد ما تبين، وذم المحاجة فيما لا يعلم المحاج»[1]، وهذا كلّه مما يتفرّع عن الجدال المذموم، وإليك نماذج من الآيات القرآنية الكريمة التي بهذا الصدد:

قال الله ﷻ : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[2]، والمراد -والعلم عند الله- أنَّ المشركين جادلوا النبي محمد ﷺ على ما رآه من آيات الله ﷻ الكبرى في معراجه إلى السماء، وهم بذلك يرومون دفعه عما رآه وعلمه، وهذا من مجادلتهم في الحق بعد ما تبيّن[3]، وهذا يدل

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٧٤.

(٢) سورة النجم آية (١٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٥١٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

على أنَّ المراء في الحق الظاهر البين، يُراد منه تكذيبه وجحوده، إذ ليس من دليل ولا حجة يُتكأ عليها، فيلجأ أصحاب المراء لمثل هذا، تبريراً لتكذيبهم المفضوح، وقد تقدم الكلام على هذه الآية(١).

قال الله ﷻ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾(٢)، وهذه الآية خبر من الله ﷻ عن فريق من المسلمين، لما كرهوا لقاء العدو والقتال يوم بدر بعد أن تشوّفت نفوسهم للعير التي تحمل الأموال، وكان أصل خروجهم لها، فلما أفلتت منهم لم يبق إلا قتال العدو، وقد وعدهم الله ﷻ إحدى الطائفتين، فلما تحقق القتال كرهوه، كما حكا الله ﷻ حالهم، أنهم جادلوا النبي ﷺ، وكان جدالهم متمثلا في قولهم: «لم يُعْلِمنا أنَّا نلقى العدو فنستعدَّ لقتالهم، وإنما خرجنا للعير»(٣)، والحاصل أنه لما تحقق القتال، وأمرهم النبي ﷺ به، لم يبقى إلا الاستجابة وليس المجادلة، ولهذا أنكر الله ﷻ هذا الصنيع منهم ﷺ، لأنَّ هذه الحال « ليس للجدال محلٌّ فيها، لأن الجدال محلّه وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان»(٤).

فيا عجباً ممن يجادل ويماري في مسائل عظيمة من أصول الإيمان وقواعد الدين بعد بيانها أتم بيان، ووضوحها غاية الإيضاح، ثم بعد ذلك يأتي ليجادل ويماري ويغرق في النزع، حتى يشبه حال من يسفسط في الأدلة العقلية، ويقرمط في الأدلة النقلية، وذلك «أن في الناس من يسفسط في بعض الأمور، فيجحد الحق بعدما تبين، أو يجحد

---

(١) ينظر: صفحة: ٢٥٢.

(٢) سورة الأنفال آية (٦).

(٣) تفسير الطبري ٦/ ١٨٣.

(٤) تفسير السعدي ٢/ ٦٠٧.

علمه به، أو يقرُّ ببعضه دون بعض، أو يجعل الحقائق تبعاً للعقائد أي ما يعتقده هو!»[١].

قال الله ﷻ : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، قال شيخ الإسلام: «فذم الله من جادل في الحق بعد ما تبين»[٣]، ويزيد الشيخ عبد الرحمن السعدي هذه المسالة توضيحاً في شرح القاعدة الثانية والخمسين من قواعد تفسير القرآن، فيقول: «إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محلٌّ، وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة، وذلك أنه من المعلوم أن محلَّ المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات، إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات، فترد عليه هذه الأمور، لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح، فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارضُ هنا لا يُلتفت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[٤]، يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟ ونظير هذا قوله

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، لشيخ الاسلام ابن تيمية، ص ٧٨، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض، سنة الطبع ١٤١٧هـ.

(٢) سورة آل عمران آية (٦٦).

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١/ ١١٤.

(٤) سورة البقرة (٢٦٥).

تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١)، أيْ: هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيَّته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، كقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾(٣)، أيْ: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه، فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٤)، وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف، في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾(٥)، أيْ: فكل من جادل في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعاً وعقلاً، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾(٦)، فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم، وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح، ليس للتوقف عنه محلٌّ، ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وَبَّخَ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾(٧)، ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بياناً وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال

(١) سورة الكهف آية (٢٩).

(٢) سورة الأنفال آية (٤٢).

(٣) سورة آل عمران آية (١٥٩).

(٤) سورة آل عمران آية (١٥٩).

(٥) سورة الأنفال آية (٦).

(٦) سورة الأنعام آية (١١٩).

(٧) سورة الانشقاق آية (٢١).

تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[1]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[3]، وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام، وإزالة الشبه كلها، انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً»[4].

قال الله ﷻ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[5]، والمعنى: أن النبي ﷺ أُمر أن يدعو إلى ما شرعه الله ﷻ ووصّى به الأنبياء، وأُمر بالاستقامة عليه، ولا يتبع أهواء الذي شكّوا في الحق وانحرفوا عن الدين، وأن يعلن أنه آمن بما أنزل الله من كتاب، وأن يقوم بين الناس بالعدل، ولكلٍّ عمله، ولا خصومة ولا جدال بعد بيان الحق ومعرفته، لأنه إذا «تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي

---

(١) سورة النجم آية (٥٥).

(٢) سورة الرحمن آية (١٣).

(٣) سورة يونس آية (٣٢).

(٤) القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ١٥٨، مكتبة المعارف، الرياض، سنة الطبع ١٤٠٢هـ.

(٥) سورة الشورى آية (١٥).

الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي»[١].

ولك أن تعلم كيف نزع المراء باليهود إلى حدٍّ يودّون معه كفر المؤمنين وتركهم دينهم، حسداً لهم لفضل الله ﷻ عليهم، وذلك بعد ما تبين لهم الحقُّ بصدق رسالة النبي محمد ﷺ، لما يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل من ذكره وصفته وهم لا يمترون فيه، ومع ذلك لمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به، ولم يكتفوا بذلك بل ودّوا لو كفر المؤمنون وتركوا دينهم، وسعوا في أسباب ذلك ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، قال الله ﷻ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[٢]، «فدلَّ بقوله ذلك أنَّ كفر الذين قصَّ قصتهم في هذه الآية بالله ورسوله، عنادٌ وعلى علم منهم ومعرفةٍ بأنهم على الله مفترون» [٣]، فالحسد حملهم على جحد ما يعلمون صدقه، فهل بعد بيان الحقِّ إلا الاتباع وترك الجدال والخصام والنزاع.

فحصل مما تقدم أنَّ المراء في الحق بعد ما تبيّن إنما هو ضرب من التكذيب بالحقَّ، مع علم المكذب أنه لا يملك على ذلك دليلاً سوى المغالطة والتشغيب، ومن وصل إلى هذه المرحلة من المراء فليس شيءٌ أنفع لحاله مثل الوعيد والترهيب.

---

(١) تفسير ابن سعدي ٤/ ١٥٨٧، وينظر: تفسير الطبري ١١/ ١٣٧، وتفسير ابن كثير ١٢/ ٢٦٢.

(٢) سورة البقرة آية (١٠٩).

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٣٦، وينظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٨.

المبحث الخامس: المراء فيما لا سبيل إلى العلم به.

من أنواع المراء في الدين: المراء فيما لا سبيل إلى العلم به بأسباب الطاقة البشرية، وليس للعقول طريق إلى إدراكه، ومن ذلك مسائل الغيب التي أُمرنا بالإيمان بها، دون التنقير عما حُجب عنّا علمه ولم نكلف البحث فيه، فالله تعالى مدح الذين يؤمنون بالغيب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١)، فالإيمان بالغيب من أخصِّ صفات المؤمنين.

وطلب علم ما لا يدرك؛ لكونه من قبيل الغيب الذي يجب الإيمان به، محاولةٌ لإخراجه من الغيب إلى الشهادة عن طريق البحث فيه، فكأنَّ ذلك يعنى أن القلب لم يتسع للإيمان به، ولهذا تأتي الأسئلة وإيراد الإشكالات، وتكلّف طلب علمٍ وقع الابتلاء به للناس على وجه عدم معرفته شهادةً؛ لكونه غيباً.

فالخوض في مثل هذه المسائل ضرب من الابتداع، وخروج عن مراد الشارع، وذلك مثل طلب العلم بكيفية الصفات الإلهية وما يدخل تحت هذا المعنى من مسائل، ومن أمثلة ذلك: هذا السؤال الذي أُرد على الإمام مالك رحمه الله عن كيفية استواء الله على العرش، فأجاب الإمام أن الاستواء معلوم من حيث لغة العرب، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأن هذا ما لا سبيل إلى العلم به، لأن طريقه الوحي، ولم يرد في نصوص الوحي ذكرٌ لكيفية الاستواء، فالسؤال عنه بدعة من هذه الحيثية.

---

(١) سورة البقرة آية (٣).

وكذلك بحث المسائل الغيبية التي استأثر الله تعالى بعلمها، واقتضت حكمته ألا يعلم الخلق كنهها وحقيقة أمرها، وأوجب عليهم الإيمان بها، كما يتعلّق باليوم الآخر من مسائل، ومنه الإيمان بالحياة البرزخية، وما يكون فيها من نعيم أو جحيم، فالدخول في هذه المسائل وأشباهها من غير سلطان من الشرع ممنوع.

وقد ذكر ابن رجب: أنَّ «أمور الغيب الخبرية، التي أمر بالإيمان بها، ولم يبين كيفيتها، وبعضها قد لا يكون له شاهد في هذا العالم المحسوس، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يعني، وهو مما ينهى عنه، وقد يوجب الحيرة والشك، ويرتقي إلى التكذيب»(١).

ولا شك أنَّ طلب علم ما لا يدرك يوجب الحيرة والشك والاضطراب؛ لأن الإنسان إذا بحث بعقله في علم ما لا يدركه، وقع في متاهات لا يستطيع الخلاص منها، ولن يحصل من خلال بحثه على ما يروي عليله ويشفي غليله، بل يسير وراء سراب يظنه ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فرجع من حيث أتى، مزجى البضاعة، قد رجع إليه طرفه كليلاً وهو حسير، وفي العلم النافع المزكي للنفوس شغلٌ عما حجب علمه، إلا أن النفوس مولعة بطلب الإغراب والبحث عما ليس متاحاً لكل أحد، وهذا من أسبابه طلب التميُّز عن سائر الناس.

وعندما نتأمل في أسباب ضلال أهل البدع نجد أنَّ منها: البحث بالعقول والآراء، في مسائل الاعتقاد فيما لم يرد به علمٌ من الكتاب والسنة، لكونه لا تتعلق به حاجة الناس، فالخوض فيما ليس عليه دليل ولا برهان، ولا تتعلق به فائدة علمية ولا عملية، سبب للسقوط في أودية لضلال السحيقة.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٧٢.

وهذا المبحث –المراء فيما لا سبيل إلى العلم به– له شائبة تعلّقٍ بالمبحث الذي يليه –المراء بالسؤال عمّا نُهي عنه شرعاً– فقد تدخل بعض مسائله تحت عباءة السؤال عما نُهي عنه شرعاً، غير أنَّ المراء فيما لا سبيل إلى العلم به، يكون ابتداءً بالخوض وكثرة الكلام، كما يكون بإثارة الأسئلة وإقحام أدوات الاستفهام.

فهذا المبحث –المراء فيما لا سبيل إلى العلم به– أعمُّ من جهة أدواته، وأخصُّ من جهة مسائله؛ لكونه ألصق بمسائل الاعتقاد الغيبيّة، ولأهميّته من هذه الحيثيّة جعلته مفرداً في مبحثٍ مستقلٍّ.

وأما السؤال عمّا نُهي عنه شرعاً، ليس بالضرورة أن يكون في مسائل الاعتقاد فحسب، فقد يكون في أصول الدين، وقد يكون في فروع الشريعة، ولكن كثرة الأسئلة التي نُهي عنها، على اختلاف تعلّقها بأنواع المسائل الشرعية، تحمل في طيّاتها عدم التسليم والإذعان، الذي يجب تجاه النصوص الشرعية.

المبحث السادس: المراء بالسؤال عمّا نُهي عنه شرعاً.

السؤال إذا كان من قبيل تعلّم العلم والبحث عن الحق والصواب، والتبيّن فيما يقع فيه الجهل، فهو محمود يمدح عليه فاعله، وهو إما مباح أو مندوب أو واجب، وقد قال الله ﷻ : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، ففي هذه الآية أمر بسؤال أهل الذكر فيما يشكل من مسائل الدين، أما السؤال على طريقة التكلف والتعنّت والمشاغبة، فهو المنهي عنه(٢)، وقد ورد في نصوص الكتاب والسنة النهيُ عن كثرة إيراد الأسئلة التي هي من جنس الأغاليط، وفيها نوع اعتراض، يتخللها التنطع والتعمّق، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، وفي هذا الحديث نجد أنَّ النبي محمد ﷺ «أمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللاً، بأن سبب هلاك الأولين، إنما كان كثرة السؤال، ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية»(٣)، وأيضاً ورد في الحديث أنَّ النبي ﷺ كره المسائل وعابها(٤)، «وهي المسائل الدقيقة التي لا يحتاج إليها»(٥)، وذلك مثل «السؤال على

---

(١) سورة النحل آية (٤٣).

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٤١١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ٢/ ٧٨٣.

(٤) متفق عليه من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة النور (٤٧٤٥)، ومسلم في أول كتاب اللعان، (١٤٩٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٤١١.

وجه التعنت والعبث والاستهزاء، كما كان يفعله كثير من المنافقين وغيرهم، وقريب من ذلك سؤال الآيات واقتراحها على وجه التعنت ، كما كان يسأله المشركون وأهل الكتاب...ويقرب من ذلك السؤال عما أخفاه الله عن عباده، ولم يطلعهم عليه، كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح»[١].

وهذا هو شأن المراء بالأسئلة المنهيُ عنها؛ لما تفضي إليه من عواقب لا تحمد، يتدرج من خلالها السائل إلى أمور تؤدي إلى الاختلاف وتكلّف ما لا يعني، وإلباس الحق بالباطل والحيرة والشكِّ، والوقوف على ما تحار فيه العقول ولا تهدي إليه سبيلا، والمطلوب هو الكفُّ عن إيراد السؤآلات التي من هذا القبيل.

ومن هنا ندرك حكمة النهي عن كثرة السؤال، قال عمر بن الخطاب ﷺ: «نهينا عن التكلف»[٢]، والمراد أنَّ «كثرة السؤال والبحث عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها، والأخذ بظاهر الشريعة وقبول ما أتت به»[٣]، لأنَّ «التفقه في الدين، والسؤال عن العلم، إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال»[٤]، ولهذا بوّب الإمام البخاري في صحيحه: «باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلّف ما لا يعنيه»[٥]، ثم ساق تحت هذه الترجمة من الأحاديث ما وافق معناها من النهي عن كثرة

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه، (٧٢٩٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٨١١.

(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٤٤.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، ص ١٢٥٤.

المسائل.

ومن خلال ما تقدّم ندرك أنَّ الأسئلة التي على هذا النحو، هي في الواقع هروبٌ من العمل الذي تقتضيه الأدلة، وتضييع الوقت بما لا ينفع وأحياناً فيما يضرُّ.

«وأصل النهى عن كثرة السؤال والتنطع في المسائل مبيّنٌ في كتاب الله تعالى في بقرة بنى إسرائيل، أمرهم الله بذبح بقرة، فلو ذبحوا أيَّ بقرة كانت، لكانوا مؤتمرين غير عاصين، فلما سألوا ما هي؟ وما لونها ؟ قيل لهم: لا فارض ولا بكر، ضيّق عليهم، وقد كان ذلك مباحٌ، وكذلك ضيق عليهم في لونها، فقيل لهم: صفراء، فمنعوا من سائر الألوان، وقد كان ذلك مباحًا لهم، ثم لما قالوا: إن البقر تشابه علينا، قيل لهم: لا ذلول حرّاثه ولا ساقية للحرث، أي: معلمة لاستخراج الماء، وقد كان ذلك مباحًا لهم، فعزَّ عليهم وجود هذه الصفة المضيق عليهم فيها، حتى أمرهم أن يشتروها بأضعاف ثمنها، عقوبةً بسؤالهم عما لو يكن لهم به حاجة»[(١)].

وفي هذه القصّة زاجر بليغ عن التعنت بالسؤال لما يفضي إليه من الوقوع في الحرج والمشقة، ولما يؤدي إليه أيضا من ترك العمل المأمور به، ولهذا حذرّ الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك بني إسرائيل في ذلك فقال تعالى: ﴿ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ ﴾[(٢)]، والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض والمراء والجدال، ولما كانت تلك المسائل المنهي عنها قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿وَمَن

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال ١٠/ ٣٣٨.

(٢) سورة البقرة آية (١٠٨).

﴿يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)]، ولهذا نجد أن كثرة الخصومة في المسائل الشرعية، تفضي إلى أمور عظيمة من الشناعة سواءً في المسائل الاعتقادية أو العملية[(٢)].

ومن أجل ذلك كان السلف يكرهون تلك المسائل وتشقيقها، ولا يسألون إلا عما ينفعهم، وعلى هذا يخرّج قول أنس بن مالك ﷺ: «نهينا أن نسال النبي ﷺ عن شيء»[(٣)]، وقال ابن عباس ﷺ: «ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب مُحمد ﷺ، ما سألوا إلا عن ثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن»[(٤)]، وجاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «سلوني»، قال الراوي: «فهابوه أن يسألوه»[(٥)]، وقول النبي ﷺ هذا، «لما أكثروا عليه من الأسئلة، واستشعروا أنه كان هناك من سأل تعنّتاً وتجهيلاً، فغضب لذلك حتى احمرَّ وجهه»[(٦)]، ولأجل هذا -والله أعلم- نُهي الصحابة ﷺ عن السؤال فيما بعد.

وعندما نتأمل في حِكَم النهي عن ذلك، نجد أن من الحكم: أن كثرة السؤال «ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية مذموم، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وُعظوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه»[(٧)]، قال الحسن البصري: «إن

---

(١) سورة البقرة آية (١٠٨).

(٢) ينظر: تفسير السعدي ١/ ٨٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، (١٢).

(٤) أخرجه البزار في البحر الزخار، في مسند ابن عباس ١١/ ٢٧٤.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسلام ما هو وبيان خصاله، (١٠).

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ١٥٢.

(٧) الموافقات ٥/ ٣٨٥.

شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل، يعنتون بها عباد الله»[(١)].

ومن خلال ما تقدم يتبين أن من الأسئلة ما هو واجب أو مستحب، حسب ما هو وسيلة إليه، ومن الأسئلة ما هو منهيٌ عنها، نهي تحريم أو تنزيه.

بقي أن نعلم على وجه الحصر مواضع السؤآلات المنهي عنها، لتمييزها عن غيرها، والإمام الشاطبي قد تتبع مواضع كراهية السؤال من خلال استقراء النصوص، فوصل في جمعها إلى عشرة مواضع، وهذه الكراهية تختلف أحكامها على اختلاف أحوال السؤال، فمن تلك الأسئلة ما يكون حراماً، ومنها ما تشدُّ كراهتها، ومنها ما تخفُّ دون ذلك، ومنها ما هو محلُّ اجتهاد، وإجمال هذه المواضع التي ذكرها على هذا النحو:

١. السؤال عما لا ينفع في الدين، وذلك مثل سؤال من سأل النبي ﷺ عن الأهلة فأنزل الله فيها قرآناً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾[(٢)]، «قال قتادة: سألوا نبيَّ الله ﷺ عن ذلك: لم جُعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تَسمعون»[(٣)]، ونلاحظ في جواب الآية عن السؤال، أنَّ فيه صرفاً للسائل عما لا ينفعه إلى ما ينفعه، فالسؤال الذي لا نفع منه تضييع للوقت وشغل للعقول بالفضول.

٢. أن يسأل عن شيء بعد ما بلغ من العلم حاجته وعلم المقصود، وذلك مثل سؤال بني إسرائيل عن أوصاف البقرة التي أُمروا بذبحها في شأن القتيل،

---

(١)أخرجه الهروي في كتاب ذم الكلام وأهله ٣/ ١٩٤.

(٢) سورة البقرة آية (١٨٩).

(٣) تفسير الطبري ٢/ ١٩١.

فأخذوا في عرض الأسئلة التي يظهر منها التعنّت والهرب من العمل، حتى آل بهم الحال إلى الشدّة والعنت.

٣. السؤال من غير احتياج إليه في الوقت الراهن، وهذا -والله أعلم- قد يكون من قبيل نهي النبي ﷺ عن السؤال في شيء لم ينزل فيه قرآنٌ، وقد يدخل فيه أيضاً أن يتسبّب السائل بسؤاله إلى تحريم شيءٍ كان حلالاً، كما جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن أمر لم يحرم فحرم على الناس من أجل مسألته»[1]، وقد جـاء في الحديث: «دعوني ما تركتكم».

٤. السؤال عن صعاب المسائل وشرارها، وعلى هذا يرد النهي عن الأغلوطات والتي سبق الكلام عليها[2].

٥. السؤال عن علة الحكم، وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل معناها، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها للمرأة التي سألتها عن علّة قضاء الصوم دون الصلاة للحائض، فقالت: أحرورية[3] أنتِ؟ فقالت: لست بحرورية ولكني أسأل، قالت

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو ما يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك، (٢٣٥٨).

(٢) ينظر: صفحة: ٢٧٥.

(٣) الحرورية هم الخوارج. ينظر: صفحة ٢٢٠، ومعنى قول عائشة رضي الله عنها : (أحرورية أنت؟) أن طائفة من الخوارج يوجبون على الحائض قضاء الصلاة الفائتة في زمن الحيض، وهو خلاف إجماع المسلمين، وهذا الاستفهام الذي استفهمته عائشة هو استفهام إنكار، أي: هذه طريقة الحرورية. ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٢٥٠.

عائشة رضي الله عنها: كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[١].

فظاهر جوابها رضي الله عنها أن العبادات لا يُتنطّع في البحث عن عللها وأسبابها، لأن الأصل فيها الاتباع والاقتداء، لا الجدال والمراء.

٦. أن يبلغ السائل بسؤاله إلى حدِّ التكلف والتعمّق والمبالغة في الاحتياطات، خروجاً عن المشروع، وقد يصلح لذلك مثالاً، ما روي عن عمر وعمرو بن العاص رضي الله عنهما حيث مرّا بحوض، «فقال عمرو: يا صاحب الحوض أترد على حوضك هذا السباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، فإنا نرد على السباع وترد علينا»[٢].

٧. أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي، ومحاولة ردِّ الحق المتقرر بالظنون والأهواء، ولهذا لما سئل الإمام مالك عن الرجل يكون عالما بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا سكت.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، (٣٢١)، ومسلم في كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، (٣٣٥).

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه، باب الماء المتغير، (٦٢)، ١/ ٣٨، تحقيق شعيب الارنؤوط، وحسن عبد المنعم شلبي، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، (٢٥٠)، ١/ ٧٦.

٨. السؤال عن المتشابهات والتي لا يعلمها إلا الله ﷻ، وذلك كالسؤال عن كيفيّات صفات الله ﷻ، أو البحث فيـها، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾(١) .

٩. السؤال عما شجر بين السلف الصالح، وما أحسن ما قاله عمر بن العزيز لما سئل عن قتال أهل صفين: تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلا نخضب بها ألسنتنا(٢).

١٠. سؤال التعنت والإفحام وطلب المغالبة بالخصام، أي إيراد السؤال لمجرد الخصومة وتطويل الكلام تعميةً وإدحاضاً للحقِّ، ليس إلاّ(٣).

---

(١) سورة آل عمران آية (٧).

(٢) ينظر: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، للسخاوي ٤/ ١٠٠، تحقيق الشيخ علي حسين علي، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، سنة الطبع ١٤٢٤هـ، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٢/ ١٢٤.

(٣) ينظر: الموافقات ٥/ ٣٨٧ _ ٣٩٢.

الفصل الخامس

أسباب المراء في الدين و آثاره.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أسباب المراء في الدين.

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الخلل في منهج التلقي.

المطلب الثاني: التأثّر بالمذاهب والأفكار المنحرفة.

المطلب الثالث: ظهور البدع والافتراق.

المطلب الرابع: اتباع الهوى وحب الشهرة.

المطلب الخامس: الحميّة الجاهلية، والتعصب المقيت.

المطلب السادس: محاولة دحض الحق وإبطاله.

المطلب السابع: إدخال المنطق والفلسفة في علم العقيدة.

المطلب الثامن: الجهل بالدين ولغة العرب.

المبحث الثاني: آثار المراء في الدين.

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الوقوع في الوعيد الشديد، والتعرّض لمقت الله تعالى.

المطلب الثاني: ردّ الحق وإنكاره.

المطلب الثالث: الوقوع في ذريعة الكفر، والتشبه بالكفار.

المطلب الرابع: التقليل من مكانة القران والسنة، وتحكيم العقل على نصوصهما.

المطلب الخامس: مخالفة منهج أهل السنة والجماعة.

المطلب السادس: فساد القلوب وقسوتها، وإضاعة الوقت فيما لا فائدة منه.

المطلب السابع: التكذيب ببعض النصوص وإثارة الشبه والاضطراب في الدين.

المطلب الثامن: إذكاء العداوة والبغضاء بين المسلمين، والوقوع في التكفير والاقتتال.

المبحث الأول: أسباب المراء في الدين.

المسلم حينما يتلقّى دينه من مصادره الأصلية، ويجتهد على أن تكون أعماله موافقةً للهدي النبوي، خالصةً لوجه الله ﷻ، سالمةً ممّا يكدّر صفوها، فإنه -بإذن الله ﷻ- يسلم من المراء والخصومة في الدين، ويسلم من كلِّ ما هو وسيلة إليه.

والمراء في الدين له أسبابه، التي كان لها الأثر الكبير في إذكائه بين المسلمين، وله مؤثراته التي ساعدت على انتشاره وتطوّره، وإذا تفطّن العاقل لتلك الأسباب، سهل عليه توخّي الحذر والتحذير منها، ليسلم من المراء في الدين وآثاره، وإن للمراء أسباباً، ولعل من أبرزها ما يلي:

المطلب الأول: الخلل في منهج التلقي.

الخلل في منهج تلقي الدين وأخذ العلم، من أعظم الأسباب التي كان لها الأثر الظاهر في إثارة المراء في الدين، وانتشاره عند بعض المسلمين، وذاك يعنى الجهل في كيفيّة تعلّم مسائل الدين وتلقّيه، ومنهجيّة طلب العلم وأخذه، والأشد من ذلك التربية على منهجٍ مخالف للمنهج الحقِّ في طلب العلم، ومخالفٍ لطريقة العلماء الراسخين في ذلك، ولقد حرص السلف أعظم الحرص على منهجية تلقي العلم، وكيفيّة أخذه؟ وعمن يُؤخذ؟ ولهذا كان المراء عندهم معدوماً، حتى خلفت خلوفٌ خالفوا هذا الطريق المهيع، فحصل لهم من المراء على قدر خلافهم وبعدهم عن طريقة السلف.

وهذه نماذج تبيّن كيف كان السلف يحرصون على تلقّي العلم التلقّي الحقَّ، ومن ذلك ما قاله محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، ذهب العلم، وبقي منه غبّرات في أوعية سوء»(١)، وقال الإمام مالك: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال فلان، قال رسول الله ﷺ عند الأساطين، وأشار إلى مسجد النبي ﷺ، فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو أؤتمن على مال لكان به أميناً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن»(٢).

---

(١) أدب الأملاء والاستملاء، للسمعاني، ص ٥٥، تحقيق ماكس فايسفايلر، دون ذكر الناشر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، وينظر: الفقيه والمتفقه ٢/ ١٩٢.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه الفقيه والمتفقه ٢/ ١٩٥.

فمن طريقة السلف أخذُ العلم عن أهله المعروفين به، ومجانبة من يُتهم فيه، أو أخطأ الطريق في تحصيله، ولهذا نجد الخطيب البغدادي عقد باباً في كتابه الفقيه والمتفقه بعنوان: «باب اختيار الفقهاء الذين يُتعلم منهم»(١)، وهذا الأمر في أخذ العلم من الأهميّة بمكان.

ونحن في هذا الزمن المعاصر كثرت فيه وسائل التعلّم والطلب بما يسّر الله من الوسائل الحديثة، إلا أنه في الوقت نفسه كانت تلك سبباً عند بعض المتعلمين، في العزوف عن ثني الركب في مجالس العلماء، ومثافنة الأشياخ، والتلقّي عنهم، والأخذ منهم، والاهتداء بسمتهم، والتخلّق بآدابهم، فكان من نتيجة ذلك الاكتفاء بتلك الوسائل وحدها، حتى خرّجت متعالمين وأنصاف متعلمين، كانت بضاعتهم في العلم مزجاة، وأعقبتهم جرأةً على ما لا يحسنون، الأمر الذي ترتّب عليه كثرة الخوض والمراء، وهذا من نتيجة خطأٍ ظاهر في منهجية التعلّم والطلب.

وهذه الوسائل نعمة من الله ﷻ، ولكنها «قد ضرّت كثيرًا من الناس حين استعجلوها على غير وجهها، وحين اكتفوا بها عن أخذ العلم عن أهله، وهذا من العلم الذي لا ينفع، الذي استعاذ منه النبي ﷺ، فإن البركة إنما تتحقق في العلم الذي يؤخذ عن العلماء، وهو الأصل الذي هو سبيل المؤمنين، أما أخذ العلم عن الوسائل فقط دون الرجال فإنه لا ينفع إلا قليلاً، مما نتج عنه ظهور الأهواء والآراء الشاذة عن السنة، وشيوع مظاهر الافتراق والتنازع في الدين»(٢)، وقد ترتّب على ذلك أيضاً، أخطاء كثيرة،

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٩١.

(٢) الافتراق، مفهومه، أسبابه، سبل الوقاية منه، للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، ص ٤، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

من عدم فهم المصطلحات العلمية والشرعية على الوجه الصحيح، وعدم تحرير محلِّ النزاع، وعدم التنبه لما في بعض الأراء والأقوال من الشذوذ والغلط، ونحو ذلك.

وعندما تخلّف هذا المنهج عند بعض من يطلب العلم، كان له الأثر الظاهر في شيوع المراء والخصام، وهذا ملاحظٌ عند أنصاف المتعلمين والمتعالمين، «يأخذون العلم على غير أصوله، وعلى غير قواعده، بغير اهتداء وبغير اقتداء، ويأخذون العلم بمشاربهم هم، وبأهوائهم، وبأمزجتهم، وبأحكامهم المفردة، فإذا ظهرت الأحداث والفتن شذّوا عن العلماء، وازدروا آراءهم، والإنسان مهما بلغ من الذكاء والقدرة والتأهّل للعلم، فإنه وحده لا يستطيع في كثير من الأمور أن يصل إلى الحق ما لم يعرف ما عليه السلف وما عليه أهل العلم في وقته، ويعالج قضايا العلم وقضايا الأمة والأحداث مع العلماء، فإنه إن لم يفعل ذلك فقد يَهلك ويُهلك»[1].

فالمراء عند هؤلاء أكثر من غيرهم، نتيجة لما فاتهم من العلم المزكّي للنفوس؛ للخلل في منهج التلقّي، وهذا ظاهر من أحوال كثير من الناس، فالعلم يكفُّ عن المراء والخصام عموماً، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بالدين، فإذا قلَّ الحظ من العلم النبوي، حصل ما هو مضادٌّ لمقاصده، ومن ذلك المراء والجدال المذموم، ومن تأمل هذه الآية عَلِمَ المقصود، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2]، وهذه العداوة بسبب الخصومة في الدين والمراء فيه كما تقدم[3].

---

(١) الافتراق، ص ٥٠.

(٢) سورة المائدة آية (١٤).

(٣) ينظر: صفحة: ٢٦٥.

وهذا المراء لم يقف عند حدِّ التطاول بالأقلام واللسان، بل جاوزه إلى السلاح والسنان، ووقعت المهارشة بالاستخفاف والاستهانة بحرمات الشريعة، من خلال إطلاق التكفير والتبديع، واستحلال دماء معصومة، الأمر الذي نشكو من ويلاته هذا الزمن، وعندما نفحص في أسباب هذا البلاء، نجد أنَّ من أسبابه الجوهرية: الخلل في منهج التلقي للعلم، فانظر كيف يستتبع الخطأَ خطأٌ أفحش منه!

فلا بدَّ من أخذ الدين من مصادره الأصلية، ومنابعه الحقّة، كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ على طريقة السلف وفهم الصحابة ﷺ، من العلماء الراسخين فيه، ولابدَّ من إحكام منهج التلقّي للعلم والعمل والتعامل، والتزام السنة، درءً لمغبّة عواقب التفريط في ذلك، ومنه المراء في الدين.

وإذا تقرر أنه لا بد من إحكام منهج التلقي، وأخذ العلم عن أهله، فلذلك طريقان:

الطريق الأول: المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمها؛ للخاصيّة جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها ويرددها على قلبه، فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلّم فهمها على وجهها.

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين، وهو أيضا نافع في بابه، بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله، ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول، ومن مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه، وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال"، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً، دون

فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد.

والشرط الآخر: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين(١).

ومنهج التلقي السليم، يتمثل في العلم والعمل والاهتداء والاقتداء والسلوك والتعامل، وهو الإلمام بالقواعد الشرعية، والأصول العامة، أكثر من مجرد الإلمام بفرعيّات العلم، أو بكميات النصوص(٢).

(١) الموافقات، للشاطبي ١/ ١٤٥، بتصرف.

(٢) ينظر: الافتراق، ص ٤١.

المطلب الثاني: التأثّر بالمذاهب والأفكار المنحرفة.

المذاهب الباطلة والأفكار المنحرفة واحتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب النحل والملل والمذاهب والفلسفات والأهواء، كان له الأثر الظاهر في إذكاء المراء في الدين وانتشاره بين المسلمين، ولهذا نجد من خلال ما تقدّم من كيفيّة انتقال المراء في الدين إلى المسلمين(١)، أن ممن أظهر المراء والخصومة وأدخل في الإسلام ما ليس منه حتى كثر الجدال والخوض، إما رجل كان أصله من أهل الكتاب وما زال محتفظاً ببعض موروثاته من ديانته السابـقة كعبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر بدعة الـرفض، ولذلك «قال المحققون من أهل السنة: إن ابن السوداء(٢) كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في عليٍّ وأولاده؛ لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام»(٣).

وكذلك الحال عند بعض الطوائف الأخرى كالقدرية، فمعبد الجهني القدري، أخذ مقالته في القدر عن رجل نصراني اسمه سوسن أو سنسويه، والجعد بن درهم أول من أحدث القول بخلق القرآن وأنكر أن يكون الله ﷻ تكلم حقيقة، وأنكر أن يكون الله ﷻ اتخذ إبراهيم خليلا، أخذ مقالته من الفلاسفة والصابئة، قال شيخ الإسلام: «وكان الجعد بن درهم هذا -فيما قيل- من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة...ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية

(١) ينظر: صفحة ٢١١.

(٢) هو عبد الله بن سبأ.

(٣) الفرق بين الفرق، ص ١٧٥.

أو مركبة منهما، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل ﷺ فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة»[١]، ولا ينفي ذلك أيضا أن يكون أصل مقالة الجعد مصدرها اليهود، فقد ذكر ابن كثير أن الجعد أخذ مقالته «عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر، الذي سحر الرسول ﷺ عن يهودي باليمن»[٢].

وهذه الأمثلة تبيّن أن الديانات السابقة، لها أثرها في المسلمين في تكوين البذور الأولى للمراء في الدين، وأنَّ ذلك هو أحد الأسباب الكبرى.

وإما أن يكون رجل له اتصال ببعض الطوائف والمذاهب الباطلة، كالجهم بن صفوان الترمذي لما ناظر قوماً من السمنية فدخله شيءٌ مما قالوه[٣]، ثم خرج ببدعة الجهمية وهكذا، ومن هنا ندرك أن من أسباب ظهور المراء في الدين التأثر بكلِّ ما يخالف الإسلام من عقيدة وسلوك، بل نجد أن أصل الخصومات والمراء في الدين والمحدثات، هو التأثر بالنحل والملل والديانات والأفكار والمذاهب المنحرفة، ولهذا نجد أنَّ الله ﷻ، نهى عن الجلوس في مجلس يخوض أصحابه في آيات الله تعالى؛ لئلا يتأثّر بهم من يجالسهم، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]، و«المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة،

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٢١ _ ٢٢.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٤٧.

(٣) ينظر: الرد على الزنادقة، للإمام أحمد ٩٣.

(٤) سورة الأنعام آية (٦٨).

والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلا وأمته تبعا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره»[١].

ومن منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب التحذير من مجالسة أهل البدع والأهواء والمحدثات، ومجانبة ما هم عليه من الضلال، لئلا يتأثر المُجَالِس لهم ببدعهم، ولقد استفاض عن السلف مقالاتهم بالتنفير والتحذير من أهل البدع والمحدثات وهجرهم، قال أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي[٢]: «إذا أردت أن تعرف محلَّ الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة عاش ابن الراوندي[٣] والمعرّي[٤] عليهما لعائن الله

(١) تفسير السعدي١/ ٤٨٢، وينظر: رسالة تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة، دراسة نقدية في ضوء عقيدة السلف ١/ ٢٨٦، للدكتورة عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٢١هـ.

(٢) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله البغدادي _ ولد عام ٤٣١هـ، وتوفي عام ٥١٣هـ _ الإمام، العلامة، شيخ الحنابلة، أحد الأذكياء، صاحب التصانيف، له كتاب الفنون يزيد على أربعمائة مجلد. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٣ ، وشذرات الذهب ٦/ ٥٨).

(٣) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي _ توفي عام ٢٤٥هـ _ الملحد، قال ابن الجوزي: كنت أسمع عنه بالعظائم، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب، له تصانيف في معارضة القرآن الكريم، وردِّ النبوات. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٩، ووفيات الأعيان ١/ ٩٤).

(٤) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، أبو العلاء المعري _ ولد عام ٣٦٣هـ، وتوفي عام ٤٤٩هـ _ الشاعر اللغوي، المشهور بالزندقة، له أشعار يستهتر ويعترض فيها على أحكامٍ من الشرع، وله كتاب أسماه: الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات، يحاذي به القرآن الكريم . ينظر: (البداية والنهاية ١٥/ ٧٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣).

ينظمون وينثرون، هذا يقول: حديث خرافة، والمعري يقول:

تلوا باطلا وجلوا صارماً وقالوا صدقنا، فقلنا نعم[١]

يعني بالباطل كتاب الله ﷻ، وعاشوا سنين وعُظمت قبورهم واشُتريت تصانيفهم، وهذا يدل على برودة الدين في القلب»[٢].

وهذه المقولة تدّلنا على شدة حرص السلف على منابذة أهل الخصومات والجدال والمراء، ومن عُرف عنه استطالة اللسان بالخوض في الشريعة، وعدم الميل إليهم بأيِّ وجه من الوجوه، وعدم تداول مصنفاتهم؛ حسماً لمادة الزندقة بالخوض والمراء في الدين؛ واتقاءً لِما يكون من شرهم؛ ولئلا يعلق شيءٌ من أهوائهم في النفوس؛ ولهذا نجد في كتب السلف وخاصة كتب العقائد التحذير من أهل الأهواء والبدع ومن مجالستهم خوفاً من أثرهم السيئ على الأمة.

---

(١) كتاب اللزوميات، لأبي العلاء المعري، ص ٣٣٧، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الهلال، بيروت. دون ذكر سنة الطبع.

(٢) الآداب الشرعية ١/ ٣٠٩.

المطلب الثالث: ظهور البدع والافتراق.

ظهور البدع والمحدثات، والافتراق في أصول الدين، أوجد تربة خصبة لبذور الخصومة والجدال والمراء، وهذا يشهد له قول النبي ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[١]»، ومن هنا ندرك أنَّ من أسباب شيوع الجدال والمراء، هو ظهور البدع والافتراق؛ وذلك لأن كلَّ صاحب بدعة لابدَّ أن يورد لها ما يراه دليلاً وبرهاناً يعضد ما ذهب إليه، وما يخالفه ممن هو على شاكلته في البدعة، سيتصدّى له بالرد، وتأييد ما ذهب إليه أيضاً، والعجيب أنَّه «قد بلغ من فتنة أحدهم وتمكّن الشكّ من قلبه، أنك تراه يحتج على خصمه بحجة قد خصمه بها، وهو نفسه من تلك الحجة في شك ليس يعتقدها، ولا يجهل ضعفها، ولا ديانة له فيها، إن عرضت له من غيره حجة هي ألطف منها انتقل إليها، فدينه محمول على سفينة الفتن يسير بها في بحور المهالك، يسوقها الخطر، ويسوسها الحيرة»[٢].

وهؤلاء المبتدعة على اختلاف بدعهم جميعا لابدَّ أن يدلوا بشبههم على أهل الحق ويجادلوهم بالباطل ليدحضوا به الحق، وحينئذٍ يتشعّب الخلاف ويتسع الجدال ويعظم المراء، ولهذا نجد في أوائل ظهور البدع في صدر الإسلام أن المراء في الدين بدأ يدبُّ إلى هذه الأمة منذ تلك الحقبة من الزمن، حتى استطال شره واشتدّد خطره؛ لأن كل

(١) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة ١/ ٢٧٠.

صاحب بدعة لابدَّ يعضدها ويدلّل عليها بحقٍّ أو بباطل، بل ويلوي أعناق النصوص حتى تتقطّع لتوافق هواه، وهذا هو دأب أهل البدع حيال نصوص الوحيين، ولهذا قال الفضيل بن عياض: «لا تجادلوا أهل الخصومات فإنهم يخوضون في آيات الله»، والسبب في ذلك هو الاعتقاد أوّلاً، ثم البحث عن الدليل ثانياً، ومن نتيجة ذلك الوقوع في التأويل والتحريف، بل ويصل الأمر إلى إنكار الدليل أو الطعن في نقلته وعدالة رواته، وهذا من نتيجة ظهور البدع وافتراق أهل القبلة في الاعتقاد، الأمر الذي أدّى إلى اختلاف مناهج الاستدلال على أبواب الاعتقاد، واختلاف هذه المناهج له الأثر الظاهر في شيوع المراء في الدين وانتشاره، بل وتطوّره، حيث إن لكلٍّ من أهل الأهواء والبدع طريقته واتجاهه التي يقرّر بها مسائل الاعتقاد، وهذا بدوره من وجهٍ أخصُّ، من أسباب المراء والخصام والجدال.

قال شيخ الإسلام: «إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن، ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به، وما خالفها تأولوه؛ فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث، لم يعتنوا بتحرير دلالتهما، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها»[1]

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٥٨.

ومن خلال ما تقدم نجد أن من أسباب ظهور البدع والمحدثات، المراء في الدين والخصومات، كما أن من أسباب المراء في الدين أيضاً، ظهور البدع والافـتراق، ومن هنا ندرك غور فقه الإمام الحكم بن عتيبة الكوفي[١] حـين سئل عن اضطرار الناس إلى هـذه الأهـواء أن يدخلوا فـيها؟ قـال: «الخصومات»[٢]، وبيّن الإمام ابن بطة أن السبب الذي أخرج أقواماً من السنة إلى البدعة أحد وجهين:

الأول: البحث والتنقير وكثرة السؤال عما لا يعني ولا يغني، ولا يضرُّ المسلم جهله، ولا ينفعه علمه.

والثاني: مجالسة من لا تؤمن فتنته من أصحاب البدع والأهواء[٣].

فمن آثار الخصومات البدع، والبدع مهيجةٌ للخصومات والجدال والمراء في الدين، فكلٌّ من الخصومات والبدع سببٌ للآخر ومثيرٌ له.

وفي عصر الصدر الأول من الإسلام حيث لم تكن بدعٌ ولا محدثات ولا افتراق في مسائل العقيدة، لم يكن هناك مراءٌ في الدين، ولا جدال في مسلّماته وعقائده، ولمّا ابتلي المسلمون بتلك البدع في أواخر عهد الصحابة -كما تقدم بيانه- كانت سبباً للافتراق، ومن ثمَّ انهالت كثبان المراء في الدين على المسلمين كالتراب المهيل.

---

(١) هو الحكم بن عتيبة الكندي مولاهم الكوفي _ ولد عام ٤٦هـ، وتوفي عام ١١٥هـ _ الإمام الكبير الحافظ الكبير عالم أهل الكوفة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٠٩، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٧).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٥، وينظر: السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد ١/ ١٣٧.

(٣) ينظر: الإبانة الكبرى، لابن بطة ١/ ٢٦١.

المطلب الرابع: اتباع الهوى وحب الشهرة.

من أصول الضلال اتباع الهوى، والهوى: هو «ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه...فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذمُّ المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حدِّ المنتفع، أطلق ذم الهوى»(١).

وهذا -والله أعلم- من باب العام المخصوص، ولهذا نجد في القرآن الكريم أن اتباع الهوى سبب للضلال، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٢)، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٣)، وقال الله ﷻ لداوود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(٤)، وقيل: إنما سمّي الهوى بذلك لأنه يهوي بصاحبه إلى النار(٥).

ولهذا نجد أن من أسباب البدع اتباع الهوى، وحقيقة اتباع الهوى في هذا الباب: اعتقاد يتبعه استدلال، ويتلوه تحريف لكل دليل مخالف، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه قليل سؤاله، كثير معطوه، العمل فيه قائد

(١) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص١٢، تحقيق مصطفى عبد الواحد، سنة الطبع ١٣٨١هـ، دون ذكر الناشر.

(٢) سورة الكهف آية (٢٨).

(٣) سورة النازعات آية (٤٠).

(٤) سورة ص آية (٢٦).

(٥) أخرجه الدارمي عن الشعبي، المقدمة، باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة، (٤٠٩)، ١/٣٨٨.

للهوى، وسيأتي من بعدكم زمان، قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد للعمل، اعلموا أن حسن الهدي في آخر الزمان خير من بعض العمل»(١).

وهذا ظاهرٌ من حال أهل الأهواء والبدع، الهوى عندهم قائد لاعتقاداتهم وأعمالهم؛ ولأجل هذا ضلوا ضلالاً بعيداً، قال شيخ الإسلام: «وأصل الضلال اتباع الظن والهوى، كما قال الله تعالى في حق من ذمهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾(٢)، وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(٣)، فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما: الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعلم الحق، والغاوي الذي يتبع هواه، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس، بل هو وحي أوحاه الله إليه، فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى»(٤).

واتباع الهوى هو أصل الضلال والميل عن الصراط المستقيم، وهو يتفاوت تفاوتاً كبيراً، فمن اتباع الهوى ما يصل إلى الكفر، ومنه يصل إلى البدعة، ومنه ما يصل إلى ما دون ذلك.

والهوى كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة وميل، من الأقوال والأعمال والمقاصد، فميل النفس إلى الشهرة أو الشهوة هوى، وكذلك أيضا ميل النفس إلى حب

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الهدي والسمت الحسن، (٧٨٩).

(٢) سورة النجم آية (٢٣).

(٣) سورة النجم آية (٤).

(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٨٤.

الثناء وطلب الجاه عند الناس وتعظيمهم وطلب الرفعة عليهم، كله من قبيل الهوى[(١)].

ولخطورة تلك الأهواء على عقائد المسلمين وغيرها، حذّر السلف من مخالطة أهلها، خشية التأثر بما هم عليه، قال أبو قلابة الجرمي: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم»[(٢)]، وقال إبراهيم الحربي: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين»[(٣)].

ولا يقف تحذير السلف من أهل الأهواء والبدع عند هذا الحدِّ، بل وصل الأمر إلى التحذير من مناظرتهم والرد عليهم؛ لما يكون من عاقبة مجالستهم، ولو على سبيل الإنكار، قال ابن بطة: «لا يحملن أحداً منكم حسن ظنه بنفسه، وما عهده من معرفته بصحة مذهبه، على المخاطرة بدينه في مجالسة أهل هذه الأهواء، فيقول: أداخله لأناظره، أو لأستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد فتنة من الدجال، وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق من اللهب، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم ويسبونهم، فجالسوهم على سبيل الإنكار والرد عليهم، فمازالت بهم المباسطة وخفي المكر ودقيق الكفر، حتى صبوا إليهم»[(٤)].

---

(١) ينظر: الهوى وأثره في الخلاف، للشيخ عبد الله الغنيمان، ص ١٢، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

(٢) ينظر: كتاب القدر، للفريابي، ص ٢١٢، وينظر: الشريعة، للآجري، ص ٦٦، والإبانة الكبرى، لابن بطة ١/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٢٩٨.

(٤) الإبانة الكبرى ١/ ٣٢٦.

ومن أسباب المراء والجدال حبُّ الشهرة وطلب الرياسة، لأن سلوك هذا الطريق من أسباب الرفعة والظهور، والعلوِّ على الناس، والتميّز عنهم، ولو كان ذلك عن طريق المخالفة والمغالـطة والمماراة، «وكثير من الناس يكون في نفسه حبُّ الرئاسة كامنٌ لايشعر به، ويخفى عليه، فضلاً عن غيره، وعند المقتضيات تظهر هذه الكوامن»(١) ، ولهذا نجـد في الحديث التحذير من ذلك، قال الرسول ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»، «فمباهات العلماء أن يظهر لهم أنه يعرف ما يعرفون، ويدرك ما لا يدركون من المعاني والاستنباطات، وأنه يستطيع أن يرد عليهم، ويبين أنهم يخطئون، وأما مماراة السفهاء فهو مجادلتهم ومجاراتهم في السفه، وأما صرف وجوه الناس إليه فالمراد به طلب ثنائهم ومدحهم له، وتعريفهم بأنه عالم، فهو بعمله هــذا يتقرب إلى النار»(٢).

ومن خلال ما تقدم ندرك أن حبَّ العلو والشهرة مزلقٌ خفيٌّ، ومرضٌ دقيقٌ، قلَّ من يتفطّن إليه، وهو يتسرب إلى النفوس تسرّبَ الماء إلى منحدره.

وطلب الشهرة والرياسة، من صورة: تحدي العلماء ومعارضتهم بالمناظرة، ولو كان بالمخالفة، لمجرد المخالفة، كما أنه يكون أيضا بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه(٣)، وهذا كله من مهيجات المراء والخصومات، بل قد يصل إلى الجدل السفسطائي والمباهتة؛ ليُفهِم قولُه بلسان الحال: أنا فلان فاعرفوني.

---

(١) الهوى وأثره في الخلاف، للغنيمان، ص ١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) ينظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد ١/ ٤٠.

المطلب الخامس: الحميّة الجاهلية، والتعصب المقيت.

عندما ننظر في مدلول معنى لفظة "المراء" نجد أنها تحوي معنى: محاولة كسر الخصم وإفحامه، والانتصار عليه، والقصد إلى ردِّ قوله، فالغاية من المراء عند الماري كسر الخصم وإفحامه والانتصار عليه وغلبته، وقد تقدم ذلك في بيان معنى المراء(١).

وممّا يتسم به من اشتغل بالمراء في الدين، أنه قد يظهر الحق له ويتضح الصواب عنده، ولكن لا يزال يجادل ويخاصم ويماري فيما ذهب إليه ويوسّع الكلام فيما لا طائل تحته، لا بغية للوصول إلى الحق وإظهاره، وإنما مماراة ومخاصمة يتوصل بها إلى الانتصار لما ذهب إليه، أو الانتصار لرأيٍّ شيخه وأستاذه أو نحو ذلك مما يتعصّب له.

ونجد أنَّ من شبه المشركين التي جادلوا بها الرسل ، وعارضوا بها الحقَّ الجليَّ، أنهم لا يتركون ما كان عليه آباءهم الأولون، وأنهم وجدوا آباءهم على دين، فهم لا يدعونه، وقالوا -فيما حكاه الله تعالى عنهم-: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(٢)، وكذلك أبو طالب لما كان في سياق الموت، والنبي محمد ﷺ يناشده أن يتفوّه بكلمة التوحيد، فيقول: «يا عمِّ قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟...حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب»(٣).

---

(١) ينظر: صفحة ٢٢.

(٢) سورة الزُّخرُف آية (٢٣).

(٣) متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك=

وهذه النصوص وغيرها، تبيّن أنَّ المشركين ومن ضلَّ عن الحق، استمسكوا بباطلهم من جراء أنهم وجدوا من تقدمهم على ذلك، ومن ثَّم كان ذلك من أسباب جدالهم لرسلهم، واتباعهم أهواءهم، هو التعصب لآبائهم، والحمية الجاهلية التي أُشربتها قلوبهم، فلم يهن عليهم فراق ما كان عليه آباءهم، ولو كان باطلاً!.

وهذا الأمر يجده المتأمل أيضاً ظاهراً عند أهل الأهواء والبدع، فإنه لا يهون عليهم فراق ما عليه أشياخهم، وما أُشربوه من أهوائهم، ولا سيما في تقرير مسائل العقيدة، وأقوالهم وكتبهم مشحونة بذلك، فهم يعتقدون ثم يستدّلون، أي: يعتقدون أولاً، ثم يبحثون عن الدليل ثانياً، وهذا بدوره يوقعهم في التعصب لما جنحوا إليه، ومن فروع هذا التعصب أنَّك تجد لكل فرقة خرجت عن الصراط المستقيم لها مسمّى تعرف به، ولها من الألقاب والأوصاف ما يميّزها عن غيرها، ومن ثَمَّ ينشأ التعصب على غرار ذلك اللقب أو الوصف.

والحال أن من شُغل بالمراء والخصومات، فإنَّ حاله تؤول إلى التعصّب، ولو لم يشعر، وهذا بدوره يؤدي إلى كثرة الخصومة والمراء في الدين.

وهذا التعصب والحمية الجاهلية قد جاء الإسلام بمحاربتها واقتلاع جذورها من نفوس المسلمين، دفعاً لضررها وما يكون من آثارها، وذلك على وجه العموم، فكيف إذا كان هذا التعصب المقيت الذي لا يرى صاحبه بسببه إلا الانتصار لمآربه، يتعلق بمسائل عقدية؟ لا ريب أنَّ أثر ذلك على المسلمين عظيم، وهذا ما نراه من نتائجه،

=عند الموت: لا إله إلا الله، (١٣٦٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزع، وهو الغرغرة، ونسخ جواز الاستغفار للمشركين، والدليل على أن من مات على الشرك فهو من أصحاب الجحيم، ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل، (٢٤).

ومن ذلك تهييج المراء في الدين، واتخاذ الخصومة في مسائل الإيمان وأصول الدين سبيلاً للتوصّل إلى أغراض شخصية، ومآرب نفسية، وتأمل كيف قطع النبي ﷺ دابر هذا التعصب على أيِّ شكل من الأشكال، وذلك لمّا اقتتل غلامان في إحدى الغزوات، غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار فخرج النبي ﷺ فقال:«ما هذا، دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتة»[1]، وهنا نجد أن النبي ﷺ وصف ما حصل بوصفين: كونها دعوى جاهلية، وكونها منتنة.

وهذا الذي وُصف بذلك من دعوى الجاهلية والنتن، هذان المصطلحان: "المهاجرين والأنصار" وهما اسمان محبوبان لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد جاء بهما القرآن الكريم، ولكن لما استخدما لنوع من العصبية كان ذلك من فعل الجاهلية، وصارت تلك الدعوى منتنة[2].

و"المهاجرون" اسم شرعي، و"الأنصار" اسم شرعي، لكنه تخصيص لبعض المسلمين باسم معين؛ لأجل وصف اتصفوا به، وهو الهجرة أو النصرة، ومع ذلك لما أتى رجل وجعل العصبية للهجرة أو جعل العصبية للنصرة، فإنه جعل ذلك من دعوى أهل الجاهلية، فلما اختصم غلامان فقال أحدهما: يا للمهاجرين، وقال الآخر: يا للأنصار. يعني: أن هذا يدعو المهاجرين لنصرته، وذاك يدعو الأنصار لنصرته، قال النبيﷺ: «ما هذا، دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتة»، مع أن التعصب جاء على اسم شرعي سمى الله تعالى به أهله، فلما كان الاسم -المهاجري والأنصاري- تحول من اسم للتعريف

---

(١) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله، أخرجه البخاري كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، (٣٥١٨)، ومسلم واللفظ له، في كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، (٢٥٨٤).

(٢) ينظر: الهوى وأثره في الخلاف، للغنيمان، ص ١٨.

والوصف، إلى اسمٍ للتعصب والنخوة به، ذمّه النبي ﷺ وجعله من دعوى الجاهلية[١].

ثم تأمل كيف يكون أثر تلك العصبية إذا كانت متصلة بالخصومة في مسائل العقيدة، وما لا يجوز فيه ذلك؟

فتقرّر مما تقدم أن التعصّب لغير الحقِّ، من فروع الجاهلية، ومما عليه أهل الجاهلية معارضة الحق بالجدل والمراء.

(١) ينظر: المراء في الدين، مفهومه، وحكمه، وأسبابه، وآثاره، وطرق الوقاية منه، وعلاجه، ص٢٢٩، للأستاذ الدكتور محمد بن عبد العزيز العلي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٣٥، السنة ٣٩، ١٤٢٧هـ، المدينة المنورة.

المطلب السادس: محاولة دحض الحق وإبطاله.

من مثيرات المراء في الدين، القصد إلى دحض الحق وإبطاله، ومحاولة رفع الباطل وإشهاره، ولو بالمغالطة والسفسطة والمباهتة، وهذا كلُّه من صفات أهل الكفر والنفاق، الذين ديدنهم الجدال والمراء في آيات الله ﷻ، وقد بيّن الله ﷻ أنه ما يجادل في آياته ﷻ إلا الكفار، حيث قال الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(١)، وقال تعالى بعد هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾(٢).

ومن صفات الكفار أيضاً أنهم لا يزالون في امتراء ومرية من الحق لا يقلعون عن ذلك، ولا يعتبرون بشيء، حتّى يحقَّ عليهم أمر الله ﷻ بالعذاب، الأمر الذي يطلعك على شدّة ما هم عليهم من الخصومة والإغراق فيها، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(٣).

وهذه الصفة التي هي من خصائص صفات أهل الكفر والنفاق، بعيدة كل البعد عمن وقر الإيمان في قلبه وخالط بشاشته، فلا يسع المسلم إذا بلغه الحق إلا اتباعه، بخلاف من يجادل فيه؛ ليصل إلى محاولة إبطاله، والذين في قلوبهم مرض من أهل الأهواء والبدع لا يصلون إلى مبتغاهم، من الترويج لباطلهم الذي أُشربته نفوسهم، إلا من خلال المراء والجدال وتقليب الكلام بالباطل، وإلباسه لبوس الحقِّ، والدخول في

(١) سورة غافر آية (٤).

(٢) سورة غافر آية (٥).

(٣) سورة الحج آية (٥٥).

دهاليز التمويه والتعمية، وذلك هو دأب الشياطين من الأنس والجن كما قال الله ﷻ : ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1]، والمعنى أنه «يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره»[2].

ومن ذلك ما يكون من الخصومة في الدين التي تفضي إلى زخرفة الباطل وتزويقه وتغرير الجهلة بقبوله، وبالتالي يتوصّل صاحب هذا المسلك إلى إبطال الحقِّ، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ.

ومن النماذج على ذلك، ما يتعاطاه أهل البدع والأهواء، في تسميتهم لأدلة القرآن الكريم والسنة، ظواهر لفظية ومجازات، «فإن هذه التسمية تسقط حرمتها من القلوب، ولا سيما إذا أضاف إلى ذلك تسمية شبه المتكلمين والفلاسفة قواطع عقلية، فلا إله إلا الله، كم حصل بهاتين التسميتين من فساد في العقول والأديان، والدنيا والدين»[3].

وكذلك فيما يتعلق بتوحيد الله تعالى في الأسماء والصفات، من تسمية الحق بأسماء منكرة، تنفر منها القلوب، وتسمية الباطل بأسماء حسنة تقبلها النفوس، قال ابن القيم: «وأشد ما حاول أعداء الرسول من التنفير عنه، سوء التعبير عما جاء به، وضرب الأمثال القبيحة له، والتعبير عن تلك المعاني التي لا أحسن منها بألفاظ منكرة، ألقوها في مسامع المغترين المخدوعين، فوصلت إلى قلوبهم فنفرت منه، وهذا شأن كل مبطل، وكل من يكيد الحق وأهله هذه طريقه ومسلكه، وأكثر العقول كما عهدتُ تقبل القول بعبارة،

---

(١) سورة الأنعام آية (١١٢).

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٤٣.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٤٧٣.

وترده بعينه بعبارة أخرى»[(١)].

ويقول -أيضاً في موضع آخر-: «وقد رأيت أنا من هذا، في كتب الناس ما شاء الله، وكم رُدَّ من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح، وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت، فهؤلاء الجهمية يسمّون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه، تشبيهاً وتجسيماً، ومن أثبت ذلك مشبهاً، فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة، إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر، وكل أهل نحلة ومقالة، يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ، من الحق والباطل، ولا تغترَّ باللفظ»[(٢)].

---

(١) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٤٤.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشورات ولاية العلم والإرادة ١/ ٢٠١، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار الريان، دمشق، سنة الطبع ١٤١٩هـ.

المطلب السابع: إدخال المنطق والفلسفة في علم العقيدة.

تقدم معنا فيما سبق أن دخول المنطق والفلسفة والعلوم اليونانية على المسلمين أثَّر عليهم سلباً، وفتح عليهم باباً من الشرِّ كان مغلقاً، والأمر الذي زاد الطين بلّة والسقم علّة، أنَّ العلوم الإسلامية مُزجت بالعلوم اليونانية، وأخطر ما يكون من ذلك أن ما يتصل بعلوم العقيدة، قد دخله من أوضار علم المنطق والفلسفة ومصطلحاتها، ما كان سبباً لشذوذ طوائف من أهل القبلة عن طريقة السلف في هذا الباب العظيم، ومثارَ جدالٍ ومراءٍ عقيمين.

ولما ابتلي المسلمون بدخول تلك العلوم اليونانية عليهم، وحوكمت نصوص الوحيين إلى مصطلحات منطقية وفلسفية، ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، كان هذا الأمر سبباً لإثارة المراء والخصومة والاختلاف في مدلولات الكتاب والسنة، وذلك «أن كثيراً من ألفاظ القرآن والسنة قد صار لها معانٍ، اصطلح عليها النظّار والمتكلمون وغيرهم، وأُلِفَ ذلك الاصطلاح وجرى عليه النشء، وصار هو المقصود بالتخاطب وإليه التحاكم، فصار كثير من الناس لا يعرف سواه، فلما أرادوا أن يطابقوا بين معاني ألفاظ القرآن، وبين تلك المعاني التي اصطلحوا عليها أعجزهم ذلك، فمرة قالوا: ألفاظ القرآن مجاز، ومرة طلبوا لها وجوه التأويل، ومرة قالوا: لا تفيد اليقين، ومرة جعلوها وقفاً تتلى في الصلاة، ويتبرك بقراءتها، ولا يتحاكم إليها»[1].

ومن ثمَّ اشتدت الخصومة عند هؤلاء في دينهم، وأصبح من أبرز سماتهم المراء

(١) الصواعق المرسلة ٢/ ٦٢٧.

والجدال، والأشدُّ من ذلك أنَّ كتب الكلام والمنطق اليوناني، تسمّى بعلم التوحيد تلبيساً وتمويهاً؛ ليروج سوقها عند من لا علم لديه(١).

وأبو حامد الغزالي يقول في مقدمته المنطقية من أول كتابه المستصفى، معظّماً علم المنطق، وأن من لا علم له بالمنطق فلا ثقة بعلومه! قال عن مقدمته: «هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلاً»(٢).

فإذا كان من لم يحصّل علم المنطق فلا يوثق بما عنده من علم، ومن هذه العلوم علم العقيدة، أي: لا يوثق بما عنده من الاعتقاد إلا بعلم المنطق، وهذا مُشعرٌ بما عند القوم من تعظيم للمنطق وثقة به، الأمر الذي أدى إلى مزجه بسائر العلوم، ومما تفرع عن ذلك أن علم العقيدة أُدخل عليه مصطلحات وعلم المنطق، توارثها خلفهم عن سلفهم، حتى أصبح، وكأنه دليل لا يتطرق إليه الشك، بل وتوزن ألفاظ القرآن الكريم والسنة بميزانه!

ومن أثر ذلك أن مسائل العقيدة خرجت -عندهم- من بين فرثه ودمه، ومن المعلوم أن من سلك سبيل المنطق والفلسفة في العلوم الشرعية تطرّق إليه الاختلاف واتساع الجدال والخصومة؛ ولهذا نجد «أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقاً واختلافاً»(٣)، بل ونجد أنهم «أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في

---

(١) ينظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ حكمي ١/ ٢٧٣، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن الجوزي، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ.

(٢) المستصفى، ص ٣٠، تحقيق حمزة زهير حافظ، بدون ذكر الناشر، وسنة الطبع.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٥١.

موضع، وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع أخر»[١]؛ وذلك لأنهم من أكثر الناس خصومةً وجدالاً؛ لبعدهم عن الكتاب والسنة، وهم جعلوا من دينهم غرضاً للخصومات والجدال والمراء، ومن كان هذا صنيعه أكثر التنقل.

فإذا دخل المنطق والتفلسف -وهو الذي أورث أصحابه الجدال والمراء- إذا دخل ذلك في علم العقيدة، نقل المراء والجدال إلى مسائل العقيدة، وحينئذ لا يكون عند من اشتغل بتلك العلوم -المنطقية والفلسفية- من اليقين والثبات في العقيدة بسبب الخصومة والمراء ما عند «أهل السنة والحديث، فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم، رجع قط عن أقوله واعتقاده، بل أعظم الناس صبراً على ذلك، إن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن»[٢]، وهذا الثبات العظيم من أسبابه: الاكتفاء بما دلَّ عليه القرآن الكريم والسنة من الهدى والعلم، ومجانبة ما أحدثه المحدثون، ممن فُتن بما عليه المناطقة والمتفلسفون، الأمر الذي أغرهم بالخصومة والمراء والجدال، حتى كانوا على شفا جرف هارٍ، فانهار بهم في جحيم الحيرة والشكوك والاضطراب، ولك أن تتأمل ما بين الفريقين، حتى ترى من تفاوتهم كما بين المشرقين.

وعلم المنطق وإن كان فيه شيء حقٌّ مسلَّم، إلا أنَّ قضاياه كثيرة التعقيد والتطويل، ولا تورث في الغيبيات إلا الحيرة والضلال وكثرة الخصام والمراء والجدال.

فمن أعظم مثيرات المراء في الدين على المسلمين، إدخال هذا العلم القائم على الظنون والتخمين والخرص -المنطق والفلسفة- في مسائل العقيدة وأصول الإيمان، التي لا يمكن أن تُعلم إلا من طريق وحيٍّ من السماء، فحال من أراد أن يمزج المنطق اليوناني

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٥٠.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٠.

بالعلم الرباني، كحال من قال الله عَجَلَّ عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾[1] .

(١) سورة النساء الآيتان (٦١ _ ٦٢).

المطلب الثامن: الجهل بالدين ولغة العرب.

كلما امتد الزمن وبعد العهد عن زمن النبوة، رُفع العلم وظهر الجهل، وإذا ظهر الجهل كثر الخلاف واتسعت الخصومة، وظهور الجهل من أعظم بوابات الانحـراف عن الطـريق المهيع، إلى حيث المحدثات والبدع، ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[١]، فالجهل داءٌ يتفرّع عنه أدواءٌ كثيرة، يجمعها التنكّب عن السبيل الموصلة إلى الله ﷻ، ومن فروع ذلك المراء في الدين.

وإذ أخبر النبي ﷺ أن العلم يرفع في آخر الزمن[٢]، فإن الجهل يحلُّ محلَّه، ومن علامات رفع العلم قبض العلماء، ومن ثَمَّ يتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، لا حظَّ لهم من علم، فيتكلمون فيما لا يعلمون، ويُقحمون أنفسهم فيما لا يحسنون، ففتنتهم بكلامهم أعظم من سكوتهم، ومن أثر ذلك أن يتكلّم من لا علم عنده في مسائلَ من الدين -ومن أعظم ذلك قضايا العقيدة وأصول الإيمان- فيوسع فيها الكلام المؤدي إلى الخلاف، وقد كان وسعه السكوت كما وسع أمثاله، ومن أثر ذلك كثرة الخلاف المتشعّب عنه المراء والجدال، والسبب في ذلك كلِّه هو الجهل والذي هو أيضا سببٌ للضلال.

وهذا المراء في الدين والخصومة فيه، من أعظم أسبابها الجهل بالدين وباللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهذا يعنى: جهلاً بالمقصد والوسيلة، ومن هنا ندرك أنَّ العلم

(١) سورة يونس (٣٢).

(٢) ينظر: الحديث المتفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ الذي أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء، (٥٢٣١)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، (٢٦٧١).

النبوي هو سبب الألفة والاجتماع، وأنَّ نسيانَ حظٍّ منه سببٌ للتفرّق والخصومة، وشاهد ذلك قول الله ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[(١)]، ومعنى إغرائهم بالعداوة والبغضاء، أي: «بالأهواء المختلفة والجدال في الدين»[(٢)]، وقال إبراهيم النخعي: «أغرى بعضهم ببعض بخصُومات بالجدال في الدين».

والجهل بالدين، والجهل بلغة العرب، كلاهما سببان لا يقلُّ أحدهما عن الآخر في إثارة المراء في الدين.

فالجهل بالدين وانحسار العلم بمسائله ومقاصده وحكمه وأسراره، سببٌ ظاهرٌ في شيوع المراء في الدين، فإذا تأملنا في أسباب ضلال أهل الأهواء أصحابِ الخصومات، نجد أنَّ منها الجهل بالدين، بل هو سمةُ ظاهرةٌ عليهم، ولأجل ذلك شاع بينهم المراء واتخذوه بضاعة في دينهم، لأنَّه في الغالب لا يلجأ إليه إلا من فقد العلم، فيريد أن يستعيض عنه بغيره، ولهذا يقول الآجري: «من صفة الجاهل: الجدل والمراء والمغالبة»[(٣)].

ومن أجل ذلك لم نجد في القرون المفضلة من الخصومات والمراء في مسائل كالذي حدث فيمن بعدهم؛ لأجل رسوخهم في العلم، قال الشاطبي: «اعلموا أن الاختلاف في بعض القواعد الكلية لا يقع في...بين المتبحرين في علم الشريعة الخائضين في لجّتها

---

(١) سورة المائدة آية (١٤).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٦٥٣.

(٣) أخلاق العلماء، ص ٦٣، تحقيق الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، سنة الطبع ١٣٩٨هـ.

العظمى العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني...»[١].

ومما يوضّح ذلك أكثر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه «جعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة ونبيّها واحد، فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيّها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأنه وعلمنا فيما أُنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأى، فإذا كان لكل قوم فيه رأى اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، فزجوه عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه، فأرسل إليه وقال أعده عليَّ ما قلته، فأعاد عليه فعرف عمر قوله وأعجبه»[٢]، قال الشاطبي –معلّقا على هذا الأثر-: «وما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجها، فذهب كل إنسان مذهبا لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بدٌّ من الأخذ ببادى الرأى أو التأويل بالتخرص الذي لا يغنى من الحق شيئا؛ إذ لا دليل عليه من الشريعة فضلوا وأضلوا...فهذا معنى الرأى الذي نبه عليه ابن عباس، وهو الناشىء عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن»[٣].

وإذا نظرنا إلى حال أهل البدع والأهواء في هذا الجانب، وجدنا ما قاله الشاطبي

---

(١) الاعتصام ٢/ ١٢٨.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٤٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٤٧ – ١٤٩.

منطبقاً عليهم، وهذا أحد أسباب مرائهم، وذلك يتمثّل بأخذهم بنصوصٍ اعتمدوا عليها فيما ذهبوا إليه، وأغفلوا نصوصاً أخرى، فهم أخذ من النصوص بجانب وتركوا غيره مما جهلوه أو تجاهلوا عنه، ثم جادلوا وخصموا من خالف مذهبهم، وعمدوا إلى ما لا يتفق معهم من النصوص فاشتطّوا في تأويلها وبالغوا في صرفها عن مدلولها، وعلى أثر ذلك كَثُر مراؤهم وجدالهم.

وخذ مثلا: ما ذهب إليه الخوارج والمعتزلة من تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار، أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد، ونقيضهم المرجئة والجهمية في هذا الباب، وانظر أيضا إلى أهل التعطيل من الجهمية في نفيهم للصفات الإلهية، وما قابلهم من أهل التمثيل المشبهة، وأيضا في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وكذلك سائر أهل البدع أخذوا بجانب من الحق وتركوا غيره، فضلوا وأضلوا، فلم يجدوا بدّاً من المراء والجدال في نُصرة ما اعتقدوه، والمماحلة والتشغيب لمن خالفوه.

وعندما نتأمل في أبرز أسباب ذلك نجد أنَّ الجهل بالدين سمةٌ بارزةٌ عند أولئك الممارين، لأنَّ الجاهل لو لم يقفُ ما ليس له به علمٌ، لانحسرت الخصومة واختفى المراء، كما قيل: «لو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف»[1]، وأبلغ من ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

وأيضا الجهل بلغة العرب سبب من أسباب المراء في الدين، فكثير من أهل الأهواء والبدع كان سبب ضلالهم في الاعتقاد، العجمة وعدم معرفة أساليب العرب في كلامها،

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٧٣.

(٢) سورة الإسراء آية (٣٦).

التي نزل بها القرآن الكريم، وهذه العجمة أدّت بدورها إلى المراء والجدال في مسائل الاعتقاد، وأمثلة ذلك كثيرة، ولهذا نجد سفيان الثوري إذا رأى غير العرب يكتبون العلم تغيّر وجهه، فقيل: يا أبا عبدالله إذا رأيت هؤلاء يكتبون العلم يشتدُّ عليك، قال: كان العلم في العرب وفي سادات الناس، وإذا خرج عنهم وصار إلى هؤلاء النبط والسِفلة غُيّر الدين(١).

وهذا إذا تأمله المنصف وجد أنَّ ضلالات أهل البدع واتساع خصومتهم في مسائل العقيدة، جاء من جهة عدم معرفتهم باللسان العربي وطريقة العرب في كلامها وأساليب الفصاحة والبيان والبلاغة العربية، فحرّفوا الكلم عن مواضعه، وحملوه على غير تأويله، قال الشاطبي -مظهراً جوانب من هذا المعنى-: «إن الله ﷻ أنزل القرآن عربيا لا عجمة فيه، بمعنى أنه جارٍ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب...وكان المنزّل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد، وهو محمد بن عبد الله ﷺ وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً، فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم، فليس فيه شيء من الألفاظ والمعانى إلا وهو جارٍ على ما اعتادوه ولم يداخله شيء، بل نفى عنه أن يكون فيه شيء أعجمي...هذا وإن كان بُعث للناس كافة، فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعاً للسان العرب، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها.

أما ألفاظها فظاهرة للعيان، وأما معانيها وأساليبها فكان مما يعرف في معانيها: اتساع لسانها، وأن تخاطب بالشيء منه عامًّا ظاهراً، يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأوله عن آخره، وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص، ويستدل على هذا ببعض الكلام،

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ١/ ٥٠٢.

وعاماً ظاهراً يراد به الخاص، وظاهراً يعرف في سياقه أن المراد به غير ذلك الظاهر، والعلم بهذا كله موجود في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

وتبتدىء الشيء من كلامها يبين أول اللفظ فيه عن آخره، أو يبين آخره عن أوله، ويتكلم بالشيء تعرّفه بالمعنى دون اللفظ كما تعرّف بالإشارة، وهذا عندها من أفصح كلامها؛ لانفراداها بعلمه دون غيرها ممن يجهله، وتسمّي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتضع اللفظ الواحد للمعانى الكثيرة، وهذه كلها معروفة عندها، وتُستنكر عند غيرها، إلى غير ذلك من التصرفات التي يعرفها من زاول كلامهم، وكانت له به معرفة وثبت رسوخه في علم ذلك»[(١)]، وقال -أيضاً في موضع آخر متمّماً للمعنى السابق-: «فإذا كان كذلك، فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب، فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب، كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم؛ لاختلاف الأوضاع والأساليب»[(٢)].

وهذا مثلٌ يتضح به المقصود من معرفة أثر العجمة والجهل باللغة العربية في المراء في مسائل الاعتقاد، جاء أحد رؤوس المعتزلة وهو عمرو بن عبيد إلى عمرو بن العلاء «فقال: يا أبا عمرو، ويخلف الله ما وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت من أوعده الله على عمل عقاباً، أيخلف الله وعده فيه؟ فقال: أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أتيت يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد عاراً ولا خلفاً أن تعد شراً، ثم لا تفعله، ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن تعد خيراً ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام

(١) الاعتصام ٢/ ٣٥٧.

(٢) الموافقات ٢/ ١٠٣.

العرب ؟ قال: نعم، أما سمعت إلى قول الأول[١]:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ولا أنا أخشى صـــولة المتهـــدد

وإنـــي وإن أوعـــدته ، ووعـــدتـــه ... لمخلف ميعادي، ومنجز موعدي»[٢].

وتكلم عمرو بن عبيد في مسألة الوعيد، فقال له أبو عمرو بن العلاء: «إنك لألكن الفهم، إذ صيرت الوعيد الذي في أعظم شيء، مثله في أصغر شيء، فاعلم أن النهي عن الصغير والكبير ليسا سواء، وإنما نهى الله عنهما لتتم حجته على خلقه، ولئلا يعدل عن أمره، ووراء وعيده عفوه وكرمه» [٣].

وإذا نظرنا إلى جملةٍ من تأويلات المبتدعة لنصوص الصفات وغيرها مما خرجوا به عن منهج أهل السنة والجماعة، نلاحظ أنَّ ذلك بسبب استيلاء العجمة عليهم، وأُتوا من جهة جهلهم باللغة العربية، ونجد أن كثيراً منهم ليس من ذي الأصول العربية الذين يعلمون لغة العرب بالسليقة، فما بالك إذا اجتمع الجهل والهوى كيف ينزع ذلك بصاحبه إلى الضلال؟.

(١) القائل هو طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي، والأبيات من معلقته المشهورة، ينظر: فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال١/ ١٦٥، للشيخ محمد علي طه الدرة، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

(٢) أخرجه الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة ٢/ ٧٣، وابن بطة في الإبانة الكبرى لابن بطة ٣/ ٢٦٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٩.

المبحث الثاني: آثار المراء في الدين.

المراء في الدين له الآثار السيئة على المسلم خاصة والمسلمين عامة، وله الآثار السيئة على المماري، وعلى من يماريه، ومن يستمع إليه، وتتصل هذه الآثار إلى المصاحب والمجالس، فآثاره عامة وخاصة، وضرره على المسلمين في دينهم، يتمثّل في صور عديدة، ومن خلال الاستقراء يتبيّن أنَّ من أهم تلك الآثار ما سيأتي -إن شاء الله تعالى- من المطالب التالية :

المطلب الأول: الوقوع في الوعيد الشديد، والتعرّض لمقت الله تعالى.

من آثار المراء في الدين على صاحبه أنَّه يلقي بنفسه في لجّةٍ من المهالك، ويسلك في دينه أوعرَ المسالك، فيتعرّض لوعيد الله ﷻ ومقته وبغضه، بل ويتعرّض المماري في دين الله ﷻ إلى عقوبة الطبع على القلب، وهي من أعظم العقوبات في الدنيا، وحينئذٍ لا يعرف المطبوع على قلبه معروفاً ولا ينكر منكراً، كالكأس المقلوب لا ينفذ إليه قطرةٌ من ماء، وكذلك المطبوع على قلبه لا ينفذ إليه شيءٌ من الخير، عقوبةً لما ترك من قبول الحقِّ أوَّل ما عرفه، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

قال الله ﷻ في وعيد من يجادل في آيات الله ﷻ بالباطل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2]، فمن يجادل في آيات الله ﷻ ويماري في دين الله ﷻ بغير دليل ولا حجة، ويدفع بذلك الحق، فإن الله ﷻ يمقت ذلك أشدَّ المقت[3]، وكذلك المؤمنون يمقتون ذلك، وهذا يعنى: أنه ليس من شأن المؤمن الجدال في آيات الله ﷻ.

والعقوبة الأشد لذلك المجادل بالباطل، ما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ

(١) سورة الأنعام آية (١١٠).

(٢) سورة غافر آية (٣٥).

(٣) المقت: أشد البغض، فهو أخصُّ منه. ينظر: لسان العرب ٢/ ٩٠، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، ٤/ ١٠٢.

عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾(١)، وقد سبق معنى الآية مستوفى فيما تقدم(٢).

وجاء في الحديث فيما تقدم ذكره وبيانه من قول النبي ﷺ: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٣).

وقد جاء الوعيد الشديد لمن كان قصده من تعلُّم العلمِ المراءُ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»(٤).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً، ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً، وكفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً، وكفى بك كاذباً أن لا تزال محدّثاً في غير ذات الله»(٥).

وقد تقدم ذكر بعض جهود السلف في التحذير من المراء في الدين، وأقوالهم في ذلك، وشدة كراهيتهم له ولمن تعاطاه(٦).

---

(١) سورة غافر آية (٣٥).

(٢) ينظر: صفحة ٢٦٠.

(٣) ينظر: صفحة ٢٧٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب السنة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٤)، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر وصف العلم الذي يُتوقّع دخول النار في القيامة لمن طلبه، (٧٧)، ١/ ٢٧٨، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح، وقال البوصيري: رجال إسناده ثقات. ينظر: (مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ١/ ١٦٥، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ).

(٥) أخرجه الدارمي في سننه، باب من قال العلم الخشية وتقوى الله، (٣٠١)، ١/ ٣٣٦.

(٦) ينظر: صفحة ٣٠٠.

المطلب الثاني: ردّ الحق وإنكاره.

تقدم فيما خلا أنَّ من أسباب المراء في الدين، محاولة دحض الحقِّ وإبطاله، بمعنى: أن ذلك السبب، هو قصد المُماري من مرائه وجداله، والغاية التي يطلبها منه، كما هو دأْب الأمم المكذبة التي جادلت رسلها بالباطل، وهنا نجد أيضاً أنَّ من آثار المراء في الدين ولوازمه، ردَّ الحق وإنكاره، بغضِّ الطرف عن قصد المُماري وغايته، سواء كان قصده إفحام خصمه، أو تنقّصه وازدراءه، أو الانتصار لمذهبه، ونحو ذلك من الأغراض.

فذلك السبب -محاولة دحض الحق وإبطاله- أخصُّ من هذا الأثر -ردُّ الحق وإنكاره- من جهة كونه آثراً عاماً، ليس بالضرورة أن يكون هو قصد المماري وسببه في مرائه.

وعلى ما تقدم فمن آثار المراء في الدين على المسلمين خاصمة وعامة، ردُّ الحق وإنكاره، وهذا الأثر من آثار المراء في الدين، مستنبطٌ من معنى ما تدلُّ عليه لفظة "المراء" إذ إنَّ من معاني المراء، الجدل والخصومة، والجحد للحق، والشك والتردد في الأمر، مع الشدة والصلابة، واستدرار الغضب في ذلك.

ومن الآثار الناتجة عما تقدم، التوصل إلى إفحام المُمارى وقطع حجته، والقدح في كلامه؛ ليظهر نقصه وعجزه، ونسبته إلى القصور والجهل، حتى ولو كان ما قاله المُمارى حقّاً، ولهذا من صفات المُماري أنه يكره أن ينطق خصمه بالحق؛ لكونه مخالفاً له، وإن

نطق به، احتال على ردّه وإسكاته، ومن أقرب الطرق إلى ذلك المماراة والمجادلة[١].

ومن خلال ذلك يؤول الحال إلى ردِّ الحق وإنكاره، وقد شرح الآجري بعض هذا المعنى بقوله: «وأعظم من هذا كلِّه، أنه ربما احتج أحدهما بسنة رسول الله ﷺ على خصمه، فيردها عليه بغير تمييز، كل ذلك يخشى أن تنكسر حجته، حتى إنه لعلّه أن يقول بسنةٍ عن رسول الله ﷺ ثابتةٍ، فيقول: هذا باطل، وهذا لا أقول به، فيردُّ سنة رسول الله ﷺ برأيه بغير تمييز، ومنهم من يحتج في مسألة بقول صحابي، فيرد عليه خصمه ذلك، ولا يلتفت إلى ما يحتج عليه، كل ذلك نصرة منه لقوله، لا يبالي أن يرد السنن والآثار»[٢].

فالمراء يقود صاحبه إلى التكذيب بالدليل والحجة، كما قال أبو جعفر الباقر: «لا تخاصم فإن الخصومة تكذب القرآن»[٣].

ونجد في كتاب الله ﷻ ذلك ظاهراً، أنَّ من يجادل ويماري، يسعى لإبطال الحق ودحضه، وهذا من لوازم المراء، وتأمل قول الله ﷻ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٤]، وقد تقدم بيان الآية الكريمة[٥].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥٩.

(٢) أخلاق العلماء، ص ٦٢.

(٣) الإبانة الكبري، لابن بطة ١/ ٣٤٧.

(٤) سورة غافر آية (٥).

(٥) ينظر: صفحة ٢٥٩.

المطلب الثالث: الوقوع في ذريعة الكفر، والتشبه بالكفار.

من أعظم آثار المراء في الدين وأخطرها، أنه سببٌ إلى الكفر، ومظنّةٌ للوقوع فيه، بل قد يؤدي إليه حقيقةً.

وإنَّ من المراء ما يكون كفراً، وذلك بأن يؤدّي إلى الشكِّ فيما يجب فيه اليقين، مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو المماراة والخصومة في أصول الإيمان وقواعد الدين على وجه الجحود أو العناد أو الشك أو المغالبة، أو التكذيب بما ثبت في القرآن الكريم والسنة، وجاء في الحديث: «المراء في القرآن كفر».

قال ابن عبد البر: «ونهوا عن الجدال في العقيدة؛ لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين، ألا ترى مناظرةَ بشرٍ في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[1]، قال: هو بذاته في كل مكان، فقال له خصمه: هو في قلنسوتك وفي حشّك وفي جوف حمارك -تعالى الله عما يقولون- حكى ذلك وكيع[2] -رحمه الله- وأنا -والله- أكره أن أحكي كلامهم -قبحهم الله- فمن هذا وشبهه نهي العلماء»[3].

فالمراء في الدين تستلزمه أمورٌ قد تُخرِج صاحبها من الملّة، قال إبراهيم الخواص: «ما كانت زندقة ولا كفر ولا بدعة ولا جرأة في الدين، إلا من قِبل

(١) سورة المجادلة آية (٧).

(٢) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي _ ولد عام ١٢٩هـ _ الإمام الحافظ، محدث العراق، من بحور العلم، وقال أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدا أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٠، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٠٦).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٥.

الكلام والجــدل والمراء، والعــــجب كيف يجترئ الرجل على الجدال والمراء؟ والله يقـــــول: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[١] ...»[٢]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إياكم والخصومة؛ فإنها تمحق الدين»، وقال أبو يوسف: «لا تطلب الدين بالخصومات، فإنه لم يمــعن فيه أحدٌ إلا قيل: زنديق»[٣].

ولما كان المراء في الدين، بهذه المنـزلة المقــيتة من الدين، «فالمؤمن العالم العاقل، يخاف على دينه من الجدال والمراء»[٤].

قال أبو العــالية: «آيتان في كتاب الله ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٥]، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٦] ...»[٧].

وأما كون المماري في الدين فيه شبهٌ بالكفار، فلأنَّ المراء في الدين والجدال فيه، من خصائص الكفار، لقول الله جل جلاله: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ

---

(١) سورة غافر آية (٤).

(٢) أخرجه أبو الفضل المقرئ في أحاديث في ذم الكلام، ص ٨٩ _ ٩٠، تحقيق الدكتور ناصر بن عبد الرحمن الجديع، دار أطلس، للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

(٣) أخرجه الأصفهاني في الحجة في بيان المحجة ١/ ١١٦.

(٤) أخلاق العلماء، للآجري، ص ٦٠.

(٥) سورة غافر آية (٤).

(٦) سورة البقرة آية (١٧٦).

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٢٢، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٤٦.

﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[١]، قال ابن كثير: «ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه»[٢].

وتقدم معنا في الفصل الثاني، كيف كان مراء وجدال أهل الملل والديانات السابقة على مختلف العصور، وأنَّ ذلك كان دأبهم وديدنهم، وكأنما أوصى بعضهم بعضاً، فالمراء في الدين من أعظم وأبرز سمات الكفار الذين جادلوا في آيات الله ﷻ، وماروا رسلهم فيما جاءوا به من الحق، فأخذهم الله ﷻ فكيف كان نكير؟.

وبعد هذا هل يليق بالمسلم أن يشابه الكفار في أقبح صفاتهم؟! وكلُّ من مارى في شيء من مسائل العقيدة وغيرها، ففيه شبهٌ بالكفار، بقدر ما عنده من المراء، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك قصد ردِّ الحق، لأيِّ غرضٍ كان.

(١) سورة غافر آية (٤).

(٢) تفسير ابن كثير ١٢/ ١٦٩.

المطلب الرابع: التقليل من مكانة القران والسنة، وتحكيم العقل على نصوصهما.

من أبرز آثار المراء في الدين التقليل من مكانة القرآن والسنة، وذلك أنَّ المماري لابدَّ أن يعترض على خصمه، ويفنّد كلامه، ويردَّ قوله، وعلى أثر ذلك سيردُّ آياتٍ من القرآن الكريم، أو من السنة النبوية، أو يعتسفها إلى ما يوافق هواه.

والتقليل من نصوص الوحيين، ظاهرٌ عند الممارين في دين الله ﷻ، وليس في قلوبهم من التعظيم لها، ما عند غيرهم ممن لم يتعاط المراء، وهذا من نتيجة المراء وكثرة الخصومة، حيث قادهم ذلك إلى التسلّط بعقولهم وآرائهم على نصوص الوحيين، فأكثروا فيها الجدال والمراء، وعارضوها بعقولهم، فما وافقهم أخذوه، وما خالفهم تركوه أو أوّلوه، فكان من أثر ذلك أنْ استخفّوا بها، واستهانوا بدلالاتها.

وبمقتضى ذلك لم يكن في نفوس أولئك من الهيبة والتعظيم للنصوص الشرعية، وتأمل هذا المثال الذي حكاه أبو نعيم البلخي حيث قال: «كان رجلٌ من أهل مرو صديقاً للجهم ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوماً آية كذا وكذا، فقال: ما كان أظرف محمداً! فاحتملتها، ثم قرأ سورة طه فلما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[(١)]، قال: أما -والله- لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف، فاحتملتها، ثم قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى، قال: ما هذا؟ ذكر قصة في موضع فلم يتمها، ثم ذكرها ههنا فلم يتمَّها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثبت عليه»[(٢)]، وهذا المثال يبين حدَّ الاستهانة والاستخفاف بالقرآن

---

(١) سورة طه آية (٥).

(٢) خلق أفعال العباد للإمام البخاري، ص ٢٦.

الكريم، عند من اشتغل بالمراء.

ويصل الأمر عند الممارين إلى تحريف النصوص والعدوان عليها بالتغير، كما صنع أهل الكتاب بكتابهم، وبلغ من ذلك، أنَّ أحمد بن أبي دؤاد أشار على المأمون أن يكتب على ستور الكعبة {ليس كمثله شيء، وهو العزيز الحكيم}[(١)]، تحريفاً لقول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٢)]، وذلك كلُّه فرارٌ من وصف الله ﷻ بما وصف به نفسه؛ لئلا يوهم عنده التشبيه، وهذا من قلّة عقله وفجوره، وانظر إلى هذا الصنيع كيف جمع إلى التحريف والتبديل، تحكيم العقل على كلام الله ﷻ وتقديمه عليه، وهل بعد الحق إلا الضلال؟

ومن العظيم في الأمر، أنَّ المماري في الدين لا يتورّع من أن يختلق ويخترع أوجهًا من القراءة للقرآن الكريم؛ لتوافق ما يذهب إليه، قال أبو بكر الباقلاني: «قال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة، وأوجه، وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه صواباً في اللغة العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأها»[(٣)].

ومن الأمثلة على ذلك: أنَّ عمرو بن عبيد قال لأبي عمرو بن العلاء: أحب أن تقرأ هذا الحرف ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[(٤)]؛ ليكون موسى هو الذي كلم الله ﷻ، ولا يكون في الكلام دلالةٌ على أن الله ﷻ كلَّم أحداً، فقال له: فكيف تصنع بقوله: ﴿وَلَمَّا

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ١١/ ٤٧٩.

(٢) سورة الشورى آية (١١).

(٣) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٦٠، وينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢/ ١٢٦.

(٤) سورة النساء آية (١٦٤).

جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[١][٢].

وهذا الزمخشري يقوله -في كشافه عند تفسـير هذه الآية-: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾[٣]: «بالنصب»[٤]، أي: بنصب لفظ الجـلالة؛ ليكون فاعل التكليم هو موسى عليه السلام، ويا لَلَعجب! أين دليله على نصبهِ لفظَ الجلالة؟ أليس القرآن الكريم يُتلقّى بالرواية عن الأشياخ؟ ثم انظر إلى هذا الصنيع، بعين البصيرة، أليس يفتح على المسلمين باب الاستخفاف بالقرآن الكريم وبمدلولاته، ليقول فيه من شاء، على مقتضى نزعته العقدية، ألا إنه يفتح باب الإلحاد على مصراعيه، والمروق من الدين، ولك أن تنظر تفسيرات الرافضة للقرآن الكريم، كيف فسّروه واستخفّوا بدلالاته؟ فسّروا بعض آياته بتفسيراتٍ لا يقضي الناظر منها عجباً[٥]!.

وكذلك ما فعله أهل البدع والأهواء على اختلاف ضلالهم، وتباينهم في أهوائهم، استخفّوا بشأن القرآن الكريم، وقدحوا في دلالاته، والسبب في ذلك خصومتهم ومراؤهم فيه، وهذا فتح عليهم أبواباً من الشرِّ لا يستطيعون غلقها.

وكذلك السنة النبوية لم تسلم من غثائهم الأحوى ومكرهم الكبّار، نتيجةً لمرائهم وخصومتهم، حيث وجدوا لأنفسهم مخارج كثيرة، من ضرب السنة بالقرآن، وتكذيب

---

(١) سورة الأعراف آية (١٤٣).

(٢) ينظر: بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٢.

(٣) سورة النساء آية (١٦٤).

(٤) الكشاف ٢/ ١٧٩.

(٥) ينظر على سبيل المثال: تفسير الصافي للفيض الكاشاني الرافضي، ١/ ٤٠، والأصول من الكافي، لمحمد يعقوب الكليني، ١/ ٢٢٨.

خبر الآحاد، وعدم الاستناد إليه في مسائل الاعتقاد، ونحو ذلك مما تقدم بيانه(١).

ومما يبيّن استخفاف أهل المراء والخصومة في الدين، بالكتاب والسنة، وتقديم العقل عليهما، ما كان من قصّة محنة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- لما وقف بين يدي المعتصم(٢)، حيث ناظره أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي، في مسألة القول بخلق القرآن الكريم، فقال الإمام أحمد للمعتصم: «يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله، حتى أقول به، فقال ابن دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا، وهذا، فقلت: وهل يقوم الإسلام إلا بهما؟...وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة، ولا علم لهم بالنقل، فجعلوا ينكرون الآثار، ويردّون الاحتجاج بها»(٣).

ولك أن تتأمل مقولة هذا المعتزلي، للإمام أحمد: -وأنت لا تقول إلا بهذا، وهذا- حتى يظهر مدى تهاونهم بنصوص الوحي، وكأنّها -عندهم- بمعزلٍ عن الاعتماد.

ومن هنا ندرك أنَّ أهل الأهواء والمراء، من أجهل الناس بنصوص الشريعة، ولأجل جهلهم، أنكروا ما لم يحيطوا به علماً، كما قال الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾(٤)، وعلى أثر ذلك، كثر مراؤهم وجدالهم، ومن لازم هذا، الاستخفاف بنصوص الكتاب والسنة.

---

(١) ينظر: صفحة ٣٩٦.

(٢) هو محمد المعتصم بن أمير المؤمنين هارون الرشيد بن أمير المؤمنين المهدي محمد بن أمير المؤمنين أبي جعفر عبد الله المنصور _ توفي عام ٢٢٧هـ _ الخليفة العباسي الثامن. ينظر: (البداية والنهاية ١٤/ ٢٨٢).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٤٠٠.

(٤) سورة يونس آية (٣٩).

فالمراء والجدال والخصومة في الدين، كلُّ ذلك مدعاةٌ للتهاون بالنصوص، والاستخفاف بدلالاتها، والتقدم بين يديها بالعقول والآراء، بل وإنكارها وردّها، والاستعاضة عنها بنحاتة الأفكار وزبالة الأذهان.

المطلب الخامس: مخالفة منهج أهل السنة والجماعة.

من منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة، ترك المراء والخصومات في الدين، والتحذير من المراء والخوض والجدال والخصومة.

والمراء في الدين، فيه مخالفةٌ صريحةٌ لما عليه أهل السنة والجماعة، وقد تقدّم بيان منهجهم في ذلك وموقفهم ممن يماري في دين الله تعالى[(١)].

وسبيل المؤمنين لا يجوز الاعوجاج عنه، ولا السير في غيره، وجاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[(٢)]، وسبيل المؤمنين، «هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم»[(٣)]، ومن فروع ذلك، ترك المراء في الدين، والخصومات في الشريعة، والجدال بالباطل.

والتنكّب عمّا عليه السلف الصالح، ضلالٌ وحيدةٌ عن الصراط المستقيم، قال الحسن البصري: «المؤمن لا يداري ولا يماري ينشر حكم الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله»[(٤)].

وذلك أنَّ الحقَّ ظاهرٌ بيّنٌ، ليس فيه مراء ولا مجادلة، إلا جدالاً بالتي هي أحسن، لمن خفي عليه، وأما سبيل الخصومة والمراء، فليست من سبيل المؤمنين.

---

(١) ينظر: صفحة ٣٠٠.

(٢) سورة النساء آية (١١٥).

(٣) تفسير السعدي ١/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٧٣.

قال الآجري بعد ذكر جملةً صالحةً من النصوص الناهية عن المراء في الدين: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين، ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدال، وأمروهم بالأخذ بالسنن، وبما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله ﷻ»(١).

وأما من استهوته الشياطين في الأرض حيران، يرى أهل السنة يدعونه إلى الهدى، ولا يرى لنفسه سبيلاً، إلا أن يخوض في الدين، كالذي خاض فيه من تقدمه من الأمم المهلكة، ليسلك السبيل الذي سلكوا، ويأخذ بالأسباب التي من أجلها هلكوا، ومن يضلل الله فلن تجد له وليّاً مرشداً.

---

(١) الشريعة، ص٦١.

المطلب السادس: فساد القلوب وقسوتها، وإضاعة الوقت فيما لا فائدة منه.

ومن آثار المراء في الدين قسوة القلوب ومرضها وفسادها، وهذا أمرٌ يصاحب من اشتغل بالباطل، وكذلك أيضاً يكون أثرهم على من يجالسهم ويخالطهم؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب»(١).

وقال مالك بن أنس: « المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الظغن»(٢).

وقال جعفر بن محمد: «إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق»(٣).

وقال الأحنف بن قيس: «كثرة الخصومة تنبت النفاق في القلب».

ولهذا يكون عند من بضاعته في الدين: المراء، من قسوة القلب وفساد العمل، ما هو معلوم، ويوجد عندهم من قلّة الورع والتهاون بشرائع الدين والاستخفاف بالحدود، من ترك الصلوات وشرب الخمر وارتكاب الفواحش، والطعن في نصوص الوحيين ونحو ذلك(٤).

قال شيخ الإسلام: «ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء، لما لم يتبين له الهدي في طريقه، نكص على عقبيه، فاشتغل باتباع شهوات الغيِّ في بطنه وفرجه أو رياسته وماله ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبُه، وينشرح له صدره...وهؤلاء

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٦٥، وابن بطة في الإبانة الكبرى عن الحسن البصري ١/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٧٥.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٧٠.

(٤) ينظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ١/ ٩٤.

المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية، يجتمع فيهم...اتباع شهوات الغيِّ، ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغيِّ، بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله»[١].

ولا ريب أن فساد العمل هو من فساد العقيدة، وهذا كله من الأثر المترتب على المراء في الدين؛ ولأجل ذلك فقد أفضى ببعض من اشتغل بالمراء في الدين إلى «الشكوك، وبكثير منهم إلى الإلحاد، وأصل ذلك: أنهم ما قنعوا بما بُعثت به الشرائع، وطلبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكم التي انفرد بها، ولو لم يكن في الجدال، إلا أن النبي ﷺ، قد أخبر أنه الضلال»[٢]

ولما ما تقدم من آثار المراء في الدين، كان سمات السلف الصالح أهل السنة والجماعة أنهم «يتقون الجدال في الله، والخصومات فيه، ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات، ويقتدون بالسلف الصالحين من أئمة الدين وعلماء المسلمين، ويتمسكون بما كانوا به متمسكين من الدين المتين والحق المبين، ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدين، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم، التي إذا مرّت بالآذان، وقرَّت في القلوب ضرَّت، وجرت إليها الوساوس والخطرات الفاسدة، وفيه أنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٦/ ٦٩٢.

﴿غَيْرِهِۦ﴾(١)»(٢).

وأيضاً من آثار المراء في الدين، إضاعة الوقت وإنفاق العمر وتضييع الجهد فيما لا فائدة منه، ولا طائل من تحته، بل يوقع صاحبه فيما يضرّه في العاجل والآجل.

وعند النظر في أحوال وسِيَرِ من بُلي بذلك، نجد أنَّ أعمارهم ذهبت، وأوقاتهم تصرّمت، في جدالٍ عقيمٍ، ومراءٍ لا يجدي عليهم نفعاً.

يقول ابن واصل الحموي- وكان من أبرع الناس في الفلسفة والكلام-: «أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على وجهي، ثم أذكر المقالات، وحجج هؤلاء وهؤلاء، واعتراض هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء»(٣).

فهذا وأمثاله من الحذّاق والأذكياء، تذهب أوقاتهم، وتفنى أعمارهم، في قيل وقال، وتزويق الحجج، ونقض ضدّها، في أشياء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، من الاشتغال بما ضرره أكثر من نفعه، إن كان فيه نفع.

فتأمل كيف ينفقون حياتهم، فيما لا يخرجون منه بشيء، سوى العناء وضياع الوقت، وعدم الاهتداء إلى الحقِّ؛ وذلك أنَّهم طلب الحق من غير منهله، وعبّوا بأفكارهم ماءً أُجاجاً لا يروي من ظمأٍ، واتّبعوا سراباً يظنّونه ماءً، حتى إذا جاءوه، لم يجدوه شيئاً؛ ولهذا تؤول حالهم إلى تمنّي ما عند عوام المسلمين من عقيدة صافية، وإيمان جازم، ويقين ثابت، وهذا الرازي يقول في مقالته الشهيرة:

---

(١) سورة الأنعام آية (٦٨).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث، للصابوني، ص ١٠٧، تحقيق أبو اليمن المنصوري، دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٢٨.

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[١].

فهو لم يستفد -كما صرح عن نفسه- إلا القيل والقال، وهذا هو المراء والجدال، وذلك عاقبة من شغل نفسه بالمراء والمخصومات، وابتعد عن الآيات البينات، أنَّه يسترسل فيها، ويتشعّب عليه الأمر، وتتكافأ عنده الحجج، وينفرط عليه عقد عقيدته، والسبب في ذلك أنهم طرقوا طرقاً محدثة، «واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية، مدار أكثرها على مباحث سفسطائية، أو مناقشات لفظية، تردّ بشبهها على الآخذ فيها، شبهٌ ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم، لا أعلمهم»[٢]، فيكون حال أحدهم، كالظمأ الذي يشرب ماءً مالحاً، لا يرويه شيء، فإن تداركه الله تعالى بهدايته، رجع عما هو فيه، وأحسن أحواله أن يكون حاله، حال العوّام من المسلمين، وإلا ذهب عمره هباءً منثوراً، في قيل وقال، وكثرة مراء وجدال، «وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام، بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة»[٣].

وكذلك أيضاً في هذا العصر الحاضر، مع تطوّر وسائل الاتصال والإعلام التي أتاحت بدورها، سهولة تعاطي المراء والجدال، فقد يتجادل ويتمارى الرجلان، وأحدهما في أقصى غرب الأرض، والأخر في أقصى مشرقها، ثم انظر كيف تنفق الأوقات، وتذهب الساعات، في الجدال والمراء والخصومات.

وكفى بالمراء في الدين شرّاً -مع ما فيه من المفاسد- أن يكون مضيعةً للوقت.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٤/ ٧٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٦/ ٦٩٠.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٦٩٢.

المطلب السابع: التكذيب ببعض النصوص وإثارة الشبه والاضطراب في الدين.

إذا كان من آثار المراء، ردُّ الحق وإنكاره كما تقدم قريباً، فإنَّ مما يتفرع عن ذلك، الردُّ لبعض الحق والتكذيب ببعض النصوص، وهذا أخفُّ من سابقه، وبعض الشرِّ أهون من بعض، وذلك أنَّ المماري في مرائه سوف يعترض على خصمه، ويردُّ قوله، ولو من بعض الوجوه، إذا لم يردَّه جملةً.

يقول الآجري -مبيناً أثر المراء بين المتماريين بهذا الصدد-: «ثم لا يؤمن أن يقول لك في مناظرته: قال رسول الله ﷺ، فتقول له: هذا حديث ضعيف، أو تقول: لم يقله النبي ﷺ، لتردَّ قوله، وهذا عظيم، وكذلك يقول لك أيضاً، فكل واحد منكما يردُّ حجة صاحبه بالمجازفة والمغالبة.

وهذا موجود في كثير ممن رأيناه يناظر ويجادل، حتى ربما خرق[(١)] بعضهم على بعض، هذا الذي خافه النبي ﷺ على أمته، وكرهه العلماء ممن تقدم»[(٢)].

وإذا كان من آثار المراء في الدين، التكذيب ببعض النصوص، فإنَّ من أثر ذلك، إثارة الشبه والحيرة والاضطراب في الدين، وهذه نتيجة حتميّة يشهد لها حال كثير ممن كان بضاعته في الدين، المراء والجدل والخصام، يتذبذب بين الآراء، وينحسر عنده الاقتداء، ويكثر التنقّل بين الأهواء، كما قال عمر بن عبد العزيز حكمته المشهورة: «من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل».

وقال الإمام مالك -لمن يماري في الدين-: «أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه،

---

(١) أي: اختلق وكذب، ينظر: مختار الصحاح، ص ١٦٤.

(٢) الشريعة، ص ٦٩.

أيدع دينه كلَّ يوم، لدين جديد؟».

وهذه الحيرة والاضطراب ظاهرةٌ من حال من شغل نفسه بالمراء في الدين، وانظر إلى حال من اشتغال بالعلوم المثيرة للمراء في الدين -علوم الأوائل- ترى من حالهم عجباً، يقول شيخ الإسلام: «أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام»(١)، وقال -من ابتلي بهذه العلوم المثيرة للمراء والجدال-: «لقد خضت البحر الخِضمّ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي»(٢)، وهذا الفخر الرازي أحد أذكياء العالم، يقول عن نفسه وتجربته في العلوم المورثة للحيرة والاضطراب في الدين، والتي هي أحد أسباب المراء في الدين: «لقد تأملت الطرقَ الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً»(٣).

ومن هنا نعلم أنَّ المراء في الدين، ما انتفع به أصحابه، إلا التشكيك فيما لا يجوز فيه إلا اليقين الجازم، وأدخل عليهم الحيرة من حيث يطلبون الإذعان والتسليم -نعوذ بالله من الحور بعد الكور- وهكذا من التمس الدين بالمراء والخصومة، لن يجد إلا ما وجده من تقدمه في هذا الباب.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٥/ ١١.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ٥/ ١١.

(٣) ينظر: درء التعارض ١/ ١٦٠.

المطلب الثامن: إذكاء العداوة والبغضاء بين المسلمين، والوقوع في التكفير والاقتتال.

المراء في الدين يورث العداوة والبغضاء بين المسلمين؛ لأن المراء قائم على استجلاب غضب المماري واستدرار حفيظته، بردِّ كلامه وإسكاته، ودحض حجته والاعتراض على قوله، تصغيراً لشأنه واحتقـاراً لقدره، وذلك أنَّ المماري يعـمد بمرائه إلى «الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه...وهاتان صفتان مذموتان مهلكتان، وإنما قوتهما المراء والجدال»[1].

ولا ريب أن هذا سببٌ رئيسٌ لغرس العداوة والبغضاء في القلوب، والإحن في النفوس، وإثارة الفتن والخلافات بين المسلمين، ونشر العداوة والفرقة بينهم، كما أنه سببٌ للتنافر والتدابر بين الناس، وفساد العلاقات بينهم؛ لأنَّ المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة[2].

والمغالبة لقصد المغالبة، غايتها إدراك حظوظ النفس والانتصار لها، وهذا من شأنه وقوع الاختلاف والتنافر؛ للتضاد بين رغبات وحظوظ الناس، وكم من متصافين متوادّين وقع بينهم المراء، فآل بهم الحال إلى الاختلاف والقطيعة، ولهذا نجد أن الله تعالى نهى عن الجدال في الحج، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: الإبانة الكبرى، لابن بطة ١/ ٣٧٥.

ٱلْحَجِّ ﴾[١]، والجدال هنا: هو المماراة والمخاصمة والمنازعة، لأنها تورث البغضاء، وتثير العداوة[٢].

ويقول عبد الله بن عباس -مفسراً قول الله ﷻ-: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾[٣]، «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم بها أهلك من كان قبلهم، بالمراء والخصومات في دين الله ﷻ».

وقال الإمام مالك بن أنس: «المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغن»[٤]، والضغن هو الحقد الشديد[٥].وهذا هو الحال من المراء والخصومة، أنَّها «تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال»[٦].

وقال الآجري: «وعند الحكماء: أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفرقة بعد الألفة، والوحشة بعد الأنس»[٧].

وهذا إذا كان في الأمور العادية، فكيف إذاً يكون الحال إذا حصل المراء في مسائل اعتقادية؟ لا يجوز الخوض ولا الخصومة فيها.

ثم إنَّ أثر المراء في الدين لا يقف عند حدِّ الاختلاف والقطيعة والتنافر وفساد ذات

---

(١) سورة البقرة آية (١٩٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي ١/ ١٤٨.

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٥).

(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٧٥.

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٥٧٥.

(٦) الآداب الشرعية ١/ ٥٣.

(٧) أخلاق العلماء، ص ٥٩.

البين فحسب، بل تتجاوز المفاسد إلى الترامي بالتكفير والبدعة والفسوق بين المسلمين، وهذا كلُّه وسيلةٌ إلى وقوع الاقتتال، وسلِّ السيوف على رقاب بعض، وذلك لأنَّ «المراء أخو الشنآن، كما أن المناقشة أخت العداوة، والمراء قليل نفعه كثير شره، ومنه يكون السباب، ومن السباب يكون القتال، ومن القتال يكون هراقة الدم، وما مارى أحدٌ أحداً إلا وقد غيَّر المراء قلبيهما»[١]، فيا لله كيف يكون الحال إذا وصل الأمر إلى ذلك؟ وكيف تكون العواقب؟.

وهذا ما وقع منذ أوائل الإسلام إلى يومنا هذا، وتأمل كيف قتل الخوارج الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، ثم خرجت الخوارج أيضا على الخليفة الراشد عليٍّ بن أبي طالب ﷺ حتى قُتل، ثم ظهرت البدع يُرَقِّقُ بعضها بعضاً، حتى كفّر بعض المسلمين بعضاً، واستُحلَّت بذلك دمائهم.

وتأمل قصّة الإمام أحمد بن نصر الخزاعي[٢] كيف قتله الواثق الخليفة العباسي في فتنة القول بخلق القرآن الكريم، حيث سأله الواثق عن القرآن أم مخلوق هو أم لا؟ وهل يرى الله ﷻ يوم القيامة ؟ فأجاب الإمام بما عليه أهل السنة والجماعة، من القرآن الكريم غير مخلوق، وأنَّ الله تعالى يراه المؤمنون يوم القيامة، فقال الواثق: «أنا أكفر بربٍّ هذه صفته!»[٣]، ثم قام هو بنفسه وقتله، بعد أنْ كفّره[٤].

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي ص ٧٩، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

(٢) هو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي قتل عام ٢٣١هـ، أحد أئمة أهل السنة والجماعة. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٨، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ٣٩٧)

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٣١٣، وينظر تاريخ بغداد ٦/ ٤٠١، وسير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٨.

(٤) ينظر تمام القصة: البداية والنهاية ١٤/ ٣١٠.

وهذا كلُّه مما اجتناه المسلمون من حنظل المراء في الدين، وما زال المسلمون منه في بلاء، وما تفرّقت طوائف أهل القبلة طرائقَ قِدَدَاً، يكفّر بعضها بعضاً، وتبدّع الطائفة أختها، إلا من جراء المراء في الدين، وما ضلَّ من ضلَّ بعد هدىً كانوا عليه، إلا بسبب ذلك، ومن تتبع التاريخ واستقرأه، رأى من ذلك العجب، ورأى من الأمثلة والنماذج، ما يعرف به المنصف أوضار وآثار المراء في الدين على المسلمين في هذا الباب، وما أعظم فقه ابن عباس رضي الله عنهما حين قدم رجل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجعل عمر رضي الله عنه يسأله عن الناس، «فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقال ابن عباس: فقلت -والله- ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة، قال: فنهرني عمر، وقال: مه، فانطلقت إلى منزلي مكتئباً حزيناً، فبينا أنا كذلك إذ أتاني رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، فأخذ بيدي فخلا بي، وقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً؟ فقلت: يا أمير المؤمنين متى ما يتسارعوا هذه المسارعة يختلفوا، ومتى ما يختلفوا، يختصموا، ومتى ما يختصموا، يختلفوا، ومتى ما يختلفوا، يقتتلوا، قال: لله أبوك -والله- إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها»(١).

ثم انظر إلى حال المسلمين اليوم بعين الاعتبار تارة، وبعين الأسى والأسف تارة أخرى، تجد أن المراء في الدين قد أخذ منهم مكاناً بغيضاً، ورمى ببعض من استشرف له وتعاطاه بمكانٍ بعيدٍ من الضلال والانحراف والتيه، ولا سيما مع ما ظهر من وسائل الاتصال والإعلام الحديث، كالقنوات الفضائية والشبكات المعلوماتية والصحف والمجلات، حيث أتاحت الخوض والجدال والمراء في قضايا كثيرة من مسائل الدين، والعجب أن كلَّ من استطاع ترتيب كلامه وتزويقه وتحسينه، وحسن عرضه، ساغ له أن

---

(١) ينظر: حلية الأولياء ٩/ ٢١٧.

يتحدّث عن كل موضوع بما يريد، وكيفما يريد! فتكلّم الجاهل، ونطقت الرويبضة، وأعجز الخرقُ الراقع.

وبعد هذا التطوّر في سهولة تعاطي المراء في الدين عبر تلك الوسائل الحديثة، فإنَّ من المظنون أن يقع التحريش بين المسلمين على أشدّه، وكم أثرت تلك المهارشات الكلامية، في تلك القنوات الفضائية، من الفتن والبلاء على المسلمين!.

ثم انظر إلى أثر آخر من نتائج المراء في الدين في هذا العصر، حيث وقع من تعاطاه، في متاهات من بنيّات الطريق، يريد أن يخرج منها وما هو بخارج، حيث ارتقى مرتقىً صعباً، من الدخول في نقاشٍ قضايا مصيرية للأمة، بعقول كاسدة، وإفلاسٍ من علم، وبالتالي كان من أثر تلك المجادلات في قضايا يتوقّف فيها جهابذة العلماء، أنْ أدّى ببعضهم إلى الخروج عن جماعة المسلمين، وخلع ربقة الإسلام، والارتكاس في بعض خصال الجاهلية، ومن ثَمَّ التقحّم في التكفير، وإزهاق أرواح المسلمين بمبتكرات من التفجير، والتفنن في أساليب القتل.

وكذلك أصحاب الأهواء والشهوات، أخذوا يتطاولون بالمراء والخصومة لأهل العلم، وما دُوّن من فتاوى لا تتفق مع أهوائهم، حتى حملوا لواء المغالطة والتشغيب على العلماء، ووصفوهم بألقاب منفّرة، من التشدّد والتطرّف والإقصاء للآخرين، ونحو ذلك من العبارات، وهم بذلك يردون أن يختزلوا مكانة أهل العلم من عامة الناس، ليصفو لهم جوُّ شهواتهم، وكل ذلك بمرائهم وخوضهم ومجادلاتهم، التي يقودها الهوى، ويسوسها الجهل.

وهذا كلُّه لا يصبُّ إلا في مصالح الأعداء، وهل وقع مثلُ هذا في المسلمين، إلا بسبب اقتداح زند المراء في الدين، حتى أضرم ناراً لا يطفئها -بعد الله تعالى- إلا العودة

على ما كان عليه السلف الصالح من ترك المراء في الدين، والتحذير من الخصومات والخوض والجدال المذموم.

وما تقدم من بيان جهود السلف الصالح في التحذير من المراء في الدين، وذكر أقوالهم ومواقفهم، متضمّنٌ آثار المراء في الدين على المسلمين.

الفصل السادس

سبل الوقاية من المراء في الدين.

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى، والاجتهاد في العبادة.

المبحث الثاني: اتباع منهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال.

المبحث الثالث: تعظيم نصوص الكتاب والسنة.

المبحث الرابع: اجتناب كتب أهل البدع والأهواء ومخالطتهم.

المبحث الخامس: التفقه في الدين ومعرفة السنن والتحلّي بالأخلاق الكريمة، والصفات القويمة.

المبحث السادس: عدم الخوض في مسائل الاعتقاد، والوقوف على ما ورد في الشرع.

المبحث السابع: مراعاة مقاصد الشريعة، في اجتماع الأمة.

تمـــهــــيد.

المراء في الدين أحد البلايا التي ابتلي بها المسلمون في دينهم، وله الآثار والأضرار التي ما زال المسلمون يكتوون بلظاها، وما من داء إلا وله دواء، فإذا أُحسن استخدام الدواء على مواقع العلّة نفع -بإذن الله تعالى- وإن من أهم سبل الوقاية من المراء في الدين -والوقاية خير من العلاج- وكذلك علاجه إذا وقع، ما يلي من المباحث التالية:

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى، والاجتهاد في العبادة.

الإخلاص مفهومه: تنقية الشيء وتهذيبه، وهو في الشرع: ترك الرياء[١]، وهذا يعنى إرادة الله ﷻ بالعمل والتماس رضاه، وهذا الأمر هو أعظم أسباب الوقاية من شرور الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك الوقاية من المراء في الدين.

ووجه أن الإخلاص لله ﷻ سببٌ رئيس للوقاية من المراء في الدين؛ ذلك لأن الإخلاص يفيد معنى التنقية والتهذيب، والمراء يفيد معنى المغالبة والخصومة، وانتصار النفس، واستبدادها بالفضل على غيرها، فالإخلاص والمراء ضدّان لا يجتمعان، فمن أخلص لله ﷻ، وأراد ما عنده تعالى من الثواب في عمله وقوله، ترفّع بنفسه عن الحظوظ النفسية، التي هي أحد أسباب المراء الجدال والخصومة، لأن المسلم غايته من المناظرة والمباحثة -إن حصلت- الوصول إلى رضا الله ﷻ ببيان الحق ومعرفته والدلالة عليه، وعلى هذا فإنَّ من الإخلاص لله ﷻ في القول والعمل، أن يبلِّغ المسلم من عنده من علم، دون أن يخاصم ويماري في ذلك، أو يُظهر منزلته من العلم، أو ليُرى مكانه وما أشبه ذلك.

وما أحسن جواب الإمام مالك بن أنس، لمّا سأله سائل بقوله: «يا أبا عبد الله الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا سكت»[٢]، وقال الحسن البصري: «المؤمن لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله عز

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٣٠٩، ومختار الصحاح، ص ١٧٣، ومدارج السالكين، لابن القيم ١/ ١٧٥، تحقيق عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار طبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٢٥.

وجل ، فإن قبلت حمد الله ﷻ وإن ردت حمد الله ﷻ».

وذلك أنَّ صاحب الإخلاص، لا أَرَبَ له في بيان العلم، إلا البلاغ، فإذا حصل زالت التبعة، وبرئت الذّمة، بخلاف من يبلّغ شيئاً، على وجه التعصّب لغير الحقّ، انتصاراً لمذهبه، أو شيخه، أو رأيه، ونحو ذلك.

قال الآجري -مفسراً هذا المعنى بعد أن ساق أحاديث وأثاراً تدعو إلى السنة، وتحذّر من الخصومة والبدعة-: «من كان له علم وعقل، فيرى جميع ما تقدم، ذكرى له، من أول الكتاب إلى هذا الموضع، علم أنه محتاج إلى العمل به، فإن أراد الله ﷻ به خيراً، لزم سنن رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة ﷺ، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين -رحمة الله عليهم- في كل عصر، وتعلم العلم لنفسه، لينتفي عنه الجهل، وكان مراده أن يتعلمه لله ﷻ، ولم يكن مراده أن يتعلمه للمراء والجدال والخصومات ولا لدنيا.

ومن كان هذا مراده سلم -إن شاء الله تعالى- من الأهواء والبدع والضلالة، واتبع ما كان عليه من تقدم من أئمة المسلمين، الذين لا يستوحش من ذكرهم ، وسأل الله تعالى أن يوفقه لذلك»[1].

كما أنَّ من الإخلاص أيضاً ألا يتكلم المسلم في شيء ولا يناظر إلا لما تحته عمل، ويؤدي إلى مصلحة شرعية، قال الإمام مالك: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهمٍ والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله ﷻ، وفي الله ﷻ، فالسكوت أحبّ إليّ، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين، إلا فيما تحته عمل».

---

(١) الشريعة، ص ٦٤.

ومن كان متوخّياً لما تقدّم، فإنَّه سيحرص ويهتمُّ بما ينفعه في دينه، ولابدَّ أن يترك الاشتغال وتضييع الزمن بما لا ينفع، أو بما يضرُّ، أو بشيء ليس تحته عمل صالح، ويرى أن الوقت أنفس من أن يذهب في المجادلات الباردة، والمناظرات التي لا طائل منها، وإن احتاج إليها وترجّحت مصلحتها على مفسدتها، وتوفرت شروطها، مع الآداب المرعية، والأخلاق الشرعية، فإنه يقوم بها مع تأهلّه لها، متوخّياً الحذر من الانزلاق في مزالقها.

ومن صلحت نيّته واستقام قلبه، شغل نفسه بما يقرّبه إلى الله تعالى من العلم والعمل، وحينئذٍ يستنير قلبه، ويجعل الله ﷻ له فرقاناً، يفرّق به بين الحق والباطل، كما قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[(١)]، فلا يرى للخصومة وجهاً، ولا للمراء باباً.

ومن اشتغال بالأعمال الصالحة وارتاضت نفسه بها، لان قلبه، وترفّعت نفسه عما يَشِينُها، ولهذا نجد أن النبي ﷺ أرشد إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، استباقاً لفتنٍ كقطع الليل المظلم، لما للأعمال الصالحة من الأثر الحميد، والعاقبة الحسنة على المسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم...»[(٢)]؛ وذلكم أن للعمل الصالح نوراً في قلب صاحبه، يوفّق معه للصواب، ويُحفظ من ضدّه، سئل الإمام أحمد عند وفاته، من يسأل الناس بعده؟ فأمرهم الإمام أن يسألوا عبد الوهاب الوراق[(٣)]، وذكر السبب في ذلك، وقال: «رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق»[(١)]،

(١) سورة الأنفال آية (٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل أن تظاهر الفتن، (١١٨).

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع البغدادي _ مات عام ٢٥١هـ _ الإمام القدوة الرباني، أحد خواص الإمام أحمد. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٢٤، وطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ٢/ ٨٥).

فصلاح المسلم في نفسه له أثر عظيم في حفظ الله ﷻ له مما لا يليق به من الأقوال والأعمال، ومن ذلك المراء والخصومة.

ولذا كان العلماء الراسخون في العلم إذا أشكلت عليهم مسألةٌ من مسائل العلم، لجؤوا إلى الله ﷻ في كشفها، ولم يكثروا فيها الجدال والمراء والخوض بغير علم، وكان شيخ الإسلام يقول: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله ﷻ الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى، وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني»(٢).

فمن اجتمع فيه الإخلاص لله ﷻ، والمداومة على الأعمال الصالحة، عصمة الله ﷻ من المراء والخوض في الدين، وبصّره الله ﷻ بما ينفعه في العاجل والآجل.

---

(١) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ٢/ ٨٥.

(٢) نقله أبو عبد الله الدمشقي الصالحي في كتابه: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٧٣، اعتنى به الدكتور يحيى مراد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

المبحث الثاني: اتباع منهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال.

الالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال، فيه عصمةٌ من المراء في الدين -بإذن الله تعالى- وما ضلَّ من ضلَّ، إلا بالابتعاد عن منهج أهل السنة والجماعة عموماً، ومن أهمِّ ذلك: منهج التلقي والاستلال، وتقدم أن من أسباب بواعث المراء في الدين، هو الإخلال بهذا المنهج[١]، وإذا ما استقام المسلم بما كان عليه السلف الصالح، ومن ذلك التقيّد بمنهج التلقي والاستدلال -سلم بإذن الله تعالى- من الانحرافات التي بُلي بها من حاد عن الطريق المنهج.

والالتزام بهذا المنهج يتمثّل في كيفية تلقّي العلم ومسائل الدين، ومن هم الذين يُؤخذ عنهم العلم؟ وكيف يؤخذ؟ مع مراعاة آداب الطلب، كما تقدم[٢].

وأيضا لابدَّ من سلوك طريقة أهل السنة والجماعة في مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، المتمثلة في المصادر التالية:

القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والعقل، والفطرة.

ولابدَّ من معرفة طريقة استدلالهم على العقائد وكيفية تعاملهم مع الأدلة.

وكذلك لابدَّ من معرفة قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة[٣].

---

(١) ينظر: صفحة: ٤٣٥.

(٢) ينظر: صفحة: ٤٣٨.

(٣) ينظر: بالتفصيل القواعد العشر للاستدلال على مسائل الاعتقاد، في كتاب منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ١/ ٢١٩.

والأمر الجامع لما تقدم هو اتباع منهج الرسول ﷺ، وما كان عليه أصحابه الكرام ﷺ، ومن سار على طريقهم، من صالحي الأمة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي أُمرنا باتباعه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[(١)].

قال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا عن الصراط يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم ﷺ والذي عليه أصحابه، فإنا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة[(٢)]، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء»[(٣)].

وقال أبو بكر الآجري: «علامة من أراد الله ﷻ به خيراً: سلوك هذه الطريق: كتاب الله ﷻ، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان –رحمة الله تعالى عليهم– وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد»[(٤)].

وقال أبو القاسم الأصبهاني: «قال بعض علماء أهل السنة: نحن لا نرى الكلام، والخوض في الدين والمراء والخصومات، فمهما وقع الخلاف في مسألة، رجعنا إلى كتاب الله ﷻ، وإلى سنة رسوله ﷺ، وإلى قول الأئمة، فإن لم نجد ذلك في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ ولم يقله الصحابة، والتابعون سكتنا عن ذلك، ووكلنا علمه إلى الله تعالى، لأن الله تعالى أمرنا بذلك فقال عز من قائل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

(١) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٢) قال أبو إسماعيل الهروي: يعني قتل عثمان ﷺ، ينظر: كتاب ذم الكلام وأهله ٥/ ١١.

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ٢٤، وأبو إسماعيل الهروي في ذم الكلام وأهله ٥/ ١١.

(٤) الشريعة للآجري، ص ٢٤.

وَٱلرَّسُولِ﴾[١]...»[٢].

ومن خصائص منهج أهل السنة والجماعة والقواعد العامة التي ساروا عليها، هو تجنب المراء والخصومات في الدين، كما تقدم بيان مواقفهم منه، ولذا فمن شرب من معين سلسبيل منهجم النمير، لم يستطب أن يسلك سبيل المراء في الدين، أو يتخذه حرفة في دينه، كما فعل المتهوكون.

(١) سورة النساء آية (٥٩).

(٢) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٨٥.

المبحث الثالث: تعظيم نصوص الكتاب والسنة.

من أعظم ما يحول بين المرء وبين المراء في الدين، تعظيم الكتاب والسنة، والصدور عنهما، وعدم التقدّم عليهما بشيء من الآراء وأقوال الرجال، وقدرهما حق قدرهما، ولقد تميّز منهج السلف -رحمهم الله- بتعظيم الكتاب والسنة، والوقوف عند حدودهما، وعدم معارضتهما بالأقوال والآراء، فسلموا من التناقض والحيرة والاضطراب، الذي وقع في فخّه من لم يعظم السنة والكتاب، وابتغى الهدى من غيرهما، ونجوا مما تخبّط فيه من ضلَّ عن هذه السبيل، فكثر خوضهم ومراؤهم، واشتدَّ في الدين جدالهم، فضلّوا ضلالاً بعيداً، وأهل السنة والجماعة عصمهم الله ﷻ من ذلك بسبب تعظيمهم لنصوص الشرع، والوقوف حيث وقف الكتاب والسنة، ولم يتجاوزوهما إلى ما نُهوا عنه، وكذلك لم يجدوا حرجاً في أنفسهم من التحاكم إليهما، وسلّموا تسليماً، وكانوا بهذا هم أعلم الناس بالله ﷻ، وأشدهم له خشية، وأتقاهم له تعالى، وكذلك هو حال من عظّم الله ﷻ وعظّم دينه وكتابه، وكان وقّافاً عند حدود الله ﷻ.

وأما من جعل نصوص الكتاب والسنة، عُرضةً لكل قول، وغرضاً لكل مماري ومجادل، تتخطّفه آراء الرجال من كل جانب، ويأتيه الضلال من كل مكان، وما هو بمهتدٍ، قد نبذ ما تدّل عليه وراءه ظهرياً، وجعلها ألفاظاً لا تفيد ظواهرها، فمتى يسلم له دينه؟ ومتى تصفو له عقيدته؟ فمن كان هذا حاله فمن يهديه من بعد الله ﷻ؟

قال مالك بن أنس: «مهما تلاعبت به من شيء، فلا تلاعبنَّ بأمر دينك»، وبطبيعة الحال، يصدق على من جعل دينه عُرضةً للمماراة والمجادلة والخصومة، أنه تلاعب بدينه، كما هو حال من قال الله ﷻ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾(١)، قال ابن عباس: «وذلك أنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سخِروا ممن دعاهم إليه، وهزؤوا به، اغترارًا بالله»(٢)، وكذلك من مارى في دينه وخاصم وجادل، ورغب عن بحبوحة الشريعة، إلى الأقوال المحدثة الشنيعة، إذا دعي إلى ما عليه السلف الصالح، قال: طريقة الخلف أعلم وأحكم! وجرَّد على أهل السنة والجماعة ألفاظاً وألقاباً تنفّر عنهم، وتدعو عليهم بالقصور والجهل، ووصفوهم بأنهم حشوية(٣) ونوابت(٤)، ونحو ذلك من الألقاب التي ينبزون بها أهل السنة والجماعة(٥).

فإذا سخر أولئك المجادلون في دينهم، بما عليه السلف الصالح من التعظيم والتسليم لنصوص الكتاب والسنة، ورغبوا بأنفسهم عن ذلك، أليسوا قد اتخذوا دينهم هزوا ولعباً؟ وصدق عليهم أنهم تلاعبوا بدينهم، بمرائهم وخوضهم.

ولهذا تظافرت جهود السلف بالدعوة إلى لزوم الكتاب والسنة وتعظيمهما، وعدم

---

(١) سورة الأعراف آية (٥١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٥١٠.

(٣) نسبة إلى الحشو، والحشو من الناس، من لا يعتمد عليه، وهذه النسبة لا تدل على شخص معين، أو طائفة معينة، وقيل: إن أول من تكلم بها، عمرو بن عبيد، قال: كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حشوياً. ينظر: (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لشيخ الإسلام ٢/ ٥٢٠، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، دار الريان، بيروت، سنة الطبع ١٤٢٤هـ).

(٤) النوابت: هم الصغار، يقال: نبتت نابتة، إذا نشأ لهم نشأ صغار. ينظر: (لسان العرب ٢/ ٩٥).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٥/ ١١١، والفتوى الحموية الكبرى، ص٥٣٢.

تجاوزهما، وأنكروا على من تهاون بذلك، لما يعلمون من سوء عاقبة هذا الأمر، فهذا الشافعي، سأله رجل عن مسألة، فقال: قضى رسول الله ﷺ بكذا وكذا، فقال الرجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فأرعد الشافعي وانتفض، فقال: سبحان الله، تراني في كنيسة! تراني في بِيعة! ترى على وسطي زنّاراً(١)! أقول قضى رسول الله ﷺ كذا وكذا، وأنت تقول لي: ما تقول أنت؟(٢).

قال أبو القاسم الأصبهاني: «ليس لنا مع سنة رسول الله ﷺ من الأمر شيء، إلا الاتباع والتسليم، ولا يعرض على قياس ولا غيره، وكل ما سواها من قول الآدميين تبع لها، ولا عذر لأحد يتعمد ترك السنة، ويذهب إلى غيرها، لأنه لا حجة لقول أحد مع رسول الله ﷺ إذا صح»(٣).

وأهل السنة والجماعة يجعلون كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ هو الأصل الذي يُعتمد عليه، وإليه يردُّ ما تنازع الناس فيه، بخلاف أهل البدع والأهواء، فإنهم تأوَّلوا نصوص الكتاب والسنة على ما اعتقدوه، وهم بذلك قد «ارتكبوا أربع عظائم:

أحدها: ردّهم لنصوص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والثاني: ردّهم ما يوافق ذلك من معقول العقلاء.

والثالث: جعل ما يخالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هي أصول

---

(١) هو ما يشدّه النصراني أو المجوسي على بطنه، علامةً عليه. ينظر: (لسان العرب ٤/ ٣٣٠).

(٢) ينظر: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٥١/ ٣٨٧.

(٣) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٤٢٦.

الدين.

والرابع تكفيرهم، أو تفسيقهم، أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول»[١].

وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله طاعةً مطلقةً، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٣]، وأخبر تعالى أنَّ من أطاع الرسول فقد أطاع الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[٤].

وقد أمر الله ﷻ بطاعة رسوله ﷺ واتباعه في نحوٍ من أربعين موضعاً من القرآن الكريم[٥]، ومنها قول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[٦]، وقال ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

---

(١) درء التعارض ١/ ٢٧٧.

(٢) سورة آل عمران آية (٣٢).

(٣) سورة النساء آية (٥٩).

(٤) سورة النساء آية (٨٠).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوى ١/ ٤.

(٦) سورة النساء آية (٦٤).

﴿لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[١]، وهذه النصوص وغيرها، كلها تدلُّ على الأمر بتعظيم ما جاء عن الله ﷻ ورسوله ﷺ والتحاكم إليهما، والصدور عنهما، ففي ذلك العصمة من كلِّ شرٍّ وبليّة، وما وقع في الناس من بلاء، إلا وسببه عند التحقيق: التهاون فيما جاء به الرسول ﷺ، أو نسيان حظٍّ منه، فالخير كلُّه في تعظيم نصوص الشرع والعمل بها، والوقوف عندها.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢]، دلّت الآية الكريمة بمفهوم الشرط، أنَّ من لم يطع الرسول ﷺ فهو ضالٌّ، فمن استعاض عن النصوص الشرعية، بما اخترعه الفلاسفة وأضرابهم من الخيالات التي يسمّونها معقولات، كثر مرائه وجداله وخصومته في دينه، ثم يؤول حاله إلى الحيرة والاضطراب، فمن تداركه الله ﷻ منهم بتوفيقه، وأدرك ما هو عليه من السراب الذي يتبعه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، بل وجد ضدَّ ما يطلب، وحتى إذا وصل إلى حالٍ من فساد المعتقد، الذي نشأ من تهاونه بنصوص الشرع، وتحسين ظنّه بمن جادل في دينه، رجع إلى ما تركه قبلُ من الحق الواضح، وعاد إلى الجادَّة المستقيمة، وتأمل ما قاله الفخر الرازي في آخر مطافه ومشواره العلمي، بعد أن طوّفَ ما طوّف: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق، طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) سورة النساء آية (٦٥).

(٢) سورة النور آية (٥٤).

عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[١]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[٢]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[٣]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[٤]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[٥].

قال ابن أبي العز الحنفي: «فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل، نسميه معقولا أو نحمله شبهة أو شكا أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فنوحّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان»[٦]، وهذه هو المتعيّن على كلِّ مكلف ولا يسعه إلا ذلك، إلا من لم يُكْفى شرَّ نفسِه وأوردها المهالك.

وقال ابن أبي زمنين[٧]: «اعلم -رحمك الله- أن السنة دليل القرآن، وأنها لا تدرك بالقياس، ولا تؤخذ بالعقول، وإنما هي الاتباع للأئمة، ولما مشى عليه جمهور هذه الأمة، وقد ذكر الله ﷻ أقواماً أحسن الثناء عليهم، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[٨]، وأمر عباده

---

(١) سورة طه آية (٥).

(٢) سورة فاطر آية (١٠).

(٣) سورة الشورى آية (١١).

(٤) سورة طه آية (١١٠).

(٥) ينظر: درء التعارض ١/ ١٦٠.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٢٨.

(٧) هو محمد بن عبد الله بن عيسى المرّي الأندلسي _ ولد عام ٣٢٤هـ، توفي عام ٣٩٩هـ _ شيخ قرطبة، صنف في الزهد والرقائق. ينظر: (سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٨٨، وشذرات الذهب ٤/ ٥٢١).

(٨) سورة الزُّمَر آية (١٨).

فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[١] ...»[٢].

ومن تعظيم نصوص الشرع أن يبلِّغها العالم للجاهل من غير خصومة ولا جدال ولا مراء، سأل الإمام أحمد رجلٌ فقال: «أكون في المجلس فتذكر فيه السنة لا يعرفها غيري أفأتكلم بها؟ فقال: أخبر بالسنة ولا تخاصم عليها، فأعاد عليه القول، فقال: ما أراك إلا مخاصماً»[٣].

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٢) أصول السنة، ص ٣٥.

(٣) نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية ١/ ٣٦٨.

المبحث الرابع: اجتناب كتب أهل البدع والأهواء ومخالطتهم.

أهل المراء في الدين، هم في الغالب أهل البدع والأهواء، بل ما اضطرّهم إلى ما ابتدعوه من المحدثات إلا المراء والخصومة في الدين، كما قال الحكم بن عتيبة، لما سئل عن أهل الأهواء ما اضطرهم إليها، قال: «الخصومات»، فكلُّ من ابتدع في الدين وأحدث في الإسلام، له حظٌّ من المجادلة والمماراة والمخاصمة في الدين، وهم في ذلك متفاوتون ما بين مستقلٍّ ومستكثرٍ، كلٌّ قد عُلِم بدعته ومراؤه.

وكلما كثر مراء من ابتدع في الدين وجداله، عظمت البدع شيئاً فشيئاً، وكلما نسوا حظاً مما ذُكّروا به، اشتغلوا بينهم بالخصومات والمراء، وأغرى الله ﷻ بينهم العداوة والبغضاء، عقوبةً على ما تركوا من الحقِّ؛ ولذلك فأهل البدع والأهواء، هم من أشد الناس خصومة في دينهم،وخوضاً فيما يضرّهم، وشغْلاً لأنفسهم ولغيرهم بما لا ينفعهم؛ لأنهم لمّا رغبوا بأنفسهم عن الكتاب والسنّة، وتركوا الحق عن بصيرة، عاقبهم الله ﷻ بالزيغ كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[1]، وهذا الزيغ من مفرداته: الجدال والمراء في الدين، حيث ورد في حديث أبي أمامة ﷺ عن الرسول ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[2]»، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث[3].

(١) سورة الصف آية (٥).

(٢) سورة الزُّخرُف آية (٥٨).

(٣) ينظر: صفحة: ٢٧٢.

ومن منهج أهل السنة والجماعة النكير على أهل البدع والمحدثات، وتحذير الناس منهم، وبيان مثالبهم وسقطاتهم، والردود عليهم وتفنيد شبههم، وتأليف الكتب والمصنّفات في ذلك، اتقاءً لشرّهم وسوءِ عاقبتهم على الأمة، وذلك لِما لأهل البدع من الأثر السيئ على الأمة في العاجل والآجل، ومن ذلك: الرغبة عن الكتاب والسنة، إلى الآراء وعقول البشر، الأمر الذي كان من شأنه اتصاف أهل البدع بكثرة المراء في الدين، والخصومة فيه، والخوض فيما جلب عليهم بعداً عن الشريعة، وشذوذاً عن الجماعة.

ولأجل ذلك فإن من أسباب الوقاية من المراء في الدين، اجتناب ما عليه أهل البدع جملةً وتفصيلاً، ومن ذلك اجتناب كتبهم ومصنفاتهم؛ لأنها مشحونةٌ بما عندهم من الجدال والخصومات والمراء في الدين وإلقاء الشبه، وكلُّ إناء بما فيه ينضح.

والأصل في ذلك ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابٍ، أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إني أصبت كتاباً حسناً من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب، وقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ فوالذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، في مسند جابر رضي الله عنه ، (١٥١٥٦)، ٢٣/ ٢٤٩، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، في كتاب الأدب، باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب، (٢٦٨٢٨)، ٨/ ٥٧٥، والبيهقي في شعب الإيمان، (١٧٦)، ١/ ١٩٩، قال ابن حجر في الفتح: ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفاً، ١٣/ ٤٠٨، والحديث حسَّنه الألباني بمجموع طرقه. ينظر: (التعليق على مشكاة المصابيح ١/ ٦٣، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ) .

ففي هذا الحديث نجد أن النبي ﷺ منع عمر بن الخطاب ﷺ من النظر في كتاب أهل الكتاب خشية التأثر بما هم عليه من الضلال، وقد جاءهم النبي ﷺ بالنور المبين الذي فيه تبيان كل شيء.

والذي يظهر أن مناط النهي في الحديث، ما اشتمل عليه كتاب أهل الكتاب من الانحراف والضلال، ويُخشى على من طالعه أن يُشرب قلبُه شيئاً منه، فجاء النهي من باب سدِّ الذرائع والوسائل التي تفضي إلى المحذور؛ وذلك لأنهم لّما كانوا ضلاّلاً، فإن من يطلب الحق لن يجده عندهم، وفاقد الشيء لا يعطيه، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا»[(١)]، ويؤخذ مما سبق، أن من كان ضاّلاً، فإنه لا يُخالط مخالطةً تضرُّ بصاحبها، ولا يسأل عما جاء في الشرع بيانه، ولا تُتعاط كتبه التي احتوت ضلاله وانحرافه؛ ولأجل هذا أنكر ابن عباس أن يُسأل أهل الكتاب عن شيء، وقال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرءونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم: أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا -والله- ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٠/ ٣١٣، وحسنه ابن حجر في الفتح ٤٠٨/١٣، وروي مرفوعا عن جابر من طريق مجالد عن الشعبي، أخرجه الإمام أحمد في مسنده من مسند جابر بن عبد الله، (١٤٦٣١)، ٤٦٨/٢٢، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف؛ لضعف مجالد، والبيهقي في الشعب (١٧٩)، ٢٠٠/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء))، (٧٣٦٣).

وكذلك كُتبُ أهل الضلال من جميع الطوائف والملل والنحل، وكلُّ من حاد عن الصراط المستقيم، ويدخل في ذلك كتب المبتدعة الذين لهم نصيب من الضلال بقدر بعدهم عن الكتاب والسنة، ومن هنا حذَّر أهل السنة والجماعة من كتب المبتدعة ومخالطتهم ومجالستهم بل والكلام معهم؛ لأن مجالسة هؤلاء ومخالطتهم والحديث معهم، مظنّة التأثر بهم، والإعجاب بما هم عليه أو استحسانه، أو قد يسمع شبهةً ثم لا يجد ما يشفيه منها ولا يستطيع دفعها عنه، والشبه قد تعلق في القلوب ولا يستطيع السامع حينئذٍ أن يملك قلبه تجاهها ويصرفها عنه، فالبعد عن مواطن الفتن هو المتعيّن على المسلم الناصح لنفسه.

وأصل ذلك أن النبي ﷺ أمر من سَمِع بالدجال أن يفرَّ منه؛ لئلا يفتن بشيء من مَخْرَقَتِه، كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من سمع بالدجال فلينأ عنه -فوالله- إن الرجل ليأتيه، وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»(١).

وهذا الحديث أصلٌ في فرار المسلم بدينه مما يخشى منه الفتنة والزيغ، والتباس الحقِّ بالباطل، والباطل بالحقِّ، فكلُّ ما يخاف على المسلم ضرره في دينه من الشبهات ونحو ذلك، فواجبٌ الابتعاد عنه.

ومن أجل هذا حذّر العلماء الراسخون في العلم من مجالسة أهل البدع والأهواء، والكلام معهم، وقراءة كتبهم ونحو ذلك؛ لئلا يعرض المسلم دينه للشبهات، التي تصدّه

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه كتاب الفتن والملاحم، باب خروج الدجال، (٤٣١٩)، والإمام أحمد في مسنده، في مسند عمران بن حصين رضي الله عنه، (١٩٨٧٥)، ٣٣/١٠٧، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

عن سبيل الله ﷻ.

أوصى الإمام أحمد أحد تلاميذه وقال: «لا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك ولا ترافقه في سفرك»[١].

قال أبو قلابة لأيوب السختياني: «احفظ عني أربعاً، لا تقولن في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فامسك، ولا تمكن أصحاب الأهواء من سمعك»[٢].

ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، «فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث، قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آيةً من كتاب الله، قال: لا، قال: تقومان عنّي وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آيةً فيحرفانها، فيقرُّ ذلك في قلبي»[٣].

وقال محمد بن سيرين والحسن البصري: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»[٤].

وقال ابن أبي زمنين: «ولم يزل أهل السنة يعيبون أهل الأهواء المضلة، وينهون عن مجالستهم ويخوفون فتنتهم، ويخبرون بخلاقهم، ولا يرون ذلك غيبةً لهم ولا طعناً عليهم»[٥].

---

(١) نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية ١/ ٢٦٩.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٥١.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٥١.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ١٧٢، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٥٠.

(٥) أصول السنة، ص٢٩٣.

ويقول ابن قدامة المقدسي[١]: «ومن السنة هجران أهل البدع ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم»[٢].

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي _ ولد عام ٥٤١هـ، وتوفي عام ٦٢٠هـ _ الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد، صاحب التصانيف المشهورة، منها المغني والكافي. ينظر: (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٧، وطبقات المفسرين، للأدنروي، ص ١٧٧).

(٢) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، ص ٣٣، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

المبحث الخامس: التفقه في الدين، ومعرفة السنن، والتحلّي بالأخلاق الكريمة والصفات القويمة.

إن من أعظم ما يقي الإنسان من الضلال والانحراف هو تعلّم العلم، والتفقه في الدين، وأخذُ حظٍّ من الميراث النبوي، وشغل النفس بما يزكّيها من العوم الإلهيّة، ولهذا جاء في حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١)، قال شيخ الإسلام: «وكل من أراد الله به خيراً لا بد أن يفقهه في الدين، فمن لم يفقهه في الدين لم يرد الله به خيراً»(٢)، فالحرص على طلب العلم والتفقه في دين الله ﷻ، دليل على خيريّة من حصل منه ذلك، وكلما أخذ الطالب من العلم، كان قدره ومنزلته وعلّو كعبه، ومن أعرض عن الفقه في الدين، فذلك أمارة على عدم خيريّته.

والعلم النبوي مزكّي للنفوس، مهذبٌ للأخلاق، قائدٌ إليها، آخذٌ بيد صاحبه إلى معالي الأمور، يتجافى به عن سفسافها، كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣)، وكلما كان حظُّ المرء منه وفيراً، كان هديه وسمته وأخلاقه.

ولقد تقدّم معنا أن من مثيرات وأسباب المراء في الدين هو الجهل، وإذا كان الجهل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، (٧١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (١٠٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٨٠.

(٣) سورة الجمعة آية (٢).

ضدّه العلم، فإنَّ العلم من أعظم أسباب درء المراء في الدين، فالتفقّه في الدين، ومعرفة السنن والهدي النبوي من أعظم سُبل الوقاية من المراء والخوض والجدال والخصومات في الدين، وهذا ما يشهد له الشرع وواقع الأمم.

أما من جهة الشرع فكما تقدم من حديث أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُتوا الجدل...» الحديث، فإذا كان من لوازم الضلال عن الهدى -والهدى هو العلم- الوقوع في الجدال، فإن المفهوم من ذلك أنَّ العلم إذا فُقد، أو قلَّ النصيب منه، حلَّ مكانه العقول والآراء، وبالتالي يكون الجدال والمراء؛ لأنَّ العقول متفاوتةٌ، والآراء لا تنضبط بحدٍّ، ومن ترك سبيل الهُدى، لم يتهيأ له حالٌ إلا بالجدال والمراء.

وأما من واقع الأمم، فكما قصّه الله ﷻ من حال أهل الكتاب، لمّا نسوا حظّاً ممّا ذُكّروه به، شاعت بينهم الخصومات والجدال في دينهم، حتى تفرّقوا فرقا متناحرة، وذلك من بعد ما جاءتهم البيّنة، كلُّ أمة تلعن أختها، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1]، وذلك أنهم لما ضيّعوا حظّاً مما ذكّروا به من العلم، عُوقِبوا «بالأهواء المختلفة، والجدال في الدين»[2]، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾[3]، فكان اختلافهم

(١) سورة المائدة آية (١٤).

(٢) تفسير البغوي، معالم التنزيل ١/ ٦٥٣.

(٣) سورة آل عمران آية (١٩).

بسبب ما تركوا من العلم، وهذا يدلّنا على أن فقدان العلم ونسيانه أو تركه والتشاغل عنه، سببٌ للخصومة والجدال والمراء، المؤدي إلى العداوة والبغضاء.

ومما تقدّم ندرك أنَّ الاشتغال بالعلم تعلُّماً وتعليماً قصداً للوصول إلى الحقِّ، فيه درءٌ للمراء والخصومات، قال الحسن البصري: «ما رأينا فقيهاً يماري»(١)؛ وذلك أن الفقه يمنع من تعاطي المراء.

وهذا إذا أحسن الطالب للعلم آداب الطلب، وأحسن اختيار من يتعلم منه العلم، فيشغل وقته بطلب العلم النافع؛ ليسلم من فخاخ المراء ومزالقه، وإذا أشكل عليه شيء من مسائل العلم، سأل عالماً من أهله الراسخين فيه، الذين هم محلُّ القدوة، فاستفتاه طالباً الصواب والحق، والوصول إلى معرفة السنة.

قال الآجري: «المؤمن العالم العاقل، يخاف على دينه من الجدل والمراء، فإن قال قائل: فما يصنع في علم قد أشكل عليه؟ قيل له: إذا كان كذلك، وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه، قصد إلى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله، ممن يرتضى علمه وفهمه وعقله، فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة، وأعلمه: أن مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق، وليست مناظرة مغالب، ثم ألزم نفسه الإنصاف له في مناظرته، وذلك أنه واجب عليه أن يحبَّ صواب مناظره، ويكره خطأه، كما يحب ذلك لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ويعلمه أيضا: إن كان مرادك في مناظرتي أن أخطئ الحق، وتكون أنت المصيب، ويكون أنا مرادي أن تخطئ الحق وأكون أنا المصيب، فإن هذا حرام علينا فعله، لأن هذا خلق لا يرضاه الله منا، وواجب علينا أن نتوب من هذا.

فإن قال: فكيف نتناظر؟ قيل له: مناصحة، فإن قال: كيف المناصحة؟ أقول له: لما

(١) أخلاق العلماء، للآجري، ص ٨٥.

كانت مسألة فيما بيننا أقول أنا: إنها حلال، وتقول أنت: إنها حرام، فحكمنا جميعا أن نتكلم فيها كلام من يطلب السلامة، مرادي أن ينكشف لي على لسانك الحق، فأصير إلى قولك، أو ينكشف لك على لساني الحق، فتصير إلى قولي مما يوافق الكتاب والسنة والإجماع، فإن كان هذا مرادنا رجوت أن تحمد عواقب هذه المناظرة، ونوفَّق للصواب، ولا يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب»[(١)].

ثم قال -موضّحاً فيما لو انحرف مسار تلك المناظرة وانعطف إلى المغالبة والمجادلة، ما الذي ينبغي فعله حينئذٍ؟- «ومن صفة هذا العالم العاقل، إذا عارضه في مجلس العلم والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرته؛ للجدل والمراء والمغالبة، لم يسعه مناظرته، لأنه قد علم أنه إنما يريد أن يدفع قوله، وينصر مذهبه، ولو أتاه بكل حجة مثلها، يجب أن يقبلها، لم يقبل ذلك، ونصر قوله، ومن كان هذا مراده لم تؤمن فتنته، ولم تحمد عواقبه»[(٢)].

وهذا الذي بيّنه الآجري من المناظرة؛ لطلب الحق فيما يخفى فيه وجه الصواب، مما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الفروع والاجتهاد، وأما ما ظهر علمه واستبان وجهه، ولا سيما إذا كان يتعلق بمسائل العقيدة، فلا يجوز إلا التسليم والقبول وعدم الخروج عما ورد به النصُّ، وتعدّيه إلى تشقيق الكلام، وكثرة الخصام، فمن مسائل الدين ما لا يجوز الخوض ولا المراء فيها.

ثم إن من سُبُل الوقاية من المراء في الدين، التخلّق بالأخلاق الكريمة، والتحلي بالصفات القويمة، والابتعاد عما يضادُّ ذلك من مساوئ الأخلاق، ومن كان هذا شأنه

(١) أخلاق العلماء، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

وجد من نفسه تجافياً عن المراء والخصومة، ولا يراها إلا في قالبٍ بغيض ينفر منه، وتأمل حال النبي ﷺ لمّا جُبِل على أخلاق عظيمة، قال عنه من كان يشاركه في التجارة قبل البعثة: «كنت شريكي فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري».

فمن كمال الأخلاق عدم المراء، وذلك لما يكتنفه من طغيان اللسان، بإظهار فضل المُماري وعلمه، وهذا من قبيل تزكية النفس، ولا يخفى ما في ذلك من العلّو والكبرياء وغمط الناس واحتقارهم، وبإظهارِ نقص المُمارى وإذاءه بالقدح فيه، «ولا تنفك المماراة من الإيذاء والغضب، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حقٍّ أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له، فيثور الشجار بين المتماريين، كما يثور الهراش بين الكلبين، يقصد كل واحد منهما أن يعضَّ صاحبه بما هو أعلم نكاية، وأقوى في إفحامه وإلجامه»[1]، وكل هذه المفاسد تتلاشى مع الأخلاق الكريمة، وعلاج ذلك يكون بالتحلّي بأخلاق الإسلام، و«أن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسّبُعيّة الباعثة له على تنقيص غيره»[2].

فالأخلاق الكريمة تمنع صحابها من سفاسف الأمور ومحقّراتها، ومن ذلك الجدال والمراء والخصومة والملاحاة، هذا من حيث العموم، فكيف إذا كان ذلك في مسائل عظيمة من الدين وأصول الإيمان؟ أليست أولى بالاجتناب؟ أليس التحلّي بالأخلاق الكريمة هو المتعيّن بهذا الصدد؟ درءً للخصومة فيها.

وإذا استنارت النفس بالعلم وارتاضت به واطمأنت إليه، وتهذّبت بالأخلاق الكريمة والصفات القويمة، لم يعد هناك مكاناً لِما يثير الجدال والمراء والخصومة، من

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٦١.

مساوئ الأخلاق، كالكبر الذي من فروعه ردُّ الحق تعسّفاً،واحتقار الغير، وهذه الأمور من مهيجات المراء، وكذلك العُجب وحبّ الرياسة والرغبات النفسية والحظوظ الشخصية، والتعالي على العلماء وطلاب العلم، فهذه الأمور وغيرها، إذا تمكّنت من المرء حملته على المماراة والجدال واللَّدد في الخصومة، والواجب هو الحذر من ذلك كله، والتحذير منه، وكما أنَّ الواجب أيضاً «على كل من يتكلم في أمر من أمور الدين، أن يكون مخلصاً لله متجرداً للحق، وغالباً على نفسه بالمجاهدة عن اتباع الهوى وما تميل إليه من حظوظها الدنيوية، كحبِّ الثناء والظهور وكثرة الأتباع، أو ما هو أسوأ من هذا كله، وهو الحصول على شيء من حطام الدنيا.

ومن نظر في كثير من الخلافات بين الجماعات والأفراد ، سواء كان ذلك في مسائل العلم أو في مجال التوجيه والعمل، وجد ظاهرها في طلب العدل والإنصاف، أو الصواب وترك الانحراف، وحقيقتها حبُّ عبادة النفس واتباع الهوى، أو أغراض سيئة دنيئة -وقد علم أن الهوى يعمي ويصم، ويضل عن سبيل الله- وقد ترجع إلى أمور شخصية، أو تطلعات معينة دنيئة، وإن غُلّفت بالغيرة على الدين، وإرادة إظهار الحق، والواقع خلاف ذلك»[1].

(١) الهوى وأثره في الخلاف، ص ٢٠.

المبحث السادس: عدم الخوض في مسائل الاعتقاد، والوقوف على ما ورد في الشرع.

علمنا مما تقدم أن المنطق اليوناني وعلوم الأوائل، لما دخلت في أهل الإسلام إبّان حركة الترجمة الكبرى، التي قادها الخليفة العباسي المأمون، كان من أثرها: المراء والجدال في مسائل عقدية، ما كان الناس يخوضون فيها، ولم يثيروا منها ما يدعو إلى الجدال والخصومة، التي فرّقتهم وأدّت إلى الاختلاف، بل كانوا من حيث الجملة على العهد الأوّل من صدر الإسلام، من جهة التسليم للنصوص واحترامها، وعدم التقدّم عليها بأقوالٍ أو أراءٍ، فلمّا دخلت عليهم تلك العلوم المنطقية اتسع الخرق على الراقع، وانتشرت الخصومة والمراء، وحلّت العداوة والبغضاء، وخاض في دينه من فُتن، وضربت الضلالة عندهم بعطن.

ولمّا اشتدَّ الجدال والمراء في المسائل العقدية، والتي كان من دوافع ذلك: ظهور البدع والافتراق، والتأثر بالمذاهب والأفكار المنحرفة، وإدخال المنطق اليوناني على العلوم الإسلامية، كان من سبل الوقاية من مغبّة المراء في الدين، عدم الخوض في المسائل العقدية، مما يتعلّق بأصول الدين ومسائل الإيمان، ومجانبة تشقيق الكلام وتوسيعه فيما ليس فيه دليل، والحذر من التنطّع بالسؤال عما نهي عنه شرعاً، والفرار من التقعّر في طلب علمٍ قد حُجب عنّا علمه، ولم نكلّف بحثه وتطلّبه من الغيبيات ونحوها، ومعرفةِ كيفية ما استأثر الله ﷻ بعلمه، ونحو ذلك من الأمور والمسائل التي يجب فيها على المسلم، المتابعة والتسليم والقبول الإذعان، دون الخوض والمراء والجدال والطغيان باللسان في مزالق تسوء عواقبها، حيث إنَّ مسائل العقيدة، ظاهرةٌ غاية الظهور، بأدلتها

وبراهينها، فليس ثَمَّ إلا القبول والانقياد والتسليم .

ولهذا نجد أنَّ من سمات أهل البدع والأهواء، الجدل في العقائد والخوض فيها وكثرة المراء من غير طائل، بل من سماتهم الظاهرة: شدّة اللّدد في الخصومة، والتفنن في أساليب المراء، ومعرفة طرق الجدال والمغالبة والانتصار على الخصم وإفحامه، ولو بالجدل السفسطائي.

فلمّا خاض أهل الأهواء والبدع وجادلوا وأوسعوا الخلاف في هذا الباب انفتح عليهم بابٌ من الضلال لا يستطيعون غلقه، وخرجوا بسبب المراء، إلى أمور شنيعة مما ترتّب على طريقتهم، وتكلّموا بأقوالٍ تقشعرُّ لها الجلود، وتضطرب منها القلوب، شناعةً وضلالاً، وهذا كلُّه عند التأمل بسبب ما فتحوا على أنفسهم من الجدال والمراء والخوض في مسائل العقيدة، ولم يسلكوا في ذلك مسلك السلف الصالح من الوقوف على نصوص الشرع، وعدم الخوض والجدال فيما نُهينا عن الجدال والخوض فيه، ولم يسع أولئك الممارين من السكوت، ما وسع أفضل القرون من هذه الأمة.

وما أحسن هذه المناظرة التي ساقها الآجري بين أحد أهل السنة والجماعة، مع الخليفة العباسي الواثق، حيث استدعى الخليفة ذلك العالم، فلما وقف بين يديه قال الخليفة لوزيره أحمد ابن أبي دؤاد: «سله، فقال الشيخ: المسألة لي، فأمره أن يجيبني، فتوضأ، فقال: سل، فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد يسأله، فقال: خبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدهما؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه بعدهم؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعدهم؟ قال: لا، قال الشيخ: فشيء لم يدعو إليه رسول الله ﷺ، ولا أبو

بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ﷺ، تدعو أنت إليه الناس؟ ليس يخلو أن تقول: علموه، أو جهلوه، فإن قلت: علموه وسكتوا عنه، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم، فإن قلت: جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع[١] بن لكع، يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون ﷺ شيئاً، وتعلمه أنت وأصحابك؟

فخرج الواثق وهو يقول: صدق ، ليس يخلو من أن نقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت: علموه وسكتوا عنه وسعنا من السكوت ما وسع القوم، وإن قلنا جهلوه وعلمته أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبي ﷺ وأصحابه ﷺ شيئاً، تعلمه أنت وأصحابك؟»[٢].

من خلال هذه القصّة ندرك أنَّ السكوت عن المراء والخوض في مسائل العقيدة، سببٌ لقفل باب الخصومات والمراء، بل إنَّ من طرق إفحام أهل الأهواء وإسكاتهم عن مرائهم فيما خاضوا فيه، أن نردَّ عليهم من هذا الباب، هل تكلّم النبي ﷺ وأصحابه فيه أم لا؟ فإن كان تكلّم فحسبنا ما قال، وإن لم يتكلّم، فيسعنا ما وسع النبي ﷺ.

ولهذا قال الآجري -في بيان ما عليه أهل السنة والجماعة-: «ولا نناظر، ولا نجادل ولا نخاصم، وإذا لقي صاحب بدعة في طريق أخذ في غيره، وإن حضر مجلساً هو فيه قام عنه، هكذا أدّبنا من مضى من سلفنا»[٣].

ومسائل الاعتقاد من أعظم المسائل بياناً وإيضاحاً في الكتاب والسنة، وقد أمرنا الله ﷻ بالإيمان بما تحار فيه العقول، وأوجب متابعة الرسول ﷺ فيما جاء به من الغيبيات، التي يؤمن بها المؤمن على وجه الغيب.

(١) اللكع: هو اللؤم. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص ٩٢٥.

(٢) الشريعة، للآجري، ص ٦٦.

(٣) الشريعة، ص ٦٧.

إذا علم المرء واجبه تجاه تلك المسائل العقديّة، لم يسعه إلا أن يقول كما قال أهل العلم والإيمان قبله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(١)، أما إذا أخطأ هذا الطريق، ودخلت حروف الاستفهام -لمَ وكيف ونحوها- على المسائل الغيبيّة، وما لا تستطيع العقول احتمال كنهه وحقيقته، فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، واستعاض عن الإيمان والهدى بالجدال والمراء والخصومات، ووقع في متاهات من الطريق، تكتنفه الحيرة والاضطراب، حتى تزلَّ به قدم التيه في حمئة الزندقة، والمروق من الدين، وحينئذ يحاول الخلاص، ولات تحين مناص، وسبب ذلك هو المراء فيما يجب فيه السكوت من المسائل العقديّة، والسلامة كل السلامة في السير خلاف النصوص الشرعية والوقوف معها حيث وقفت، فإنَّ السلف الصالح كانوا على هذا الهدي المستقيم، ولما سأل سائل عليَّ بن أبي طالب ﷺ عن القدر قال: «طريق مظلم فلا تسلكه، قال: أخبرني عن القدر؟ قال: بحر عميق فلا تلجه، قال: أخبرني عن القدر؟ قال: سرُّ الله فلا تكلفه»(٢).

وما زال السلف يوصي بعضهم بعضاً بهذا الصراط المستقيم والطريق المنهج، وما أحسن وصية عمر بن عبد العزيز حيث قال لمن سأله عن القدر: «أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها، ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها، من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى،

(١) سورة آل عمران آية (٧).

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ١٨٨.

وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم، ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مَقْصرٍ، وما فوقهم من محسر، وقد قصّر قومٌ دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[١].

وأهل الأهواء والبدع لمّا أخطؤوا هذا الطريق، ولم يقنعوا بنصوص الكتاب والسنة، حتى لجّوا بعقولهم فيما تحار فيه، ممّا أُمرنا أن نؤمن به غيباً ولم نُكلَّف بحثه، وتكلّموا فيما سكت عنه أعلم الناس بالله ﷻ، النبيﷺ، فلمّا تركوا ذلك الطريق المهيع، وركنوا إلى جدالهم ومرائهم وخوضهم لم يجدوا إلا الضلال.

والعجيب أنهم خاضوا فيما أُمروا بالسكوت عنه وقبوله بلا جدال ومماراة، وسكتوا وأجملوا عما جاء في الشرع بيانه وتفصيله، فلم يقفوا حيث وقف الشرع، ولم يسيروا حيث سار الشرع.

وهذا مثلٌ يبيّن حالهم: من ذلك ما انتهجوه من منهج ضلال فيما يتعلق بالإيمان بالله ﷻ وصفاته، حيث «يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان، يمتنع تحققه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي الذات»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب السنة، باب من دعا إلى السنة، (٤٦١٢).

(٢) التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٥، تحقيق د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.

ومن خلال ما تقدم فإن من وسائل وسبل الوقاية من المراء في الدين، ترك الخوض والجدال والمراء في المسائل العقدية، والقناعة والرضا بما جاء في النصوص، ففيها الكفاية والغنية عما سواها، وليس في غيرها غنىً عنها.

المبحث السابع: مراعاة مقاصد الشريعة في اجتماع الأمة.

من مقاصد الشريعة الإسلامية: اتفاق كلمة المسلمين ووحدتهم واجتماع شملهم على كلمة سواء، بل إنَّ الله ﷻ أظهر فضله على خير القرون بتأليف قلوبهم، واجتماع نفوسهم على رابطة الدين والعقيدة، حيث قال الله ﷻ في بيان المنّة بذلك: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٣)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾(٤)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وجاء في السنة النبوية أحاديث متوافرة بهذا المعنى، ومنها: حديث أبى موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(٥)، وفي حديث أبى هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٣).

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٣) سورة الحُجُرات آية (١٠).

(٤) سورة التوبة آية (٧١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، (٢٤٤٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (٢٥٨٥).

امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[١].

وهذه النصوص وغيرها مما هو في معناها، يدلُّ على هذا المقصد العظيم، ،هو ألفة المسلمين فيما بينهم، وولاية بعضهم بعضاً.

ومن أجل ذلك، نجد من فروع الشريعة الإسلامية، أحكاماً متعدّدةً ومتنوّعةً، تحقّق ذلك المقصد من حيث هي وسائل إليه، من إفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإبرار المُقسِم، وإطعام الطعام، ولين الكلام، وصلة الأرحام، وإكرام الجار والضيف، والقيام على الأرملة والمسكين، وإغاثة الملهوف، وما جاء من فضل عون المسلم أخاه، وتنحية ما في الطرقات مما يؤذي غيره، فإن لم يستطع أن يفعل خيراً، فلا أقلَّ من أن يكفَّ شرّه عن الناس، ونحو ذلك مما يدخل في هذا المعنى.

وهذه الأحكام وغيرها، ليس هذا مقام بسطها والكلام عليها، وإنما المقصود البيان والتدّليل على ذلك المقصد العظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو التفاف جمع المسلمين، وتأليف قلوبهم على بعض، والمولاة فيما بينهم.

وإذا تقرّر ذلك، فإن الشريعة أيضا جاءت بمنع كلِّ ما يعود على ذلك المقصد بالإبطال، فجاء تحريم الخِطبة على خطبة المسلم، والبيع على بيعه، وكذلك السوم على سوم أخيه، وجاء تحريم الغيبة والنميمة، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، والظنّ السيء بالمسلم الظاهر العدالة، وجاء تحريم التحسّس والتجسس والتحاسد والتدابر والتقاطع، وتحريم هجر المسلم أخاه فوق ثلاث ليال، والمخاصمة والمجادلة والمماراة، ونحو ذلك مما يدخل في معنى ما تقدّم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، (٢٥٦٤).

وإذا ظهر لنا ذلك المقصد، من خلال مشروعية الأحكام الشرعية، التي جاءت لتحصيله وتكميله، وما جاء من النهي عما هو سببٌ في إبطاله أو تقليله، تبيّن لنا شأنه ومنزلته من الشرع، الأمر الذي ندرك من خلاله محافظة الشرع وحياطته لذلك.

وإذا تقرّر ما تقدم، فإن المسلم مأمورٌ بكل وسيلة مشروعة، تفضي إلى اجتماع الكلمة، واستدامة الألفة بين المسلمين.

والذي يهمّنا بهذا الصدد، هو مراعاة هذا المقصد من مقاصد الشريعة، في حال المجادلة والمناظرة وتقليب الكلام؛ لاستظهار وجه الصواب منه، وإذا ما وقع هذا بين المتناظِريْن، فلابد من مراعاة الآداب الشرعية، والمجادلة بالتي هي أحسن، وتوخّي طرق الحوار النافعة، والفهم لفقه الخلاف، فليس عدم الموافقة للآراء، مدعاةً للجدال والخصومة والمراء، إذا قد ينشأ الخصام والجدال من هذه الحيثية، ثم ما يلبث أن يكون خلافاً يستطير من شره، الملاحاة والمماحلة؛ ليخرج الجدال عن مساره الصحيح، حتى يدخل في دهاليز الجدال المذموم، والمراء المشؤوم، وهذا فيما إذا كان للجدال المحمود محلٌّ في المسألة، وأما القضايا والمسائل التي لا يجوز فيها الجدال المذموم، فليس إلا الاتباع والتسليم، فمن المسائل ما هو محلُّ اجتهاد ونظر، وهو غالب المسائل الفقهية الفرعية الاجتهادية، ومنها ما ليس كذلك، وهي مجمل مسائل الاعتقادية، وثَمَّ مسائل في العقيدة، جرى فيها بين أهل السنة والجماعة، شيء من اختلاف الاجتهاد، ولكن بحثها والنظر في الأدلة ومناقشة الأقوال، لا يخرج عن حدود المأذون فيه، من المحاورة والمجادلة الحسنة، بالآداب الشرعية، والطرق المرعية، ولا يصل إلى حدِّ المراء والمخاصمة، كما هو حال أهل البدع والأهواء.

وطرق الشيطان ومكايده خفيّة؛ لإيقاع التحريش بين المسلمين من خلال بوابة

المراء، التي مبدؤها الحوار والمناظرة.

فاستحضار هذا المقصد -اجتماع الأمة- حال المناقشة والمحاورة، واختلاف الآراء، ووجهات النظر، والمراجعة في الكلام، يقي -بإذن الله تعالى- من الانزلاق في مهابط المراء والمخاصمة، والتي نتائجها تعارض مقاصد الشريعة في حفظ الأمة من الاختلاف والتفرّق.

ثم إذا نظرنا إلى لفظة "المراء" بجميع ما تحمل من معاني –وجميع ما ورد من معانيها ممّا يذمُّ شرعاً- ندرك المباينة الشاسعة، بينها وبين ما أراده الشارع من أهل الإسلام، من لمِّ الشمل، واتفاق الكلمة، ووحدة الصف، وصفاء القلوب، وندرك أيضاً سوء مغبّة المراء والخصومة والملاحاة والمجادلة بين المسلمين، وأنَّ ذلك سببٌ لتهييج العداوات وقيام سوق الخصومات، ومن هنا ندرك سبب النهي عن المراء، ولو كان صحابه محقّاً، كما جاء في حديث أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّاً»، فكيف إذا لم يكن محقّاً، بل مجادلاً مخاصماً؟

وهذا النهي عن المراء بجميع أشكاله وصوره، يبيّن لنا تشوّف الشارع إلى اجتماع كلمة المسلمين، والحرص على سلامة صدورهم لبعض؛ وذلك لما في المراء من استدرار غضب المتماريين، وإيغار كلٌّ منهما صدر الأخر، وما يتفرّع عن ذلك من التنافر والمخاصمة وإيقاع العداوة والبغضاء، وتمكن الضغائن من القلوب؛ لأنَّ «المراء أخو الشنآن، كما أن المناقشة أخت العداوة، والمراء قليل نفعه، كثير شره، ومنه يكون السباب، ومن السباب يكون القتال، ومن القتال يكون هراقة الدم، وما مارى أحد أحداً إلا وقد غيَّر المراء قلبيهما»[١].

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص ٧٩.

وهذه الآثار الناتجة من المراء هي من حيث العموم، فكيف إذا كان ذلك المراء يتعلّق بمسائل عظيمة من أصول الدين والإيمان، وما لا يجوز الخوض فيه، أليس البلاء به أعظم؟ كما يشهد لذلك واقع طوائف أهل القبلة.

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الحق والبرِّ والمعروف، وأن يؤلف بين قلوبهم، ويصلح ذات بينهم، وأن يعيذهم من نزغات الشيطان الرجيم، ويهديهم سبل السلام، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

الخـــــاتمـــــــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنال المواهب والمكرمات، فقد تم إنجاز هذا البحث وإتمامه، بتوفيق الله تعالى وعونه، ولا أدّعي أني أصبت فيه الكمال، وحسبي أني بذلت في ذلك وسعي وجهدي، فما كان من صواب وسداد، فمن الله تعالى وتوفيقه، وله الفضل والحمد، وما كان من قصور وخطأ، فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه.

وإلى هنا نأتي إلى ختام البحث، وقد حاولت جاهداً، الإلمام بالموضوع، واستيفاء البحث حقه، والذي حرصت فيه على التركيز والإيجاز -قدر المستطاع- بين الإيجاز المخلِّ، والإطناب المملِّ، وقد توصلت إلى نتائج مهمة، منها ما يلي:

أوَّلاً: أن المراء في الدين معناه: الخصومة في الدين، والجدال المذموم، لأهل الحقّ، بالاعتراض عليهم، بإلقاء الشبهات، طلباً لمجاراتهم للخوض فيما أُمرنا بالوقوف عنده، وعدم تشقيق الكلام فيه، والطغيان به عن الحدِّ الشرعيّ.

وعلى هذا لا يكون المراء إلا مذموماً، وهو قسيم الجدال المذموم، وليس منه شيء محمود، وأن المراء الوارد في الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾[1]، معناه: المراء الذاهب بحجّة الخصم، المزيل لشبهته، المظهر للحقّ وهذا المراء المذكور في الآية،

(١) سورة الكهف آية (٢٢).

هو الذي يكون بالحجّة الظاهرة، برفق وسهولة، وسماحة في الأخلاق، من غير تعمّقٍ ولا تمحّل، ويكون في حدود ما أوحى الله ﷻ، مع التلطّف بالخصم ومداراته بالمجادلة بالتي هي أحسن من غير عنف، ليسهل عليه قبول الحقِّ، وعلى هذا فالمراء الذي أُمر به النبيُّ محمدٌ ﷺ في هذه الآية الكريمة، هو الجدال بالحجّة والدليل، فهو من باب الجدال المحمود المأمور به.

ثانياً: أن مفهوم المراء في الدين، له مرادفات ومفاهيم تشترك معه من بعض الوجوه، وتلتقي معه في سبيلٍ غايتُها واحدة، وبين تلك المفاهيم رحم ماسّة، ونتعرّف أيضاً على أن مفهوم الحوار ليس من هذا الباب، وأن ما عداه من تلك المفاهيم فيها لون من ألوان المراء، وبيان ذلك على هذا النحو:

أ- الجدال، الذي هو بمعنى الجدال المذموم وهو القسم الثاني من أنواعه، بمعنى المراء.

ب- المحاجة، واستعمالها الغالب، فيما هو من معنى المخاصمة بالباطل، على نحو ما يكون في المراء والجدال المذموم.

ت- الخوض، أكثر ما ورد في القرآن الكريم منه، ذمُّ الشروع فيه، واشتهر إطلاقه على الجدل المذموم، لما فيه من الاندفاع في الباطل والكذب، فهو من هذا الوجه لون من ألوان المراء.

ث- الخصام، والغالب على إطلاقه ما هو من معنى المراء، فهو من ذوي رحمه وقرابته.

ج- المناظرة، منها ما يكون من قبيل المراء، وقد فُسّر المراء بها، ولكن إطلاق

المناظرة على المراء قليل، حيث إن الأصل فيها، خلاف ما يكون في المراء من اللّدد والخصومة.

ثالثاً: أنَّ المراء في الدين، له جذوره وامتداده في أصحاب الديانات والملل والأمم السابقة، وقد اتخذوه ذريعةً لتكذيب رسلهم، وجادلوهم بالباطل ليدحضوا به الحق، وسلكوا في ذلك مسالك شتَّى، وكلُّ أمّةٍ لها حظٌّ من هذا المراء والمجادلة والمخصامة، حتى أفضى بها الحال، إلى أن أهلكهم الله تعالى وحلَّ بهم بأسه.

فالأمم السابقة لها قصب السبق في هذا المضمار البغيض، إلى أنْ ورثه منهم من أتى بعدَهم ممن اقتفى أثرهم وسار على سبيلهم المُهلكة، حتى انتقل هذا الداء إلى هذه الأمة – أمة محمد ﷺ–.

رابعاً: أن المراء في الدين من أعظم الوسائل التي استخدمها المبطلون لردِّ الحق، والتشغيب على المحقِّ، من قديم الزمان وحديثه، حيث أفلسوا من الحجة والبرهان، فلجّوا بالمغالطة باللسان.

خامساً: أن من أعظم أسباب الضلال والفُرقة والاختلاف والاعوجاج عن مهيع الشريعة: المراء في الدين، الأمر الذي أدّى إلى اختلاف أهل القبلة في أبواب الاعتقاد، حتى كانوا في ذلك طرائق قدداً.

سادساً: أن المراء في الدين، والخصومة بين المسلمين في العقائد، من أخطر الأمور،

وأعظمها أثراً، وأسوءها عاقبة، سلكه المغرضون للتنفيس عن مكنون حقدهم على الإسلام وأهله.

ولذا كان التحذير منه في القرآن الكريم والسنة النبوية، ظاهراً جلياً لا خفاء فيه، ومع هذا كلِّه فقد اتخذه من ينتسب لطوائف أهل القبلة وسيلةً سهلةَ التناول، لترويج ما استقرَّ في أهوائهم، وما أُشربوه من الضلال الذي أعماهم، حتى كان من أبرز علامات أهل البدع والأهواء: الخصومة والجدال والمراء، وبهذه العلامة يعرفون، وعن غيرهم يتميزون.

سابعاً: أن من قواعد أهل السنة والجماعة ومن أصول اعتقادهم: ترك المراء والخصومات في الدين، ونبذ ما أحدثه المحدثون من الأقوال المبتدعة، والطرائق المخترعة، التي ليس لها دليل من كتاب أو سنة متبعة، ولذا كان للسلف جهود عظيمة، من أقوال مسدّدة، ومواقف موفّقة، لتحذير الأمة من الوقوع في المراء في الدين.

ثامناً: أن المراء في الدين في العصر الحديث، قد اتخذ منحىً صعباً، وتطورا خطيراً، اتسعت معه وسائله وأدواته، ولا سيما مع ما تزمن من ظهور وسائل الاتصال والإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، والشبكات العنكبوتية العالمية، التي أتاحت بدورها سهولة الخوض والمراء في الدين، حتى أصبحت مسائل الدين العظيمة غرضاً، لعبث سهام الممارين وخوضهم وجدالهم، باسم الحرية في التعبير، واحترام الرأي الأخر، وأصبحت الجرأة على أصول الشريعة ظاهرة، والانتقاد لها متاحاً تحت مسمّى الحرية الفكرية، والقبول بالتعددية المذهبية أو الطائفية.

وقد وجد أفراخ المبتدعة، متنفساً لهم بتلك المنافذ الحوارية لترويج باطلهم، حتى اتسع جدالهم، وعظم في الدين مراؤهم، وأصبحوا فتنةً لكل مفتون، وهذا من غربة الإسلام كما بدأ.

تاسعاً: المراء في الدين، له أنواع وأصناف.

عاشراً: المراء في الدين، له أسبابه ومثيراته، التي ساعدت على ظهور وانتشاره، الأمر الذي يحتمُّ معرفتها، لتوخي الحذر منها،

حادي عشر: أن المراء في الدين له أثارٌ وخيمة، وعواقب عظيمة، على الفرد والمجتمع، فإذا عُرفت أثاره ومسبباته، ساعد ذلك على تبيّن خطره وضرره، ليسهل الحذر والتحذير منه.

ثاني عشر: للوقاية من المراء في الدين وسائل، معرفتها والعلم والعمل بها، تقي -بإذن الله تعالى- من المراء في الدين.

والحمد لله أولاً وأخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.